كريستينا ...
الحب المحرم !

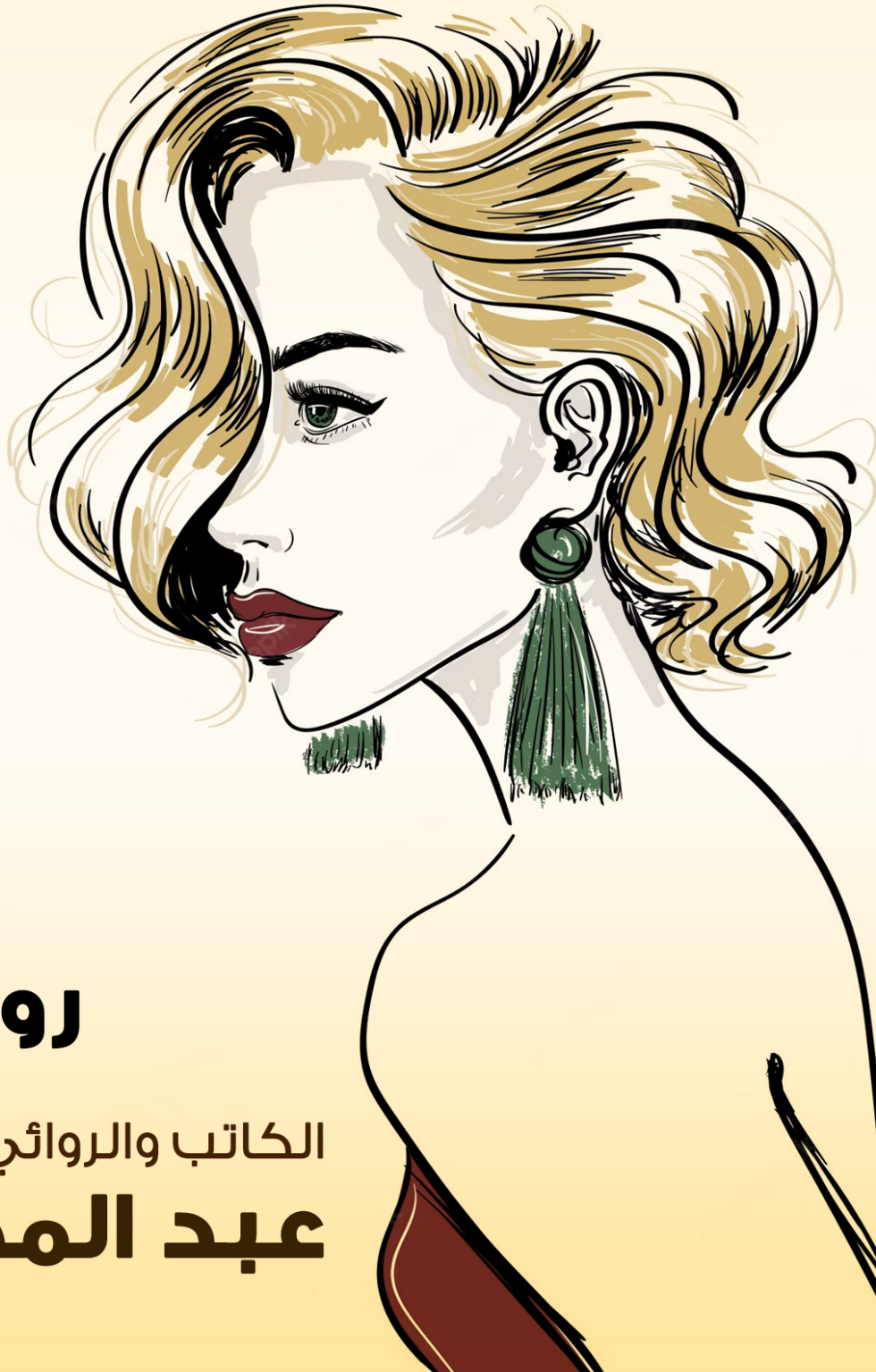

رواية

الكاتب والروائي:
عبد المجيد الدبّاس

كريستينا ... الحب المحرّم !

رواية

عبد المجيد عبد الله الدبّاس

الإهداء

إلى بنات وطني العربي الكبير، المهمشات المسحوقات، الحائرات المحيرات ، اللواتي يعشن ويمتن ولم يسمعن كلمة حب حنان حانية ، ولم تلامس شفاههن قبلة عواطف دافئة !!

الأول الفصل

ـ هل لكِ يا آنسة ، أن تتكرمي عليّ ، وتساعديني بالعثور على كتاب لا أعرف حتى كيف ولا أين أبحث عنه ؟! سألت همساً وبكل الرقة والأدب ، الفتاة ذات الشعر الأسود المتموج ، والذي ينساب فوق رأسها كأنه بحر مهيب هادئ ، الجالسة خلف آلة الحاسوب في مكتبة الجامعة ، تقلّب بعض البطاقات التي لا شك بأنها أسماء وعناوين لبعض الكتب المتواجدة في المكتبة !!

رفعت الحسناء عينيها عن البطاقات ونظرت إلى أعلى ... إلى وجهي ... فتقابلت عيوننا ... فابتسمتْ ! أما أنا فارتعبت ، ونقز قلبي وارتبكت ، وتجمّد لساني بفمي وتراجعت بصدري ، لا شعوريا ، إلى الوراء ! لقد كان في عينيها سحر مذهل !

لا شك أن الماكرة قد أدركت جفلتي وعرفت السبب، فالأنثى تعرف بغريزتها الموروثة سحرها على الرج، وخصوصاً إذا كان هذا الرجل مثلي، ذا إحساس مرهف وعواطف متوقدة ، ومن الذين يهزهم الجمال من أعمق اعماقهم، المولعين به والذين يطربون ويرقصون طرباً وحبوراً لرؤيته !! سبحان خالق الأكوان ومبدع الأنسان ... !

لقد لاحظت أن الفتاة لم تكن بارعة الجمال فقط، وإنما كانت قطعة ملتهبة ثائرة من الإغراء والنداء الجنسي ... ذلك النوع المغناج ... العارم العاطفة ... المتفجرة الأنوثة !! ذلك النوع من الجمال الذي ، وأنت تتأمله يجعلك تشعر بسعادة الهية تجعل كل ذرة في كيانك ترقص طربا وحبوراً ، وتسبح الخالق لهديته المتميزة !

أعادت عينيها إلى البطاقات التي أمامها ، وتظاهرت بتقليبها ؛ إذ لا شك أنها أدركت بغريزتها المتوقدة ما أصابني ، ولا شك أيضاً بأنها فعلتْ ذلك لتعطيني الفرصة لأجمّع فلول نفسي المتناثرة وعقلي الشارد !

بعد لحظات رفعت إليّ عينيها ثانية، وعلائم الجد تغطي وجهها، وسألتني إن كانت تستطيع مساعدتي !

ـ صدّقيني ، واقسم لك ،انني قد نسيت ما أريد ! قلت لها صادقاً وبطريقة عفوية ! لقد تصورت نفسي ملقى في أحضانها ، غارقاً في حبها وحنانها !

ـ إذن ، أنتظرك حتى تتذكر، وآمل أن لا يطول انتظاري ! قالت بدلع مغناج يرافقه بعض الحزم ، ثم عادت إلى بطاقاتها تقلبها من جديد !

ـ أنا إنسان خفيف القلب ذو إحساس مرهف وعواطف متقدة ، ومن الذين يهزهم الجمال المتميز !

ضحكت بجذل ورقة مغريتين، فشجعتني ضحكتها وحبورها ، فقلت لا شعورياً وكالمسحور المنوّم !

ـ أنا ضعيف أمام العيون الغزلانية والأنوثة الفائرة ، وانتِ تملكين محيطات منها ! قلت بورع مبالغ به وكأنما أتعبد !

ـ أنك مغازل ماهر؛ ولكن برفعة وكبرياء ! قالت وقد بدأ نهداها يتطوحان ويتراقصان تحت فستانها الرقيق الشفاف، وعيناها تدمعان لشدة ضحكها !

ـ لو تعلمين ما فعلت عذوبتك ونعومتك وكذلك رقتك بعقلي وقلبي لعذرتني ! قلت وانا أتأمل مشدوها ومأخوذاً قسمات وجهها !

ـ قل لي ماذا فعلت ؟!سألت بخبث انثوي والابتسامة لم تفارق شفتيها !

ـ لقد اشعلت الحرائق بدمي ، وشتت تفكيري ! قلت وانا انظر اليها بوله ،ونفضت يدي اليمنى بالهواء عدة مرات علامة شدة الحريق !

ـ ابتسمت وقد احمرت وجنتاها ،وقد ظهرا لي وكأنهما تفاحتان شديدتي الاحمرار في اوج نضجهما ، والقت بعينيها الى الارض خجلا ، فشجعني صمتها وحياءها فأضفت بتواضع وادب مبالغ بهما !

ـ انتِ رسمة زيتية نادرة رسمها فنان ملهم ! أنتِ قطعة فنية ابدع الخالق ، سبحانه وتعالى ، في خلقها ! قلت بحماس وانا أتأمل وجهها!

ـ ارجوك !لا تقل اكثر! لقد سحرتني بل نومتني تنويما مغناطسيا بكلامك الجميل العذب !لقد بدأت اخاف على نفسي منك ! أنت تجعل الواحدة منا تتخلى عن قلاعها وحصونها دون ان تعي أنها فعلت ! لقد كانت تتكلم كالسكرى وكأنما هي منومةّ حقا !

ـ انا اصف فقط ما ترى عيناي وما تشعر بها أحاسيسي ! صدقيني ! قلت وانا ما زلت أتأمل وجهها وكل جسمها ، بتمهل وتعبد !

ـ إنك رجل خطر على النساء ، خطر جداً ؛ ولكنه خطر محبب ! قالت وهي ما زالت تكركر !

ـ شهادة أعتز بها وأفخر! قلت وقد تذكرت اسم الكتاب فجأة !

ـ صدقيني ! أنه الآن فقط عاد اسم الكتاب وظهر على شاشة تلفاز عقلي !

حتى كلماتك منتقاة ورفيعة !

ـ شهادة ثانية أعلقها إلى جانب موضع القلب مني ! قلت وقد أحسست بسعادة جارفة وعبق أنثوي مخدر ... !

ـ ما اسمه ؟! سألت ؛ ولأول مرة أدركت أن للفتاة صوتاً موسيقياً حنوناً، إذ أحسست وهي تتكلم وكأنما أسمع لحناً موسيقياً لعبد الوهاب أو لرياض السنباطي أو حتى لفيروز !

ـ ولكنني لا أعرف إسمه بالإنجليزية ! قلت وقد أحسست فجأة بالخجل منها ومن نفسي معاً ، ثم أضفت :

ـ إنه كتاب قديم إسمه بالعربي "كليلة ودمنة " ؛ وهو عبارة عن محاورة بين فيلسوف إسمه بيدبا وملك اسمه دبشليم ، يوضّح بها الفيلسوف حكماً كثيرة للملك ، ولكن على لسان الطيور والحيوانات !

لم تقل الحسناء شيئاً وإنما هزّت رأسها بضع مرات، وكأنما تقول لي لقد فهمت، وضربت بعض الأرقام على آلة الحاسوب التي أمامها، ثم انتظرت قليلاً حتى ظهرت كتابة على الشاشة نقلتها على ورقة صغيرة أمامها.

ـ هذا هو اسم الكتاب ورقمه ! قالت وهي تناولني الورقة وعيناها تتأملان وجهي ، والأبتسامة لم تفارق شفتيها !

ـ شكراً جزيلاً ! أنا عاجز عن الشكر! في الواقع لا يوجد كلمات تعبّر عن شكري وامتناني لكِ ! حقاً أنكِ فتاة ذكية جدا ! لو كانت فتاة غيرك لاحتاجت إلى وقت طويل... طويل جداً، لتعثر عليه ، هذا أن عثرت ! قلت صادقاً وبحماس !

لا شك أن زمام لساني قد فلت مني، فقد كنت أتكلم بطريقة تخبطيّة لأطيل فترة بقائي معها؛ وأن كنت قد تمنيت في أعماقي لو أنها لم تجد الكتاب بهذه السرعة !

ـ والآن ، بخاطرك ! أنا أعرف أن الكتاب على إحدى الرفوف باحدى الطوابق الخمسة ، في مخزن الكتب مع عشرة ملايين كتاب أخرى ، ولكنني لا أعرف كيف أستدل عليهّ ! على كل حال ... سأطلب من إحدى الموظفات أن تدلني على مكانه ! قلت بانكسار وخجل ممزوجين بخيبة الأمل.

حقاً ! لقد كانت مكتبة الجامعة في ذلك الوقت بها عشرة ملايين كتاب ، وكان الذين يكتبون ابحاثاً تتطلب مراجع نادرة الو جود يأتون اليها ، من جميع أنحاء جنوب كاليفورنيا !

ـ سأصعد معك وأريك مكانه ! قالت وقد نهضت واقفة ؛ فلاحظت طول قوامها ورقة جسمها !

ـ هذا لطف وكرم أخلاق منكِ ! إنه جميل لن أنساه لكِ ما دمت حياً ! قلت وقد بدأت استردّ بعضاً من شجاعتي ويغادرني شيئاً من اضطرابي ! ثم وكأنما تذكرت .

ـ ولكنني لا أحب أن أتعبكِ !

ـ لا بأس ! هذا جزء من واجبي ! كما أنه يسعدني أن أساعد الأولاد الأشقياء ! قالت وغمزت بعينها اليسرى .

تناولتْ الورقة من يدي وسارت باتجاه المصعد الكهربائي وسرت خلفها !

ـ إنني أتردد كثيراً على المكتبة هنا ولكنني لم أركِ قبل اليوم ! لا بدّ وأنكِ توظفت هنا حديثا ً! قلت وأنا أقف إلى جانبها أمام باب المصعد ونحن ننتظر وصولها، وبحار من الطرب والسعادة ومحيطات من اللذة والحبورتملأ نفسي وتدغدغ حواسي !

ـ لقد صار لي موظفة في المكتبة أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنني أعمل في قسم التصنيف في الداخل! قالت وابتسامتها لا تفارق شفتيها ، وعيناها ما زالتا تنظران إلى وجهي ، وإن كنت أتجنب النظر إلى وجهها وإنما استرق النظر إليها بين الفينة والأخرى !

ـ إذن سأسعد برؤيتكِ وسيحصل لي شرف محادثتك كلما أتيت إلى المكتبة ! قلت على الطريقة العربية التجاملية، وإن كنت حقيقة أعني ما أقول !

ـ أنا هنا فترة مؤقتة... لمدة أسبوعين فقط... لأقوم بعمل زميلة في إجازة !

ـ يا للأسف ! إننا سنحرم من رؤيتكِ ! قلت صادقاً وقد أحسست ببعض الخيبة والمرارة !

ـ تستطيع أن تأتي إلى هناك إن شئت... إنه ليس ممنوعاً ! قالت بحماس !

ـ لعلّ القدر رتّب مجيئكِ لأتعرّف عليكِ !

ضحكت بصدق طفولي وقالت :

ـ وهل تعتقد ذلك ؟ !

ـ طبعاً ؛ كل شيء بقضاء وقدر !! ألا تؤمنين أنتِ بذلك ؟ !

ـ أنا غير متأكدة ! لقد علمونا في الجامعة باننا نصنع اقدارنا ، وان مسألة كل شيء مقدر علينا ، إنها لكي تعفينا من مسؤولية اخطاءنا ! قالت وهي تتلاعب بعينيها وتحرك يديها وكتفيها ؛ ثم استدركت ؛

ـ على كل حال ، ربما !

انفتح باب المصعد الكهربائي، وخرج منه شاب وثلاث فتيات سألتها إحداهن عن عملها الجديد، وفيما إذا كانت أحبته ، فأجابتها بأنه جيد ، للتغيير؛ ثم دخلنا المصعد وعندما انغلق الباب وكنا وحيدين ، أحسست وكأنما انغلق علينا باب غرفة نوم ، إذ شعرت برغبة محمومة إلى عناقها... إلى افتراسها... لقد بدت لي قطعة ملتهبة من الإغراء ، وتمنيت لو أستطيع عناقها ؛ وبمجرد التفكير بما تملك من مفاتن أنثوية ، جعل كل خلجة في جسمي تشتعل شهوة ورغبة ، وصارت ضربات قلبي تكاد تفجّر رأسي لارتفاعها وتسارعها !

إنها تريد فحلا شبقا مثلي ، يدك حصونها ويدمر قلاعها ؛ يهصرها ؛ يحطّم ضلوعها ... يشبع جوعها ويروي ظمأها، يطفئ شهبها ويشفي سغبها ، ولا يتركها حتى تذوب وتتلاشي بين يديه ، ثم تصرخ بعدها لرب العباد وهي ترقص حبورا وتهتز طربا ! فكرت بهذا بيني وبين نفسي.

وكيف تحبين عملك الجديد؟! وجدت نفسي لا شعورياً، أعيد نفس سؤال زميلتها وجسمي كله، من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، تستبد به شهوة عارمة، وتشتعل به حرائق مجنونة !

عملي الأصلي تستطيع أن تقول أنه منغلق وجامد ؛ أي أن الناس الذين أعمل معهم هم هم دائماً لا يتغيرون إلا في النادر ! إنك ترى نفس الوجوه كل يوم ؛ ولكن فيه متعة عظيمة ؛ فهو قراءة كتب كثيرة، واطلاع كامل على كل ما يكتب في الفكر، وأنا أحب الكتب والمطالعة كثيراً ! إنها غذائي الروحي ! قالت وهي تتفحصني لسبب لم أستطيع معرفته ! تمهلتْ قليلاً ثم اضافت :

ـ أما عملي المؤقت هذا، فمن خلاله أقابل كثيراً من الناس وأتعرف عليهم؛ وقد أكوّن صداقات مع بعضهم ، قد تسعدني ! كل عمل له فوائده !

ـ أنا آسف جداً ! لقد نسيت أن أقدّم لكِ نفسي. اسمي سهيل دهشان ! قلت وأنا أمدّ يدي لمصافحتها.

ـ وأنا اسمي كرستينا هيرشفيلد . أجابت ويدانا تتعانقان ! ياإله السماء ما أرقّ وأحن يدها !

ـ أنا شغوف جداً بالمطالعة إلى درجة الهوس ! إنا أحب التعرف على الذين يحبون الكتب من أمثالكِ ! قلت !

ـ إذن، مرحباً بكَ إلى نادينا ! قالت وهي تضحك ، وما زالت يدي ممسكة بيدها !

ـ وأنا سعيد أن أنضَمّ إلى ناديكِ أنتِ فقط، وليس إلى نوادي النساء الأخريات ! قلت بتلذذ ، وقد أحسست وكأنما بدأت أغوص بين أجزاء جسمها وأغرق نفسي بما يحتويه من المحرمات والمحللات ؛ كما أنني قد بدأت أشعر بشجاعة ورفع التكلفة بيننا !

توقف المصعد وانضّم إلينا بعض الناس الذين حيّوها وأعاد بعضهم عليها نفس السؤال عن عملها الجديد، فأجابت نفس الجواب !

وهنا ضغطت على زر الدور الاخير ،الدور الخامس فقالت:

ان الكتب العربية جميعها موجوده في الدور الخامس ،الدور الأ خير.

يبدو أن العالم الغربي لا ينظر إلينا نحن الآدميين العرب والمسلمين كسقط المتاع فقط؛ وإنما ينظر أيضاً إلى الكتب التي تؤلف بلغتنا، حتى ولو كتبت من بني قومهم من الباحثين والمستشرقين ! لقد كان الطابق الأخير هو المكان الذي تتواجد به المؤلفات العربية ! لقد كان لكرستينا رأي يخالف رأيي، عندما استفسرت منها فيما بعد، عن طريقة ترتيب هذه الطوابق ! لقد قالت بأن الدور الخامس، وهو البداية، وقد خصص للكتب العربية، لأن اللغة العربية تأتي في أول الحروف الأبجدية ! ولست أدري إن كنت قد اقتنعت بما قالت، ولست أدري كذلك لماذا خطرت ببالي هذه الأفكار المحبطة !؟ هل هو الشعور بمركب النقص الحضاري... أم هو الانحطاط الأخلاقي... أم

هو التزمت الديني عند البعض...؟! أم هو كل هذه العيوب والنقائص مجتمعة ؟! لا أدري ! حقيقة لاادري !

توقف المصعد في الدور الأخير، وانفتح الباب .

ـ ها قد وصلنا ! قالت ذلك وخرجت؛ فتبعتها ، وقد نسيت في تلك اللحظات، المرحوم عبد الله بن المقفع ، ودبشليمه وبيدباه ، وطيوره وحيواناته ؛ وحتى حكمه ! كنت أفكر فقط، كيف أعرّي كرستينا وأرقد فوقها، وآكلها كما يأكل الإنسان المتوحش أخاً له في الآدمية !! لقد قبلتها وعانقتها... عرّيتها وعانقتها... أكثر من عشرين مرة ؛ طيلة الرحلة التي استغرقها المصعد ! كان كل عقلي وتفكيري وحواسي ومشاعري مركزة على ما تملك كرستينا ، وكيف ومتى سأصل إليه !!

كنت كالمراهق الذي يرى أمامه امرأة عارية ، فتتحول الدماء في كل كيانه الى حمم وقذائف من صقر ! كنت أتمنى لو أستطيع ان أرقد فوقها أمام جمميع هؤلاء المفكرين والجهابذة والعظماء العرب والمسلمين ، الذين افكارهم راقدة فوق هذه الرفوف !

أن إنجازاتي النسائية ، وجولاتي الرومانسية ، لا تقل عن إنجازاتهم الفكرية والعلمية ... بل العكس من ذلك ، فأنا أواجه الخصم وأصرعه في أرض المعركة ، أمّا هم ، فيتعاركون مع الأفكار والمقولات ، ثم تتبدّد وتتطاير مع الهواء !أنا أشعر الآن انني حقيقة ملموسة، أما هم فأشباح وخيالات وتهويمات !! أنا أصنع قدري، أما هم فأقدارهم تصنعهم ! هكذافكرت .

سارت كرستينا وسرت خلفها ، ومشت إلى الرف الذي يرقد عليه ابن المقفع ، فمرت بأصابعها على بعض الكتب ترافقها عيناها، تتمتم ببعض الأرقام ، ثم توقفت وأخرجت كتاباً فتحت جلدته وأرتني عنوان

أهذا هو الكتاب الذي تبحث عنه ؟!

قلت وأنا أرسل ناظري لأقرأ إسمه، وقد صحت بجذل.

نعم ! إنه هو بعينه ! شكرا ً! شكراً ! قلت هذا ومددت يدي لأتناوله منها، ولما فتحته لأتصفحه خرجت منه رائحة رطبة ولكنها محببة، تسربت إلى أنفي وانتشرت في كل زاوية من زوايا وجداني... امتزجت بعطر أنفاس كرستينا، فأحسست بنشوة عارمة... نشوة طفولية غريبة ولذيذة، أعادتني إلى أيام الدراسة الثانوية ... يوم كنت أمضي طيلة نهار الجمعة، وأيام العطل المدرسية؛ تحت حرّ الشمس اللافح صيفاً وزمهرير البرد القارس شتاءً، واقفاً عند ناصية الشارع، في حارة الجدعة التحتى ، في مدينتنا السلط الخالدة ، على أمل أن تمرّ سميحة ، فأحظى منها بنظرة عابرة... ! نعم ، مجرد نظرة ... ورب الكعبة ... وليست كلمة أو ابتسامة !!

ـ أيّ مرجع تحتاجه لأطروحتك ويصعب عليك إيجاده أخبرني وأنا أؤمنه لك ! إنني أعرف إسم ومكان كل كتاب في المكتبة ! قالت كرستينا وقد أيقظتني من سرحاني !

ـ هذا الكتاب ليس من أجل أطروحة أكتبها ؛ إنه من أجل طلابي! قلت وأنا أشير إلى ابن المقفع !

ـ ألست أنت طالب دراسات عليا ؟! سألت بدهشة وقد بدت علامات الاستغراب ظاهرة على وجهها !

ـ لا، أنا استاذ في قسم دراسات ولغات الشرق الأوسط !

ـ رائع !! فكّرتك ما زلت طالبا ، بسبب صغر سنك ، وإن كان ذلك لا يجعل فرقاً كبيراً ولا يغيّر فكرتي بك ! قالت وقد أضاء وجهها واتسعت ابتسامتها. !

ـ فهل تتكرمين وتعلميني ما هي الفكرة التي كونتها عني ؟!

ـ عندك ثقة مطلقة بنفسك، وجرأة مذهلة ، تجعل سامعيك يحبونك ويحترمون ! قالت .

- اذا كان ما تقولينه حقا ، فما السبب في رأيك ؟!

ـ علم غزير، شِخصية قوية ، لكنة جذابة ، رجولة متدفقة ،ووسامة لا تقاوم ! قالت وهي تعد على اصابعها .

انفجرتُ ضاحكاً ، ثم قلت من بين ضحكاتي:

ـ جميع هذه الصفات بي انا ؟! لم اكن اعرف ! أشكرك لإعلامي ! قلت وانا اشعر بالفخر والزهو ، شعور الفحل العربي الذى تمتدحه انثاه ! وبعد ان رميتها بنظرة شوق وولهة اضفت:

ـ على كل حال ،أنّ من عادتي ومنذ أن بدأت التدريس، أن أعرّف طلابي بكنوز الأدب العربي ، قديمه وحديثه ، مع أن المادة التي أدرسّها ليست أدباً ! أنا ادرّس العلوم السياسية للشرق الأوسط الحديث !

ـ رائع! رائع! لا شكّ أنه موضوع شيق، وخصوصاً في هذه الأيام !

ـ تعني في هذا الزمن الرديء ، الذي سقط به العرب والمسلمون في مجاري الجور الامتصاصية ، لأوروبا وأميركا !!

ـ لا، لا؛ أنا لا أعني ذلك أبدا ً! أنا أعني فترة البترول وحرب الخليج وتمزق الاتحاد السوفيتي وبروز أميركا كقوة عظمى وحيدة ! وكذلك بروز إسرائيل كدولة إقليمية لها وزنها ! صدقني هذا ما عنيت ! قالت معتذرة بانزعاج وحماس !

لم أعلق واكتفيت بابتسامة وهزة من رأسي !

ـ عندما طلبت مساعدتي عرفت من لكنتك أنك أجنبي ، ومن سؤالك عن الكتاب عرفت أنك عربي ، ولكن لم أعرف من أي قطر أنت !

ولما أعلمتها قالت وقد أضاء وجهها واتسعت ابتسامتها.

ـ إذن ، نحن أبناء عمومة وجيران أيضاً !

ـ لم أفهم ما عنتْ ، فاحترت وارتبكت ... قطّبت ما بين حاجبي وصغّرت عينّي ونظرت إليها كأنما أقول لها بأنني لم أفهم ألغازك !

ضحكت بدلال وقالت بغنج.

ـ جدنا وجدكم واحد هو النبي إبراهيم ؛ نحن من ذرية النبي إسحق الذي أمه سارة ، وأنتم من ذرية إسماعيل ، وأمه هاجر؛ إسحق وإسماعيل أخوة ، فجدنا وجدكم واحد !! إذن فنحن وانتم أبناء عمومة ، وبلادكم جارة لبلادنا ؛ إسرائيل !

ـ وهل أنتِ إسرائيلية ؟! سألت بعفوية ولكن بطريقة فيها فضاضة واحتقار ممزوجين بالدهشة والتحدي !

ـ لست إسرائيلية من إسرائيل نفسها ؛ أنا أميركية يهودية ! قالت بتأن وهدوء مشوبان بالحذر، وعيناها ترقبان وجهي بتمعن ، وكأنما لتقرأ ما يدور بخاطري !

ـ آمل أن لا أكون قد خيّبت ظنك ! قالت.

ـ لا، لا، أبداً! لماذا تعتقدين أنني يجب أن أفرّق بين معتقد وآخر وجنسية وأخرى؟! قلت بارتباك ومدافعاً على طريقة المجاملة والكرم العربي ! وبعد ان مصصت شفتي اضفت:

ـ ولم تخيبين ظني ؟! لي أصدقاء كثيرون، رجالاً ونساء يهوداً ! أنا لا أفرّق بين طلابي ! قلت صادقاً وبحماس !

ـ ولكنني لست طالبتك ! قالتها وهي تتضاحك !

ـ أعني أن في صفوفي طلاب يهود كثيرون ؛ كما أن لي أصدقاء وصديقات يهود خارج نطاق الجامعة !

ـ أنا فهمت ما عنيت ! واستغرقت في ضحك أعمق ،و بعد ان توقفت اضافت :

ـ أنا بنت شقيّة ؛ أريد أن أعطيك وقتاً صعباً !

ـ وأنا أحبّ شقاوتك ؛ فهي تزيد في سحرك... جمالكِ... جاذبيتكِ... عذوبتك ... وأنوثتك أيضاً ! قلت محاولا أن أبدو جذاباً مرحاً وخفيف الظلّ !

ـ إذن ؛ سأظل أعطيك أوقاتاً صعبة ما زال هذا يجعلني جميلة وجذابة في عينيك !

ـ أنت لا تحتاجين للقيام بأي عمل لتجعلي نفسك جميلة في أعين الآخرين ؛ عندكِ جمال أكثر مما عند جميع طالبات وموظفات وعاملات الجامعة معاً !! عندكِ أنوثة وجاذبية أكثر مما عند كل بنات "وست وود فلج" !

ـ ألم أقل لك أنك مغازل خطير؟! أنك تدير رؤوس البنات بغزلك واطرائك لهن، فيصدقنك فيقعن في حبك !

ـ تعني أنني أكذّب عليهن؟! سألت متصنعاً الغضب والانفعال معا ثم اضفت :

ـ إذن ، أنتِ لستِ جميلة ولا جذابة ولا ساحرة ؛ أنتِ قطعة من القبح ... من البشاعة ... من ألـ... من ألـــ... ماذا كذلك؟! أنتِ قطعة من الشوكولاتة الممزوجة بالعسل والقشطة والنبيذ ! أنتِ صحن من الآيس كريم مغطى بكمية ضخمة من الفراولة !

ضحكت بصوت عال حتى خجلت من ارتفاع صوتها، فنظرت حولي فلاحظت أن ضحكتها قد جلبت انتباه بعض من حولنا ، مما جعلهم ينظرون إلينا !

ـ أنا آسفة ! آسفة جداً ! قالت وهي تمسح دموعها بظهر يدها !

ـ قد تضحك إن قلت لك أنني قرأت حظي بالجريدة هذا الصباح ، كعادتي في كل يوم منذ سنوات ؛ مع أنني لا أصدق كلام الجرائد عن الحظ؛ فقد قال بأنني سأسافر في مهمة بخصوص العمل، وأنني سأقابل إنساناً ممتعاً جداً وجذاباً تسعدني مقابلته ... وها أنا أقابلك في أول يوم لي هنا !

ـ ومن أدراكِ أنني أنا المعني ؟! سألت بشيء من السخرية وإن كان ما قالته أسعدني جداً جداً !

ـ لا بد وأن تكون أنت ؛ لأن الجريدة قالت بأنكِ وأن كنتِ تقابلينه لأول مرة فستشعرين وكأنما أنتِ تعرفينه العمر كله !

ـ وهل هذا ما شعرت به نحوي حقا ًً؟!

وسددت إلّى عينيها النجلاوتين وهزّت رأسها بالإيجاب .

ـ وماذا قالت الجريدة أيضاً ؟! وهل قالت انني مغازل ماهر أيضاً وأنني خطر على قلوب الحسان الساذجات البريئات ، طيبات القلوب من أمثالك ؟! سألت مازحاً .

ـ أنا لست ساذجة وان كنت طيبة القلب ! ولما لم أعلّق أضافت .

ـ لا ، لم تقل هذا، ولكنها قالت شيئاً آخر ! شيئاً أطربني وأسعدني كثيراً ! وقبل أن أسأل ما هو أضافت "لا تسألني ما هو؛ قد أخبرك به يوماً !"

ـ أنك تثيرين بي غريزة حب الاستطلاع ! قلت.

ـ أعدك بأنني سأقوله لك يوما ! لا تتعجل! قالت بدلال ثم نظرت إلى ساعتها وأضافت :

ـ يا إلهي! لقد سرقنا الوقت ! قالت ذلك وسارت نحو المصعد فتبعتها وشعرت وكأنما أتبعها إلى غرفة نومها !

كانت هناك مجموعة من المنتظرين، وعندما حضر المصعد ركبناه جميعاً ووقفت أنا قبالة كرستينا أتأملها خلسة، وأدقق النظر في تقاطيعها وقسمات وجهها ! حقاً إنها قطعة فريدة من الجمال الآدمي الذي أجاد الخالق الأعظم وأبدع في خلقها !!

لقد ادركت الآن لماذا قالت كريستينا انها من بلد مجاور لبلدي ،واننا جيران مع انها امريكية المولد والجنسية والاقامة ! لقد كانت اسرائيل في هذه الفترة بالذات ، تعربد في منطقتنا العربية فتصول وتجول بسبب ضعف العرب وتشرذمهم ، وبسبب خيانة بعضهم ! وكان معجبا بها جميع يهود العالم !

لقد كان كل يهودي امريكي يتبجح امام اترابه ويقول بعناد وفخر بانه إسرائيلي او إسرائيلية ، مع ان معظمهم لم يزر اسرائيل حتى مجرد زيارة ! لقد كان هذا التصرف يثير استغرابي وعجبي لهذا الاعتداد المبالغ به !

ان التي جلبت انتباهي لهذه الحقيقة فتاة امريكية زوجة شاب فلسطيني قتلت اسرائيل والدها . كانت هي طالبة في احدى المساقات التي احاضر بها .لقد كانت من الامريكان المتعاطفين مع القضية الفلسطينية خاصة والقضايا العربية عامه !

لم يسمح المجال لنا بالحديث إطلاقاً طيلة رحلة العودة ؛ كرستينا وانا ،فقد كان هناك رجل أبيض الشعر، فهمت من حديثه مع كريستينا بأنه أحد المسؤولين الكبار في المكتبة وجدناه واقفاً ينتظر قدوم المصعد . لقد أمضى طيلة الرحلة يتحدث إلى كريستينا وامرأة في مثل سنه ؛ لعلها كانت ترافقه في رحلته إلى داخل مخزن الكتب لسبب لم أتبينه !!

ـ كم كنت أتمنى لو أستطيع أن أدعوكِ الآن إلى فنجان من القهوة؛ ولكنكِ كما أرى في منتصف العمل!! قلت إلى كرستينا بأسف حقيقي بعد أن تفرّق الجميع أمام باب المصعد في نهاية الرحلة وواصل كل طريقه !

ـ هل تصدق أنني أنا كنت عازمة أن اقترح عليك ذلك ؟! لقد كنت مثلك أخشى أن تكون مشغولاً!

ـ أحبّ ذلك كثيراً جداً! قلتها سريعاً مخافة أن تغيّر رأيها!

ـ انه لشيء غريب حقاً! قالت بجدية وجلال ورهبة !

ـ قبل حضورك، ربما بثلاث دقائق أو أقل، مرّت عليّ إحدى الزميلات وطلبت إليّ أن نأخذ استراحتنا سوية ، لأنها تحب أن تضّيفني فنجاناً من القهوة ، ضيافة لي لليوم الأول عندهم، فقبلت الدعوة ...نهضت، ثم انحنيت لألتقط حقيبتي وأسير معها، ولكن كأنما قوة غير منظورة طلبت إليّ أن أجلس، فأعلمتها بأنني سأتبعها حالما أنهي ما بيدي؛ مع أن الذي كان بيدي عملاً أستطيع أن أعمله عندما أعود، أو غداً أو حتى بعد غد ... عملاً ليس مستعجلاً، يستطيع الانتظار؛ ثم أتيت أنت !

ـ إنه الذي نحن نسميه القدر ! نحن، بني البشر يا سيدتي، كحجارة الشطرنج ، يسيرنا القدر كما يشاء ! إنه مكتوب في اللوح المحفوظ أن أقابلكِ اليوم وأطلب مساعدتك وأتعرف عليك ! قلت بحماس وإيمان!! ولما لم تجب أضفت:

ـ ما أروع وأجمل هذا المكتوب باللوح المحفوظ ! وكم أنا سعيد بالتعرف عليكِ !

ـ شكراً ! لقد جعلت يومي مشعاً حقاً ! لحظة لأحضر حقيبة يدي من فضلك !

راقبت مشيتها بعيني فنان؛ عيني محب للجمال، متيم به ... ! كانت تتحرك برقة وأنوثة ورشاقة، وكأنما هي ترقص؛ وكان شعرها الأسود المسبل الناعم المتموج يتراقص فوق رقبتها وعلى كتفيها ! كانت ناعمة جداً تتحرك كالنسيم ! مشت ومشيت إلى جانبها وشعور بالسعادة والفخر والتملك الفحولي يملأ إهابي وكل كياني، إذ تسير إلى جانبي فتاة عندها كل هذا الجمال المترف !! سبحانك خالق الأكوان ! حقاً إنك ربٌ يعبد !

إنها تشبه سميحة إلى حد كبير؛ كبير جدا ؛ أي والله ، عدا ان سميحة لها شعر اشقر !

وهنا تذكرت الشيخ عبدالحليم زيد الكيلاني ، أستاذ علوم الدين في مدرسة السلط الثانوية وهو يقول لنا بحماس وصوت عالٍ؛ نحن طلاب درس علوم الدين: "من احب امرأة ولم يشتهِها بعث الله له بامرأة أجمل منها، إن لم يكن في هذه الدنيا فسيكون بالآخرة !" لقد أحسست ساعتها وكأنما كان يواسيني؛ فاشتعلت عواطفي واغرورقت عيناي بالدموع ! لقد كنت أيامها أمضي الساعات الطوال ، ليلاً ، أذرف الدموع تحت شباك غرفة سميحة دون أن تشعر حتى بوجودي ... !

أقسم لك برب السماوات والأرضين يا شيخنا المبجل، إنني أحب سميحة حباً عذرياً طاهراً نقياً ، وأقسم لك ثانية وثالثة ورابعة ، إنني ما اشتهيت يوماً حتى أن ألمس يديها ؛ لأن حبها قد أطلق طفولتي من شرنقة العبودية والأغلال والقهر إلى باحات الحرية المطلقة ... ! لقد كنت اشعر ايامها بإحساس صوفي رفعه تصوفه إلى اعالي السماء ترفرف روحه بين كتل الغيوم والسحب !

فكرت بأننا سنخرج خارج العمارة، ولكن كرستينا أعلمتني بأنه يوجد في هذا الطابق صالة كبيرة مملوءة بماكنات الساندويشات والمرطبات والشاي والقهوة، شغالة طيلة ساعات العمل، وقبل أن أتحقق من ماكنة القهوة كانت كرستينا قد أسقطت بعض النقود النحاسية ! "وكيف تريد قهوتك؟" سألتني بعد أن وضعت الفنجان الكرتوني تحت الصنوبر ، "مع السكر والحليب!" قلت ! وبعد أن ناولتني فنجاني وضعت نقوداً نحاسية اخرى وصل إلى أدني رنينها كأنما هي تزحف على قدميها عشقاً واحتراماً لكرستينا وجمالها ! وعلى مقعد من الجلد جلسنا غير متباعدين.

كان الحديث أول الأمر روتينياً وعاماً ، فقد أعلمتها إسمي وماذا يعني بلغتنا ، ومتى أتيت من الوطن ، وماذا درست وأين درّست ... ولم اخترت كاليفورنيا دون بقية الولايات ، ثم أين أسكن ، وفيما إذا كنت أسكن مع أحد ! ثم أعلمتني بأنها ولدت ونشأت ودرست في مدينة شيكاغو وتخرجت من جامعتها علوم مكتبات ، وأنها بدأت تعمل في مكتبة المدينة العامة الرئيسية في مدينة شيكاغو منذ إن كانت طالبة في السنة الثالثة جزءاً من الوقت ... ثم عملت سنة ونصف وقتاً كاملاً بعد التخرج ، ثم عندما عزم والداها الرحيل إلى كاليفورنيا بسبب جو شيكاغو الحار جداً صيفاً ، والبارد جداً شتاءً ؛ خيّراها بين أن ترافقهما أو أن تبقى بشيكاغو حيث فضلت الأولى ... كما

وأعلمتني بأنها لم تجد صعوبة بالحصول على وظيفة بسبب كثرة الطلب على العلوم المكتبية ! وكذلك أعلمتني بأن لها أختاً واحدة فقط تكبرها بعامين ونصف وأنها متزوجة وعندها ولد وبنت وتعمل في شركة تأمين ويعمل زوجها في بيع العقارات ... وكذلك فإن لها أخاً وهو متزوج أيضاً ولكنه لا أولاد له، حيث تزوج قبل عام فقط. ثم قالت بأن والديها يحبان إدارة المطاعم ؛ وقد كانا يملكان مطعماً في شيكاغو ويديرانه معاً ... أما هنا في كاليفورنيا فإن لكل منهما مطعمه الخاص به ! إن مطعم والدتها في مدينة سانتا مونيكا حيث يسكنان ، وكذلك تسكن هي ولكن لوحدها ... أما والدها فمطعمه في مدينة "ملابو بيش" !!

ـ وماذا تفعل الليلة ؟! أعني هل عندك ارتباط ؟! سألتني .

سؤالها فاجأني وأربكني معاً ، فأنا لست مستعداً له ؛ وأن كان ليس غريباً !

ـ في الحقيقة إنه ليس عندي ارتباط بالمعنى الحقيقي... أنا دائماً عندي أرتباط مع كتبي وأبحاثي ... ولكنها تستطيع أن تنتظر ! لا يوجد شيء مهماً سأفعله ! قلت وأنا أحاول أن أجمع أفكاري بعد تشتتها بسبب السؤال المفاجئ ! ثم أضفت:

ـ سأذهب إلى البيت وأحاول أن أطبخ شيئاً ، هذا إن وجدت رغبة للطبخ ؛ وإلا فسأذهب إلى أحد المطاعم المجاورة وأتناول عشائي ... ثم أقرأ أو أكتب ... ! قلت غير صادق فقط لأبرر حجتي ! ان عندي شبه التزام بتناول وجبة طعام العشاء كل ليلة في بيت اصدقائي عائلة الهالمتون.

ـ ما رأيك بأن نتناول العشاء معاً في مطعم والدتي ؟! سأعرّفك عليها، ولا شك أنها ستسر برؤيتك ! ثم ضحكت وأضافت:

ـ هي تحب إسرائيل ولكنها غير متعصبة لصهيونيتها ، كما أنها لا تكره العرب ، وخصوصاً إذا كان هذا العربي آتٍ مع ابنتها !

ـ يعني أنها لن تهينني وتطردني؟! قلت مازحاً !

ـ إطمئن! إنها على العكس من ذلك ؛ سترحب بك وستسعدها رؤيتك ! قالت وقد استغرقت بالضحك !

ـ وهل مطعمها متخصص في "الستيك؟! " أنا أحب هذا النوع من اللحم كثيراً ، ولو أكلت منه كل يوم لما مللته ، بل على العكس لازددت له حباً !

حملقت بي علامة استغراب ودهشة وتساؤل ، فقلت ؛

ـ نعم ، لن أملّه لو أكلته يومياً ولثلاث وجبات !

ـ وهل لذلك سبب ؟! سألتْ

ـ نعم ، أنا من آكلة اللحوم ، لحوم البشر، وخصوصاً إذا كنّ نساء جميلات ! قلت وأنا أضحك !

ـ وهل أكلت كثيراً من لحومهن؟ !

ـ نعم ، ولكن ليس ما فيه الكفاية !

ـ وهل لحمهن لذيذ ؟!

ـ لذيذ جداً ! قلت .

ضحكت وأطرقت برأسها !

ـ الحقيقة المطعم ليس متخصص في تقديم "الستيك"، ولكنه يقدمه كما يقدم مأكولات أخرى مختلفة ، وأعتقد أنهم يجيدون طبخ كل ما يقدمون ! إن والدتي طباخة ماهرة وخصوصاً إذا طبخته هي بنفسها ومن أجلنا !

ـ وهل والدتك ماهرة في أمور أخرى ؟! سألت مازحاً وأنا أضحك !

ـ والدتي ماهرة في كل شيء ! نعم كل شيء ! لا تنس أنها يهودية ، واليهودية إمرأة كاملة !!

ـ ما أسعد والدكِ بها ! قلت بتلذذ !

ـ أنه دائما، يقول هكذا ! وتضاحكت ثم أضافت ؛ وأنا لا أقلّ عنها جودة ! أعني في الطبخ !

ـ وماذا عن الأشياء الأخرى ؟ ! سألتها وأنا أحملق بوجهها ، فاحمرّ خداها ! لقد عرفت الماكرة ما أعني ؛ فقالت بجرأة أذهلتني !

ـ الرجل هو الذي يقرر وليست المرأة !! قالتها بتحد هجومي وعيناها تحدقان بي !

ـ اللعنة ! تنبهت كل غرائزي ، وتحولت إلي شعلة من الشهوة المتوقدة ، فصرت أنظر إليها ولا أقول شيئاً وضربات قلبي تتلاحق ، وصدري يرتفع ويهبط ، فحملت حقيبتها وقالت :

ـ آسفة ! يجب أن أذهب ! وقت استراحتي انتهى . أعطني عنوانك وسأمرّ عليك في تمام الساعة السابعة .

*****

منذ أن تركت كرستينا في حوالي الساعة الثالثة والنصف ، وطيلة كل وقت بعد الظهر، وعقلي وأحاسيسي وعواطفي ومشاعري لا تفكر بشيء إطلاقاً ؛ حتى ولا بالوطن الحبيب المستباح الممزق والنازف ! كنت لا أفكر إلا بها... بكرستينا... بشفتيها... بعنقها... بصدرها... بنهديها... بفخذيها ... بكل ذرة في جسدها ! ! كنت قطعة مشتعلة من الشهوة، وكانت كل ذرة في جسمي ترقص طرباً وحبوراً ، وكانت كل خلجة ترتجف من حمى الشهوة المستعرة !

كنت قطعة مشتعلة من الجوع الجنسي الممزق والشهوة العارمة الصارخة !! كنت ، بمخيلتي، أعريها وألبسها ، ثم أعريها ثانية وألبسها، ثم أعريها من جديد ولا ألبسها ؛ ثم أتصور نفسي ونحن الاثنان عاريان في سرير واحد ، يأكل الواحد منا وبشراهة،

جسم الآخر !! كنت كالمراهق المحروم الذي وعد ولأول مرة في حياته ، بمعانقة امرأة ... وكنت أشعر بموجات عارمة من النيران المشتعلة تندلع داخل شراييني... مع دمي ... !!

كنت أفتح باب الثلاجة تارة ، وأعبّ ماء مثلوجاً علّه يخفف بعضاً مما يشتعل بداخلي ؛ وتارة أخرى أضع نفسي عارياً تحت حنفية الماء البارد ، عله يهدئ مما يجأر في داخلي ويشتعل في دمي؛ ولكن دون فائدة ... فكل ذرة في جسمي ثائرة ... متوترة ... متشنجة ... !

أن مجرد فكرة عدم حضورها ، كانت تفقدني عقلي ، ومجرد فكرة عدم قبولها الذهاب معي إلى الفراش تثير السعار في كل كياني !! أن في نظرات كرستينا وفي جسمها سراً غريباً عجيباً غامضاً لم أستطع تفسيره أو تحليله !لست أدري إن كنت أنا الوحيد الذي أشعر به ، أم أن الرجال جميعهم يحدث لهم مثل ما حدث لي ؟! أنني كلما نظرت إليها ، أو حتى تصورتها فإنني أشعر كأنما حمماً من صقر وقذائف من جهنم قد صبّت في أوردتي وشراييني ! لقد فقدت السيطرة على نفسي ، وأصبحت كإنسان عضه كلب مصاب بالسعار ، فأتشنج وأصير أرتجف كدرويش صابته نوبة صوفية حادة !!

قبل ربع ساعة من الموعد المحدد كنت مزروعاً أمام النافذة ، أرقب الشارع والمكان الذي من المفروض أن توقف به كرستينا سيارتها وتضرب البوق لأنزل إليها ، كما اتفقنا ! وفي تمام السابعة وقفت سيارة "جاقوار" عنابية اللون تختال كعروس ليلة جلوتها ! نزل زجاج نافذة السيارة وخرجت منها يد بضّة كقطعة من العاج ! أشارت أليّ بيدها اليسرى فأعدت إشارتها بأنني رأيتها، ومن شدة فرحتي وارتباكي لم أعد المنخل إلى مكانه ولم أغلق النافذة كما كان يجب أن أفعل !! في طريقي ضربت ساقي بطاولة المطبخ من شدة توتري واضطرابي ، فآ لمتني !

خرجت مهرولاً بعد أن صفقت الباب خلفي ؛ لم أكن أمشي ، كنت أطير ! لقد كنت أقفز كل ثلاثة درجات معاً ! تقدمت وفتحت باب السيارة وجلست إلى جانبها حتى دون أن أحييها أو أن أتفوه بكلمة ! وصلت إلى أنفي وجسمي برودة لذيذة تنبعث من مكيف السيارة ممزوجة بعطر أنثوي ناعم مريح نخر في عظامي، وزاد في تأجج إوار شوقي واشتعال عواطفي ! أحسست بجوّ عابق بالبخور وبموجة جديدة وحادة من الرغبة الطاحنة والشهوة المسعورة ! وصلت هذه الموجة اللافحة قمتها عندما نظرت إلى شمالي ورأيت شفتي كرستينا العنابيتين المطليتين بأحمر الشفايف واللتين تضجّان شهوة وتصرخان إغراء ، وهما تبتسمان لي وترحبان بي ... ثم رأيت صدرها النافر العاري وقد ظهر منه أعلى نهديها الجامحين المتوثبتين من فوق فتحة الفستان الواسعة !

إنزلقت عيناي المسعورتان الزائغتان إلى أسفل، فرأيت فستانها القصير الضيق وقد انحسر عن فخذين ناصعي البياض كأنهما قطعتان من الأبنوس الخالص ، يغطيهما سروال أحمر شفاف يظهر ما تحته ... !

فتحت باب السيارة بسرعة مجنونة وخرجت منه كالزوبعة ، ثم صفقته خلفي بشدة كأنما لأتخلص من عدو شرس مصمم على سحقي ... أو كأنما اكتشفت فجأة أن تحتي قنبلة موقوتة ستنفجر في هذه اللحظة وتمزقني أرباً أربا ! !

ـ لم خرجت ؟! سألت وهي تتضاحك بدلال وغنج ممزوجين بالإغراء ، بعد أن ضغطتْ على الزر الكهربائي فنزل زجاج الشباك من جهتي .

ـ لا أستطيع الجلوس إلى جانبك ! أرجوكِ ! قلت متوسلاً بصوت مخنوق متحشرج وفحيح كفحيح الأفاعي في يوم قائض شديد الحرارة يخرج من فمي !

كان جسمي كله ، من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي يتراقص ويهتز شوقاً وشهوة مسعورين !

ـ لا أستطيع أن أكبح جماح عواطفي الثائرة المشتعلة وأقاوم جمالك المتوحش وفتنتك الصارخة !

ـ أدخل ويكفيك إطراء لي ، فقد بدأت أصدقك ! قالت وقد ازداد ضحكها !

ـ صدقي أو لا تصدقيني ، كما تشائين ! قلت بحزم وكل ذرة في داخلي ترتجف ، وجسمي كله يهتز كغصن ليّن في مهب رياح عاتية !! انتظرتُ قليلا ثم اضفت :

ـ أنا في منتهى الجد وأقول لك الحقيقة ولا أمزح ؛ إن دخلت السيارة، فسأنقض عليك وأمزق لحمك كوحش كاسر ... سآكلك ... أنا متوحش عندما أرى الجميلات... لا أستطيع كبح جماح نفسي من افتراسهن ! إنكِ ستقولين بأنني غير حضاري ومتوحش ! أرجوكِ !إعفيني من الدخول !

كانت عيناي تخرجان شرراً، وكان لساني جافاً كقطعة من صخر، وكنت أتكلم كالمخمور الذي يهذي !!

ـ أنا أسمح لك بافتراسي ! أريدك أن تفترسني ! قالت وقد شعرت أن حمى الشهوة قد انتقلت إليها !

ـ أدخل ! أنا أحب المتوحشين من الرجال ! أنا أحب الذين يفترسونني ! قالت وهي تضحك وأنوثتها ترقص ! وقبل أن تنهي كلماتها كنت قد فتحت باب السيارة ودخلت وصفقته خلفي بينما كان زجاج شباك السيارة يرتفع أتوماتيكياً ! !

فعلى الرغم من أنني دخلت السيارة وكلي عزم وتصميم أكيدين للهجوم عليها وإحراق جسدها كله ، بقبلاتي وعضاتي وعناقي؛ إلا أنني توقفت للحظات قليلة أحملق بها بعينين زائغتين مفجوعتين غير مصدقتين ! لقد تساءلت إن كنت أنني في حقيقة ولست بحلم ! كنت كذئب يعاين ضحيته ليرى من أين يبدأ بأكلها ؛ وعندما فتحت كرستينا يديها بشوق ووله يعبّر عنهما جسمها المشتعل ، قالت :

ـ تعال إلى صدر ماما ! ! إنك متعب كثيراً وبحاجة إلى الراحة !! تعال يا حبيبي واسند رأسك على صدري !

وقبل أن تكمل جملتها ، كنت قد ألقيت بنفسي فوقها وهجمت على شفتيها أحرقهما بقبلاتي ، ثم على خديها أعضعضهما وأقضمهما بأسناني ! استجابت هي لوحشيتي وسعاري بوحشية أشد وأعنف ! لقد صار كل منا يلتهم الآخر، كوحوش ضارية في يوم مسغبة...!

حوّلت يدي اليسرى أريد أن أقدّ فستانها من مكان فتحة النهدين، ومددت يدي اليمنى لأشرخه من مكان التقاء الفخذين لأنزع عنها سروالها لأصل إلى ما تحته ؛ ولكنها عاجلتني وبمساعدة المقود الذي أعاق حركة انطلاق يدي ، وبخفة وسرعة عجيبتين أذهلتاني ، استطاعت أن تنزلق من على مقعدها وتفتح الباب وتخرج منه خارج السيارة !

كان يجب عليّ أن أتوقف خصوصاً وقد أصبحنا في الشارع العام ، إذ يستطيع أي عابر سبيل أن يرانا نتعارك ونتصارع فيظننا في معركة شجار وليست معركة غرام ! ولكنني في ذلك الأثناء كنت كوحش هائج تنزف جراحه ؛ فخرجت ومن نفس بابها ، أعدو خلفها ، أريد أن أعيدها إلى مكانها في السيارة وأن لا أتركها تهرب مني حتى أتخلص من محيطات الحمم التي تتقاذف بداخلي والذئاب المسعورة الجائعة التي تعوي في شرايبني ... !

ـ أرجوك ! دعنا نصعد إلى الشقة أفضل ! قالت وكان جسمها هي الأخرى يرتجف كجسمي ، وقد تشنجت أطرافها وزاغت عيناها فمدّت لي يدها اليمنى وكأنما أنا طفل صغير تقوده أمه حتى لا أضل طريقي ، وباليد اليسرى صفقت باب السيارة !!

لم أكن بوضع عقلي ولا جسدي ولا حتى عاطفي يسمح لي بأن أستجيب لطلبها فأسير معها والى جانبها ، كما يسير أي انسانين طبيعيين !

فجأة أحسست أن بداخلي طاقات هائلة من القوة غير العادية والتي لم أعهد مثلها من قبل، إذ شعرت بقوة كقوة شمشون الجبار نفسه ، وأنني أستطيع أن أحرّك جبلاً من مكانه ! هجمت عليها وحملتها بين يدي كطفلة صغيرة، ودخلت بها باب العمارة !

دفنت وجهي بوجهها فتساقط شعرها الغزير المتناثر فغطى عيني ، فتلمست شفتيها وانهلت عليهما تقبيلا ً، ثم نقلت شفتي إلى صدرها ، ومن فتحة فستانها توصلت إلى نهديها ، أعانقهما بشفتي وأرضعهما ! صرت أنقّل شفتي إلى كل جزء من جسمها أستطيع الوصول إليه، أعانقه بشوق وشهوة جامحتين !! كنت وأنا أصعد الدرج إلي شقتي أحسّ كأنما أحمل ريشة بين ذراعي وليس إنساناً !

لم تحاول كرستينا أن تتحرر من بين يدي وأنا أصعد بها الدرج فتسير على قدميها ! لقد أحسست أنها كانت في منتهى السعادة والحبور ، إذ لفّت يدها اليمنى حول عنقي كأنما لتحمي نفسها من سقوط مفاجئ ! وضعت اليد اليسرى على كتفي تشدّ جسدها إليّ ولتعدّل جسمها كما تشاء وقت ما تريد !

اثناء رحلة الصعود هذه ، شدّ انتباهي انحسار فستانها الستان القصير عن ساقين بضتين ، فظهر سروالها الأحمر الحريري الذي انعكست نصاعة لونه على تألق

نصاعة الفخذين ، فتوقفت وسط الدرج مشدوهاً أحملق بعيني الزائغتين ، مما زاد في تأجج أوار النيران المستعرة في داخلي !

لم أجد صعوبة عندما وصلنا أمام الباب في تحرير يدي اليمنى من الإمساك بها ، لأدخلها في جيبي ولأخرج مفتاح الشقة منها . خلال ثوان كان الباب قد فتح واعيدت رزمة المفاتيح إلى مكانها، ودخلنا الاثنان من الباب معاً ، ونحن ما زلنا متعانقين ! حالما عبر جسمانا ، صفقت الباب بمؤخرة قدمي اليمنى ، والقيت بها فوق السجادة خلف الباب مباشرة ، وبسرعة فائقة حللت سحاب فستانها ونزعته عنها ... جررتها من شلحتها وأسقطت حمالة نهديها دون أن أفكّ دبابيسها !

لم تمانع ولو احتشاماً أو تمثيلاً ولا حتى دلالاً، بل على العكس من ذلك ، فقد كانت تحرك بعض أجزاء جسدها لتسهل لي مهمة نزع ملابسها ! !

كانت طيلة الوقت تضحك جذلى بصوت مرتفع ومتحرر من كل القيود ، وعندما حللت حزام سروالي وبدأت التهم لحمها بأسناني من جديد صارت تقول بصوت حالم سكر، يغري بالمواصلة ويحث على السرعة :

أرجوك ! أرجوك ! تمهل بي... أنا لم أتعود على هذا النوع من مطارحة الغرام ! دعنا نذهب إلى غرفة النوم ... على السرير... الأرض قاسية تحتي ! أنا لا أستمتع كثيراً على السجادة !

كانت تتكلم وجسمها يرتعش ، وكان صوتها يصل إلى أذني كأنما يأتي من مكان سحيق ! لقد كنت في تلك اللحظات كتلة مشتعلة من الشهوة المحمومة العارمة ... !

ـ هذه المرة هنا على الأرض ، المرة الثانية ستكون على السرير ! قلت وأنا ألكدها...!

ـ وهل يوجد مرة ثانية الليلة ؟! سألت جذلى وبنشوة، وجسمها كله ، من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ، يرتعش ويتراقص كدرويش هزته حمى الذكرى والتذكر !

ـ نعم ... مرات.... خمس مرات وربما أكثر ! قلت وجسمي كله يشتعل ، ولهاثي يخرج من فمي كالعاصفة !

ـ وهل تستطيع مطارحتي الغرام خمس مرات في ليلة ؟ ! لا بد وأن تكون شمبانزي ! سألت من بين تأوهاتها وتنهداتها !

ـ لست وحدك فقط التي أستطيع مضاجعتها ! إنني أستطيع الليلة مضاجعة كل بنات صهيون في مشارق الأرض ومغاربها ! قلت لها من بين لهاثي وفحيحي !

ـ أنا لا أريدك أن تضاجع امرأة سواي . أريدك فقط لنفسي! ولما لم أعلق أضافت:

ـ أرجوك ! اهصر جسمي بعنف ! شدني إليك ! إسحقني بيديك !

قلت وقد بدأت اضغط عليها في لكد متسارع :

ـ اطمئني ! سنسحقكم كلكم ! لن نترك واحداً منكم ! أعاهدك ! لقد صبرنا طويلاً وطال انتظارنا لسحقكم ! لقد تجبرتم واستبديتم فطغيتم ... فحقت عليكم اللعنة ، وسندمركم تدميرا ... !

ـ ما أروع أن أسحق بين يديك ! زدني سحقاً... أكثر... أكثر... ! قالت وهي تتراقص تحتي كسمكة أُخرجت لتوها من الماء وألقيت فوق أرض القارب !

ـ ستموتين وتحيين ، لتموتي ثانية وتحيين من جديد ! قلت .

ـ آه ما أسعدني ! ضاجعني ألف مرة في الليلة ! قالت وهي تبترد !

ـ الليلة أنتِ ضيفتي ، وسأكتفي بخمس أو ست مرات فقط، ولكن العدد سيتضاعف ويتضاعف غداً وبعد غد ! قلت .

ليتك تفعل ذلك ! قالت وهي تتأوه !

ـ إنتظري وسترين ! قلت وقد تزايدت رقصات جسمي فوقها ، وأحسست كذلك إحساساً عائماً من بين تهويماتي وسبحاتي، كأنما هي تشك بمقدرتي على إيفاء وعدي ، مما أغاظني وأثارني ! انني يعربي ، عندي مركب نقص مذهل ! قلت ثم أضفت :

ـ لعلكِ نسيتِ أنني بدوي قادم من عمق الصحراء ! إنني لا أعرف الشبع ولا القناعة ! إن لي آلاف السنين أعاني من جوع ماحق ! إن مجرد لمس جسم المرأة يزيد في سعار شهيتي الجنسية ! أنا شمبانزي ، مدّله ببنات عمي الجميلات ، وأريد مضاجعتهن كلهن ! قحط السنين العجاف الطوال حوّلني إلى نبع من شهوة لا تنضب ولا تموت ! قلت .

لقد كنت أهذ ي ... أهلوس ... أهذرب ... !

ـ أنا أحب بدوييّ وشمبانزييّ ! أنا أموت حباً في الصحراء ! قالت وهي تتأوه !

ـ إطمئني ... ! سنميتكم كلكم يوماً ! سنقتلكم وسندفنكم فيها ؛ صحراء التيه ؛ صحراء الربع الخالي ؛ هذا ما وعدنا به الرب ! قلت بغلٍ وحقد !

ـ هذا مكان لا يناسب الحديث عن الرب ! إنك أحياناً تتحدث ألغازاً ! قالت وهي تغمض عينيها وتتأوّه وأنا ألكدها .

ـ كل الأوقات مناسبة للحديث عنه ! لماذا إذن إسمه الخالق ؟!

ـ سأقتلك إن أحببت غيري ! قالت مغيّرة من لهجتها ومن مجرى الحديث !

ـ أحب أن أموت على صدرك وبين أحضانكة ! إنني أحب أن أقتل بسهام العيون الساحرة ! قلت وقد بدأت أدكّ قلاع العدو واستولي على حصونه ... وفجأة حاولتْ تعديل اضطجاع جسمها .

ـ أرجوكِ ! لا تتحركي ! لا أقدر على الانتظار. السرير بعيد من هنا. سأنفجر إن انتظرت لحظة أخرى ! دعيني أتذوق قمة السعادة بين فخذيك ، واتركيني أغوص في عمق أعماقك ، أدكّك بصواريخ الكاتشوسا وراجمات الألغام ، حتى يهرب كل من فيكي ويختبئ بالملاجئ ! أنا في قمة نشوتي... دعيني ! دعيني ! وبدأت ترقص تحتي كسمكة ، وبدأت أهتز فوقها كسعدان يرقص ويرقصّه صاحبه ، ثم غرزت أصابعي في لحم كتفيها ، ثم نقلتهما إلى شعر رأسها فصرت أشده !

ـ عضني ! أرجوك زد في العض أكثر وأكثر ! لكن لا تشد شـــعري ! إنك تؤلمـــني ! أنا في ذروة النشـــوة ! النشـــــ.... وة ! ثم سقط جسمها كأنما هوى من حالق ! كانت تتكلم وجسمها يهتز ويتراقص !

ـ الآن نستطيع أن نذهب إلى الفراش! قلت وبدأت أخلع حذائي وجوربي وأنزع عن نفسي جاكيتتي وبنطالي وربطة عنقي وقميصي وملابسي الداخلية ، بطريقة عبثية ، وألقي بها إلى أي مكان وكيفما اتفق !

ـ دعني ارتاح خمس دقائق على هذه الكنبة ، فأنا أموت تعباً ! قالت ذلك وهي تشير بذقنها إلى الكنبة القريبة .

ـ ولا خمس ثوان ! قلت باصرار واعتداد وفحولية ، وقد أمسكت بيديها أحاول انهاضها من على الأرض لأقودها إلى غرفة النوم .

ـ أرجوك دعني أستريح . لقد انهكتني . أنا لم أتعود على هذا النوع من مطارحة الغرام !

ـ ستتعودين عليه منذ الليلة ! إن كل الذين كانوا يطارحونك الغرام لم يكونوا فحولاً حقاً ! أنتِ لم تقابلي فحلاً قبل اليوم ! كلهم كانوا أشباه رجال ! قلت بفخر ومباهاة جاهلية.

ـ لقد تأكدت الآن من ذلك ! قالت وهي تبتسم والإنهاك بادٍعلى وجهها وفي كلامها.

ـ أستغرب أن تتعب المرأة من المضاجعة ... الرجل هو الذي يبذل الجهد ، والمرأة تتلقى فقط ! قلت محاولاً أن أبدو خبيراً متمرساً بشؤون الغرام !

ـ وهل تعتقد ذلك ؟! ما أقل ما تعرف ! المرأة تكون متلقية فقط إذا كانت لا تهتم بالرجل الذي يطارحها الغرام ، وتقوم بدورها إرضاء له ، أو وهي كارهة لعملية المطارحة ! أما إذا كانت تحب رجلها فالجهد الذي تبذله لا يقل عن جهده هو ! قالت وقد صارت تضحك بنشوة ودلالا مغناجة وهي ما زالت ملقحّة على السجادة ونهداها يتراقصان كحملين صغيرين في يوم ربيع مشمس دافئ ... بعد أن شبعا من ثديي أمهما !

أشفقت عليهابسبب إجهادها ، وتركتها لتلتقط أنفاسها ولترتاح قليلاً !

انحنيت والتقطت فستانها المكور فوق السجادة وحاولت أن أرتبه فلا يبدو مكرمشاً .

ـ لم لم تدعنا نخلع ملابسنا ونتطارح الغرام كما يفعل الحضاريون في العالم !

أحسست هنا بأنها جرحت إحساسي حقاً ! لعلها أدركت بغريزتها الأنثوية ما شعرت به فقالت :

ـ إياك أن تصدق ما أقول ، إنني أمزح ! أريد أن أثيرك !

لم أعلق بكلمة وبقيت صامتاً ، فاستطردت :

ـ لو أنك عملت ما يعمله الآخرون ، لكنت واحداً منهم ... عادي جداً !! إن طريقتك في مطارحة الغرام لم أجربها ولم أسمع أو أقرأ عن مثلها ! إنها طريقة فريدة ! لقد شعرت وأنت تعانقني، وتضع ذاتك في ذاتي ، بأنني أسعد امرأة في الوجود ، وإني أملك العالم ، وأن كل رجاله الفحول تحت أمرتي ! لقد شعرت كأنما كل رجال بني قومك يضاجعونني ! صدّقني ! قالت بحماس ودون خجل ، وهي تحرك يديها لتؤكد مقولتها !

ضحكت لجرأتها وبلاغتها فقلت:

ـ كنت أشعر وأنا فوقك كأنما أضاجع جميع نساء أميركا وإسرائيل معاً ، كما أنني لم أكن أعرف أنك إلى جانب جمالك المميز وتفننك في مطارحة الغرام ، تتمتعين بذكاء خارق ولسان بليغ !

ـ شكراً على الثناء ، ولكنني لن أدخل شقتك بعد الآن ، إلاّ بنفس الطريقة التي دخلت بها الليلة...! إنه كلما يكون عندنا موعد وتريدني أن آتي إلى شقتك ، تأتي أنتَ إلى سيارتي في الشارع وتهجم عليّ تحاول أن تغتصبني في السيارة ، وتحاول أن تمزق ملابسي ، فأهرب منك فتلحقني من نفس الباب وتهجم عليّ وتحملني بأحضانك ، وأنت تحرقني بقبلاتك فتصعد بي السلم ثم ترمي بي فوق السجادة ، ثم تطارحني الغرام ، وبعدها تحملني بين يديك إلى الفراش في غرفة النوم ، بنفس طريقة الليلة !!

ـ ما أجرأكِ يا كرستينا ! إنني أنحني إحتراماً لجرأة المرأة وصراحتها ، وخصوصاً حديثها عن العواطف ! أنا أحتقر الاحتشام المزيّف ! إنه يثيرقرفي وإشمئزازي ... ! صدقيني !

ـ لا تنس أنني يهودية ! قالت وهي تتضاحك !

"وكيف أنسى ذلك يا كرستينا ، والجيش الذي احتلّ مدينة رام الله وما حولها ، كن فتيات يهوديات مثلك ، وبناتنا يفاخرن بأنهن عندما يعطينا أنفسهن إلى الرجال الذين يدفعون أثمانهن للزواج ، بأنهن ما زلن يحتفظن بنقطتي الدم ، وأنهن عذراوات لم يمسسهن بشر؛ وكأنما رأس مال الفتاة العربية هو تلك النقطتين من الدم ... ! والله ، لقد ذرفت وقتها عيناي دماً ! "

كانت كرستينا تتكلم وهي مغمضة العينين وكالمسحورة المنومة ، ثم فجأة نهضت من على الأرض واقفة فبدت لي بجسمها العاري طويلة نحيفة رقيقة ناعمة كعود الخيزران الغض ، أو كأنها عمود من الأبنوس؛ ثم ألقت بنفسها فوق الكنبة، فقلت صادقاً :

ـ أن حمماً بدأت تشتعل الآن بداخلي من جديد ، وأشعر برغبة أشد عنفاً وأقوى تأججاً من السابق ! إذا بقيت ممدة فوق الكنبة فسأضاجعك فوقها ! قلت ذلك ومددت يدي وأنهضتها.

قالت وقد مدّت لي يدها وهي تبتسم :

ـ كل مكان بين ذراعيك جنة ! أنا لا أشبع من مطارحتك لي الغرام ! أنك كلما تطارحني الغرام كلما أستمتع به أكثر وأكثر ! يبدو أن زخم عواطف العاشق وتأجج النيران في شرايينه تنتقل إلى المعشوقة كالهشيم ! إنني أشعر أن النيران في داخلك قد انتقلت إليّ ! قالت .

ـ إذن تعالي نذهب إلى الفراش ! قلت وقد حملتها وتوجهت بها إلى غرفة النوم ؛ فالقيتها على السرير ونمت فوقها وبدأنا العراك من جديد ، ولكنه كان هذه المرة عراكاً هادءاً رقيقاً فيه كثيراً من المداعبات الحالمة واللمسات الجمالية الناعمة ! لقد بقينا كذلك حتى همد جسمانا مرة ثانية .

ـ سهيل ! حبيبي !! أنا سعيدة .... سعيدة جدا ً... أشعر أن الدنيا لا تتسع لفرحتي ...إ ني والله أحسّ أنني أريد أن أبكي من فرط السعادة !! قالت كالمخدرة ... ثم انخرطت تبكي بالفعل ، وكانت يداها ما زالتا تطوقان ظهري !

لم أقل شيئا ، ولم أفتح فمي ! لقد بقيت ساكناً فوقها لا أبدي حراكاً ، أستمع إلى نهنهتها ونشيجها... ومرّت فترة دقيقتان أو أكثر !

لم أسمع بحياتي كلها إنساناً ينطق اسمي بمثل هذه العذوبة إلا السيدة سانتيش هاملتون ! لقد أحسست كأنما أعطتني كرستينا إبرة جنس ، بينما أحسّ والأخرى تنطق إسمي كأنما تعطيني إبرة حنان ودفء وحنية !!

وتذكرت سانتيش... آه يا سانتيش....!! يا أختاً لي لم تلدها أمي ! إنني والله لو أحببت نساء العالم جميعاً ، لكان حبك مميزاً عنهن كلهن !

قالت كرستينا بعد أن سقطت من فوقها وتمددت إلى جانبها:

سهيل ليتني قابلتك من قبل...! أعني ليتني انتدبت لهذه الوظيفة قبل عام أو عامين ، لكان لي الآن أعرفك مدة طويلة ! يا لضيعة العمر الذي قضيته من غير صحبتك !

قلت بإيمان الصوفي وورع العابد :

" يا حبيبي ! كل شيء بقضاء وقدر ! "

لم تعلق وبقيتْ ممددة ومغمضة العينين ؛ وفجأة سألتني :

سهيل ! ما أجمل شيء في الحياة ؟ ! أجبت بعفوية :

ـ الحب طبعاً !

هذا صحيح ! قالت حالمة ! ولكن ماذا يجب أن يكون معه ! ؟

هل تعني نقود كثيرة ؟!

ـ طبعاً لا ! قالت ينرفزة وشبه غاضبة وهي تهز رأسها يمنة ويسرة وقد عبس وجهها وتقلصت عضلاته وكأنما قلت شيئاً أهانها !

ـ طبعاً لا ! يجب أن يكون معه الجنس ! الجنس العنيف المتوحش، مثلما فعلنا الليلة ! وحركت يديها بالهواء حالمة وكأنما تريد أن تأخذ شيئاً وتضمه إلى صدرها !

"وماذا يا كرستينا عن بني قومي من العذريين أمثال قيس بن الملوح وقيس بن ذريح ، وبقية المهابيل المعذبين ؟! لنا الله يا ولفي ، لنا الله ! ! "

ـ أريدك أن تطارحني الغرام الآن ؛ بناء على رغبتي وليس رغبتك ! وقبل أن أتفوه بكلمة رفض أو موافقة سألتْ :

أليس لي الحق في ذلك ؟!

ـ طبعاً ، لك كل الحق ! قلت صادقاً ؛ وقبل أن انهي جملتي كنت أنام فوقها وشفتاي لا تتركان مكاناً في جسدها دون أن تمرا عليه ، وكأنما طلبها قد هيّج رغباتي !

استجابت هي لقبلاتي بقبلات مثلها في البدء ، ثم صارت تعض شفتي تارة وتمص لساني تارات وتدخل لسانها في فمي ! بقينا هذه المرة مدة طويلة ، ربما ساعة كاملة قبل أن يهدأ جسمانا ويسقط كل منا مجندلاً ، وقد انهكت المعارك والاقتتال قوّتنا ... !

إن كل قحط حفر الباطن ، وصحراء تهامة والربع الخالي ، وكل جوع السنوات الطويلة الطويلة وحرمانها ، أخرجته الليلة... هذه الليلة ، من داخلي ، حمماً وقذائف لاهبة ، وألقيت به في داخل كرستينا وفوقها !!

بعدها أغمضت عينيّ فسهوت ، ولعلها سهت هي الأخرى ، ولا أدري كم من الوقت مضى عندما نهضتْ فجأة مذعورة وهي تصيح بانزعاج !

ـ يا إلهي ! لقد نسيت ! إن أمي تنتظرنا منذ الساعة السابعة والنصف ! ثم لكزتني بكوع يدها اليسرى ! سألت .

ـ كم الساعة من فضلك ؟! قلت وقد أخذتها إلى حضني وصرت أقبلها !

ـ لاتفكري بالزمن! دعيه يجري كما يشاء ! نحن الآن ، انتِ وأنا ، خارج نطاق الزمن ! نحن في منطقة الشفق !

قالت وهي تحاول أن تتحرر من بين يدي وبشيء من العصبية !

ـ ولكنها تنتظرنا ! لا شك أنها الآن قلقة علينا جداً ! يجب أن أهاتفها الآن !

لم أدعها تفلت من بين يدي ، أنما أجبتها !

ـ دعيها تنتظر! لقد انتظرتك ستاً وعشرين عاماً ، والآن لقيتك ، فلا يمكن أن أفرّط بكِ ! لقد ارتبط الآن قدرك بقدري !

ـ آه ! شكراً ! ما أسعدني ! وقبلتني قبلة خفيفة على خدي الأيسر ، فجذبتها وضممتها إلى صدري !

ـ أمّا بني قومي فقد انتظرو بني قومك أكثر من نصف قرن من الزمان ، حتى تنازلوا وقبلوا الجلوس معهم ومكالمتهم !

ـ ماذا تعني ؟! أإنك تتكلم ألغازاً أحياناً ؟!

لم أجبها ، وإنما بدأت أقبلها من جديد وأضمها إلى صدري.

ـ أرجوك ! دعني ! أمي تحبني كثيراً... ستقلق عليّ جداً ، وقد تظن أنه حدث لنا مكروه ! قالت وهي تحاول أن تتحرر من بين ذراعي !

ـ قلت لكِ ليس لي قلب أن أجعلك تبتعدين عني ولو لثانية !

ـ سأبقى الليلة عندك ! اتركني الآن أكلمها ! أرجوك !

ـ بعد جولة أخرى من الغرام تستطعين مكالمة والدتك، قلت.

ـ لا شك أنك تهزّر ! لا يمكن لإنسان كائناً ما كان أن يقوم بكل هذه المعارك المتواصلة دون استراحة !

ـ ألم أقل لك أنني شمبانزي ، وأنني بعد الانتهاء من كل معركة يزداد سعاري لمعركة جديدة وطاحنة ؟! وركبت فوقها من جديد ، وبدأت أقبلها بنهم وأداعب نهديها !

ـ لا أستطيع أن أتجاوب معك... أرجوك... أنا منهكة !

ـ سأجعلك تتجاوبين ! وبدأت أقبلها بشراهة أكثر ! أقبل صدرها وعنقها ونهديها وشفتيها وكل مكان في جسمها تقع عليه شفتاي !

لا ادري ، في تلك اللحظة ، لقد رأيت أن كرستينا بدأت ترتجف بطريقة غريبة عجيبة لم آلفها من قبل ! لقد شعرت كأنما جسمها تشنج ، فسحبتْ نفسها من تحتي وركبت فوقي وصارت هي التي تقوم بعملية التقبيل النهمة المسعورة ، حيث صارت هي التي تقبلني على كل مكان في جسمي تقع عليه شفتاها ، وكأنما تبادلنا المواقع ، فأصبحت هي الرجل ، مما أرعبني أولاً وأغضبني بعد ذلك !! وبكل قوتي انزلتها من فوقي وركبت فوقها وصرت ألكدها وأمزق جسدها بشفتي وأسناني ؛ وعندما وصلتْ قمة النشوة لم تنته هذه المرة كالسابق، فقط ؛ وإنما أصبحت تهمهم بصوت عالٍ همهمات طويلة... طويلة... كأنها فرس افتقدت إبنها... وأخيراً .... أطلقتْ صرخة عالية تردد صداها في جنبات الشقة ... ولا شك أن الجيران قد سمعوها ...

أجهشتْ بعدها في البكاء ... عندها نزلت من فوقها وتمددت إلى جانبها ! دفنتْ وجهها بصدري وصارت تنهنه بحرقة وألم وتقول وكأنما أصابتها حمى وبدأت تهذي:

ـ أرجوك ! لا تتركني ولا تحب غيري ! إنك إن فعلت فإنني سأجن... سأموت ... !

أعلمتها بأنني لن أفعل ؛ وصرت أطيب خاطرها طالباً إليها أن تكفَ عن البكاء ؛ ثم أطلقت سراحها فنهضت... وسمعتها بعد ذلك تدير قرص الهاتف وتقول لأمها :

أسفة يا أمي إن سببت لك كل هذا القلق . كان يجب أن أهاتفك حالما دخلت الشقة . لقد دعاني أن أدخل وانخرطنا بالحديث وسرقنا الوقت ! نعم الحقّ معكِ . لا عذر لي . أنا آسفة جداً جداً يا أميّ ! إنه شاب ممتع جداً، وحديثه ينسي المرء نفسه ! وضحكت بطرب .

ـ إنه جذاب جداً ! لم أر في حياتي كلها إنساناً مثله ! ستعجبين به عندما تقابلينه وستحبينه كما أحببته ! إنه يختلف عن كل الشباب الذين قابلتهم . نعم... نعم ... ولكنه غير متعصب. إنه متفتح العقل جداً. نعم ... نعم ... لقد أمضيت وقتاً ممتعاً جداً ؛ نعم ، نعم ، سأقول لك كل شيء عندما نتقابل !

كانت كرستينا وهي تكلم والدتها تقف أمامي عارية فلاحظت أنها طويلة القوام جداً ... أطول مما تعودت أن أرى ... كانت نحيفة الجسم كعارضة أزياء ، وكنت أشاغلها بأن أرضع نهديها تارة وأقبل شفتيها وخديها وعنقها ، وأعض بطنها وصدرها وأردافها تارة أخرى ! كنت أدور بشفتي على كل ذرة في جسمها ، وكانت هي تضحك بسعادة ومتعة وشقاوة وتحاول أن تدفعني عنها بلطف ورقة ودلال !

يا إلهي ! لقد كان جسمها قطعة من الأبنوس الناصع الذي أجاد الخالق الأعظم في تصميمه وخلقه وصقله ! لقد رأيت نساء كثيرات على شواطئ كاليفورنيا بملابس البحر وفي الحرم الجامعي؛ فلم أر واحدة قط من لها جمال جسمها ورشاقة قوامها إلا سانتيش هاملتون !!

وهنا تذكرت سانتيش... وشعرت بشوق عارم إليها... إلى حديثها... إلى ابتساماتها... إلى نظرات الحب والدفء والحنان من عينيها ؛ وتساءلت : هل يجب أن أخبرها بما حدث الليلة ؟! فماذا يا ترى ستقول؟ ! وهل يا ترى ستفرح لي ؟!

لقد رنّ جرس الهاتف الليلة أكثر من عشر مرات ! كان يرن كل خمس دقائق تقريباً ، وكان قلبي يهفو لرنّاته ؛ وكنت أعرف أن المتكلمة هي سانتيش ، ولكنني تجاهلت جميع التليفونات ولم أردّ عليها ! سأهاتفها من المطعم وأعتذر لها ، وعندما أقابلها سأخبرها عن كرستينا . نعم سأفعل . لن أخبئ هذا عليها ، ولا شك أنها ستفرح لي . أنا واثق من ذلك ! أليست هي بمقام الأخت العزيزة والقريبة من قلبي ؟! أليست هي التي تشجعني دائماً ، بل تحثّني على أن أتخذ لنفسي صديقة ؟ وفجأة أحسست بشوق ماحق مجنون لرؤيتها ... لمحادثتها ... للنظر في وجهها ... في عينيها ... وهممت أن أصرخ بصوت من أعماق وجداني وبكل ما عندي من طاقة ؛ سانت.... ـيش...! إذا مرّ يوم من حياتي يا سانتيش لم أركِ به ولم أكلمك ، أحسّ بالضياع !

دخلت كرستينا الحمام ، ووصل إلى أذني هدير الماء يسقط في أرض "البانيو" وصوتها وهي تغني مع سقوطه ، واندماجها مع كلمات الأغنية ! تذكرت أيام كنت في الوطن في مدينتنا السلط الصابرة الصامدة ... مدينتنا التي لا يتوقف حنيني وشوقي إليها ... إلى السير في شوارعها المتربة ، وأزقتها الضيقة ، استنشق عطر روث الحمير ولطع البقر وبعر الماعز... وسأظل أتذكر ما حييت أيام الطفولة ... أيام ملاعبة كلبنا قطّاش وركوب ظهر حمارنا مشهور... ونواح وندب والدتي وتوجدّها على فراق والدي ، وبكائها ... وكذلك عندما ندخل الحمام وصوت وابور الغاز "البريموس" يهس هسيساً رتيباً متواصلاً ، فيخرج منه صوت يتجاوب مع الأحاسيس والمشاعر، فنطرب له ونفرح ونشعر برغبة جامحة وشوق عظيم لأن نطلق عقيرتنا بالغناء ! نطلق لأصواتنا العنان ، ولدموعنا الانهمار ، ولعواطفنا الانطلاق ... فنغني مع صوت وابور الغاز وكأنه الموسيقى المرافقة للغناء ... نسترسل بعواطفنا وأصواتنا معه ، فنعجب ونتعجب من جمال أصواتنا وكم هي عذبه ... حنونة ورخيمة !! آه ! ما اجمل ايام الطفولة وما اغلاها على قلوبنا ! ان لها نكهة سماوية لا يتذوقها الا الذى حّرق الحب جفونه ولوّع الهجر قلبه !

لم أكن الوحيد الذي أمرّ بهذه التجربة العاطفية الرائعة ؛ فلقد سمعتها مرات ومرات من جميع أصدقائي وبدون استثناء...! سمعتها من حكمت وأميل وكايد وشاهر ومحمد ومن آخرين! كلنا مررنا بنفس التجربة ، وكلنا سعدنا بنفس الأحاسيس والعواطف !! يا لها من ذكريات رائعة ، مفرحة ، مشرقة ولذيذة ! أن ذكرياتي عزيزة على قلبي ، حبيبة إلى روحي! أنها جزء مني ، لن أتخلى عنها مقابل ذهب العالم !

وفجأة تذكرت سميحة ... نعم سميحة ... سميحة ... ! دائما سميحة !؟ اللعنة ! ليتني أستطيع أن أجثث الجزء الذي تحتله تلك الفتاة في قلبي ، فألقي به في أعماق المحيط الباسيفيكي ... فأريح وأرتاح ! نعم ، ليتني !! ولكن هيهات ! اللعنة ! إن حبها ممزوج بدمي ... يجري في عروقي !!

وفجأة خطرت في بالي فكرة وشعرت برغبة هوجاء عارمة لتنفيذها ... لقد صار داخلي يتراقص لشدة ازدحام الأفكار ... وهو أن أطيّر برقية عاجلة ... عاجلة جداً جداً ، إلى جميع القادة والزعماء العرب والمسلمين ... بما فيهم الدكتور ؛ ناطور الجامعة العربية المحنطة... وكل المسؤولين في الوطن العربي الكبير ... العقّال منهم والمجانين ... المعتوهين منهم والمتخلفين ... العنينين منهم والمخنثين ... الخونة منهم والمخلصين ، والذين تستبد بهم شهوة مضاجعة الحسان الشقراوات ، وكذلك الذين يعشقون مضاجعة الغلمان أو مضاجعة الغلمان لهم ؛ الذين يقضّ مضاجعهم ويؤجج صدورهم ، حب فلسطين وأهلها ! انهم لا ينامون ليلهم ولا تهدأ بالهم ، قلقاً وخوفاً على مصيرها ومصير أهلها ! أريد أن أزف إليهم البشرى بأن يطمئنوا بالاً ويهدأوا حالاً، فقد كسبنا الليلة أول معركة من معارك التحرير ... فلقد فتحنا أول فرجٍ منيع من حصون بنات صهيون ، ودكينا أول قلعة محصنة بين أفخاذهن... وأريد منهم أن يناموا ليلهم الطويل ويحلمون أحلامهم الوردية ، فإن فلسطين الآن بأياد أمينة ، وقد حررناها من النهر إلى البحر، بعد أن قهرنا الأعداء وطردناهم منها ... أريد أن أؤكد لهم أن أطفال الحجارة الصناديد ، الذين يدافعون عن شرف وكرامة الأمتين العربية والأسلامية ، يستطيعون الآن ، وبكل شجاعة ، أن يبوّلوا على رأس كل متخاذل منهم ، ويغوّطوا على شرف كل خائن فيهم !!

عندما خرجت كرستينا من الحمام ، كنت ما زلت جالساً خلف مكتبي عارياً كما ولدتني أمي؛ وكانت تلفّ وسطها بمنشفة كبيرة برتقالية اللون ، زادت في تأجج سحرها وتألق جمالها ؛ خصوصاً بعد أن ربطت خصلات شعرها السوداء الغزيرة فوق رأسها ... فبدت كإحدى بنات الهنود الحمر التي نشاهدها في أفلام رعاة البقر الأميركية ، تصول وتجول في ساحات الطعان وساحات الغرام أيضاً ؛ وقد رسمت ابتسامة جذلى فوق شفتيها القرمزيتين ! كانت تفور نشاطاً وتتأجج حيوية ، فتمنيت لو أن عندي المقدرة على مضاجعتها للمرة الرابعة ؛ ولكنني في تلك اللحظة كنت أشعر بتبلد في إحساسي وهمود في غرائزي ... !

ـ ماذا تكتب ؟ ! وهل تنظم بي قصيدة ؟! سألت وهي تقبلني فوق شفتي قبلة روتينية تفتقد الحماس وتخلو من الحرارة ! ولما تبينت اللغة قالت:

ـ أرجوك ! ترجمها لي ! وقبلتني قبلة ثانية كأنما ترشوني بها لأحقق طلبها !

ـ صدقيني أنا لا أنظم قصيدة ، وإنما أكتب رسالة ، مهمة جداً جداً ، إلى طويل العمر !

ـ ومن هو طويل العمر هذا؟! فلما أعلمتها ضحكت لقولي فظنته نكتة لأنها قالت وهي تتضاحك !

ـ بلّغه تحياتي ولا تنس أن تذكر له أنني ابنة عمه !

ـ سأفعل ! سأفعل ! وسأعلمه بأن ينسى " مبادرته " السلمية التي قدمها والتي لم يعترف بها بني قومك ولم يعطوها أي إهتمام ! لاحاجة لها ، لأننا قد حررنا ، الليلة ، نعم الليلة ، فلسطين كلها ، من النهر الى البحر !

دارت كرستينا من أمام الطاولة ، ووقفت إلى جانبي ؛ ألصقت جسمها بي وبدأت تمر بيدها اليمنى على شعر رأسي وكأنما تمشطه.

ـ أريدك أن تكتب عني رواية وتذكر بها إسمي كاملاً، كرستينا هيرشفيلد !

ـ انه لمن الأحسن أن لا أفعل ! قلت وقد لففت يدي اليسرى حول خصرها فوق المنشفة ورفعت عيني وبدأت أتأمل نهديها الصغيرين اللذين يبدوان كحبتي كرز ، أو حبتي "ديفور خضاري"، في صباح يومٍ ندي ... !

ـ ولم ؟! سألتْ وقد توقفتْ عن التمشيط.

ـ لأنني إن فعلت ، فسأوصف كل ما جرى بيننا في الفراش بالتفصيل الدقيق والعميق !

ـ كم أتمنى ذلك !! إنه يسعدني جداً ! إنني أريد أن أفاخر بها صديقاتي وأصدقائي ومعارفي ، ولتخلدني بما تكتبه عني !

ـ الخلود الحقيقي هو ما يأتي من المخلّد نفسه وليس من موضوعه ! قلت .

ـ أخالفك الرأي ! قالتها بدبلوماسية ربما حتى لا تخسر ودي.

وبعد ان انتظرتُ قليلاً أَضفتُ :

ـ إننا كثيراً ما نتذكر العمل الفني الإبداعي وننسى المبدع ! نحن دائماً نذكر الرسمة الزيتية "موناليزا " ولكننا نادراً ما نذكر "ليوناردو ديفنشي"، ودائماً نذكر "مدام بوڤري" ولكننا ننسى الروائي الشهير "غوستاف فلوبيرت" الذي كتبها ! وكذلك نتذكر " أحدب نوتردام " ولكننا ننسى فكتور هيجو " ! قلت .

ـ أعتقد أنكَ على حق ! سيتذكر الناس كرستينا هارشفيلد وينسون سهيل دهشان ، مع أنه لولا الثاني لما سمع الناس بالأول ! قالت ، وبعد ان توقفت قليلاً اضافت :

- إنني أحب أن تخلدّك أعمالكَ الابداعية أيضاً ، ويعرف الناس سهيل دهشان ، وفي نفس الوقت تخلدني أنا أيضاً ، كعمل فني من هذه الأعمال الإبداعية !! قالت .

ـ لقد بدأت أنظم الشعر منذ كنت صغيراً ، ثم توقفت .

ـ ولم فعلت ذلك؟! سألت بإنزعاج ممزوج بالخيبة !

ـ كنت أنظم الشعر الرومانسي صغيراً ، يوم كنت غارقاً إلى ما فوق أذنيّ في رومانسية التصوف ، ثم توقفت عن النظم لأنني وجدت نفسي أفضّل كتابة القصة على الشعر !

ـ هذا أحسن كثيراً ! قالت بفرح صبياني ! بعد ان تمهلت قليلاً اضافت :

ـ إذن ، أكتب عني قصة ، أرجوك ! خلّدني كبطلة رواية ! إنني لا أريد أن أغادر العالم دون أن أترك بصمتي عليه ! قالت برجاء حار .

ـ قلت لك إن فعلت فسأذكر كل ما يجري بيننا بالفراش ، بدقة وتفصيل مسهبين !

ـ وما الخطأ في ذلك ؟! سألتْ بدهشة واستغراب وكأنما أعياها جهلي !

ـ عندنا ، في الوطن العرب الكبير ؛ بلد " التابوهات" ، بلد الحلال والحرام ، تنعار المرأة من وصف معشوقها لها في الفراش على الورق ؛ أو أمام الناس !

ـ ولكنك لست بالوطن ألعربي ! أنت هنا في أميركا ... معقل الحريات ... ! قالت بغيض وقهر من غبائي !

ـ ثم لم تنعار المرأة من أنوثتها ... من عواطفها ... من حنانها ... من دفئها ... من جسمها ... فهذا حقها في الحياة كالهواء والماء تماماً ! وبعد أن بلعت ريقها أضافت :

ـ أنا أفخر جداً، جداً، أنني مارست أنوثتي واستمتعت بها ؛ وأفخر أكثر أنني أملك ما أقدمه إلى معشوقي في الفراش ، مما يحبه ويسعده ! أنت عندك فحولتك تهديني إياها فتسعدني ، وأنا أكافؤك فأقدم لك أنوثتي فتفرحك ... ! قالت بحماس وهي تصرّ على مقاطع الكلمات !

ـ إن ما يحدث بين الرجل والمرأة في الفراش أمور لا يُتحدث عنها ! إنني اعتبرها علاقة مقدسة ! قلت بحجة ضعيفة خصوصاً هنا في بلد كأميركا !

ـ أن ما يحدث بين المرأة والرجل في الفراش ، لهو أجمل وأعز بل وأقدس شيء في حياتيهما ! ولما لم أعلق سألتني بحماس:

ـ ألا توافقني الرأي ؟ !

ـ ربما تكونين على حق ! قلت بتراخ وكسل وقد رافقتها بهزة من رأسي !

ـ أنا واثقة من أنني على حق ! قالت باعتداد وثقة .

مرّت فترة صمت قطعتْها بأن توقّفتْ عن تمرير يدها اليمنى فوق شعري ، وبيدها اليسرى أزاحت يدي اليسرى من حول خصرها وقالت.

ـ أرجوك ! أسرع بارتداء ملابسك ، فقد تأخرنا كثيراً عن موعدنا . والدتي ستجن قلقاً علينا !

نهضت فدخلت الحمام، وذكرّني تشابه صوت خرير الماء المتساقط على أرض "البانيو" بصوت هسيس وابور الكاز ، الذي كنا نسمعه في الوطن ونحن صغاراً ، فرفعت عقيرتي بالغناء محاولاً أن أستعيد تلك اللحظات الغابرة ذات النكهة الطفولية ، الحلوة الحالمة ! إستغربت جداً أن عواطفي لم تشتعل هذه المرة ، كما كانت تشتعل في الصغر ؛ ودموعي لم تنزل على خدي ساخنة وغزيرة ، كما كانت تفعل أيام الوطن ؛ بل أن عواطفي لم تتأثر ولم تتحرك ووجداني لم يثر ولم ينفعل ! كان صوتي يرافق خرير الماء ، جامداً كصنم صخري أصم ، لا روح به ولا عاطفة !! تساءلت مرات ومرات ، وحاولت أن أنفعل مع الغناء وأن أحلّق بسماوات العشق وأن أهيم بوديان الصبابة ، ولكن صوتي كان نشازاً ، والغناء نفسه كان بليداً لا روح به ! سبحان مبدل ألأحوال ... !

******

كنا في الصغر نحلم بمكالمة فتاة ... بتقبيلها ... بعناقها ... وحتى بمضاجعتها ... ولكن بالخيال فقط ، وما أكثر ما حلمنا واسترسلنا مع أحلامنا ، وما أكثر ما عشنا مع الأحلام !! لقد بقينا نحلم ونحلم حتى أصبحت حياتنا كلها أحلام وأوهام ... وصرنا كأنما نعيش بحلم متواصل ووهم لا ينقطع !! لقد كانت حياتنا كلها "تابوهات"... حرام ... عيب ... لا أخلاقي... أما اليوم ، فنحن لكثرة ما تكلمنا مع الفتيات ولكثرة ما أكلنا من شفاههن وخدودهن وأعناقهن ، ولكثرة ما رضعنا من صدورهن ونهودهنّ ، ولكثرة ما وصلنا إلى ما بين ... ؛ فإننا لم نعد نحنّ ولم نعد نشتاق ، نفس الاشتياق الغابر المسعور ... إلى مضاجعتهن !! لقد ماتت بنا تلك العاطفة الجميلة ، وحلّت مكانها شهوة عارمة متّقدة !! اللعنة ! اللعنة ! لقد تساءلت ؛ أيهما أسعد ، أيامنا الحاضرة أم السابقة !!

خرجت من الحمام وأنا ألفّ على وسطي منشفة كبيرة ، تماماً مثلما فعلت كرستينا ؛ بفارق بسيط هو أن منشفتي كانت بيضاء اللون ! لقد وجدت أن كرستينا لم

تخلع المنشفة بعد ، وأنها كانت تقف إلى جانب طاولة الكواء تكوي فستانها وشلحتها وسروالها ، وعندما نظرت إليها ونظرت إليّ ، خرج من عيني شرر متطاير ، تماماً كما يمس سلكاً عارياً عموداً من الكهرباء ، فيحصل بينهما التماس محرق ! مددت يدي وأطفأت زر المكواة وخلّصت يدها من الآلة . توقفتْ عن الكواء ووقفت أمامي وبدأت تحملق بوجهي وكأنما تراني لأول مرة ، فبدأ منظر عنقها الأبنوسي وصدرها الأتلع ونهديها الجامحين العاريين يحركان أغوار الحرمان الطويل في أعماقي من جديد ... هجمت عليها وبدأت آكل جسمها بنهم المحروم وجشع البخيل !! استجابت لقبلاتي وعناقي، ولكنني عندما بدأت أسحبها نحو غرفة النوم ، قاومت بعناد ودفعتني عنها بإصرار ولكن بلطف ... سحبتْ يدها من يدي، وأن شعرت بأن كل خلجة في جسمها ترقص شهوة وبأن عينيها تتوقدان شوقاً !

ـ أرجوك !أرجوك ، أن لاتفعل ! الساعة الآن تجاوزت العاشرة ، وستقلق والدتي هذه المرة بصدق ، ولن تقبل عذري ولن تسامحني !

ـ أشعر بسعار في داخلي ... بحمم ...! أريدك في الفراش الآن ! قلت وأنفاسي تتلاحق ، وصوتي يخرج من داخلي مخنوقاً !

ـ صدقني ، أن عندي مثلما عندك، ولكن الوقت أدركنا ! قالت وهي تحاول أن تحرر يدها من يدي !

ـ إن فيكِ لغزاً لا أدرك كنهه يا كرستينا ، فكلما انتهيت من مضاجعتكِ ، كلما أردتكِ من جديد ، وكلما ازداد تدلهي بك أكثر !

ـ كلامك يسعدني كثيراً ! قالت وهي تضحك وتتثنى ! ثم أضافت :

ـ سنعود بعد العشاء ، وسأنام الليلة هنا ، فغداً السبت وبعدها الأحد ، وسأبقى عندك حتى صباح الاثنين ، نتطارح الغرام !!

طبعتْ على شفتي قبلة خاطفة وأضافتْ وهي تضحك !

ـ هذا إن أردت !

ـ طبعاً أريد ! أريد ذلك من كل قلبي وبكل كياني ! قلت بحماس لاهب !

وهنا تذكرت سانتيش هاملتون وزوجها بيتر وابنتهما لوشنتا ... إذ كيف لا أراهما طيلة كل هذا الوقت ... فهذا شيء من الصعب تنفيذه ! طردت الفكرة من مخيلتي وقلت لنفسي بأنني سأتدبر الأمر .

ـ أسرعي وارتدي ملابسك حتى لا ندع المسكينة والدتك تنتظر أكثر مما فعلت ! قلت وقد توجهت إلى غرفة النوم وبدأت ارتدي ملابسي.

قالت كرستينا ونحن نغادر شقتي في طريقنا لنلبي دعوة والدتها إلى العشاء .

ـ شكراً يا سهيل على كل شيء ! أنا لم أمض في حياتي كلها وقتاً أمتع ولا أسعد من الوقت الذي أمضيته معك ! إنك تجعل الواحدةَ منا تشعر بجمال وعزة أنوثتها . لقد أحسستني كأنما أنا المرأة الوحيدة على هذه الأرض ! وبعد أن رحبت بها وشكرتها على قبول دعوتي قلت وكنت صادقاً في قولي:

- صدقيني بأنني لم أطارح امرأة الغرام عندها كل هذا الزخم من دفء العواطف ورقة الأنوثة مثلك ، تعطي نفسها لرجلها وتشعره بفحولته ! إنك فريدة في الفراش !

ـ وفي الحياة أيضا ً! قالت وهي تتضاحك ثم أضافت ؛

ـ تذكر أنني يهودية . إن كل همي هو إسعاد رجلي ؛ هكذا علمتني أمي منذ الصغر ... وهكذا تعلم كل أم يهودية ابنتها !

ضحكت وقلت :

ـ ولهذا السبب نادراً ما يتزوج الرجل اليهود ي من امرأة غير يهودية !

ـ ليس لهذا السبب وحده !

ـ وما السبب الآخر؟!

ـ لا أستطيع أن أقول لك ! تضاحكت مرة أخرى .

ـ أنا أعرف السبب الآخر! قلت محاولاً أن أكون مؤدباً ، ثم أضفت :

ـ لأن اليهودي يعتقد أن اليهود هم وحدهم شعب الله المختار ؛ وأنهم هم وحدهم الذين سينعمون بجنّة الخلد ... ولذلك لا يجب أن يشاركهم بها أحد...!

ضحكتْ ولم تعلق .

* * * * *

الفصـــــــــل الثاني

كان المطعم غير ملاصقٍ لبنايات اخرى ، وتقع إلى جانبه ساحة واسعة تتسع لعدد كبير من السيارات ، ويقع في بقعة جميلة جداً في مدينة سانتا مونيكا ! كان مطلاً على المحيط حيث ترى من بعيد القوارب الصغيرة تحمل عشاقها وتتهادى فوق مياه ساحرة !

عندما وصلنا ، كرستينا وأنا ،كانت الحركة في المطعم هادئة ، وإن كانت الطاولات ما زالت تغصّ بروادها ، وكان الكثيرون منهم ما زالو يتناولون عشاءهم ويتزاورون ! لقد وصلنا حوالي الساعة الحادية عشرة إلا ثلثاً ، بينما يغلق المطعم أبوابه في الثانية عشرة .

قابلتنا أم كرستينا بترحاب حار ، وشدّت على يدي بمحبة واحترام زائدين ، ثم قادتنا إلى طاولة في إحدى الزوايا كانت محجوزة لنا . انهمكت النادلات يتسابقن على خدمة ابنة معلمتهن وصديقها ، باهتمام ولطف أسعداني كثيراً ، وأشعراني بصميمة الحب وقدسية العواطف !

لقد حضر الطباخ نفسه إلى طاولتنا ،ليستفسر مني عن الطريقة التي أحب بها شوي "الستيك" ودرجة استوائه ، وكمية التوابل التي أريده أن يضعها فوقه ونوعها ... وكذلك الخضار التي أريدها أن تكون إلى جانبه ... وهل هي البطاطا الحلوة أم البطاطا العادية ، أم هي الخضار المشكلة ... ثم كيف أحب السلطة الخضراء ونوع "الدرسنق" الذي أريده أن يوضع عليها ... وكذلك نوع الشوربة التي أفضلها ، فهل هي شوربة الدجاج أم العدس أم الفطر! حتى الطباخ كان يتحدث إليّ بأدب واحترام شديدين وكأنما يتحدث إلى إنسان رفيع المنصب كبير السلطة !

لقد فهمت أن المطعم الذي يقدم الكحول إلى زبائنه يحتاج إلى رخصة خاصة ، وأن هذه الرخصة تكلف مبلغاً خيالياً ! وضعت النادلة أمامنا قارورة من النبيذ الإيطالي المعتق الخصوصي ، والذي لا تقدمه أم كرستينا إلا لنفسها وأفراد عائلتها والمقربين جداً جداً إليها ؛ هكذا أعلمتني النادلة التي كانت تقف على طاولتنا كالديدبان !

لم تشاركنا السيدة مونيكا هيرشفيلد الطعام ، وإنما كانت تشجعنا بل تستحثنا على الاستزادة من تناوله ، على طريقة الأهل في الوطن ؛ ولكنها شاركتنا الشرب ، مما شجعني كثيراً على التحدث عن نفسي وفتح شهيتي للشرب والأكل معاً !

حقيقة لا أستطيع أن أنكرها ، وهي أن السيدة هيرشفيلد كانت في صباها وما زالت ، ذات قدٍ ممشوق وذات قوام رشيق ملفت للنظر ، وذات جاذبية جنسية صارخة وجمال ساحر أخاذ ... فعلى الرغم من دخولها عامها الثامن والأربعين ، كما أعلمتني ابنتها ، إلا أن كثيراً من الرجال يظنوها أصغر من ذلك بكثير ... ولا شك أنهم يفضلونها على كثير من الفتيات الصغيرات ، ويتمنون أن يمضوا ليلة غرام في أحضانها ! ولقد لاحظت أيضاً أنه يسعدها كثيراً أن يحيط بها جيش من المعجبين العشاق ، وأنها تشجع الذين يغازلونها ويخطبون ودّها ... كلاماً فقط ! نعم ، كلاماً فقط !

ـ لا عجب أن تكون الآنسة كرستينا تتمتع بكل هذا الجمال النادر والمميز، والجسم المرمري العاجي ! لا شك أنها ورثت كل ذلك عن أمها ! قلت لوالدة كرستينا وأنا أرشف كأس النبيذ وعيناي تجوسان خلال وجهها وعنقها وصدرها !

ـ آه ما أشد ملاحظتك وما أذكاك يابني ! شكراً شكراً ! لقد أسعدتني والله حقاً، حتى أنني أكاد أبكي ! ليس كل الرجال يفهمون جمال المرأة ! قالت وهي تتثنى بدلال وتغنج كأبنة السادسة عشرة !

ـ الفن الأصيل يحتاج إلى فنان أصيل أيضاً حتى يفهم اللوحة الفنية التي أمامه ... ! يحتاج إلى خبير متعمق ... ! أنتِ لوحة فنية نادرة يا سيدة هيرشفيلد ، وقليل من الرجال الذين يفهمون الفن الحقيقي ... الجمال الممتميز ... ! الجمال الذي يهزّ من الأعماق ! قلت على مسمع من ابنتها ، بعد أن أفرغت بقية كأس النبيذ في جوفي !

ـ ما أجمل كلامك يابني ! لقد ذكرتني بأيام الصبى ، عندما كان الشباب يتغزلون بمفاتني ويدعونني إلى الخارج، وكذلك عندما كان يتغزل بي والد كرستينا ّ!

ـ أنتِ ياسيدتي في ملتي واعتقادي ، كالنبيذ المعتق ، كلما تقادم عهده كلما ازداد جودة ولذة ! قلت وأنا أمصمص شفتي تلذذاً ومذاقا ً!

ـ هل صدّقت الآن يا أمي كم البرفيسور سهيل ساحر ورقيق ؟! إنكِ لا تستطيعين إلا أن تحبينه ! أنا لم أقابل شاباً يتمتع بجميع هذه المميزات مثله ! قالت كرستينا وعيناها تتأملان وجهي وهي تتضاحك !

ـ أنا سعيدة جداً جداً من أجلك يا ابنتي ! أنا لم أر آنساناً يدلل أنثاه مثل البروفيسور سهيل ، حتى ولا والدك أيام كنا نخرج معا ً! أتمنى لكما السعادة ودوام الحب يا حبيبتي !

شعرت أن المرأة قالتها ، بحرارة وصدق ، ومن أعماق وجدانها !

ـ شكراً يا أمي ! شكراً ! أنا سعيدة جداً جداً ! قالت كرستينا بسعادة غامرة وهي تكاد أن تطير من الفرح !

ـ شكراً يا مدام هيرشفيلد ! شكراً للوقت الذي أمضيه في حضرتك ، والذي لم يمّر عليّ وقتاً سعيداً مثله هنا في أميركا ! وشكراً أيضاً للهدية الثمينة التي قدمتها إليّ ... الآنسة كرستينا ... إنها حقاً نادرة في كل شيء ! قلت وقد استخفني الطرب والنبيذ معاً ، فقد كان صوت لأغنية دافئة حالمة وناعمة ينبعث من مسجلة تبث لجميع أركان المطعم !

ـ صدقني يا أبني يا سهيل ، إنك لست الوحيد المستمتع بالجلسة ، وإنما أنا كذلك... وأظن أن كرستينا أيضاً ! قالت الأم وهي تتلذذ بنطق الكلمات !

لم تنطق كرستينا ، وإنما هزّت رأسها وهي تتمايل مع الأغنية ! لا شك أن الطرب قد استبد بها !

ـ ما أسعدني بالتعرف عليكما ! انتما آلهتين من آلاهات الأغريق !

وهنا تذكرت ما قالته كرستينا ، من أنها تتمنى لو أنها تعرّفت عليّ قبل عامين أو ثلاثة فقلت !

ـ ليتني قابلتكما يا سيدة هيرشفيلد أنتِ والآنسة كرستينا ، يوم وطأت قدماي أرض أميركا لأول مرة ! لقد كنت وقتها أشعر بغربة ممزقة ! كنت أحس بضياع ماحق ! آه ! ليتني ! قلت بصوت يذوب حناناً حقاً ، وكنت على وشك ان ابكي تأثراً !

ـ على كل حال ، وكما يقولون بالأمثال ؛ أن يحدث متأخراً خيراً من أن لا يحدث إطلاقا ً! ثم أريد منك شيئاً آخر وهو أن تزيل ما بيننا من رسميات ... فلقد خاطبتك باسمك المجرد فنادني مونيكا... وإن أحببت تستطيع أن تناديني ماما مونيكا ... !

ـ سأناديك مونيكا... الليدي مونيكا ! الساحرة مونيكا ... مونيكا الجميلة ... مونيكا المتوقدة انوثة وعذوبة وسحراً ... لأن عقلي لا يقبل تصورك غير شابة... ناعمة... رومانسية... جذابة... تفيض حباً وحناناً ! أما لقب الأم فيكبّرك وأنت الصغيرة ، مع أن الأمومة هي أقدس رابطة في الحياة !

ـ كما تشاء وإن كنت أنت الآن مثل أبني ! قالت وهي تتضاحك !

ـ شكراً ! شكراًً ! هذا شرف قد لا أستحقه !

كانت وهي تتكلم تتكلم بأنوثة حقيقية ، وبرقة ونعومة متناهيتين ...كما كانت جميع حركاتها وتصرفاتها تتسم بالدلال المغناج ؛ وعندما ذهبتْ إلى الداخل لقضاء بعض المهام وأعطتنا ظهرها ، تأملتها من الخلف بعقصة شعرها المكوّر فوق رأسها ، وجمال رقبتها وطولها ونصاعتها ، ثم استقامة جسمها وانسكاب ساقيها وتدويرتهما ، وكذلك رشاقة مشيتها ... ليخيل للمشاهد الذي لا يعرفها ، بأن السيدة هيرشفيلد فتاة في الثامنة عشرة أو في العشرين من عمرها ! أما شفتيها ، فقد كانت تضع عليهما طلاء ليس بأحمر الشفايف ... لا أعرف اسمه ... يزيد من سحرهما ، حتى أنني وأنا أرفع كأس النبيذ عن شفتي بعد كل رشفة أتمنى لو أن تكون المقبلات التي أتناولها قبلة منهما !! فيا لهول شفتيها كم فيهما من جاذبية وإغراء جنسي وخصوصاً بعد أن ترفع كأس النبيذ عنهما وتمرّ بلسانها فوقهما وعيناها مسددتان على عيني !!

كان حديثنا بعد ذل حديثاً عادياً جداً ؛ عن الأهل والعمل وكيف وجدت أميركا ، وما الذي أحبه فيها وما الذي أكره ، وفيما إذا كنت عازماً أن أقيم بها بصورة دائمة أو في نيتي أن أعود إلى الوطن ! وهل لي أصدقاء وصديقات كثيرون ، وفيما إذا كنت أحب الطعام الأميركي وهل يختلف عن الطعام العربي ؛ ثم إذا كنت عادة آكل في البيت أو في المطاعم؛ وفيما إذا كنت أحب التدريس ونوع الطلاب الذين ينخرطون في صفوفي ؛ وما شابه ذلك من أسئلة ! كانت الأسئلة من الأم وابنتها كلها تتسم بالاهتمام الصادق وليست مجرد أسئلة مجاملة لقتل الوقت !!

لقد لاحظت أيضاً أن اهتمام الأم بي لا يقل عن اهتمام ابنتها ، وأنها تعاملني بأدب واحترام شديدين ، وكأنما أنا خطيب لابنتها وزوج المستقبل وليس مجرد صديق !

ـ هذه الليلة غير محسوبة ، فقد حضرتما في وقت متأخر جداً ، وهي لمجرد التعارف ! قالت الأم بلهجة تنم عن الكرم والصدق والمحبة !

ـ على الرغم من قصرها ، فإنني اعتبرها ليلة من اجمل الليالي التي قضيتها في امريكا ! قلت صادقاً ومن أعماق قللبي ، وبحماس لايقل عن حماسها !

ـ شكرا يابني ! إنني أدعوكما إلى العشاء مساء الغد في الساعة السادسة مساءً ، وحتى يكون لدينا متسع من الوقت للتحدث طويلاً ! إن حديثك شيق جداً !

ـ إنه ليسعدني ويشرفني أن أقبل الدعوة ، إذا كانت الآنسة كرستينا تقبلها ! قلت وأنا أنقل طرفي بين الأم وأبنتها مبهوراً بجمال المرأتين !

ـ طبعاً أنا أقبل وبكل سرور ! قالت الأبنة بفرح غامر، ثم نهضت وقبلت أمها على الوجنتين .

ـ شكراً يا أمي ! شكراً جزيلا ً! ما أحسنك من أم وما أكرمك ! كم أنا محظوظة أن تكون لي أم مثلك !

طبطبت الأم على ظهر يد ابنتها اليمنى وقالت :

ـ أنتِ حبيبتي وما يسعدك يسعدني !

اقول الحقيقة ، أن هذا السيل الزاخر من العواطف الحارة والصادقة ، أسعدني جداً جدا َ، كما وأثار شجوني الدفينة وشوقي المندفع إلى الأحبة في الوطن ، فتذكرت الأيام الحلوة ... الرغدة ... الهنيئة فيه ؛ وثارت كوامني الدفينة شوقاً وتحناناً إلى الوالدة والأخوان والأخوات !! لقد شعرت وكانما أنا استحم في بحر زاخر من العواطف الدافئة والأحاسيس المشتعلة !

ـ أتمنى لكما ليلة سعيدة ، وأمضيا معاً وقتاً طيباً ! قالت الأم وعلامات الفرح الغامر تغطي وجهها وتظهر في لهجتها وفي بريق عينيها

ـ لا حاجة ان تزعجي نفسك يا امي ان تكلميني ، فقد اتفقنا ، سهيل وانا ، ان نقضي الوقت معاً في شقته !

ـ أوصيك خيراً بكرستينا يابني ! إنها صافية الضمير... طيبة السريرة... قلبها ناصع كالثلج... وروحها نقية ! قالت الأم وهي تشد على يدي ونحن نودعها ونهم بمغادرة المطعم.

ـ أوصيها هي بي خيراً ! فأنا ضعيف أمام سحرها وجمالها ! قلت وأنا أضحك بارتخاء بسبب ما تناولت من النبيذ !

تبادلت الأم وابنتها القبلات عند باب المطعم، وشددت على يدها وأنا أشكرها من أعماق قلبي على هذه الأمسية الرائعة وكذلك العشاء والنبيذ الممتعين ، ثم تبادلت أنا وإياها القبلات أيضاً !

اللعنة ! اللعنة ! انني بدلاً من أن أقبلها على خدها قبلة اجتماعية ، كما هي العادة في مثل هذا الموقف ؛ وجدت نفسي الفّ ذراعي اليمنى حول عنقها واضمها الى صدري ثم أقبلها على شفتيها برغبة عارمة !

تراجعت بجسمها إلى الخلف وأبعدت وجهي عن شفتيها بطريقة عفوية وقالت وهي تبتسم وقد احمرّت وجنتاها !

ـ أنك ولد شقي ! لقد قلبت دماغي ! قالت وهي تخرج تصعيدة عميقة !

ـ إنكِ تقلبين دماغ الناسك المتعبد ! قلت همساً وأنا أضحك !

لم تلاحظ كرستينا ما حدث ولم تنتبه لما قالت أمها ، لأنها كانت تتحدث مع الطباخ الذي لم يغادر المطعم حتى يكون موجوداً ليقوم على خدمتنا !

ـ لم أكن أعرف أن النبيذ لذيذ ويدخل السرور إلى القلب إلى هذه الدرجة إلاّ الليلة ! أنا لا أبالغ إن قلت لك أنني أحسست كأنما أدخل الجنة التي قرأت عنها في الكتب السماوية ونحن صغاراً ! قالت كرستينا !

ـ هذا لأنك كنت في حضرة شيخ البدو ، القادم من صحراء الربع الخالي وتخوم حفر الباطن ، البروفيسور سهيل دهشان ! ولكن اطمئني ، سأدخلك الجنة كل ليلة ، وستسعدين بأطايب خيراتها ! قلت مداعباً وأنا أكركر !

ـ إنك تقولها كنكتة ؛ ولكن صدقني أن هذه هي الحقيقة... لقد أحسست بكل هذه السعادة ، الليلة فقط ، لأنني معك ! قالت بحرارة وهي تبتسم !

ـ وأنا لم أشعر قط من قبل بمثل هذا الحبور وهذه الصميمية ، مثلما شعرت بهما وأنا معك في الفراش ! إنكِ تختلفين عن كل النساء اللواتي عرفت ! إنكِ تعطين نفسك كاملة للرجل وتجعلينه يحس برجولته وفحولته معاً ، وأنه هو السيد وأنتِ الأمة ! قلت صادقاً !

ـ لا تنسى أنني يهودية ! تحن نتعلم هذا منذ الصغر! قالت وهي تتضاحك وقد بدت لي مغرية ومثيرة بدرجة مذهلة ، ومدت يدها اليمنى وصارت تداعب شعري بأصابع يدها اليمنى ، وباليسرى تتحسس رقبتي ، فأحسست بسعادة غامرة ، وتصورت نفسي حقاً شيخ بدو بين نساءه الأربعة ، وهن محيطات به يداعبنه ويلاعبنه ، وكل واحدة منهن تحاول أن تنال محبته ورضاه !

وسط موقف السيارات مدّت كرستينا يدها إليّ بمفتاح السيارة لأقودها ، فأخذته منها وفتحت لها الباب الأيسر حيث يجلس السائق وأشرت إليها فاتحاً يديّ ومحنياً ظهري قليلاً احتراماً وطلبت أليها أن تتفضل بالركوب !

ـ ألا تريد أن تقود السيارة ؟! سألتني باستغراب وهي تهم بالدخول !

ـ سافعل في المرة القادمة إن شاء الله ! قلت إن شاء الله بالعربية ، إذ أن هذه الكلمة أصبحت جزءاً من معاملتي اليومية الدائمة ، منذ أن كنت طفلاً صغيراً !

أدخلتها وأغلقت الباب خلفها ، ثم درت من خلف السيارة ودخلت من الباب الثاني ، وبعد أن جلست وأغلقته خلفي سألتني باستغراب وحيرة !

ـ لم غيّرت رأيك ؟!

كانت كرستينا قد عرضت عليّ عندما غادرنا شقتي ، أن أقود سيارتها فأعملتها بأنني سأفعل في طريق عودتنا ، إذ أنني طالما تمنيت أن أجرّب قيادة سيارة "جاقوار" أو غيرها من السيارات الفاخرة ، والشعور الذي يعتري سائقها وهو يقودها !

ـ لا أظن أن باستطاعتي أن أقود سيارة بعد أن احتسيت كل تلك الكميات من نبيذ والدتك المعتق ! قلت .

ضحكت وهي تربط حزام الأمان حول جسمها وتدير المفتاح بالسيارة وتضغط على مفتاح الراديو ، فتنبعث منه أغنية رومانسية ناعمة رقيقة الكلمات عذبة الصوت تزيد في إلهاب المشاعر!

كنت في طريق العودة أجلس ملاصقاً جداً لكرستينا ! كنت تارة أجلس في حضنها وأخرى أجلسها في حضني ! كنت أقترب من شفتيها وأنهل من رحيقهما ، أو أقبلها على عنقها أو على صدرها ، وتداعب يداي شعرها وصدرها ونهديها ، وهي تتضاحك جذلى وتبعدني عنها بدلال وسعادة ، وتمنّع مصطنع يزيدها إغراء وجاذبية ويزيدني عبثاً ولهواً وحركة ! كانت تردد جملتها وتغير فيها أحياناً أو تزيد منها وتنقّص "توقف أيها الطفل الشقي المدلل ودعني أراقب الطريق فنصل "عشنا" سالمين !" وكأنما قولها يشجع طفلها الشقي المدلل على التمادي في عبثه وشيطنته ، فتزداد هي سعادة وحبورا ً، وترتفع ضحكاتها ويزداد دلالها وتدللها ، ويشتد غنجها وتكسّر جسمها !!

كان النسيم البارد المنعش يأتي إلينا من البحر، فيضرب وجهينا ويصفع صدورنا ، ثم يداعب شعرها فيتطاير فيغطي وجهي ويحمل إلى أنفي أريج عطرها وشذى أنفاسها ، فتلتهب مشاعري وتتأجج أحاسيسي فأضغط عليها أعانقها ... أشمشمها... أقبلها ... أتحسس مفاتنها... أرضعها ... أريد أن أضاجعها والسيارة تنهب الطريق ؛ فتتمنّع وتتضاحك ... !!

كانت الأغنية تنبعث من مذياع السيارة، رقيقة ... حالمة ... ناعمة... تغنيها امرأة عاشقة ، مولهة ، هجرها حبيبها وتركها لوحدتها ولآلامها ودموعها !

كنت موزّع الأفكار بين السرحان مع كلمات الأغنية وتأوهات المغنية ، وبين مداعبات كرستينا وعناقها إذ انتهت الأغنية وتبعتها أغنية أخرى كانت هذه المرة يغنيها رجل ذا صوت خشن أجشّ ، شعرت أنه بصوته قد خدش أحاسيسي وصدم مشاعري ، فحدّ من شطحان خيالاتي وسرحان تأملاتي واندفاع عواطفي؛ فلم أجد نفسي ، وبحركة لا إرادية إلاّ وأنا أضغط على زر المذياع ، علّ أغنية أخرى خيراً من هذه تكون ؛ ولكن بدلاً من ذلك جاء صوت المذياع ورجل يذيع نشرة الأخبار !

سمعت الخبر من منتصفه ولكنني فهمته جيداً كما سمعته كرستينا وفهمته ؛ وهو أن مجموعة من المستوطنين اليهود المسلحين ، والذين يقطنون في مستوطنة قرب مدينة الخليل في فلسطين المحتلة ، قد داهموا المصلين لصلاة الصبح من يوم الجمعة الحزينة في شهر رمضان ، في المسجد الإبراهيمي الشريف ، مسجد النبي إبراهيم ، أبو الأنبياء ، وقاموا بمجزرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ الحديث ولا القديم ، ذهب ضحيتها العشرات من القتلى والجرحى، بينما كانوا سجودا ً... خاشعين في حضرة الخالق ... ! وبسرعة البرق مدّت كرستينا يدها وأزاحت إبرة المذياع إلى محطة مجاورة كانت تبثّ بعض الإعلانات التجارية ! لا شك أنها أدركت السبب !

تراجعت إلى مقعدي وتوقفت عن الحركة وتيبست في مكاني ، لم أبد حراكاً ولم أنبس بكلمة ، ولم تسألني كرستينا السبب ؛ إذ لم أكن هذه المرة أهتم بمداعباتها ولا بالمغني ولا بالأغنية ، فقد انتقلت بأفكاري وعواطفي وكل أحاسيسي ومشاعري

إلى هناك ... الى الوطن الحبيب ، حيث الأهل يذبحون ذبح الشياه ... يمثّل بهم وتقطّع أيديهم وأرجلهم وحتى وهم سجوداً للخالق وفي حضرته !!

ولشدة غضبي وقهري وحزني ؛ تساءلت بمرارة ، إن كان حقاً يوجد خالق لهذا الكون ، ولم لم يثأر لعباده الصابرين المؤمنين الطائعين ... المعذبين المشردين ... والذين طال صبرهم وعذابهم وتشردهم ؟! أحسست بعدها بتأنيب ضمير مزلزل موجع يعذبني ويؤنبني ، فاستغفرت الله العظيم ، وطلبت عفوه وغفرانه ، وأن يرحم شهداءه وعابديه !!

لم يعلق كلانا بكلمة ، وبقينا صامتين بقية الوقت وحتى دخلنا شقتي ، وخلع كل منا ملابسه ووضعنا نفسينا بالفراش ... !

بعد أن دارت بين كرستينا وبيني معركة حامية الوطيس من العناق والقبل ، ركبت فوقها وصرت ألكدها ، وفجأة استعدت شريط الوطن الممزق النازف المقهور ، وأهله الذين يذبحون بدم بارد من أعدائهم ومن حكامهم معاً ... رافقتْ حركات اللكد صوتي يخرج من أعماق وجداني حزيناً مثخن الجراح يرتفع منشداً قصائد الوطن الحماسية ، فوق صدرها... تلك القصائد التي كنا ننشدها طلاباً ، فاشتدت عواطفي واستبد بي الشوق إليه وإلى من فيه ، فصرت أبكي بهستيريا فوق صدرها ، فدفنت وجهي بين نهديها ودموعي تسفح فوق صدرها !

لم تقل شيئاً ، ولم تتفوه بنأمة ، وكأنها تجمدت فجأة في فراشها !!

"عشتِ يا بلادي ما عاش الزمن ، وطن المجد ومجداً للوطن !

قد بنى العرب لنا دار الفخار ، فلنجدد عهد أمس لغدٍ !

راكبين الهول سعياً للأمام... للأمام ! "

انذهلت كرستينا لإنشادي ، ثم انفجرت تضحك بعد أن توقفت عن الاستجابة للكدي لها وحركتي المتواصلة ، فتوقفت أنا عن الحركة أيضاً ، وإن علا صوتي وزاد حماسي والتهبت عواطفي !

حقاً يا أحبائي في الوطن ؛ لقد بنى الأجداد لنا وطناً هو دار للمجد والعز والفخار ، ولكننا نحن

وحكامنا تعاضدنا فتقاسمنا جريمة ضياعه وتمزقه وتشرذمه ، وتساعدنا على إذلال وقهر وتشريد أهله ؛ لم يتبقى منه الا أجزاء مهلهلة !

بقيت مستمراً في إنشادي حتى تورّم الحلق مني وبحّ الصوت ؛ عندها انفجرت أبكي بلوعة ووله ! كفّت كرستينا عن الضحك وشدّت جسمي إلى صدرها ووضعت رأسي بين نهديها ، وصارت هي تمر بيديها على رأسي وكأنما تقرأ عليه تعويذة لتطرد الحسد والشيطان عني وهي تقول :

ـ لا تبكي يا طفلي الصغير ! لقد أحزنتني ... لقد مزّقت قلبي ... أنا لم أرى في حياتي رجلاً يبكي ... ! إنك مسكين ؛ تعال إلى صدر ماما !! أنا آسفة إن كنت قد سببت لك ألماً !

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا أبكي فوق صدر كرستينا ، إذ لعلني نمت بعدها ولم أعي نفسي إلا ضحى اليوم التالي عندما أيقظني رنين الهاتف ، وكان من سانتيش ! لقد وجدت نفسي ممداً إلى جانب كرستينا وهي ما زالت غارقة في سبات عميق !

لم تسألني سانتيش عن سبب عدم مكالمتي لها طيلة يوم أمس والليلة الماضية ، وإن ذكرت لي بأنها هاتفتني عدة مرات ، وأنها وزوجها وابنتهما كانوا قلقين عليّ كثيراً ! أنه ومنذ تعارفنا ، لا يمر يوم واحد دون أن نرى بعضاً أو نتكلم بالهاتف مع بعض !

كنت أكلمها من المطبخ بصوت منخفض والباب مغلق حتى لا أزعج كرستينا في نومها ؛ ولعلها أدركت بغريزتها الأنثوية ، من انخفاض صوتي غير العادي ومن عدم اتصالي بهما ، بأن السبب لا بد وأن يكون امرأة دون أن تشير إلى ذلك من بعيد أو قريب !!

لقد سألتني وعلامات الاهتمام والقلق والخوف بادية في صوتها إن كنت قد سمعت ما حدث بالوطن ، ولما أكدت لها ذلك قالت :

ـ لكي تحوّل إسرائيل أنظار العالم عن جريمتها البشعة التي لم يحدث لها مثيل في التاريخ المعاصر ولا القديم ؛ ولكي تخبر العالم بأن المسلمين هم الهمجيون المتعصبون ، وهم القتلة وسفّاكو الدماء ، فقد أوعزتْ إلى عملائها في لبنان بتفجير إحدى الكنائس المسيحية وهي تغصّ بالمصلين ، مما أسفر عن قتل وجرح العشرات بالإضافة إلى الأضرار التي لحقت بالكنيسة نفسها !

كانت سانتيش تتكلم بصوت حزين وقلب مفجوع !

ومتى حدث هذا ؟! سألت مذهولاً !

ـ المذبحة الثانية حدثت في اليوم التالي للمذبحة الأولى ! أجابت بحنق المقهور ويأس المحبط !

ـ وماذا قالت سيدة الكون وحامية الإنسان ، أميركا ؟! سألت بسخرية ومرارة !

ـ انه من الغريب أن حكومتنا تحاول أن تميّع القضية وتقلل من أهميتها ! لقد سببت تصرفات حكومتنا وحكومة إسرائيل ، لبيتر ولي ، حزناً عميقاً وزادت من كراهيتنا واحتقارنا لكليهما ! قالت بألم .

ـ لقد امتلأت النفس بالكراهية والاحتقار يا سانتيش ، حتى لم يبق متسع لزيادة ! قلت .

ـ إن حكومتنا عبد ذليل وخادم مهين للصهيونية العالمية ! قالت باحتقار وتقزز !

ـ صدقيني يا سانتيش أن بعض بني قومي ، أكثر عبودية وأكثر حقارة وانحطاطاً ! فلم نلوم حكومتكم وبقية حكومات الغرب ، ما زلنا نحن السفلة الأنذال ؟! قلت بغضب عارم وبقرف وقهر وإحباط !

ـ معك الحق ! قالت بيأس !

مرت فترة صمت ليست بالقصيرة توقف كلانا عن الحديث . كنت أفكر بالطريقة التي أبدأ بها بإخبارها عن كرستينا عندما قطعت علي حبل أفكاري !

ـ ذهب بيتر منذ الصباح الباكر إلى المطار لمقابلة شخصية مهمة من قسم التربية والتعليم في رحلة عمل ، وسيتغديان في المطعم مع رجال آخرين ؛ ما رأيك أن تأتي فنأكل من المتيسر بالثلاجة ؟ !

ـ إنني وبكل أمانة وصدق أتمنى ذلك من أعماق قلبي . قلت وقد تمنيت حقاً لو أستطيع تنفيذ رغبتها ، إذ أنني جد مشتاق إليهما ، هي وزوجها وابنتهما ، وأحس بالضياع وعدم الأمان إذا مرّ يوم لم أرها هي به ، ولكنني قلت :

ـ آسف جداً يا سانتيش بأن لا أحقق لك هذا الطلب !

ـ لا بأس ! قالت بلهجة من خاب ظنه .

ـ إذن تعال بعد الظهر ، أكون قد انتهيت من كتابة بعض الرسائل المتأخرة والقيام ببعض المهام المنزلية !

وأخيراً لم أر بداً من إعلامها فتجرأت وقلت :

ـ لقد قابلت أمساً فتاة تعمل بمكتبة الجامعة وقضينا البارحة معاً وهي الآن عندي !

ـ مبروك ! ألف مبروك ! لقد أفرحتني كثيرًا ! حقاً لقد أفرحتني ! صاحت سانتيش بعفوية مفرطة وبفرح غامر أحسسته في لهجتها ونغمات صوتها .

ـ دعني أكلمها لأدعوكما إلى العشاء ، فأنا أحب أن أقابلها ، ولا شك أن بيتر ولوشنتا سيكونان سعيدين كذلك !

ـ إنها ما زالت نائمة وأنا الآن أتكلم من المطبخ ! وبعد أن بلعت ريقي ومررت بلساني على شفتي و أبللهما أضفت :

ـ لقد دعتنا والدتها إلى العشاء في مطعمها هذا المساء !

ـ إذن ، تتعشيا عندنا غداً مساءً ! قالت والفرحة ما زالت تتفاعل في أعماقها وأنا أحسها من خلال أسلاك الهاتف !

ـ إنني متشوقة جداً لممقابلة الفتاة التي اختارها أخي الحبيب ! أوصفها لي ؛ أرجوك !

ـ إنها تشبه الممثلة السينمائية إليزابث تيلر عندما كانت في العشرينات من عمرها ! قلت وقد انتقلت عدوى فرحتها وسعادتها إلى قلبي ونفسي معاً ! وبعد أن لحست شفتيّ بلساني ، أضفت :

ـ لقد ظننتها أول الأمر اليزابث تيلر نفسها !

ـ إليزابث تيلر حنطية البشرة ، سوداء الشعر والعينين وأنا أعرفك تحب البيضاوات ذوات الشعر الذهبي وزرق العيون !

ـ وهل يوجد يهودية ذهبية الشعر زرقاء العينين ؟! سألت بمزيج من السذاجة والبلاهة معاً !

ـ وهل هي يهودية ؟! سألت سانتيش باستغراب !
عندها أدركت أنني ارتكبت حماقة ما كان يجب أن أتفوه بها لساتيش ، فهززت رأسي دون أن يخرج كلام من فمي .

ـ سهيل ! هل هي يهودية ؟!

ـ نعم ! قلت بانكسار وصوت خفيض وهزة من رأسي أيضاً !

مرّت لحظات صمت ولعل سانتيش كانت تحاول أن تخفف من خيبتها وتكبح من جماح غضبها. هكذا تصورت !

ـ وكيف حدث ذلك ؟!

لم أدر ما عنت سانتيش بسؤالها ، فهل عنت كيف حدثت المقابلة ، أم كيف أتخذ صديقة وقومها يذبحون بني قومي ويذلونهم ويشردونهم في بقاع الأرض ؛ فقلت وكأنما ألقي خطبة !

نحن قوم أفّاكون أنذال يا سانتيش ، مدّعون انتهازيون منافقون ، ضعاف النفوس لا ضمائر ولا أحاسيس عندنا ؛ نشترى كالعاهرات ، ونباع كالأنعام ، يسلب لبّنا بريق الذهب وفرج امرأة ؛ إننا أقذر من سقط المتاع وأحط من حشرة ، وأحقر من الحقارة نفسها ، من السلطان إلى الحمّال !

ـ ولم تقول ذلك ؟! ألأنها يهودية ؟! أنك تعرف أنني لا أتعصب لجماعة ضد أخرى ، فكلنا مخلوقات الله !

ـ إذن ، أنتِ لست مستاءة من تصرفي هذا ؟! سألتُ وقد بِدأ بعض من خجلي يفارقني .

ـ طبعاً ، لا ! هناك الكثير من اليهود الذين يعارضون ، وبشدة ، ما ترتكبه حكومة إسرائيل من أفعال مشينة ؛ ثم لولا أن بالفتاة خصالاً شعرت أنها حميدة ، لما كنت طلبت أن تراها وأن تخرج معك !

ـ ما أكبر عقلك وما أعظمك يا سانتيش ! أنتِ دائماً متألقة في تفكيرك وتصرفاتك ! قلت بفرح غامر !

ـ صدقني ؛ أنا مسرورة جداً من أجلك ، وأحب أن أتعرف عليها ! تعالا للعشاء مساء الغد. ، نتوقعكما حوالي الساعة السادسة أو تعالا متى تستطيعا .

ـ إنني مشتاق إليكِ كثيرا ً، ولقد افتقدتك بجنون ... لا أستطيع أن أنتظر حتى مساء الغد ! أتمنى لو أستطيع رؤيتك الآن ! أحبكِ يا سانتيش ! أحبكِ... أحبكِ ... !

ـ الساعة الآن تقارب الحادية عشرة والنصف ، فما رأيك أن تأتيا للغذاء بحدود الواحد ة ، وإذا لم يناسبكما فلتأتيا حوالي الساعة الرابعة وأنتما في طريقكما لتلبية الدعوة ونشرب القهوة معاً !

ـ بدلاً من عشاء الغد ! سألتها .

ـ طبعاً لا ؛ بالإضافة إلى عشاء الغدّ ! وضحكتْ .

ـ سأسأل كرستينا وأهاتفك ، وإن كان عندي فكرة أخرى ، وهو أن نمرّ عليكما بعد العشاء ، هذا إذا لم نمرّ عصراً، إذ أنني مشتاق أيضاً لرؤية بيتر ولوشينتا !

ـ إنهما هما الاخران مشتاقان إليك ! لقد أعلمني بيتر هذا الصباح وهو يهم بمغادرة البيت ! قالت .

ـ أحبكِ يا سانتيش ! أحبك ! لقد أفتقدت نظراتك الحنونة وابتسامتكِ الدافئة أ يضاً ، عندما يمر يوم ولم تعانق به أهداب عينيكِ شغاف قلبي ! أشعر بالبرد بل وفي الصقيع في جسمي وروحي أيضاً !

ـ سهيل ! أرجوك لا تقل اكثر ، أنت تحبني كأختك أميرة او آمنة ، وأنا والله ، أحبك كأخٍ لم تلده أمي ! قالت وأغلقت سماعة الهاتف !

* * * * *

الفصل الثالث

كنت قد اتفقت على الهاتف ، مع السيدة سانتيش هاملتون ، على أن نمعليها ، كرستينا وأنا ، حوالي الساعة الرابعة لاحتساء بعض القهوة ، ونحن في طريقنا لتلبية دعوة السيدة هيرشفيلد للعشاء ! لقد أبدت كل من المرأتين رغبة شديدة في مقابلة الأخرى وذلك لكثرة ما تكلمت لكل واحدة منهما عن الثانية .

تصافحت المرأتان بشوق ولهفة بعد أن قدمتهما لبعض ؛ فقد رأيت ذلك في تعابير وجهيهما و نظرات عيونهما ، وكذلك في الابتسامات الجذلى التي فوق شفاههما !

ـ كم أنا سعيدة أن أقابل الفتاة التي إتخذها أخي سهيل لتكون صديقة له ! إنكِ أجمل بكثير مما وصفكِ لي ! قالت سانتيش وهي تتأمل كرستينا من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها والفرحة تشع من عينيها !

ـ وأنتِ أكثر نعومة ورقة مما قال ! لقد أعلمني أنه يحبكما كثيراً أنتِ وزوجكِ وابنتكما ، وأنكم أهله هنا في أميركا ، وأنه لا يمّر يوم دون أن تروا بعضا ً! قالت كرستينا وابتسامة كبيرة تغطي وجهها !

ـ وانا احب خالي سهيل جداً ! انه دائما يأخذني بسيارته الى اماكن جميلة ويشترى لي العاباً كثيرة ! قالت الصغيرة لوشنتا .

ـ انه يحبك كثيرا ومولع بكِ جداً ! لقد قال لي هو ذلك . قالت كريستينا وهي تبتسم .

ـ بيتر وأنا نحبه كثيراً ونشعر بفراغ كبير عندما يمر يوم دون أن نراه ! اننا في الحقيقة قد تعودنا على بعض !

ـ توقفا أيتها المرأتان عن مدحي والثناء عليّ ، فقد أخشى أن أصدق أنكما جميلتان ورقيقات وناعمتان إلى آخر اسطوانة لطع البقر هذه ! قلت ذلك وانفجرت أضحك ، فتبعتني لوشينتا ثم كرستينا ! وعندما توقفنا عن الضحك ومسح كل واحد منا دموعه بظهر يده قالت السيدة هاملتون :

ـ أنا آسفة !لقد أبقيتكما واقفين طويلاً ! تفضلا إلى غرفة الجلوس ! نطقت ذلك وأشارت بيدها إلى كرستينا أن تتفضل ، فسارت وتبعتها السيدة هاملتون وكذلك الصغيرة ، وسرت أنا خلفهن !

بعد أن اتخذ كل منا مقعده ، قالت لوشينتا وأنا أرى الفرحة والسعادة تقفزان من عينيها !

ـ لقد فرحت كثيراً أن سهيلاً أخيراً صمم على أن يتخذ له صديقة ! إننا كلما سألناه ، زوجي وأنا ، عن السبب كان يحتج دائما بأنه لم يجد بعد الفتاة التي تتوفر بها طموحاته ! سهيل انتقائي جداً !

حقاً ، لقد كانت سانتيش دائماً تستحثني على أن أتخذ صديقة لي ، وحقاً كنت أستمهلها حتى أجد الفتاة التي عندها بعض متطلباتي ؛ ولكن الحقيقة التي لم تذكرها هو أن زوجها كان غير ميال لأن أتخذ صديقة أميركية ، بل عربية ، لأنها ، حسب مقولته ، لن تسعدني، بسبب اختلاف الحضارتين ، وأنه يؤلمه جداً أن يراني أتعذب وقد "جُرحت"؛ كما قال !

سألت كرستينا وهي الأخرى تكاد تطير من الفرح ، اذ لاحظت ذلك على وجهها وفي لهجتها !

ـ وهل تعتقدين أنني أملك بعض الصفات التي يطمع سهيل أن تكون في صديقته ؟!

ـ اطمئني ! إن بك حتى أكثر مما كنت أتوقع ! قلت وأنا أضحك .

ـ شكرا ً! شكراً ! هذا يسعدني جداً ! ثم التفتتْ إلى سانتيش وأضافت :

ـ انه على الرغم من أنني لم أعرف سهيل إلاّ صباح الأمس ، إلاّ أنني وجدته مثالاً للرجولة التي حلمت بها ، وكذلك مثالاً للكرم والشهامة اللتين كنت أمنّي نفسي أن أجدهما في الرجل الذي أحب !

ـ كفى أيتها المرأتان ! لقد بدأت أصدق أن بي كل هذه الصفات الحميدة ... النبيلة ! قلت وأنا أضحك ؛ ولكن هذه المرة لم تضحك ، ولا

واحدة من المرأتين مما أخجلني ، حيث شعرت أن نكتتي كانت سمجة وليست في وقتها ؛ غير أن كرستينا استرسلت :

ـ لقد أمضينا وقتاً ليس بالقليل نفتش عن هدية أحضرها لكِ معنا ، لأنه يعتقد أنه ليس من اللائق أن أراكِ لأول مرة ولست أحمل لكِ هدية ! أليس هذا منتهى الكرم والإتكيت ؟ !

ـ شكراً لكما على الهديتين ! واحدة منهما كانت تكفي ! الشوكلاته أو باقة الزهور ، وكذلك اللعبة للوشنتا ! إن سهيل يعرف أنني أحب الزهور إجمالا ً، وأحب هذا النوع من الشوكلاته بالذات ! قالت السيدة هاملتون بسعادة وهي تبتسم .

ـ الشوكلاته اختارتها لك كرستينا ! قلت .

ـ لقد دفع سهيل ثمن الاثنتين ... الشوكلاته والزهور ! قالت كرستينا .

ـ كما قلت لكِ ، إنه من غير اللائق ويعتبر نقصاً لرجولة الرجل العربي ، أن يجعل أنثاه تدفع وهو موجود معها ! إنه لفعل مشين جدا ً! قلت .

ـ ليت رجالنا يعتقدون هكذا ! إن الواحد منهم يكون هو الذي يدعوكِ إلى المطعم ، ويأمل منكِ أن تدفعي الفاتورة ، على الأقل عن نفسك ! قالت كرستينا وهي تضحك !

ـ إن سهيل يمتلك طاقات كبيرة من العطاء ! إنه يحب أن يعطي دون التفكير بالسداد ! لقد بهرني بكرمه وبثقافته الواسعة ، وبطلاوة حديثه أيضا ً! قالت السيدة هاملتون !

ـ هذا بالإضافة إلى أنه في غاية الوسامة والأناقة ! إن كل من يقابله لا يملك إلاّ أن يحبه ويحترمه وخصوصاً النساء ! لقد أحبته والدتي كثيراً وقالت لي تمسكي به فإنك لن تجدي رجلاً به كل هذه الصفات المميزة مثله ! كما أن النادلة همست بأذني نفس الشيء ! قالت كرستينا ، ثم أضافت :

ـ يوجد في كتبنا القديمة مأثورة تقول ، بأن أقوى الصداقات وأعنف الحب ، كثيراً ما تحدث بعد حدوث أشد الكراهيات والعدوات ! قالت كرسستينا هذا ؛ ولست أدري لماذا فعلت !

ـ سامحك الله يا كرستينا وسامح بني قومك ... إن كل ما هو حكيم ومتميز من أفعال وأقوال تنسبونها لأنفسكم ! إن الحكمة التي ذكرتها الآن قالها الفيلسوف بيدبا لدبشليم الملك على لسان الحيوانات ، وهي موجودة في الكتاب الذي ساعدتني بالعثور عليه صباح الأمس ! قلت وأنا أضحك !

ـ كم أنا مدينة لهذا الكتاب بالشكر ، لأنه جعلنا نتعرف على بعض ! قالت كرستينا متجاهلة تعليقي على بني قومها !

وهنا سألت سانتيش كرستينا كيف تعرفنا على بعض ، فقصّت عليها ما حدث مضيفة بعض البهارات والتوابل !

ـ كان أول يوم لي في وظيفتي الجديدة ، عندما تقدم مني شاب وسيم ومؤدب جدا ، يمشي على استحياء وقال: "هل لك يا آنسة أن تساعديني على البحث عن كتاب لا أعرف حتى اسمه ؟!" وانفجرت كرستينا تضحك ورافقتها سانتيش ولحقت أنا بهما !

ـ وكيف يطلب منك مساعدته وهو نفسه لم يعرف اسم الكتاب ؟! سألت سانتيش من بين دموعها !

ـ لأن هذه هي الحقيقة ! أنا لم أعرف اسم الكتاب بالإنجليزية ! قلت.

ـ وكيف وجدته له ؟! سألت سانتيش باهتمام .

ـ أعلمني مضمون الكتاب فعرفته رأساً ! نحن متعودون على مثل هذه الأسئلة ، ومتدربون للإجابة عليها !

ـ أما نحن فقد تعرفنا على سهيل بطريقة عجيبة غريبة حقاً ! لقد كنت يومها امضى النهار في مكتبة الجامعة ابحث عن مراجع لكتابة اطروحتي في الماجستير . لقد فكر انني اخته التي تشبهني الى حد كبير ... ثم دعاني الى الغذاء وشربت معه فقط فنجان قهوة لأنني كنت قبلها بدقائق قد تناولت وجبة الغذاء . لقد دعوته بعدها ليتعرف على زوجي وحضر الى بيتنا فتعلقت به لوشينتا واحببناه كذلك زوجي وانا ،ثم صرنا بعدها اصدقاء !

ـ أنا لا أحب كلمة أصدقاء ! نحن أكثر من أصدقاء ! أنتِ أختي وبيتر أخي ! قلت بحماس وعاطفة متوقدة وقد رغرغت عيناي بالدمع !

ـ نحن سعداء وفخورون بك يا سهيل ! نحن مدينون للسيد المسيح الذي أهداك لنا ... بيتر وأنا الوحيدين لأبوينا وأمينا ، ونعتبرك أخاً لنا ! قالت سانتيش بحمى دينية !

ـ عندنا في الأمثال يقولون " ربّ أخٍ لك لم تلدَه أمّك !" قلت.

ـ صدقت ! قالت سانتيش وكرستينا تقاطعا بعضاً !

أحضرت السيدة هاملتون بعض القهوة و "الجاتوه" وصارت المرأتان تتحدثان حديثاً عاماً !

لقد تحدثت سانتيش عن والديها وعن مدينتها التي ولدت ونشأت بها ، وعن دراستها وكيف تعرفت على زوجها ، ولماذا أتيا إلى منطقة لوس أنجلوس ، وأين يعمل زوجها وعملها هي ! ثم تحدثت كرستينا عن والديها وكذلك عن أخيها وأختها ودراستها وعملها... وحوالي الساعة السادسة استأذنا للانصراف لنلبي دعوة والدة كرستينا!

ـ سننتظركما بيتر وأنا غداً على العشاء في مثل هذا الوقت أو قبل ذلك إذا أحببتما ! قالت سانتيش وهي تودعنا على الباب !

ـ لم أر امرأة بهذا الإشراق والجمال ! إن لصوتها موسيقى تسحر السامع إليها لعذوبتها ! إنها تذوب رقة وسحراً ، وتكاد تتلاشى لدفئها ونعومتها ! قالت كرستينا بعد أن أغلقت سانتيش الباب خلفنا !

ـ إنتظري حتى تري زوجها ! إنه دماثة الأخلاق والكرم والشهامة مجتمعة ! إنه إنسان واع ومثقف ثقافة عميقة وشاملة ! أنا أطرب وأنا أستمع لما يقول وكأنما أستمع إلى خطيبي المفضل ! إنه رجل بكل ما تحتوي هذه الكلمة من معاني ، شهامة ورجولة وكرم وأخلاق !

ـ أنا سعيدة جداً جداً من أجلك ، وأتمنى لو يقبلاني صديقة لهما ! قالت كرستينا بحرارة وصدق .

ـ صديقتي هي صديقتهما !! إطمئني ! قلت .

بعد أن غادرنا شقة السيد والسيدة هاملتون ووصلنا إلى السيارة ، قدّمت لي كرستينا المفتاح وطلبت إليّ أن أقود سيارتها فاعتذرت ، بحجة أنني لا أعرف الطريق ، وأنه يسعدني أن أستمتع بقيادتها في العودة .

ـ سهيل ! هل لك "قيرل فرند" ؟! أصدقني القول من الآن ! سألتني كرستينا حلما انطلقت بنا السيارة !

ـ لو كان لي واحدة لما كنت أنا الآن معك ! أنا إنسان جاد وملتزم ، لا يؤمن إلاّ بالوحدانية ! أعني امرأة واحدة ! قلت متصنعاً الغضب .

ـ آسفة إن كنت قد جرحت شعورك ... لأنني وقعت بغرامك من أول لحظة كلمتني بها ... أريد أن أتأكد بأنني الوحيدة في حياتك الآن ... أنا سعيدة جداً جداً أنني الوحيدة ! قالت ذلك ومالت علي وقبلتني قبلة خاطفة على خدي الأيسر! ثم أضافت:

ـ أما بالنسبة لي ، فأنت الآن الوحيد في حياتي !

ـ ماذا تعنين بكلمة "الآن" ؟! سألت متصنعاً عدم الفهم !

ـ لقد كان لي صداقات عابرة ، ولكنها لم تكن في يوم من الأيام جدية ! أنا الآن غير ملتزمة لأحد ! وأنت ألم يكن لك صداقات ؟!

ـ ماذا تعنين بكلمة صداقات ؟! سألتها وما زلت أتظاهر بعدم الفهم !

ـ أعني أنه لا يمكن أن تصل إلى هذا العمر وأنت بكل هذه الوسامة والحيوية ولم تكن لك صولات وجولات غرامية ! قالت ذلك وضحكت بسعادة وقد رمتني بنظرة خاطفة من عينيها حرّكت كل محيطات الشوق في داخلي ، ثم أعادت عينيها إلى الأمام تراقب الطريق أمامها !

خلال تلك اللحظة ثارت جميع غرائزي وهجمت عليها أعانقها !

ـ أرجوك توقف عن عناقي ... ! سأصدم سيارة أخرى أو أضرب برصيف الشارع ! قالت وهي تتضاحك بسعادة وتبعدني عنها بدلال !

ـ إياك أن ترميني بنظرة من عينيك مرة أخرى ،لانك تثيرين الحرائق بدمي ! سأعانقك بالشارع وأمام الناس وحتى لو كنت تقودين طائرة وليست سيارة ! قلت وقد ابتعدت عنها وأنا أحاول أن أسكت الوحوش المسعورة في داخلي !

ـ لن أفعلها مرة ثانية ، وأحدنا يقود السيارة ! أعدك ! أعدك ! قالت بنشوة وطرب وهي تضحك بصميمية ! وبعد أن توقفت عن الضحك قلت :

ـ هل تصدقين إن قلت لك بأنكِ أول امرأة أطارحها الغرام في أميركا ؟! قلت غير صادق .

ـ هل صحيح ما تقول يا حبيبي ؟! ما أسعدني ... ! ما أسعدني ... ! إنني سأجن من السعادة ! أرجوك قلها ثانية ! أريد أن أشبع أحاسيسي ... أن أروي ظمأ عواطفي وأنا أسمعها !

ـ يشهد سهيل دهشان ، البدوي القادم من تخوم حفر الباطن ، والذى حرّقت جسمه صحرائي تهامه والربع الخالي ، أمام إبنة عمه الآنسة كرستينا هيرشفيلد ، بأنها المرأة الأولى في حياته التي ينام بها مع امرأة ، منذ أن قدم إلى أميركا ! قلت بتمثيل مبالغ به !

ـ أرجوك ان تتوقف عن الكلام ، فأن قلبي سيطيرمن الفرح أو أنه سيتوقف عن الخفقان ! قالت وهي أفاسها بصعوبة ! وقفت السيارة ، ثم صارت تقبلني أمام الناس !

ـ أرجوكِ ! أنا لا أشعر بالحرية أمام الآخرين ، فلنؤجلها حتى نعود إلى الشقة ! قلت وقد شعرت بالإحراج أمام سائقي السيارات القادمة والمغادرة وأمام الناس المارين على الرصيف ، وإن كنت واثقاً من أن لا أحد منهم ينظر إلينا ! نحن لسنا بالشرق بلاد القحط وبلاد "التابوهات" ! إنهم يعتبرون هذا التصرف حرية شخصية يجب إحترامها بعدم النظر اليهم !

وبعد أن استقامت في مكانها خلف مقود السيارة تابعت سيرها !

ـ آسفة يا حبيبي !

لقد فقدت السيطرة على عواطفي ! إنك تتكلم كلاماً وكأنه يأتي من السما ! أنني في بعض الأحايين أظن أنني أحلم أو أنني في الجنة حقاً ! أنت لا تتكلم كلاماً عادياً ... أنت تنظم قصائد غزل !

ـ إنك تبالغين يا آنسة كرستينا ! أنا أتكلم كلاماً عادياً ؛ ثم أنني أتكلم بما أشعر به نحوكِ ! قلت صادقاً !

ـ أنا واثقة من ذلك ! ولهذا السبب يخيل لي أحياناً أنني أحلم أو أنني بالجنة ! على كل حال هل لك حبيبة في الوطن ؟!

ـ نعم ! طبعاً ! أحبها بجنون وتدله ! إنها أغلى ما في هذا الكون كله ! إنني لا أبالغ إن قلت لكِ أنني أحبها أكثر من عيوني ! قلت بحماس صادق .

ـ ما أسعدها ! قالت كرستينا بلهجة تضجّ بخيبة الأمل والإحباط معاً !

ـ ولهذا السبب أنك تخاطبني دائماً بالآنسة كرستينا ، ولم أسمعك تنطق كلمة حبيبتي قط ، مع أنني أنا قلتها لك مرات !

كانت الغيرة ظاهرة وفي كلامها !

ـ أولاً، قلت لكِ أنا إنسان ملتزم ، ولا أحب أن ألقي الكلام على عواهنه ! أنا تعرفت عليك فقط صباح الأمس ، وأريدك جداً جداً، وسأحزن كثيراً لو أنني لم أنل صداقتك أو أنني لم أكن معك الآن ؛ ولكن الوقت مبكراً لأعرف صدق شعوري الحقيقي نحوك ! قلت بتأنٍ وقد إستعملت يدي اليمنى لتؤكد مقولتي !

ـ أنتَ على حق ! ولكنني أقسم لك بحبي لأمي وأبي ... وبحياتي أيضاً ... أنني أحببتك من أول كلمة قلتها لي ! أنا أقدس عواطفي ومشاعري ! قالت وحزن ما زال يخيم على وجهها وفي لهجتها !

ـ أصدقكِ ! وأنا واثق من ذلك ! أنا فقط لم أجرّب الحب يوماً ، وأتمهل لكي أحكم على عواطفي ! فهل الذي أحسه نحوك حب أو مجرد شهوة عابرة ! قلت ذلك ثم استدركت :

ـ أعني ؛ لقد كان حبي دائما من طرف واحد ، فالفتاة التي كنت أحبها لا تعرف شئيا عن هذا الحب ، ولا حتى تعرف ان هناك انساناً اسمه سهيل ! لقد احببت بعضهن حتى العبادة والتقديس ، ولم يكن يشعرن بوجودي بل لا يعرفن حتى اني خلقت !

ـ أرجوك ، لا تقل هذا أبداً ! قالت بجزع وقد انحرفت ووضعت يدها اليمنى فوق فمي !

ـ أنتِ أسأت فهمي ! أنا أقول مثلاً... مثلاً ... ! إن ما أشعر به نحوك لا يمكن أن يكون مجرد شهوة عابرة ... مرة ثانية أنا أقول مثلاً... ! أريد أن أتأكد من عواطفي نحوك أولاً !

ـ شكراً يا حبيبي ! شكراً يا سهيل ! ما أسعدني بك ! إنني أشكر الله الذي عرّفني عليك ! قالت وسحابة من الحزن ما زالت تغطي وجهها ! ثم استطردت :

ـ ومتى ستأتي الفتاة التي تحب من الوطن لتنضّم إليك ؟! سألتْ .

ـ أي فتاة تعنين ؟! سألتها وقد حملقت بها وقطبت ما بين عيني ، متظاهراً بعدم معرفة ماعنت !

ـ الفتاة المدله والمجنون بحبها والتي تقول بأنك تحبها أكثر من عيونك ؟! سألت بعصبية ظاهرة !

انفجرت أضحك بصوت عالٍ ، وهي تحملق بي مشدوهة مستغربة ! لم أستطع أن أوقف نفسي عن الضحك المتواصل ! مضت مدة ليس بالقصيرة حتى توقفت عن الضحك !

ـ وما المضحك فيما قلت ؟! وهل حقاً ما قلته يدعو إلى الضحك ؟! سألتْ بغضب وقد أوقفت السيارة وبدأت تحملق بوجهي وشرر ناري يخرج من عينيها المشتعلتين !

ـ الفتاة ... أعني الفتاة ... أقول المرأة التي أنا مدله ومجنون بحبها هي ... أميّ !

وكأنما قلت شيئاً محزناً بل مفجعا ً، إذ انفجرت كرستينا تبكي بهستيريا و بصوت عالٍ مما أفزعني بل أرعبني ، ولكنني بقيت صامتاً احتراماً لبكائها ! وبعد أن توقفت عن البكاء أدارت وجهها نحوي وقالت :

ـ آسفة يا حبيبي ! من الصعب جداً أن أوضّح لك حقيقة عواطفي ! عندما قلت بأنك تحب امرأة في بلادك فكرتها حبيبة فشعرت بغيرة ممزقة تأكل أحشائي ... أما الآن وقد عرفت أنها أمك ... فلست أدري ما أقول سوى أنني شعرت بأن روحي قد ردّت إليّ ثانية ! ثم فجأة عانقتني ، وألقت بنفسها على صدري ، وصارت تبكي بدموع غزيرة حيّرتني ... !

أ رجوكِ لا تبكي يا كرستينا ! لقد تأكدت الآن من شعوري نحوك ،وهو أنني أحبك حقا ً! قلت بعد أن فككت ذراعيها من حول خصري وبدأت أنظر في عينيها وأتأمل وجهها !

*****

الفصـــــــــل الرابع

وفجأة تذكرت رفيقة الطفولة شهية ! ولست أدري لماذا تذكرتها في هذه اللحظة وفي هذا المكان بالذات...؟! هل هي مقارنة بينها وبين كرستينا ؟! هل هي مقارنة بين الحرية الفردية الغربية والمحرمات العاطفية الشرقية ؟! أم هل هي إدراك مذهل للتقدم التكنولوجي عندهم ، والتخلف الحضاري عندنا ؟! لست أدري ؟! نعم ، لست أدري ! اللعنة ! اللعنة ... ! ياله من ألمٍ وإحباطٍ عندما لا يستطيع الأنسان أن يميز بين الخير والشر ، بين الحقيقة والزيف ، وبين الواقع والخيا ل !

ـ دعيني أحدثك عن شهية أولا ! قلت لكرستينا وناظريّ ما زالتا تجوسان خلال عينيها ووجهها وشفتيها !

ـ وما هذا الشيء الذي اسمه شهية ؟! سألت.

ـ شهية هذه فتاة ... مخلوقة ... إنسانة مثلك ومثلي ... وليست شيئا ً! قلت وأنا أضحك !

ـ قبل أن تحدثني عن "شجيّة" لماذا لم تسألني إن كان لي "بوي فرند" أو تسألني إن كنت أحب الآن أنساناً أو أنني قد أحببت في حياتي ؟!

ـ لأنه لا يهمني ماضيكِ ! إن كل ما يهمني عنك هو منذ اللحظة التي تعرفت عليك بها ... أي منذ الأمس ! أما قبل ذلك فلا يهمني ... إنها حياتكِ وأنتِ حرّة تفعلين بها ما تشاءين ! لقد قلتِ بأنك غير ملتزمة وأنه ليس لكِ صديق دائم ، وأنك تحبين أن تكوني صديقتي فوافقت ! هذا كل ما يهمني ! والآن دعيني أحدثك عن شهية ! إسمها شهية وليست شجيّة ! قلت .

ـ أرجوك حدثني عنها بالتفصيل ! أنا بشوقٍ أن أعرف كل شيء عنك ! إن مطعم والدتي ما زال بعيداً من هنا ، وما زال معنا كثيرٌ من الوقت ؛ فحدثني عنها :

ـ لقد كانت شهية جارتنا في الكروم ... أول أنثى خفق قلبي أول ما عرف قلبي خفقان الحب ! كنت في مثل سنها ... عشر أو إحدى عشر سنة لا أذكر بالضبط ، عندما قدّمت لها منديلاً أبيض اللون من النوع الرخيص ، مرسوم عليه قلب يخرج منه سهم ، والدم ينزف من القلب ، وبقع الدم شديدة الاحمرار ! لقد أشتريته لها من دكان عبد العمد ، في مدينتنا الباسلة الصامدة ، دفعت ثمنه بعض الحنطة ، التي أخذتها من "كوارة القمح" في دارنا ، دون علم والدتي أو أحد من أخواتي وأخواني !

ـ لم أفهم ما دخل الحنطة بالمنديل ؟! سألت كرستينا وعلائم الاستغراب تغطي وجهها !

ـ كنا في الوطن أيام كنت صغيراً نأخذ ما تنتجه الأرض أو الحيوانات ونذهب به إلى البقال ، فنتبادل ما عنده بماعندنا ... فمثلاً آخذ أنا بعض الحنطة أو الشعير أو العدس أو الذرة ... وربما البيض ، ونعطيه لصاحب البقالة مقابل أي شيء متواجد في بقالته ، وهو كلما تجمع عنده كميات منها يبيعها بنقود أو يشتري بها هو بدوره البضائع التي تحتاجها بقالته !

ـ هذه تسمى المقايضة ، أي مبادلة سلعة بأخرى ! لقد كان الإنسان يستعملها قبل الوصول إلى فكرة صكّ النقود ! فهل كنتم تستعملونها في مدينتكم وأنت صغير؟! سألت كرستينا باندهاش .

ـ إنهم ما زالوا يستعملونها إلى اليوم ، وسيظلون يستعملونها في المستقبل في كثير من القرى عندما لا يكون مع المشتري نقودا ً! لقد اشتريت أنا نفسي مرات كثيرة دفاتر وأقلام للمدرسة وكاز وحلاوة وتمر و " ملبّس حامض حلو " وغيرها ، مقابل بعض البيض أو الحبوب !

ـ يا له من شيء ممتع جدا ً! أنها رومانسية جميلة ! قالت كرستينا بمتعة وتلذذ !

ـ سألتني الصغيرة البريئة الساذجة شهية ، لم هذه المحرمة ؟!ولما أجبتها هذه لكِ لتتذكريني ؛ إحمرّت وجنتاها وازرقت شفتاها ، وتطاير الشرر من عينيها ، وبدأ جسمها يرتجف غضبا ً ... وقد تكون قد شعرت بالإهانة وعدم الاحترام ! رمت المحرمة في وجهي وكلماتها ما زلت أذكرها إلى اليوم ، وما زال صداها يرنّ في أذنيّ حتى هذه اللحظة !

"أنت ولد فاصخ... رزيل... وقليل أدب كمان ! والله لأقول لأميّ ! " قالت شهية بغضب لاهب !

ـ أنا بحبك يا شهية ! اشتريت إلك هاي المحرمة ، شايفة عليها صورة طيرو قلبه مجروح بنزل دم ، من دكّان عبد العمد. . أعطتني أمي بيضة أشتري بيها ملبس " حامض حلو " ، بدّيتك على نفسي واشتريتلك بيها محرمة !

ـ الله يحبك الحب ويبغضك الرّب ! إنتَ ولد رزيل وفاصخ وكمان قليل أدب ! والله ، والله لأقول لأمي ! قالت وهي تصرُّ على مقاطع الكلمات لتؤكد مقولتها ، وكذلك وهي تهز إبهام يدها اليمنى !

ـ آه يا خالتي أم عوده ! خلعتي آذاني من مطرحها ! و الله لأتوب ؛ ان عِدْتها مش بس تشلعي آذاني ، اقطعي لساني كمان ! راسي طلع من سقف بيت الشّعر ورجليّي تكسّرت من كثر الضرب !

ـ ولَكْ لسّع ما صار عمرك عشر إسنين ، ولسّع ما طلعتش من البيضة ، وبعدك بتعيط على الخبز، والخرى لسّع بعده على صرمك ! و بتحب كما ... اااان ؟! الله لا يعطيك عافية !!! قالت أم شهية وهي تصرّ على أسنانها !

ـ إذن ، لم أكن مخطئة عندما قلت لك صباح الأمس بأنك ولد شقي ! قالت كرستينا وهي تضحك و تمسح دموعها بمنديل قماشي أخرجته من حقيبة يدها !

ـ المهم ، غادرتني شهية مسرعة وأنا متجمد في مكاني تستبد بي حالتان مقلقتان ؛ الخيبة من رفضها لحبي وعدم استجابتها لمشاعري ، ثم الخوف من تنفيذ تهديها ؛ وعقاب أمها لي، وكذلك خزوتي أمام أقراني !

ـ وما الخطأ الذي ارتكبته حتى تغضب هي أو أمها ؟! لقد رفضت فهذا حق لها ! أنت لم تؤذها لا جسدياً ولا نفسياً ! ثم لماذا تعتقد أن أمها ستغضب ؟! يجب أن تفرح أن أبنتها ومنذ صغرها يتودد إليها الأولاد !

لم أعلق على مقولة كرستينا تجنباً لايضاحات لن تفهمها هي بسبب الفرق الشاسع بين الحضارتين ؛ فتابعت كلامي وحنين ممزق يكوي كبدي للماضي البعيد !

ـ إن أم شهية قوية الشكيمة ، جريئة جداً إلى درجة الوقاحة ... سليطة اللسان ، يخافها الرجال والنساء معاً لجرأتها وقوة منطقها ولبلاغة حجتها !! لعل شهية لم تخبر أمّها بما حدث أو لعلها قالت لها ولكن أمها لم تعطِ القضية اهتماماً ؛ أو لعلها كما قلت أنتِ يا كرستينا ، قد سرّت في داخلها لأن البنت التي ولدتها يغازلها ويقع في حبها أقرانها وهي ما زالت طفلة صغيرة ؛ هكذا ظننت !

ـ هذا هو المنطق الحضاري يا حبيبي ! قالت كرستينا .

ـ المهم ، ارتحت لهذه الفكرة واطمأنيت بعض الشيء ، وفارقتني بعضاً من قلقي وتوتري ، وإن بقيت أسبوعاً اتحاشاها وأعيش في دوّامة رعب خوفاً من بهدلة أمّها ومعايرة الأولاد والبنات ، أقراني لي ... ثم سخرية الكبار مني؛ أنا الولد "الفاصخ الرزيل!" الذي يضايق بنات الجيران ، ويفكر بالعشق والغرام وهو ما زال طفلاً !

ـ آه ! ليتني أنا تلك البنت الصغيرة التي قدمت لها المنديلّ ! قالت كرستينا وقد التصقت بي !

"إن هدية ولد إلى بنت منديلً تعني بأنه يحبها ، فإذا أخذته منه معناها هي كمان بتحبه ، وإذا ما اخذتهوش معناها انقلع وما تورنيش وجهك !" هكذا سمعت يوماً ابن جارنا حسين ، والذي يكبرنا بخمس أو ست سنوات ، يخبر صديقه وإبن جيراننا سليمان ، الذي في مثل سنه ! قلت.

ـ يبدو لي أنكم كلكم في بلادكم تمارسون العشق وأنتم أطفالاً ! علقت كرستينا على ما قلت ، وهي تبتسم !

ـ نعم ، أننا جميعاً فحول ، وكلنا عشاق معاميد منذ الصغر ! إن كل ما يشغل عقل الطفل منذ صغره هو ما بين فخذي البنت ، وجلّ ما يشغل فكر المرأة هو ما بين فخذي

الرجل وما يعطيها من ذهب والماس وما يوفره لها من متع الدنيا ورفاهيتها ... ! العقل عندنا ليس له قيمة ... العواطف عندنا ارخص من الفجل ... الرومانسية لم نسمع بها ...الحب والحنان والدفيء ترف لا نحتاجه ولا نفكر به ... ! ولهذا نحن مجتمعات متخلفة ... ! قلت بغضب لاهب !

ـ حبيبي سهيل ! أنت تتكلم أحياناً ألغازا ً! أنت تقول كلاماً لا أستوعبه ! قلت لك لا أفهم ما تقول ! قالت كرستينا شبه محتجة !

ـ آسف يا حبيبتي أن أخرج أحياناً عن النصّ ! أنا انسان ملعون ...مرعوب ... مقموع ... دائما اغرد خارج السرب ...!

ـ لقد فارقني الرعب بعض الشيء ، وهدأت خواطري وأنا أعلل نفسي بأن شهية ربما لم تقل لأمها ؛ أو أنها قالت ولكن الأم لم تعر القضية اهتماما ً، معللة ذلك بأنه "لعب عيال" ! ولكن الرعب عاودني من جديد، بل تضاعف خوفي وقلقي عن السابق ؛ عندما تذكرت قصة أم شهية ، التي ما زال الجيران ، أفراد فريق بيوت الشعر، يقصّونها على بعضهم ... يضيفون إليها ، ويتفننون بالإضافات والتعليقات ... يملحونها ويبهرونها ، فيتندرون ويضحكون ؛ كأنما حدثت البارحة ، مع أنه مضى على حدوثها أكثر من شهر ! إنهم يرونها لبعض، ويرونها حتى أمام أم شهية ، وقد يسألونها أحياناً كيف حدثت وأن تقص عليهم تفاصيلها فتضحك هي بسعادة وجذل وأحياناً تتمنع وبدلال عن الإجابة ، رغم إلحاح السائلين؛ فتكتفي بالقول: " لقد أثار الرجل قرفي واشمئزازي وكذلك شفقتي وحزني معاً ، وهو راقد تحتي يتلقى ضرباتي ورفساتي ، كالحيوان المستضعف !"

ـ ما هي القصّة ؟! بالله حدثني عنها بالتفصيل! يبدو أنها قصة شيقة وممتعة ! قالت كرستينا باهتمام صادق وهي تحملق بي وقد اتسعت عيناها !

ـ ان مجريات القصة هي أنه ؛ كان أحد أفراد فريق بيوت

شعر مجاور، وأبنه الذي في مثل سننا ، يرعيان ببعض الأغنام في السفح الذي كان مزروعاً بالحنطة وحُصد ، و كان المجاور له كرم عنب أهل شهية . لعلّ إحدى الأغنام غافلت مالكها وإبنه وتسللت إلى داخل الكرم وقضت على منتوج دالية عنب كاملة ، آكلة البعض وقاضية على القسم الآخر ! كان والد شهية ، كعادة معظم أصحاب الكروم في الصيف ، يعملون في كرومهم ... يبنون السلاسل المهدمة ... ينشئوون سلاسل جديدة ... يصلحون ما تهدّم من صور الكرم ... يزيلون الأعشاب البرية ... أو يقطعون الأغصان الزائدة ... وعندما شاهد ما فعلت الشاة بداليته ، انقض عليها بغضب مستعر يضربها ويشتم صاحبها !

ـ لما ذا لا يشكونهم إلى الشرطة بدلاً من أن يأخذ الواحد منهم حقه بيده ، كما كانت تفعل المجتمعات البدائية ؟!

تجاهلت مرة أخرى سؤالها لتأكدي من أنها لم تعنِ الإساءة وكذلك لن تفهم ما سأقول ، فاسترسلت :

ـ يبدو أن الرجلان تزاودا في الكلام ، فهجم صاحب الماعز على والد شهية ، عبد الله ، وألقاه أرضاً وصار يضربه ويرفسه على كل مكان في جسمه تقع عليه يديه وقدميه ، ووالد شهية يتأوه ويلعن ويتوعد تارة ، ويتألم ويستنجد تارة أخرى !

ـ كان يجب على صاحب الماعز أن يعتذر لأبي شهية لا أن يضربه ما زال أنه لم يطلب له البوليس ! هذا هو التصرف الأخلاقي والحضاري أيضاً ! قالت كرستينا باهتمام صادق .

ـ حقاً هذا ما يفعله الإنسان الحضاري ، ولكن نحن، سامحنا الله ، نعيش في مجتمع بدائي ... مجتمع الغاب ...القوي يأكل الضعيف ! المهم أن أم شهية كانت أثناء عمل زوجها تقطف التين غير بعيدة من مكان تواجد زوجها ، وإن كان الجميع يؤكدون بأن الرجل لم ير أم شهية وإلا لما تجرأ وضرب الزوج ، لأن المرأة معروفة جيداً بجرأتها وقوة شكيمتها لجميع سكان المنطقة ! كان أول من رأى أم شهية مقبلة كالعاصفة هو ابن الرجل الضارب ، الذي صاح مرعوباً بأبيه "أم عوده أجت يا بوووييه ... ! " وبسرعة مذهلة نهض الرجل من فوق والد شهية وأطلق قدميه يسابق الريح في الاتجاه المعاكس !! لم تتوقف أم شهية بعد أن توقف الرجل عن ضرب زوجها ، وإنما راحت تجري خلفه بسرعة مجنونة حتى أمسكت به وألقته أرضاً ... وصارت تضربه ضربات قوية موجعة ؛ بيديها وقدميها تارة ، وتعضه بأسنانها تارة أخرى ، وهي نائمة فوقه ... والرجل يحمي نفسه بيديه من اللكمات والرفسات ، يصيح ويستنجد بكل ما عنده من طاقة !

ـ بارك الله بها ! لو كنت مكانها لفعلت مثلما فعلت ! حقاً إنه رجل شرير وقح ! قالت كرستينا بحماس ممزوج بالغضب وكأنما تشاهد ما حدث أمامها الآن !

ـ يؤكد الذي شاهدو الحادثة ، بأنه لولا فزعة رجلين كانا يمران بالطريق صدفة ، استنجد بهما الأبن ورجاهما بلهفة وحرقة ووله ، أن يهبّا لنجدة والده وتخليصه من بطش المرأة ، لكانت أم شهية قد قضت على الرجل ولربما ما تركته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ! لقد كانت في تلك اللحظات حزمة متأججة من الغضب المجنون ! كان الشرر يتطاير من عينيها والزبد يقذف من فمها !

ـ ما زلت أعتقد أنه رجل سيّئ ، ويستحق كل ما حصل له ! قالت كرستينا بتشفي ثم سألت :

ـ وهل زوجها شريرٌ مثلها ؟! هل هو يرعب الآخرين مثلها ؟!

ـ انه على عكسها تماما ؛ انه كما يقولون عندنا في الامثال "القطة تأكل عشاءه !"انه انسان مسالم جدًا هادئ ووديع ؛ لم ُيغضب احداً في حياته ؛ الكل يحبه والجميع يحترمونه !

ـ ما زالت هذه حاله فهو يحتاج الى امرأة مثل زوجهته لتدافع عنه ! قالت كريستينا وهي تضحك !

ـ المهم ، عندما استعدت تلك الحادثة في مخيلتي ، استولى على الرعب من جديد ، وبدأت أعيش هاجس تأديب أم شهية لي لتعلمني درساً في معاملة ابنتها

واحترامي لها ! كنت أتجنب الاحتكاك أو الانفراد بل حتى النظر إلى شهية مخافة أن تلتقي عيوننا ، أثناء لعبنا نحن الصغار ، أولاداً وبناتاً ؛ كما أنني كنت جد حريص على أن لا أكون بمفردي مع أم شهية !!

ـ أنني لا ألومك أبداً ! لو كنت مكانك لما بقيت وحدي ! قالت كرستينا باهتمام .

ـ كان فريقنا يتكون من ستة بيوت شعر متجاورة مصنوعة من شعر الماعز الأسود ، جمعت الألفة والمحبة وكذلك التفاهم والانسجام بين ساكنيها من جهة ، كما فرضتها طبيعة تجاور كرومنا والتصاقها ببعض من جهة ثانية . أني منذ أن وعيت نفسي ، وأنا أرى هذه المجموعة من بيوت الشعر تبني كل صيف في أماكنها ، وتُرحل في نهايته وتُعاد إلي المدينة !! كان موقع هذه البيوت المصنوعة من شعر الماعز والتي تبنى في هذه المضارب والتي يسمونها "المراح" عبارة عن قطعة من الأرض الواسعة المستوية والذي يزرعها صاحبها حنطة عاماً وشعيراً عاماً آخر ؛ وكنا نحن جميعاً ، أصحاب هذه البيوت الستة ، نأتي إلى هذا المكان بعد أن يكون صاحب الحقل قد حصد زرعه وجمع منتوجه ؛ وحيث يكون قد حان وقت المجيء والسكن بجانب كرومنا للإصطياف ولقضاء فصل الصيف ! كان يمتد عادة إلى شهرين ونصف وربما ثلاثة شهور ؛ وكأنما بيننا اتفاق على هذا الموعد !

ـ ما أسعدك يا حبيبي ! لا شك أنك كنت تعيش حياة كلها رومانسية ومرح ! قالت كرستينا .

ـ نعم ، كانت الحياة بسيطة في تلك الأيام ، ومتطلباتها سهلة التحقيق ، والناس يرضيهم القليل القليل .... طموحاتهم صغيرة وأحلامهم متواضعة ، ولهذا السبب كان الناس سعداء !

ـ ليتني كنت إلى جانبك يا حبيبي ! قالت ذلك ومالت برأسها وأسندته على صدري .

ـ ليتك يا كرستينا ! ليتك ! لقد كنا نبني بيت شعرنا ملاصقاً لكرمنا ، حتى أن حباله الغربية كانت تعانق سور الكرم وتمتد فوقه ، وتدقّ أوتاده داخل الكرم ! كان الوقت ضحى ، وقد طلبت مني أمي أن أبقى في البيت مع أختي الصغيرة النائمة ، حتى عندما تستيقظ تجد أحداً معها . ذهبت هي وأخواني وأخواتي منذ الصباح الباكر إلى داخل الكرم ، لقطف كميات كبيرة من العنب ، إذ أن هذا اليوم هو اليوم الذي يعمل به دبس العنب ، الذي عادة هو صنفاً مهماً من المؤنة الغذائية الشتوية !

ـ لقد قرأت أن المزارعين الأميركيين والأوروبيين كانوا في الماضي يخزّنون مؤنة العائلة لفصل الشتا ء وقت الصيف ! قالت كرستينا.

ـ نحن في الوطن ما زلنا نفعل ذلك حتى الآن ، على الرغم من زراعة كثيراً من المنتوجات الغذائية في فصل الشتاء ! لقد كنت أنتظر مجي رفاقي ، أولاد الجيران ، لنعلب الكورة التي هي عبارة عن حزمة من الملابس البالية خاطتها لي والدتي على شكل كورة ؛ أو لنبني بيوتاً من التراب أمام بيتنا . كنا نحن الصغار صبية وصبايا ، والذين

تتراوح أعمارنا بين الخامسة والثانية عشرة ، و كان عدد الصبايا يزيد قليلاً عن عدد الصبية ، و كان عددنا مجتمعين يزيد قليلاً عن الدستة .

ـ إن عندك ذكريات حلوة، عن الريف ! أنا عشت في مدينة كبيرة بلا ذكريات رومانسية ! قالت كرستينا .

ـ سأعوّضك عما فاتك ! ثقي بي ! سأجعل حياتك كلها حب ورومانسية ! فقط انتظري حتى ترينّ ! قلت بحماس !

ـ آه يا حبيبي ! كم أنا حزينة أنني لم أقابلك منذ حضورك إلى أميركا ! قالت بتوجعٍ أحسسته بمشاعري !

ـ لا تحزني ! سأعوضها لك ! أنا واثق أنني سأفعل ، أن شاء الله ! قلت ذلك و عندي هاجس الصدق !

ـ أكمل قصتك يا حبي الكبير! أنا آسفة إنني قاطعتك كثيراً!

ـ كانت عيناي ترقبان ظهور بعض الصبية في ساحة الملعب ، وأن كان جلي انتباهي مركّز على بيت عبيدالله ، والد شهية ، والذي يقع أمام بيتنا تماماً ! كنت أرقب الداخل والخارج اليه ! لا أستطع رؤية أحد ، إذ كان بابه من الجهة الثانية والرواق مسدول . إن الجيران يعرفون جيداً تحركات بعضهم بعضاً ، ويعرفون حتى ماذا سيطبخون في اليوم التالي ! لقد سمعت أمي تقول إلى الجيران في سهرة الليلة السابقة ، حيث يجتمع الجيران كل مساء في بيت أحدهم يسهرون ويشربون القهوة المرّة ويتسامرون ... سمعتها تقول بأنها ستجمع العنب صباح الغد لعمل الدبس !!

ـ هل الدبس الذي تتكلم عنه هو الذي نسميه نحن مربى العنب سألت .

ـ أننا نعمل جزء من العنب مربى ونعمل جزء منه الدبس الذي أتكلم عنه ... أما الجزء الثالث فنسميه " الملبن "وهو على شكل صفائح كبيرة ورقيقة .

ـ أعرف الزبيب ومربى العنب أما الأنواع الأخرى فلا أظن حتى المزارعين عندنا يصنعونها ! قالت كرستينا .

ـ المهم ، لقد رسمت خطتي بأنني حالما أرى أم شهية مقبلة نحو بيتنا من بعيد ، أن أنسلّ من تحت الرواق الخلفي ، ولكن لشدة دهشتي و فجأة ارتفع الرواق الخلفي وبسرعة مذهلة وجدت أن كرمة ، والدة شهية ، تقف فوق رأسي وقد باعدت بين رجليها، وبدوت أنا كأرنب مذ عور صغير متجمد بين ساقيها !

ـ يا للهول ! لقد كنت محقاً في مخاوفك ! يبدو أن المرأة حقاً شريرة ! قالت كرستينا وقد علت وجهها سحابة قاتمة من الخوف والقلق !

ـ هي ليست شريرة . أبداً . إنها على العكس من ذلك ، إمرأة طيبة ... كريمة ... عطوفة ... يحبها ويحترمها كل من يعرفها ... ولكنها امرأة قوية الشكيمة ! الويل لمن يعتدي عليها أو على أحد من أفراد عائلتها !

ـ ولكنك لم تعتدي على إبنتها ... على العكس ، أنت تحبها ! قالت شبه مستنفرة !

ـ ألم أقل لك يا حبيبتي أنه من الصعب عليكِ أن تفهمي فروق الحضارات ؟ أنتم الأميركان تظنون كل شيء يسير حسب عاداتكم وتقاليدكم ! أذكر أنني كنت أحاضر في بعض طلبتي عندما أعلمتهم بأن اللاجئين الفلسطينيين يعيشون في مغارات ، ليس عندهم ما يأكلون ولا ما يتغطون به ، عندما سألني أحد الطلبة "وهل تعني يا بروفسور أنه لا يوجد عندهم تلفاز ؟ ! "

ـ وماذا أجبته ؟! سألت كرستينا !

ـ لم أجبه سوى كلمة شكراً للسؤال ، وتابعت المحاضرة ! حقاً ،لقد رثيت لجهله وغبائه أيضاً !

ـ أعتقد أنك كنت رائعا ً! لن أسأل بعد اليوم مثل هذه الأسئلة ! قالت كرستينا !

ـ على العكس من ذلك ! أريدكِ، بل أرجوكِ أن تسألي كل ما يدور بخلدكِ ؛ ولكن الذي أطلبه منكِ ، هو أن لا تستغربي أن كان ما أقوله صعب التصديق ، وقد لا يتفق والمفهوم الأميركي !

ـ نعم يا حبيبي سأفعل ! أنا آسفة ! إنه وبسبب عدم خبرتي بما يحدث بالمجتمعات الأخرى ، استغرب كيف أن امرأة تعاقب شاباً لأنه لاطف ابنتها ! كان يجب عليها أن تكون سعيدة جداً وأن تفتخر !

ـ المشكلة هي أنهم لا يعتبرون مثل هذه التصرفات ملاطفة ، ولكن اهانة واعتداء ! وتصورت في تلك اللحظة كيف أن "الشوحة" تنقضّ كالصاعقة من كبد السماء على فرخة صغيرة تقف على الأرض ، وعندما ترى الفرخة المسكينة الشوحة المنقضة عليها ، تتجمد في مكانها من شدة الخوف وتفارقها إرادة الحركة ! هكذا حدث لي ، إذ على الرغم من أن اتساع باب بيت الشعر الذي يتجاوز العشرة أمتار، وأنه من المفروض أن أهرب وبسهولة ولا أمكّنها من الإمساك بي ، إلاّ أنني تجمدت في مكاني ، حالما رأيتها مقبلة نحوي !

ـ لاحظت أن عيني كرستينا قد اتسعتا وأنها صارت تحملق بي وعلائم الخوف والقلق تظهران على وجهها ، وكأنما هي تشاهد أم شهية منقضّة عليّ لتضربني !

ـ لقد كانت أم شهية ، "كالشوحة" التي "خوت" على دجاجة في الأرض فتجمدت ! أما أنا فلم أستطع حتى تحريك جسمي ! لقد أحسست كأنما أم شهية صقراً جارحاً انقضّت عليّ من السماء ، وأنا فرخة لا حول لها ولا قوة ! انحنت عليّ ودون أن تفتح فمها أمسكت بيديها الاثنتين بكلتا أذنيّ ، وضغطت عليهما بقسوة فشعرت كأنما خرجتا بيديها ، و رفعتني إلى أعلى ! قفزت واقفاً من شدّة الألم وضرب سقف بيت الشعر برأسي ، فارتفع السقف من مكانه أكثر من متر حتى شعرت كأنما انخرق وخرج جسمي من سقفه ، ثم سقطت على مؤخرتي ! لقد سمع لسقطتي صوت عالٍ أرعبني أكثر مما آلمني ... !

ـ الله لا يجبرك ؛ الله لا يعطيك عافيه ؛ الله ما يكبرك ؛ الخرى بعده على صرمك ؛ بعدك بتعيط على الخبزة وبتحب كمـــــان ؟! قالت ذلك وهي تصرّعلى أسنانها !

ـ والله ياخالتي ام عوده ، عمر ي ما بعيدها ! التوبه ! التوبه ! انا بحب شهية مثل اختي !

ـ الله يحبك الحب ويبغضك الرب ! والله لو تعيدها لأفرك بصرمك فليفلة حارة ! توقفتْ قليلا ثم اضافت :

بعد ثمانية اوعشر

سنوات ، أطلب من امك أن تيجي وتخطب لك شهية من أبوها ؛ أما قبل هذا فسأقطع أذنيك وأرميهم إلى الكلاب إن تكلمت معها مرة ثانية كلامً "فاصخ ! فهمت ؟! ومرة أخرى رفعتني من أذني بين يديها ورمت بي إلى الأرض ، فسقطت فوق التراب على وجهي ، ثم تركتني وخرجت !!

ـ يالها من امراة شريرة ! قالت كرستينا .

ـ إنني ما زلت أشعر ، حتى هذه اللحظة ، بألم في أذني وقاعي أيضا ً، وكأنما حدثت القصة قبل أسبوع ، أو حتى أقل ! قلت.

ـ يالها من إمرأة شرسة ! علّقت كرستينا !

عدت من القاهرة بعد انتهاء العام الدراسي الجامعي ، لأقضي عطلة الصيف بين الأهل ، ورجعت إلى البيت من زيارة بعض الأصدقاء ، عندما وجدت في بيتنا امرأة جالسة منفوخة البطن يخيل للرأي أن به توأمان ... وتجلس أمامها طفلة لعلها لم تبلغ العام بعد من عمرها ويجلس على كل جانب من جانبيها ولد عمر كل واحد منهما ثلاث أو أربع سنوات ! صحت لا شعورياً ، بفرح واندهاش !

ـ "شهية" !! يا لها من مفاجأة حلوة أن أراكِ بعد كل هذه السنين !! الله ! الله ! لقد كبرتِ وتزوجتِ وصار عندكِ، ما شاء الله ، جيشاً جراراً من الأولاد والبنات !

كنت أتكلم بفرحة غامرة ، ويدي ممسكة بيدها وأمي وأخواتي يشاركنها الابتسام والضحك ، وأنا لم أستطع إيقاف جماح نفسي المندفع في مكالمتها وسؤالها عن أحوالها !

ـ ولم لم تريا بعضكما كل هذه المدة وأنتما جيران ؟! سألت كرستينا.

ـ لقد كنا جيراناً في الكروم ووقت الصيف فقط ، ونحن نسكن خياماً من شعر الماعز الأسود ، أما في المدينة فنسكن بيوتاً من حجر ، ونحن متباعدين عن بعض ... ثم ان مجتمعنا لا يسمح بالزيارات ... لقد مضت مدة طويلة لم أر شهية ولم ترني ، وذلك بسبب إنقطاعنا عن السكن في الكروم !

ـ إن زوجي يحب الأطفال ، ويريدني أن أنجب له كل سنتين طفلاً حتى أعجّز !!" قالت شهية وهي تضحك بسعادة عارمة وغمازتاها تتراقصان !

ـ كل سنتين طفلاً ؟! وهل هي مصنعاً لتفريخ الأطفال ؟! يا إلهي ! وهل تحبون الإنجاب إلى هذه الدرجة ؟! سألت كرستينا وقد اشتعلت عيناها واتقدّ خداها اندهاشاً ! ومرة أخرى لم أجبها ولم أتناقش معها مخافة أن ندخل في متاهات حضارية فتابعت حديثي قائلا ً:

وقبل أن أعلق على ما قالته لي شهية كانت هي تلقي على سؤالاً آخر "متى ستتزوج لنفرح بك ، أم أنك مشغول بالعلم والسياسة !! وهل ما زلت حامل هموم الوطن والعالم على ظهرك ؟!

ضحكتُ وضحكتْ أمي وأخواتي فقلت : "وهل ما زلتِ تذكرين؟!"و من خلال ضحكاتي أضفت "والله يمكن أن تتزوج ابنتك هذه قبل أن أتزوج أنا " واستدركت "هذا إذا حدث وتزوجت يوماً !"

ـ "فأل الله ولا فألك؟" قالت أمي وأختي الكبرى معاً وبصوت واحد !

ـ ولم سألتْ هذا السؤال ؟! استوضحت كرستينا .

ـ لقد كان سبب قول شهية ، فيما إذا كنت ما زلت مشغولاً بالعلم والسياسة ، هو أننا نحن الصبيان كنا نتناقش ونتجادل ونحن نخوض معارك السياسة الكلامية مدافعاً كل منا عن أفكاره ومعتقداته السياسية ! أما اعتقادها بعزوفي عن الزواج هو لأن كثيراً من الذين يشتغلون بالسياسة غالباً ما ينسون أنفسهم ولا يتزوجون في زحمة العمل السياسي ! قلت .

ـ ألا تعتقد أن هذا تفكير غريب ؟! ثم ما علاقة السياسة بعزوف الإنسان عن الزواج ؟! سألت كرستينا . ولما لم أجبها قالت :

ـ تتناقشون في السياسة وأنتم أطفال صغار ؟!

ـ نحن في دول العالم الثالث ، تلدنا أمهاتنا ونحن نتحدث في السياسة ! أننا نرضع السياسة مع الحليب ! قلت.

ـ بالمناسبة ، وكيف حال أمك ؟ ! سألتُ شهية .

ـ ما زالت قوية وتعاقب الأولاد الأشقياء ! قالت وهي تضحك !

ـ لا شك أن الماكرة فهمت ما أعني ؛ ولا شك أن والدتها قد أخبرتها في حينه عما فعلت بي !

ـ بالله سّلمي عليها وقولي لها أنني مشتاق جداً لرؤيتها وإلى أيام الكروم الحلوة !

ـ يا حبيبي ، ما أسعدني بك ! حقاً أنني محظوظة جداً أن أتعرف عليك وأن نكون أصدقاء ! أنك محيط زاخر بالذكريات الشيقة والآراء الممتعة ! قالت كرستينا وقد ألقت برأسها على صدري من جديد ؛ وبدأت أنا أمرّ بيدي اليمنى على شعر رأسها مداعباً إياه .

ـ وأنا كذلك محظوظ جداً أن تكوني صديقتي ! اعني حبيبتي ! إنكِ أيضاً محيط زاخر ، بالعواطف والدفء والحنان !

ـ آه ! كم تسعدني هذه الكلمة ! إنني لم أسمعها من إنسان قبلك إلاّ من أمي ! قالت وقد أدارت وجهها وصارت تنظر إلى أعلى حيث التقت عيوننا !

ـ لأن الرجال الذين عرفوكِ مصابون بعمى البصائر والأبصار ! ثم أنني أشكر الله بأنني لست واحداً منهم !

ـ وأنا أكثر شكراً له ! دعنا الآن نذهب حتى لا نتأخر على والدتي، فقد وعدتها أن نكون عندها الساعة السادسة ! قالت ذلك ورفعت نفسها عن صدري وأدارت مفتاح ماكنة السيارة .

الفصل الخامس

كان المطعم يغصّ بالزبائن ، عندما وصلنا كرستينا وأنا ، وكذلك كان المكان المخصص لانتظارهم ، حتى يأتي دورهم . كانت المرأة التي تُجلس الناس على طاولاتهم هي السيدة هيرشفيلد. .

ـ وأخيراً وصلتما ! ما أسعدني أن أراكما ثانية ! كم هو رائع ومفرح أن ترجعا إلينا مرة أخرى يا أحبائي ! صاحت السيدة هيرشفيلد حالما رأتنا بصوت يتدفق بحرارة فرح اللقاء وسعادته !

وقفت مذهولاً، فقد كان فستان السيدة مونيكا يلبس جسمها بدقة متناهية يظهر مفاتن جسمها ويرسم تفاصيله ! صرت أنقل طرفي بين المرأتين ، إذ اختلط عليّ الأمر فظننت أنّ مونيكا وكرستينا ليستا إلاّ أختان وليستا أم وابنتها ! ولما سألتني السيدة هيرشفيلد سبب ذهولي وحيرتي ، أعملتها ما كان يدور بخاطري ؛ فقالت وهي تبتسم !

ـ ألم أقل لك الليلة الماضية بأنك ولد شقي ؟! صدقني ان شقاوتك تسعدني جداً !

ـ وأنا ، ألم أقل لكِ أيضاً بأنك ساحرة وفاتنة ، يا والدة معشوقتي ؟!

ـ لقد بدأت أغار منك يا ماما ! قالت كرستينا وانفجرت تضحك .

ـ اطمئني يا حبيبتي ! أنا رجل ملتزم ، لا أحب إلاّ واحدة فقط حباً رومانسياً ! قلت بطريقة دلع تمثيلية .

ـ وأيضاً سلة من القرنفل ! هذا شيء كثير ! لا شك أنكما ارهقتما ميزانيتيكما ! باقة زهور البارحة تكفي ! صاحت والدة كرستينا بفرح طفولي ، وقد لاحظت أن خديها اشتعلا حمرة وخفراً ... !

ـ باقة زهور البارحة وسلة قرنفل الليلة ، كلاهما دفع ثمنهما سهيل يا أماه ! لقد حاولت أن أحول بينه وبين شراءها ، ولكنه أصرّ ! قالت كرستينا وهي تطبع قبلة على خد أمها الأيمن !

ـ لا شك أنك أرهقت ميزانيتك يا بني ! أرجوك أن لا تزعج نفسك مرة أخرى !

ـ لو أحضرت لك كل ما بولاية كاليفورنيا من أزهار وورود وقرنفل ، لشعرت أنني لم أوفكِ حقكِ من المحبة والاحترام والتقدير أيضاً ! قلت مبالغاً ومتبجحاً على الطريقة العربية ! ثم تابعت !

ـ امرأة منحتني هذه الدرة الثمينة والنادرة ... كرستينا ... إمرأة أنارت دروب حياتي المظلمة ... كثيرة عليها سلة قرنفل ! قلت ويدانا تتصافحان وعيناي تنظران في عينيها ، بإعجابٍ ووله !

ـ آه ! كم أنت كريم ورائع ! ليتنا تعرفنا عليك منذ قدومك إلى أميركا ! قالت بفرح وسعادة !

ـ نعم ليتنا ! ولكن كل شيء بقضاء وقدر ! قلت ويدي اليسرى تطبطب على ظهر يدها اليمنى التي كانت ما زالت معانقة يدي !

ـ ربما كنتِ كرهتني الآن ! أضفت .

ـ لا أظن ! قل لربما كانت أشياء كثيرة قد حدثت ! قالت الأم .

ـ مثل ماذا ؟! سألتُ .

ـ لن أقول لك ! قالت وقد ازداد احمرار وجنتيها فرحاً !

حاولت أن أجد جواباً لمقولتها ، ولكنني فشلت !

ـ أدخليها إلى غرفة المكتب ياحبيبتي ! قالت الأم لأبنتها مشيرة إلى سلة القرنفل.

ـ يبدو أننا أتينا في الليلة التي أنتم مشغولون بها كثيراً ! قلت وعيناي تجوسان بالأعداد الضخمة من الناس التي تنتظر دورها !

ـ إن مطعمنا دائماً يغص بالزبائن ، وهذا فضل من الله نشكره عليه ، ولكن ليلتي السبت والأحد يتضاعف العدد ! قالت السيدة مونيكا !

ـ لا شك أن أكل مطعمكم لذيذ وفاخر ، وإلاّ لما تردد عليه الزبائن بهذه الأعداد الضخمة ! قلت .

ـ هذا صحيح ! ثم يقولون بأن ما نقدمه من الطعام والمشروبات ، ذو جودة عالية وكميات زائدة ، وكذلك فإن أسعارنا معقولة جداً ! قالت السيدة هيرشفيلد بإيمان وثقة وهي تهز رأسها !

ـ أريد أن أعتذر لكِ عن الليلة الماضية ... أعني عما بدر مني من سوء تصرف ! لقد كان تصرفاً سخيفاً ! النبيذ الذي قدمته لنا كان نبيذاً ربانياً ، فنقلني إلى عالم آخر حتى اختلطت عليّ الحقائق ! لقد اختلط عليّ الأمر ولم أعد أميّز بين الأم وأبنتها ، ومن هي منكما حبيبتي وأيهما أمها ؟!

ـ لا تعتذر أبداً ! أنا مدركة لما حدث ! لقد وهبني الله نعمة الفهم والتفهم ! أنني أيضاً لا أحب اللوم والعتاب عن شيء حدث في الماضي ... حتى ولو كان قبل ليلة ... نحن أبناء هذه الساعة يابني .

ـ شكراً لقبول اعتذاري ! حقاً أنكِ إمرأة عظيمة ... عظيمة جدا ، فاهمة ومتفهمة ! قلت بحماسٍ وصدق .

ـ وأنت شاب نبيل وأمين ! قالت بنفس حماسي وصدقه !

وهنا أشارت إلى إحدى النادلات وأعطتها ما بيدها من قائمة أسماء الزبائن الذين ينتظرون دورهم لأخذهم إلى الطاولات المعدة لاستقبالهم ، وسارت وسرت خلفها فأحسست أنني حقاً أسير خلف ملكة من ملكات الأنوثة والدفء والجمال ! لقد كانت كقطعة من الأبنوس ، وكان شعرها يجلس فوق رأسها ، وكأنه كسرى أنو شروان يجلس فوق عرشه ! كانت ترتدي فستاناً سماوي اللون يلبس جسمها بدقة متناهية يظهر مفاتنه ويرسم تفاصيله ويعكس نصاعة بياض وجهها وصدرها وعنقها ، فبدت جذابة ومغرية أكثر من ابنتها ... ! يا سبحان مبدع الجما ل !

في إحدى زوايا المطعم ، طاولة خالية تتوسطها يافطة كبيرة تقول "محجوزة" وعندما وصلناها توقفت وأشارت إليّ أن أجلس على الكرسي المقابل ، ولكنني بدلاً من ذلك درت ووقفت خلفها ومسكت لها المقعد طالباً إليها أن تجلس ؛ وبعد أن فعلت أحسست كأنما الدنيا بكاملها جلست في أحضاني ! شعرت بسعادة غامرة من الصعب وصفها ! سعادة تصوّف !

ـ إنكَ باقة فوّاحة من الذوق والأدب والأتكيت ! قالت وهي تجلس ! وقبل أن أصل إلى مقعدي قبالتها لأجلس عليه كانت قد انضمّت إلينا كرستينا ، ففعلت معها كما فعلت مع والدتها ؛ واعتراني نفس الشعور فأحسست أنني كبرت وتعملقت حتي خيّل اليّ ، بأن رأسي ناطح السحاب !

ـ شكراً يا حبيب القلب ! إنك تتصرف بروعة وكبرياء ، كفارس من فرسان القرون الوسطى ! قالت كرستينا بعد أن جلستْ ! ثم التفتت إلى أمها وسألتها :

ـ أليس كذلك يا أماه ؟ !

ـ أنتِ محظوظة يا حبيبتي ، أن يسر الله لك شاباً مثل سهيل ! إنه نعمة من الله أرسلها لكِ ! قالت الأم بخشوع مؤثر وكأنها تهم بالبكاء !

ـ أرجوكما أيتها المرأتان الحبيبتان ، أن تكفا عن مدحي فأصدقكما فيصيبني الغرور ! أنا أفعل فقط ما يفعله الانسان "الجنتلمان" الحضاري ! قلت وأنا أشعر بالخجل والفخر معاً !

ـ هل رأيت يا أماه كم هو متواضع ؟! إنه يعارض حتى مدحه ! قالت كرستينا بأسلوب تفاخري ، وقد لاحظت السعادة تغطي وجهها !

لم تعلق الأم وإنما اكتفت بهزة من رأسها وربتت على كتف ابنتها !

ـ لقد سمعت سهيلاً يعتذر لك عما حدث الليلة الماضية ، فما هي الحكاية ؟ سألت كرستينا والدتها .

ـ ونحن نودع أمك البارحة ، قبلتها على شفتيها بدلاً من تقبيلها على خدها ! قلت .

ـ وما العيب في ذلك ؟! سألت كرستينا.

ـ أعتبرتها أنا تصرفاً غير لائق اتجاه أم حبيبة القلب !

ـ إنه على العكس من ذلك تماما ً! لأنها أم الفتاة التي تحبها ، فلقد قبلتها على شفتيها وليس على خدها ! قالت الابنة بلهجة صدق واخلاص !

ـ أحقاً ما تقول كرستينا يا مدام مونيكا ؟! سألت محتارا ً.

ـ طبعاً ! هكذا نحن نعتبرها ! وهل أنتم تعتبرونها غير ذلك ؟ مرة أخرى أجابت الأبنة .

لم أجب وإنما هززت رأسي عدة مرات علامة أنني فهمت ، وإن كنت في أعماقي قلت ، "سبحان من غيّر القيم وسبحان من قلب الموازين وسبحان من بدّلها ! "

ما كاد يستقر بنا المقام حتى أقبلت إحدى النادلات تحمل صينية كبيرة عليها صحون عديدة من المقبلات ؛ وقبل أن تنتهي من ترتيبها أمامنا حتى كانت نادلة أخرى تحمل صينية عليها قارورة من المشروب الفاخر مصحوبة بسطل مملوء بالثلج وأربعة كؤوس ، وضعت أمام كل واحدة منا ، نحن الثلاثة كأسة ، ووضعت الرابعة أمام الكرسي الخالي !

استغربت وتساءلت ؛ كان الكرسي الرابع متواجداً حسب وضع الطاولة الطبيعي ، أمّا الكاس الرابع ، لمن ؟!

ـ لمن الكأس الرابع يا أماه ؟! سألت كرستينا وهي تشير إلى الكأس الفارغ ، وكأن الصبية قد قرأت أفكاري !

ـ إنه من أجل إنسان عزيز علينا جميعاً ، يحب أن يقابل سهيل ؟! قالت السيدة هيرشفيلد وهي تبتسم وغمزت بعينها اليسرى ، مما أثار إستغرابي !

ـ ومن هو يا أماه ؟!

ـ ومن هو الإنسان الذي يحبّ مقابلتي ؟! سألت كرستينا وسألت أنا معاً نقاطع بعضا ً!

ـ إنه والدكِ يا حبيبتي ! قال أنه شاهد عرباً في السينماء وعلى التلفاز ، ولكنه لم يتكلم مع عربي من قبل ... وكذلك يحبّ أن يتعرف على صديق ابنته الحبيبة ! سينضم إلينا بحدود الساعة السابعة والنصف .

" يا ويلاه ! يا لسوء حظك يا سهيل ! جاءك الموت يا تارك الصلاة ! وقعت بين ثلاثة يهود عتاة ... عدا عن الطباخ والنادلات ... لا شك أنهم كلهم يهود ... إنك لن تكفي كل واحد منهم قطعة !"

ـ وهل تحتاجون إلى مساعدة السيد هيرشفيلد ؟! ألا يكفي أنتما الاثنتان والطباخ وبقية النادلات للتغلب عليّ وقتلي ؟ ! قلت بأسلوب تمثيلي هزلي وأنا أضحك .

انفجرت المرأتان في ضحك متواصل !

ـ اطمئن ! لن يؤذيك أحد ! أنا نفسي سأدافع عنك وأحميك ! قالت السيدة هيرشفيلد. .

ـ ما أخف روحك يا حبيبي ! لم أكن أعرف من قبل أنك إلى جانب قوة شخصيتك وسعة اطلاعك ، أنك أيضا صاحب نكتة لوذعيه ! قالت كرستينا وهي تمسح دموعها بظهر يدها اليمنى .

فتحت النادلة قارورة النبيذ ويممت نحو كأسي لتملأها ، ولكنني عاجلتها بأن وضعت أصابع يدي اليسرى على كأسي وباليد اليمنى أشرت إلى كأس السيدة هيرشفيلد ، وبعد أن ملأتها فعلت نفس الشيء وطلبت إليها بأدب مبالغ به أن تملأ كأس كرستينا !

ـ ولكن أنت ضيفنا ! يجب أن تُخدم أولاً ! قالت الأم .

لولا مخافة أن أكسر التقاليد والاتكيت لنهضت أنا وملأت كأسيكما بنفسي ! إنها سعادة ربانية أشعر بها عندما أخدم أم حبيبة القلب كرستينا ! قلت صادقاً وبأدب مبالغ به !

ـ أرأيت يا أمي كم سهيل مؤدب وصاحب أتكيت ! قالت الابنة برقة زائدة وهي تمثل بيديها !

ـ لقد قرأت بأن الشرقيين يعاملون نساءهم باحترام ومحبة أكثر منا نحن الغربيين ! قالت الأم .

ـ ليس دائماً ! هذا يعتمد على الشخص نفسه . قلت.

ـ إن والدي يحبني كثيراً ويهمه جداً مستقبلي ! إنه يحب أن يعرف مع من أخرج ومن أصادق ، ليطمئن عليّ ! قالت الفتاة وهي تبتسم !

ـ نحن عائلة مترابطة جداً ! إنه قلما تمر ليلة دون أن نكلم كرستينا أو هي تكلمنا . إنه أيضاً لا يمضي أسبوع دون أن نرى بعضنا بعضا ؛ كما أنه لا تمضي ثلاثة أيام دون أن نكلم أخوها وأختها في نيويورك ! إن لنا إبناً وبنتاً هناك ! قالت الأم .

ـ لقد أعلمتني كرستينا عنهما ، ففرحت أن لها أخاً وأختاً ! إن هذا يعطي الإنسان شعوراً بالأمان والاطمئنان ، وبالسعادة أيضاً . لقد قرأت أن العائلة اليهودية كالعائلة العربية تربطها وشائج قوية ! قلت .

ـ وهل لك إخوة وأخوات ؟ سألت الصبية !

ـ نعم لي خمسة أخوات وأخوين ! قلت .

ـ عائلة كبيرة ! وماذا عن والديك ؟ سألت كرستينا .

ـ والدتي تعيش ، طبعاً في الوطن ، أما والدي فقد توفي وأنا ابن خمس سنوات .

ـ آسفة أن أسمع ذلك ! قالت الأم .

وهنا لاحظت أن كأس الأم فارغة فملأتها ، ثم عبأت القسم الفارغ من كأس الأبنة !

حضر الأب إلى طاولتنا تقوده إحدى النادلات ؛ وبعد أن قدمتني كرستينا له وتصافحنا شدّ على يدي بحرارة فائقة وشوق صادق لاحظته في عينيه ! وبعد أن سألني عن الصحة والعمل وحبي لجنوب كاليفورنيا قال :

ـ لقد حدثتني مونيكا كثيراً عنك ... عن ثقافتك وسعة اطلاعك ... عن كرمك وشهامتك ... عن أدبك ودماثة أخلاقك ... وفوق ذلك عن سعادة كرستينا بصداقتك ... فشوقتني جداً لمقابلتك والتعرف عليك ... !

ـ شكرا ً، شكراً يا سيد هيرشفيلد ! شكراً ياعمي ! لقد غمرتموني ثلاثتكم بكرمكم ولطفكم وطيب أخلاقكم ، وبالحنان والمحبة والاحترام ... حتى كدت أنسى الأحبة في الوطن ! قلت هذا للرجل وأنا أملأ كأسه بالنبيذ ، فشكرني ورفع الكأس إلى فمه وأخذ منها رشفة كبيرة ، ثم وضعها أمامه !

ـ لقد ارتحت والله إليك حالما وقعت عيناي عليك ، وتمنيت أن تكون لي ابناً ! ربما كنت مهيأ لهذا الاحساس من كثرة ما حدثتني كرستينا عنك ! قالت الأم بسعادة تحسها تخرج من عينيها !

ـ أعتقد أنكم جميعاً تبالغون بما أتحلى به من صفات حميدة ! على كل حال ، أسأل الله أن أكون عند حسن ظنكم وحسب توقعاتكم ... كما وأرجو أن لا أخيب ظنكم ! قلت صادقاً ومن أعماق قلبي .

ـ نحن نعتبرك الآن ، إبناً لناّ ! نحن لنا الآن ولدين وثلاث بنات ! قالت الأم بسعادة !

ـ إنه لشرف عظيم لي أن أكون إبناً لكما ... ويسعدني جداً أن أكون صديقاً لعائلة هيرشفيلد ... وكذلك أنا شاكر للآنسة كرستينا أن عرفتني أولاً على والدتها التي هي قمة بالكرم والمحبة ، وها أنا أتعرف الآن على والدها فيغمرني بالاهتمام واللطف ! قلت على الطريقة العربية .

ـ هل لاحظت يا أبي كيف أن سهيل قد جدّته موجة من العرق بللت جبينه واحمر لها خداه ! إنه يخجل كبنات المدارس الصغيرات اللواتي غازلهن رجل ناضج ! قالت كرستينا وهي تضحك.

قلت وأنا أجفف بالفوطة البيضاء ما على رقبتي وجبيني من عرق .

ـ أنا دائماً يعتريني الخجل وينزل عرقي بغزارة عندما يمتدحني أحد ! هكذا طبعي منذ أن أتذكر !

ـ ان هذا دليل الرجولة والشهامة ؛ على كل حال أهلاً وسهلاً بك إلى عائلة هيرشفيلد ! قال الأب وهو يبتسم !

ـ أقولها للمرة الثانية ؛ إنه يشرفني ويسعدني أن اكون صديقاً وابناً لعائلتكم الكريمة ! قلت وأنا أعيد طي الفوطة التي مسحت بها عرقي !

ـ الحقيقة انني رأيت عرباً كثيرين ، ولكنني لم اكلمهم ، لأنهم كانوا يرفضون أن يتكلموا معنا لأننا يهوداً ! كانوا دائماً يقولون عنا بأننا صهيونيون عنصريون اغتصبنا وطنهم ! وبعد أن ضحك أضاف !

ـ كان هذا في الجامعة ... أيام كنا طلاباً ... قبل أكثر من عشرين عاما ... أنا الآن لا ألومهم ... لقد كنت في الماضي أفعل ... كنا نحن الطلاب اليهود متحمسون لدولة إسرائيل ... نلقي الخطب ... نتبرع لها ... نجمع النقود ... ندافع عن سياستها ... !

ـ لقد ترك داوود الآن كل هذه الأعمال ، بعد أن تبين له أنه كان يفعل ما يفعل على غير وجه حق ! قالت الأم بحماس .

ـ وما الذي غيّر معتقدك وجعلك تدرك الحقيقة ؟! سألت بشوق ؛ وبدلاً من أن يجيبني على سؤالي وجه السؤال إلى زوجته وابنته :

ـ ألم تعلماه بأننا من حركة "السلام الآن" ؟!

هزّت كل من المرأتين رأسها علامة النفي ، أما أنا فشعرت بارتياح نفسي لا يوصف وسعادة غامرة !

ـ نعم ، نحن الثلاثة الآن أعضاء في حركة "السلام الآن"، والتي تعارض معارضة شديدة جميع تصرفات نتنياهو رئيس الحكومة الإسرائيلية وحكومته ، وكذلك نحن ضد تصرفات سكان المستعمرات وأيضاً الحكومات السابقة التي تصادر أراضي الفلسطينيين وتطردهم وتشردهم ! نحن نطالب أن يعيش اليهود والعرب بسلام جنباً إلى جنب ! قال الأب بحماس!

ـ إن سهيل يا والدي كاتب رواية ، ووعدني أن يكتب رواية ... عن لقائي به ... أعني عن صداقتنا ! قالت كرستينا وهي تضحك بدلع.

ـ آمل يا بني أن تكون رواية محبة ، وليست كراهية ... ! محبة تحدث بين عربي ويهودية ... ! نحن الآن بحاجة ملحة للمحبة وليست للكراهية ... نعمل على إيقاف التقتيل والتدمير لكلا الجانبين ... نريد أن ننسى الماضي بمآسيه وويلاته ... ونبدأ صفحة جديدة من المحبة والسلام ! قال الرجل بهدوء الحكيم .

ـ نحن العرب نريد الآن السلام وننسى الماضي كما قلت أنت ، بمآسيه وويلاته ، ولكن الحكومة الإسرائيلية الحالية المتعصبة ، وسكان المستوطنات وغيرهم ... هم الذين يرفضون ذلك ! قلت .

ـ أنا أعلم هذا جيداً يا بني ! تأكد أنها حكومة لن تدوم طويلاً ، وسوف تعم المحبة ويسود السلام ! انتظر وسترى ! قال .

ـ آمل يا سيدي ، آمل ! قلت بإيمان العابد المؤمن !

ـ والآن ، فلنترك السياسة . أريد أن أتحدث في موضوع أعتقد إنه سيسعدك كثيراً ! قال الأب .

ـ تعني موضوع يسعدني أنا سهيل دهشان ؟! سألت بحيرة !

ـ نعم ، أنت وكرستينا ! قال الرجل وهو يضحك .

ـ وأنا كذلك يا أبي ؟! ما هو ؟! لقد شوقتني ... شوقتني جداً ! أرجوك تكلم ! قالت كرستينا ورغبة حب المعرفة تضجّ من عينيها !

ـ أريد أن أبدأ لكما "بزنس" ... بأسميكما ... أنت وكرستينا ... مناصفة ... ! قال الرجل وهو ينقل طرفه بين ابنته وبيني ، إذ لعله كان يريد أن يقرأ وقع الخبر على نفسينا !

ـ وما هو هذا "البزنس" ؟! سألنا ، كرستينا وأنا ، بصوت واحد .

ـ أريد أن أفتح لكما مطعماً من الدرجة الأولى ... مثل هذا المطعم تماماً ... بمواصفاته ... مناصفة بينكما !

ـ لقد سمعت بعض الأصدقاء يقولون بأن الإنسان الذي يريد أن يبدأ أي نوع من "البزنس " ... مهما كان بسيطاً ومتواضعاً ، فهو يحتاج إلى مائة ألف دولار لكي يبدأ ! قلت والدهشة ما زالت تسيطر عليّ !

ـ هذا صحيح ! بعض البزنس قد يحتاج إلى مليون دولار، فقط لتبدأه ! قال الأب بثقة .

ـ أنا ليس لي إلاّ راتب الجامعة ، والتوفير الذي أملكه قد لا يكفي لشراء كراسي للمطعم ! قلت هذا وضحكت ضحكة القلق فشاركني الثلاثة الضحك وقال الأب .

ـ ومن قال إنك ستدفع نقوداً ؟! إن البنك هو الذي سيدفع . أنه هو الذي سيموّل المشروع كاملاً ! قالت الأم بتأنٍ وكأنما تعرف أن أمامها إنسان بطيء الفهم !

كانت كرستينا طيلة الوقت الذي نتكلم به نحن الثلاثة تنقل طرفها بيننا محتارة ، إذ لا شك أن الخبر قد فاجأها كما فاجأني !

ـ البنك هو الذي يقدم المبالغ ، وأنا الذي سأكفلكما ! قال الأب بثقة وإيمان !

ـ أنا أخاف من التجارة جداً جداً ! أنا لم أشتغل في حياتي كلها بالتجارة قط ! عقليتي ليست تجارية ... هذا هو العيب القاتل بي والذي يعيرني به أهلي وأصدقائي ومعارفي ... ! قلت بحماس .

ـ ولكن لكل واحد منا وظيفة ، وليس عندنا وقتاً لإدارة مطعم يا أبي ! قالت كرستينا شبه محتجة .

ـ أنا عندي من يديره لكما ! إنسان حاذق وأمين ... أمضى حياته كلها مديراً لمطعم من الدرجة الأولى ... أعرفه منذ سنوات طويلة ... أثق به ثقة مطلقة ! تمهل قليلاً ، ثم أضاف :

ـ إنه واحد من جماعتنا ! إنه صديق العائلة . أنت تعرفينه يا كرستينا ! إنه هنري ميلر! قال الأب .

ـ طبعاً أعرفه ! أعرفه جيداً ! ابنته الصغرى من أعز صديقاتي ! لطالما دعتني إلى مطعم والديها واستمتعنا بوجبات شهية ! لقد سمعت أنه باع مطعمه ، فلماذا فعل ذلك ؟!

ـ دُفع له به ثمناً خيالياً ما كان يحلم به قط ! إنه يعيش الآن حياة ترف وبذخ من فوائد المبلغ الذي قبضه ، مدى الحياة ! قال الأب .

ـ إنه ما زال قوياً ، ويكره أن يكون عاطلاً عن العمل ؛ وفي نفس الوقت لا يحب أن يبدأ "بيزنس" من جديد ! عندما عرضت عليه فكرة أن يدير مطعماً لأبنتي وصديقها ، وافق دون تردد ! قال الأب .

ـ كل هذه الترتيبات حدثت في ليلة واحدة يا سيد هيرشفيلد ! حقاً إنك عبقري ! قلت متملقًا وأنا أبتسم !

ـ البارحة وطيلة هذا النهار ! كلما خطرت ببالي فكرة اتصل بصاحبها بالهاتف ! المسألة سهلة جداً ياولدي ، ما زال هناك عقل يفكر وإرادة تعمل ! قال بفخر وضرب بسبابة يده اليمنى على صدغة .

ـ وكيف تعرف أنني سأكون أهلاً لثقتك يا سيد هيرشفيلد ؟! سألت وأنا أتوقع منه الثناء والمديح .

ـ لقد مدحتك مونيكا الليلة الماضية كثيراً ، وقالت بأنك شاب خجول شهم ومؤدب ، وأنها توسمت بك الأمانة والصدق والوفاء ... ! ثم اتصلت " بكنياتا " ، مديرة دائرة قسم الدراسات الشرقية في الجامعة ... أعني مديرتك ... أعلمتها بأنك صديق إبنتنا ، ففرحت كثيراً وأثنت عليك ثناء عاطراً... أنها أيضاً صديقة العائلة ... ! قالت أنها تثق بك ثقة مطلقة ؛ وطلبت إليّ أن لا أتردد في إسناد أية مهمة لك ، مهما كانت كبيرة ، لأنك ستقوم بها خير قيام ... كل هؤلاء الناس توسموا منك الأمانة والصدق والإخلاص ؛ وأنا الآن وقد رأيتك فإنني أرى كما يرون ! قال الأب وقد ضرب يده بالهواء !

ـ شكراً لكم جميعاً على هذه الثقة ! لست أدري ما أقول ؟! قلت بخجل وتواضع شديدين وأنا أمسح العرق من على جبيني .

"ماذا يريد أيّ إنسان عربي من دنياه ؟! بل ماذا يطمع زعيم عربي في هذه الأيام ، أكثر من أن يمتدحه أو يرضى عنه واحد من أولاد عمه ؟! إنها سعادة لا تعادلها سعادة ، وإنجاز لا يضاهيه إنجازٌ !" قلت لنفسي !

ـ قل موافق فقط ، وأنا أقوم بالباقي ! قال الأب .

ـ قبل أن أوافق ، هل لك أن تخبرني ... أي كيف يكون هذا السيناريو "للبزنس" المعني ؟! سألت.

ـ السيناريو هو : أن أجد لكما مكاناً استراتيجياً مناسباً لمطعم درجة أولى ، أمّا في "هوليود" أو "بفرلي هلز" ، يقدم وجبتين في اليوم ... الغداء والعشاء ... يفتح المطعم للغداء الساعة الحادية عشرة وحتى الساعة الثانية ... وللعشاء من الساعة الخامسة حتى الحادية عشرة ... أنت وكرستينا تمرا على المطعم ليلاً وتتعشيان هناك، وتبقيا الوقت الذي تريدان ... كما تشاءا ! قال.

ـ بهذه السرعة ؟! سألت.

ـ وما الخطأ في ذلك ! ألسنا في زمن السرعة ؟! الفكرة ناضجة عندي ... أمضيت طيلة الليل وأنا أفكر بها وأخطط لها ... درستها بعمق فوجدت أنها مضمونة مائة بالمائة ! اتصلت هاتفياً هذا الصباح بالمعنيين... فوافقوا... اتصلت بمدير البنك في بيته فأعلمني بأنه يستطيع أن يقرضنا مبلغاً حتى المليون دولار ! إنه من جماعتنا أيضاً ! قال.

ـ إذا اقتنعتما فيما بعد بأنه من الأفضل لكما ترك الوظيفة والتفرغ للبزنس ، فسوف تفعلان ذلك ! قالت الأم بحماس !

ـ لا، لا يامونيكا ! فليحتفظا بوظيفتيهما ما زالا يحبانها إلى هذه الدرجة ! إن هنري مستعد أن يمضي بقية عمره يدير لهما المطعم ! أنه ما زال صغيراً وقوياً !

ـ أنا أقول إذا أحبا ترك الوظيفة . قالت الأم .

ـ تقول لي يا سيد هيرشفيلد بأن لي نصف المربح ! فكيف آخذ ربحاً وأنا لم أدفع نقوداً في رأس المال ؟! هل لك أن تتكرم علي وتوضح لي ذلك ؟! سألت بحيرة.

ضحك السيد هيرشفيلد حتى بدت أسنانه ناصعة البياض وقال :

ـ اعذرني يا بني إن قلت ، أنه حقاً ليس عندك عقل تجاري ! أنك أنت وكرستينا اللذين ستستدينا النقود ... أعني أنا آخذها قرضاً من البنك باسميكما وأنتما اللذان ستدفعان الفوائد ... طبعاً من أرباح المطعم ... وأنتما ستحصلان على الربح ! إنكما إذا لم تأخذا نقوداً من أرباح المطعم وإكتفيتما براتبيكما ، فإنكما خلال سنوات قليلة ستملكان المطعم كاملاً !

ـ أن راتبي يكفيني ! قالت كرستينا .

ـ وأنا لن آخذ دولاراً واحداً ! قلت.

ـ على كل حال اتركا التفاصيل لداوود فهو سيتولى الأمر! قالت الأم .

والآن فقط عرفت الأسم الأول لوالد كرستينا ... إنه داوود هيرشفيلد... اسم يهودي مثالي !

وهنا جاءت النادلة تحضر العشاء ، وتبعتها أخرى تحمل قارورة النبيذ الذي تفضله أم حبيبتي مع الطعام ... وبدأنا الأكل ، واختلط الحابل بالنابل ... وتفرع الحديث بمواضيع شتى ... مواضيع يومية روتينية ، ليس لها علاقة "بالبيزنس" ولا بالرومانسية ... !

* * * * *

الفصل السادس

أوقفت سيارتي أمام محل " زهور فالنتاين " والتي تعني باللغة العربية ، " محل عيد الحب لبيع الزهور"؛ لأشتري سلّة قرنفل لمديرة دائرة دراسات الشرق الأوسط بالجامعة ، الدكتورة "كنياتا " بمناسبة عيد ميلادها الذي سيكون في اليوم التالي

لم يسبق لي أن تعاملت مع هذا المحل على الرغم من أنه يقع على طريقي التي أسلكها في كل مرة أذهب بها من شقّتي الى الجامعة ؛ وعلى الرغم من أنه لا يمضي شهرٌ كامل لم أزر به مكاناً لبيع الزهور ... إذ أن هداياي عادة ما تكون لنساء فقط ، و لا أهديهنَّ إلا زهورًا ... ولأنني وبكل صدق و صراحة ، لا أعرف صنفا آخر أختاره لهن إلا العطور ... ثمّ إن أسعار هذه الزهور عادة ضمن ميزانيتي المتواضعة !

عندما فتحت الباب الزجاجي الكبير و دخلتُ ، رقصت النحلات المعلقة فوقهُ معلنة قدوم زبون . حالما دخلتُ رأيت من بعيد امرأة نحيفة الجسم طويلة القامة ممشوقة القوام ، مشرقة الوجه باسمة الثغر ، لعلّها في الثلاثين من عمرها ، تظهر عليها علائم الكبرياء و الارستقراطية ... تخرج من خلف ستارةٍ مسدلة على باب غرفة صغيرة مزروعةً بمُؤخرة المحل ، تُقبل نحوي وعلى شفتيها ابتسامة ساحرة ، تثيرالعواطف وتهز المشاعر !

تجمّدتُ في مكاني وأنا أحملق مذهولا بالمرأة التي قابلتني ، فصحتُ لا شعورياً بصوتٍ عالٍ ولكن باللغة العربية ! يا إله السماء ! عفوك و رحمتك و غفرانك ! قلتُ هذا وأنا أقف متجمّدا أمام المرأة أحملق بها مذهولا مشدوها !

ـ ماذا حدث ؟! سألت المرأة الواقفة أمامي ، طبعا باللغة الانجليزية ، مستغربة و متفحصة وهي تحدق بي بعينين نجلاوتين تدغدغ الأعطاف و تثير المشاعر ! لقد شعرت بأن الكلمات التي تخرج من فمها ذو الشفتين اللتين كأنّهما حبتا كرز ناضجتين ، و كأنما هي لحن موسيقي ، حنون ... حنون ... يخرج من كمان ، لعذوبته و رقّتهِ !

ـ إنكِ لن تفهمي ! يجب أن تكوني ذات ثقافة رفيعة وإحساس مرهف ، حتى تدركي ما أقوله ! قلتها بحماس و تحدٍ و ثقة أيضا ؛ و أنا محدق بها بعيونٍ مبهورة و فمٍ مفتوح !

لقد شَعرتُ عندها أنني كنت جلفاً بل و وقحاً و غير مؤدب ، فأستدركت :

ـ إنه من الصعب عليك أن تفهمي ! قلت و أنا ما زلت احملق بها مشدوهًا !

ـ لا تحكم عليّ بعدم الفهم ، قبل أن تتأكد من جهلي ! قالت بتحدٍ أشد !

لاحظت أن المرأة تتكلم بلكنة رخيمة ... عذبة ... زادت في جمالها وعذوبتها واشعلت الحرائق بدمي !

ـ لم أقابل امرأة هنا في أمريكا كلّها ، من تتمتع بجمالٍ مثل جمالك ، ولا بجاذبية جنسية كالتي منحها الخالق لكِ ! لقد شعرتُ و كأنما أنتِ جرن ... بركة عطرٍ ... أغرقتني بهما ! قلت بحماس و أنا أصرُّ على مقاطع الكلمات !

ـ تقول: " هنا في أمريكا " فهل يعني أنك رأيت مثله في بلدٍ آخر ؟! سألتْ و قد احمرّ وجهها وأضاءت عيناها !

ـ نعم ، رأيت مثله الكثيرات في بلد الحب و الجمال ، لبنان ! بلد الشموخ والرفعة ؛ فهل سمعت بذلك البلد ؟! إنه أجمل بلد في العالم ، و نساؤه ، في رأيي ، أنعم و أرق نساء في الكون كلّه ! إنني و أنا في حضرت بعضهن وهنّ يتكلمن معي و يسددن إليّ عيونهن النجلاوات ، أشعر و كأنما أدخلنني في ذاتهنّ ثم دخلنا نحن الاثنين معا في حوض من العطور ، ثم نمنا به متعانقين !

بعد أن ضحكت لفترة طويلة واهتز جسمها ورقص نهداها ، و بدت أسنانها كعقدٍ من اللؤلؤ ، ثم جففت عينيها بخلف يديها الاثنتين قالت :

ـ كل هذا شعرته نحوي ؟! ما أسعدني ! لولا أنني متزوجة و أحب زوجي و مخلصة له ، لكنت وقعتُ في غرامك ! إن كلامك يسحر عقول النساء ؛ ثم انك شاب وسيم و جذابٌ جداً و خصوصا نظراتك الحالمة و أسنانك ناصعة البياض !

ـ إن الجمال الذي لا عفّة عنده ولاكبرياء يملك ، هو في رأيي جمالٌ زائفٌ لا روح به و لا أصالة له ! أنا لا أطمع بل ولا حتى أريدك أن تقعي في غرامي ، إنني أريدك ان تحتفظي بعفتك وتصوني شرفك ، إذ أن ذلك عندي هو الجمال الحقيقي ، الذي يهزني من الأعماق ! ولكنني أتمنى لو أن تتكرمي عليّ و أن تسمحي لي ، كلما مررت من أمام محلكم أن أتوقف للحظات ، لتنهل حواسي و مشاعري من فيض جمالك و عذب أنوثتك ! قلتُ بلهجة جادة و صادقة ! إستغربت ، والله ، أنا ، والله ثانية ، لجرأتي !

لم تعلق على ما قلت ، و ان كنت قد شعرتُ بأن قولي هذا قد أسعدها و أطربها ، و لكنها قالت بعد أن نظرت إليّ طويلاً ، بارتباكٍ و خجل شديدين ، إذ لا شك بأنها فعلت ذلك لتغير مجرى الحديث:

ـ وهل تمرُّ كثيراً من هذا الشارع ؟ !

ـ معظم أيام الأسبوع . أنا استاذ علوم سياسية في جامعة كاليفورنيا ، والشارع الذي أسلكه معظم أيام الأسبوع هو هذا الشارع الذي يقع عليه محلّكم .

ـ اذن ، أنت " بروفيسور " جامعة ؛ ولهذا السبب تستطيع أن تتكلم هذا الكلام الجميل الذي يسحر عقول النساء ! قالت و قد اتسعت ابتسامتها و ازداد تألقها !

ـ صدّقيني ، أنه ليس جمالك و شخصيتك فقط اللذان يشبهان المرأة اللبنانية ، ولكن حتى نطقك لكلمة " بروفيسور " ، إذ أنّها تشبه تماما نطق المرأة اللبنانية لها ! إنها تنطقها بطريقة تثير الحرائق بدم الرجل ! قلت و أنا أهزّ بيدي اليمنى إلى أسفل لتؤكد مقولتي !

ـ أنت لست مولوداً هنا في أمريكا ، اذ أن لك لكنة ؛ فمن أي البلاد أنتْ ؟!

ـ أنا من الأردن ، و البلد الذي يفصلنا عن لبنان الحبيب ، هي سوريا ؛ فهل سمعت بهذين البلدين ؟!

ضحكت ، مرة أخرى ، فبانت أسنانها كعقد من اللؤلؤ أو الزبرجد ، وبدت شفتاها مغريتين كحبتي كرز ، أو كحبتي ديفور تين خضاري ناضجتين ، في صباح يوم صيف كثيف الندى ؛ ثم قالت :

ـ أنا من " لوبنين " ، البلد الذي تعشقه ! ولدت و نشأت به و أنهيت الدراسة الثانوية ! قالت ذلك ، ثم سدّدت إلي ، ومن جديد ، عينيها النجلاوين ؛ فشعرت و كأنما سدّدت إلي سهمين أصابا قلبي !

بفرحة الطفل الذي وجد أمه بعد أن أضاعها لفترة طويلة ، و بحماسٍ و وله العاشق المتيّم ، و بلا إرادة مني و لا شعور ؛ وجدت نفسي أهجم عليها وأعانقها وأبدأ بتقبيلها على خدّيها و على وجنتيها وعلى رأسها قبلات نهمة مسعورة و أنا أقفز حبورا و طربا !

لم تستجب المرأة لعناقي ولا لقبلاتي ، وكذلك لم تحاول منعي من عناقها و تقبيلها أو حتى إبعادي عنها ؛ و إنما بقيت جامدة في مكانها لم تتحرك ولم تقل شيئا !

فجأة عاد إليّ رشدي فادركتُ خطئي ، و تنبّهت إلى أن تصرفي كان غير حضاري و كان محرج و اهوج أيضاً ! تراجعت مبهوتا مذعورا ، وقد جدّتني موجة كثيفة من العرق الساخن حيث و جدت نفسي بعدها أعيد و أزيد !

ـ أنا آسف ! آآآسف جداً جداً ! أرجوكِ ! إعذريني ! سامحيني ! لقد أنستني فرحتي المفاجئة أصول الآداب واللياقة ! قلت بصدقٍ وحرارة !

ـ لا بأس ! لا بأس ! أرجوك ! إنسَ ما حدث ! أنا مدركة حقيقة شعورك الصادق ! قالت و هي تطيّب خاطري و تبتسم و قد وضعت يدها اليمنى على كتفي اليسرى !

ـ لا تتصوري مقدار فرحتي بلقائك ! إنني والله أشعر وكأنما انتقلت فجأة الى لبنان و صرت أذهب من مدينة الى اخرى و اتجول بشوارعه وحواريه ، ثم أتكلم مع حسناواته ، فيمنحنني ابتساماتهن و يغرقنني في بحار أنوثتهن و رقتهن و نعومتهن !

ـ أنا سعيدة جداً جداً أنني منحتكَ كل هذا الإحساس العظيم ، وأنني أيقظت ذكرياتك الحلوة ... صدقني يابني ! قالت بحماس .

ـ لقد أحببت لبنان كحبي لوطني الأردن ، ان لم يكن أكثر! كنت كلما أدخله أشعر و كأنما أدخل احدى جنات الخلد ، وعندما اغادره أتطلع بشوق و لهفة الى اليوم الذي سأعود به اليه ! كنت أمشي على قدميّ لساعات وساعات ، على شواطئه و في حاراته و شوارعه ؛ و كنت أجلس الساعات الطوال في مطاعمه و مقاهيه أرقب الحسناوات و أمتع ناظري بجمالهن و أشبع عواطفي و أحاسيسي من رخامة و عذوبة أصواتهن! لقد كنت أقضي كل عطلة في ربوعه ، أما اذا انقضت فترة ولم أزره شعرت بالحزن و الاكتئاب الشديدين ، و يظل هذا الحزن و هذا الاكتئاب ملازمين لي ولا يفارقاني حتى أذهب إلى زيارته من جديد ! لقد قرأت كل ما كتبه جبران خليل جبران و

ميخائيل نعيمة و مي زيادة ، وغيرهم الكثيرين الكثيرين ، قبل أن أبلغ الرابعة عشر من عمري ! كنت أذهب أحيانا مع بعض الأصدقاء و كثيرا ما كنت أذهب لوحدي .

ـ لقد افتقدته أنا كثيرًا مثلك ، وكذلك فعل زوجي ! لم نكن نريد ، بل لم نكن حتى نفكر يوما بمفارقته ، لولا الحرب التي فرضت عليه ! لقد قضينا أحلى أيامنا و أسعدها به ، قبل زواجنا وبعده ! إنك تشعر بأن لحياتك نكهة وعذوبة لا تشعرهما في بلد غيره ! تشعر حقاً أنك تعيش وتستمتع بحياتك ! قالت وقد علا الحزن وجهها .

ـ إن محلكِ هذا ، لا عجب ، جميل وساحر جداً ! إن مجرد دخوله يفرح القلب وينعش الروح ! إن وجودك به ، يزيد من سحره وجماله ! لا شك أنكِ قد بذلتِ جهداً و مالاً كبيرين حتى أوصلته الى هذه الدرجة الفائقة والمتميزة ! قلت بحماس وصدق !

ـ شكراً على الثناء ! إن قولك هذا يسعدني جداً . الحقيقة أنني لا املكه ، أنا أديره فقط . أنا ساعدت في تحسينه ، ولكن لصاحبته الفضل الأكبر.

ـ آسف ، لقد ظننته لكِ ! قلت وقد شعرت حقاً با لخيبة !
ـ لا تاسف ! إنني اشعر وكأنما املكه ، لشدة محبتي له ولصاحبته ! لقد اشتغلت به لمدة ثلاث سنوات كمساعدة لمالكته ، وعندما صممت علي التقاعد ، وكان ذلك قبل عامين ، أوكلت ادارته لي ! إنها تأتي مساء كل يوم سبت لتاخذ ثمن مابعته ثم لتدفع لي راتبي ! قالت .

ـ صدقيني ، أنني شعرت بخيبة عندما قلتِ بأنكِ لستِ صاحبته ! قلت .

ـ إنني أفضل أن أكون موظفة لا مالكة ! قالت .

ـ آسف ! لقد سرقنا الحديث ! لقد نسيت ما أتيت من أجله ! قلت.

ـ و هل أتيت لسبب غير رؤيتي و التعرف عليّ ؟! قالت و هي تتضاحك.

ـ ميّزة جميلة أخرى تضاف إلى عشرات الميّزات الرائعة التي تتمتعين بها ، و هي ميّزة الدعابة وخفة الروح ! ليتني توقّفت قبل مدّة ، ولكن كل شيء بقضاء و قدر ! قلت .

ـ لا شك أنك أتيت لشراء زهور ، قل نوع العلاقة التي تربطك بصاحبتها و أنا أختارها لك . ولمّا أعلمتها قالت:

ـ اطمئن ؛ ستكون هدية تسعدها جدًا ، عن اذنك ؛ إجلس أنت و أنا سأقوم بالمهمة !

عادت بعد فترة تحمل سلة زهور قرنفل تليق بعروس ليلة زفافها ، وليست بمناسبة عيد ميلادها ، و أصرّت و بشدة ، رغم رفضي الشديد ، أن تأخذ ثمنها و أن تعتبرها هدية تعارف منها !
حا لما وضعت يدي اليمنى على مقبض الباب وهممت بفتحه لأخرج ، إنفجرت أضحك ، وقد عدلت عن الخروج ! لقد تذكرت بأنن لم أقدم لها نفسي !

ـ إسمي سهيل دهشان ! قلت ، ومددت لها يدي .

ـ وأنا إسمي روزانا بلتكيان ! قالت ، وهي تمد لي يدها وتبتسم .

*****

الفصل السابع

إنّ المناسبة التي تعرفت بها على السيدة سانتيش هاملتون ، كانت غريبة وعجيبة حقاً ... فأنا كإنسان يؤمن بالقضاء والقدر ، أقول بكل صدق وأمانه ، إنّ الله سبحانه وتعالى قد رتّب هذا اللقاء ، خصوصاً في هذا اليوم العصيب بالذّات ... لكي يعوّضني كثيراً من العناء والشقاء ، وليهوّن عليّ كثيراً من عذابات الغربة ومعانة الإغتراب !

لقد كنت في ذلك اليوم حزمة متوقدة محمومة ومجنونة من العواطف الملتهبة ، وكذلك حزمة محروقة مسحوقة من الوحدة و من الضياع والأندثار ... إذ أنّني ومنذ أن استيقظت في الصباح الباكر، و أنا أشعر بحنين طاغ و شوق محرق ومدمر ، إلى الأهل والوطن معاً !

لقد كانت دموعي الغزيرة الحارة تنزل وتختلط بالماء ، و أنا أغسل وجهي في الصباح وكذلك بقيت تنزل حتى بعد أن انتهيت من الغسول وكذلك أثناء تناولي قطعة الخبز المحمص ومربّى المشمش مع كأس الحليب ! كنت أفعل ذلك على عجل وكأنّما كنت مرتبطاً بموعد و قد تأخرت عنه !

لم تتوقف دموعي عن النزول حتى و أنا أقود سيّارتي في طريقي إلى الجامعة ، لدرجة أنني عجزت عن رؤية ما أمامي ! لم أستطع تمييزه مما اضطّرني أحيانا أن أتوقف على جانب الطريق للحظات ، لكي أجفف هذا السيل المنهمر من الدموع ! إنّها لم تتوقف إلّا بعد أن دخلت قاعة المحاضرات في تمام الساعة التاسعة ، و وقفت أمام الطلبة للبدء بالمحاضرة !

لقد كان سبب هذا السيل المتدفق من العواطف والدموع المنهمرة ، هو أنني قد استلمت رسالة من أخي في الوطن ، يعلمني بها عن أختي آمنة ، صديقتي وحبيبتي و موضع ثقتي ؛ وكذلك كاتمة أسراري العاطفية وأسرار عشقي ، يوم كان العشق محرماً ! إنها كذلك مضمدة جراحات قلبي ، يوم كانت الشكوى عاراً ، ومجففة دموع عينيّ ، يوم كان سكب الدموع عيباً ؛ والتي تكبرني بعامين ! لقد أعلمني أخي ، برسالته لي ، بأنها تزوجت الأسبوع الماضي في حفل صغير ومتواضع جداً ، اقتصر على عدد قليل من أهل العروسين فقط ! إنّها هي والوالدة وبقية الشّقيقات قد حزنّ جداً جداً ، وبكين كثيراً ، بسبب عدم وجودي بينهن لأشاركهن الفرحة !

كنت قد استلمت رسالة من أخي أيضا ، قبل أكثر من شهرين ، يعلمني بها بأنه و أخيرا و بعد رجاء و إلحاح شديدين من الأهل و الأقارب أيضا ، قد قبلت الشقيقة آمنه أن تتزوج ! لقد صار لها مدة طويلة ترفض الزواج لأسباب نجهلها مع أنه قد تقدم العديد من الشباب ذو الأخلاق الحميدة وميسوري الحال لطلب يدها ... حتى أن شقيقتيها اللّتين تصغراننا ، هي و أنا ، قد تزوجتا و أنجبتا أيضا ... مع أن آمنه هي أجمل و أحكم و أذكى من أخواتها الثلاثة ! إنني لا أقول أحبهن الى قلبي ، لأن حبي لهن متساوٍ !

الحقيقة إن قبولها أخيرا بأن تتزوج قد أفرحنا جميعا ، بل وأسعدنا . إن رفضها المستمر لكل من تقدم لخطبتها قد حيّرنا وأزعجنا ، بل وأقلقنا أيضا ! انه من المفروض

والمتعارف عليه في مجتمعاتنا البدائية ، ذات التقاليد العتيدة والمتزمتة أيضاً ، في تلك الفترة من الزمن ، أن تتزوج الصبية حتى قبل أن تبلغ العشرين من عمرها وإلّا اعتبرت "بائرة" وغير مرغوب بها ؛ أو كما يقولون ، "فاتها قطار الزواج" !

انتهت آخر محاضرة عندي هذا اليوم في تمام الساعة الثانية الا عشر دقائق ظهراً. لقد كانت خطتي منذ غادرت شقتي هذا الصباح ، أن أعود إليها حالما تنتهي آخر محاضرة عندي ، دون أن أذهب بعدها إلى أي مكان آخر ... سواء كان إلى مطعم الأساتذة لتناول وجبة الغذاء ، أو إلى مطعم الطلبة حيث اجتمع ببعض الطلبة العرب ... نتحدث في شؤون الوطن و همومه ، كما فعلت وأفعل في كثير من الأحيان !

لقد كنت أريد العودة رأساً إلى شقتي ، ربما لأشترّ همومي ولأواصل أحزاني ؛ وذلك دون وعي مني ... لكنني لشدة دهشتي حالما عدت الى مكتبي من قاعة المحاضرات وألقيت بما أحمل من كتب و دوسيهات فوق الطاولة ، خرجتُ على عجل وكأنما أنا مرتبط بموعد قد تأخرت عنه ! أغلقتُ الباب خلفي و توجهتُ إلى مطعم الأساتذة ! لقد شعرت ساعتها أنني أكاد أموت جوعاً وأنه ليس عندي الصبر ولا حتى الجهد لأذهب إلى شقتي وأجهّز شئيا لآكله !

* * * * *

لاشك أن خالق الأكوان ، سبحانه و تعالى و مسيّر شؤونها ، كان مقدّراً ومرتباً لي مفاجأة سارّه جداً ، تخفف من قسوة عذاباتي و تهوّن عليّ من وطأة غربتي ! إنني لم أسر إلّا خطوات قليلة باتجاه مطعم الأساتذة إلا وأجد أمامي أختي آمنه !!!

نعم ، أختي آمنه ، بدمها ولحمها ، بتألقها وتعملقها ؛ بجمالها و نظارتها ؛ بكبريائها و أنفتها ! بعقلها وحكمتها !لقد كانت تقف على جانب الطريق تنظر باتجاهي ؛ إذ لا بد و أنها كانت تنتظر أحداً، إذ لا شك أنّ هذا الأحد هو أنا بالذات !

وقفت أمامها متجمدا مذهولا ومرعوبا أيضا ! لقد أذهلتني الدهشة والمفاجأة معًا ، فانعقد لساني أول الأمر ثم انطلق ! لقد صرت اتكلم كلاماً متواصلاً كالذي فلت زمبرك ضوابطه ، إذ صرت ألقي عليها بأسئلة متتالية دون ان انتظر جوابا !

ـ مرحبا يا آمنه ! مرحبا يا حبيبتي ؛ كيف حالك ؛ يا اجمل و احكم فتاة على وجه البسيطة ؟! انني والله اذوب شوقا لرؤيتك ! لقد افتقدتك كثيراً ! مبارك الزواج وبالرفاه والبنين ، ان شاء الله ! ارجو ان تكوني سعيدة ! لقد حزنت كثيرا لأنني لم اكن حاضراً يوم زواجك ! تأكدي بان روحي و عواطفي و قلبي وكل أحاسيسي ، جميعها كانت معكم ، هناك في الوطن ! ثم لمَ لم تعلميني بقدومك ، لكنت استقبلتك بالمطار ! وكيف عرفت عنواني بالجامعة ؟! وهل أتيتِ لوحدك ام حضر زوجك معك ؛ ثم كيف استطعتما الحصول على تأشيرة الدخول لأمريكا ؟! لاشك ان زوجك شخصية مهمة وعلى معرفة بالسفير نفسه ! قلت.

ـ آسف يا سيدي ! انا لا أتكلم اللغة اليونانية ! قالت المرأة الواقفة أمامي والتي كانت طيلة الوقت محدقة بي وتبتسم ، و أنا اغرقها بوابل من اسئلتي وتعليقاتي المتتالية !

على الرغم من انه صار لي اياماً عديدة اقاسي من عذبات الوحدة والاغتراب ، وانني اكاد اذوب بالعدم وأتلاشى مع الأثير ، فان الحقائق قد اختلطت عليّ ولم اعد اميّز بين ماهو وهمٌ وخيال وبين ما هو حقيقة وواقع !

إن حبي الشديد لأختي آمنه و ولعي وتفكيري الدائم والمستمر بها ، وخاصة بعد زواجها ؛ انه على الرغم من كل هذه الحقائق ، الا ان هذه الفتاة الواقفة امامي ، كرمح مسلول وفرس مطهمة ، تشبه الى حد كبير كبير اختي آمنه ، حبية القلب وصنوة الروح !

ان اختي آمنه طويلة القامة جدا ، اذ لاشك انها ورثت ذلك عن والدينا الاثنين ، وكذلك هما ورثاه عن والديهما ! انني لا استطيع ان اتكلم عمن جاء قبلهم لانهم قد انتقلوا الى رحمة الله تعالى ، عندما وعيت انا على نفسي ، حيث انه لم يكن يوجد صور لهم لعدم توفر تصوير بذلك الوقت ، في هذا الجزء من العالم !

إن اختي آمنة نحيفة جدا وممشوقة القوام ، ناصعة بياض البشرة ذات عينان زرقاوان وشعر بين الاسود والذهبي ! إنها ذات ذكاء متوقد وعقل كبير ، كلامها كله مواعظ وحكم !

انها لم تدخل مدرسة ولم تعرف القراءة والكتابة ، و لكنها توزع المواعظ والحكم ، وتفتي بين الناس وكأنها قاضية او خريجة دراسات عليا !.

ـ هل تتكلم معي يا سيدي ؟! سأَلتْ المرأة الواقفة امامي ثانية ً، عندما لم اجب على سؤالها ، و بعد ان إلتفتت الى يمينها والى شمالها ، ولم تجد احدًا ! عندها ، وعندها فقط ، أدركت أن المرأة الواقفة أمامي ، هي ليست أختي آمنة ، وانما واحدة تشبهها الى حدِ كبيرٍ جداً !

ـ نعم يا سيدتي ؛ انني اتكلم معك ؛ لكنني آسف جدا لما سببته لكِ من ازعاج واحراج ! إنك تشبهين الى حد كبير اختاً لي ، فظننت انك هي ! قلت للمرأة الواقفة امامي والتي لم تفارق البسمة الفرِحة الجذلى شفتيها ... كما ان اشراقة وجهها واضاءة عينيها لم تفارقاها طيلة إلقائي محاضرتي الطويلة عليها !

ـ وهل تعتبرني فضولية إن سألتك كم عمر أختك ؟ !

ـ إنها في الثامنة والعشرين من عمرها.

ـ إذن هي في مثل سني . قالت بفرح ، ثم أضافت .

ـ انت لم تسبب لي احراجاً ً ولا ازعاجاً على الاطلاق يا سيدي ؛ وان كنت اتمنى لو كنت اعرف اللغة التي تتكلمها ولأفهم ماذا كنت تقول ! لقد احسست حرارة العواطف وصدق التعبير في كلامك ؛ فهل هي اللغة اليونانية ؟!

ـ اعتذر منكِ مرة اخرى بصدق وحرارة لما سببته لكِ من ازعاج واحراج ! ان اللغة التي كنت قد تكلمت بها ، لم تكن اللغة اليونانية وانما كانت العربية ! انني أتساءل لم اعتقدتِ انها اللغة اليونانية وليست لغة اخرى !

وبعد ان ضحكت حتى بدت نواجذها ، فظهرت اسنانها ناصعة البياض كحبات اللؤلؤ المنثور ، وبدت ضحكاتها لي أنا ، وكأنها وشوشات قُبَل وهمسات حب !

ـ إنّ السبب الذي دفعني لأفكّر انك تتكلم اليونانية ؛ هو أنّ شكلك يشبه الى حد كبير صديق لنا رسام يوناني تعرفنا عليه زوجي و انا ، عندما كنا نقضى شهر العسل في مدينة اثينا ، قبل ثماني سنوات ! إننا ما زلنا حتى الآن نكتب لبعضنا البعض ؛ كما اننا زرناه بعدها مرتين !

بعد ان شرحت لها ملابسات الحادث واعلمتها من اكون ، رجوتها ان تقبل دعوتي بأن نتغذى سوية ، ولكنها اعتذرت بحجة انها انتهت من تناول طعام الغداء قبل اقل من ساعة ، في مطعم الجامعة هنا ؛ مطعم الطلاب ... ولكنها وبكل سرور سترافقني لتتناول معي فنجاناً من القهوة ، ثم نكمل حديثنا الذي قالت عنه ؛ "بانه شيق وممتع !"

أثناء تناولي طعام الغداء ، وبينما كانت هي تحتسي فنجان القهوة ، حدثتها عن حياتي وعن اشتياقي الشديد للأهل في الوطن ، وخصوصا لأختي آمنه التي تشبهها إلى حد كبير ؛ والتي تربطني بها علاقة صداقة قوية ، وكذلك ألمي لعدم استطاعتي حضور زواجها !

ـ ما أسعدها ! اقول لك بكل صدق وأمانه ، بأنني كنت دائما أتمنى لو كان لي أخاً أو أختاً ، فنتبادل احاديث الاشواق والعواطف ، ثم احبهم و يحبونني ؛ فأنا وحيدة والداي ، و اشعر دائما في نقص بسعادتي ! قالت وقد شعرت الألم و الحزن في صوتها ، وكذلك علامات التأثر على وجهها !

ـ انني آسف وحزين من اجلك يا سيدتي ؛ واتفهم ما تشعرين به ؛ ولكن ألا يعوضك حب الزو ج والأبنة عن حب الشقيق او الشقيقة ؛ إذ إنني أرى خاتم الزواج بيدك اليسرى ؟! سألت .

ـ انه يعوض بعض النقص ، ولكن ليس النقص كله ! انه ليس مثل هذا الحب العظيم النادر الذى تتكلم أنت عنه ! لقد كنت اعتقد بان الابناء سيملأون هذا الفراغ ، ولكنني اكتشفت انني كنت مخطئة ، اذ أن حب زوجي وابنتي لي وحبي لهما ، لم يملاءا هذه العاطفة الجميلة تماما ! قالت.

ـ نحن من حيث أتيت ، عندنا حب الأخت ، و خصوصا التي تكبرنا ، كحب الوالدة تماما ؛ شيء مقدس ، ننشد مساعدتها ونأخذ برأيها ؛ فهل تتكرمي عليّ وتقبلين بأن أكون أخاً لكِ لم تلده امك ؟! وجدت لساني يخرج الكلمات دون وعي مني ، والله !
إنفجرت تضحك لثوانٍ ثم توقفت فجأة ، اذ انها قد تكون شعرت بأن ضحكها هذا ربما قد أذّى مشاعري او يكون قد احرجني ؛ كما انه ايضاً ربما يكون تصرف غير حضاري في مثل هذا الموقف !

ـ ارجوك ! ارجوك ! سامحني ! سامحني ! صدقاً َ؛ لقد ضحكت لتوارد خواطرنا ! لقد تمنيت من اعماق قلبي وبكل أحاسيسي ووجداني ، بعد ان حدثتني بحرارة واسهاب عن حبك لأختك وتقديسك لها ؛ لو انك كنت اخاً لي وتحبني كل هذا

الحب الرائع والمتميز ؛ لكنت والله سعيدة جداً جداً ! قالت والفرحة تتراقص فوق وجهها ، ونور إلهيٌّ ينبعث من عينيها !

ـ اذن ؛ اعتبريني أخاً لكِ لم تلده امك ، اذ انني ، واقسم لكِ بكل ما أؤمن به ، بانني تواق جدًا جداً أن تكون لي اختاً هنا في امريكا ! انا اعرف نساء كثيرات هنا ، صديقات ومعارف ، ولكنني لم اجد واحدة منهن عندها المؤهلات التي تتمتع بها أختي العملاقة آمنة ، وبأن تكون أختاً لي ! إنني اشكر الله، عز وجل ، انني وجدتها بك انتِ ... خصوصا وانتِ ؛ نسخة صادقة عنها ! قلت بحماس وانا ارقص طرباً واكاد اطير فرحاً !

ـ ارجوك ! ارجوك ! لا تتكلم اكثر ؛ لان كلامك هذا يكاد يبكيني لشدة تأثري ، كما وانني احب ان اقول لك بانه يسعدنني جدًا جداً ان احصل على هذا الشرف العظيم ! انت اخي وأنا اختك ، أمام الله و أمام السيد المسيح ؛ وأمام الناس أجمعين ! ارجو ان تخاطبني من الآن فصاعدًا "سانتيش" وسأخاطبك أنا بدوري "سهيل" ؛ فلننسى السيدة هاملتون ، ولننسى بروفيسور دهشان !

ـ ما أسعدني أن يكون لي الآن اختاً ، هنا في أمريكا ، أستطيع عندما يهزني الشوق اليها والحنين الى الوطن ؛ وتستبد بنفسي الآلام ، وشعر بالأحباط والتمزق ، أجلس أمامها وأنظر في عينيها الجميلتين ، فأشكو اليها أوجاعي وهمومي ، فتسبّل لي شعري وتواسيني ! قلت هذا دون وعيٍ ولا إدراكٍ مني ! بعدها أضفت :

ـ شكراً لك يا رب ، ان ارسلت لي اختاً افرحت قلبي واسعدت روحي وهوّنت عليّ بعدي عن اختي آمنة ! وجدت نفسي أرفع ناظري الى أعلى ، ولساني لا شعوريا يقولها بالعربية دون ادراك مني !

ـ وماذا تقول ؟! سألت وهي تحدق بي وتبتسم !

ـ لقد شكرت الله الذي ارسلكِ لي رحمة ونعمة ، اذ انني قبل ان اقابلكِ بدقيقة واحدة فقط ، كنت اتمزق شوقاً واذوب الماً لبعد اختي آمنة عني !

ـ وانا اشكره ايضاً ! قالت وقد اضاء وجهها وافترتّ شفتاها عن ابتسامة حنونه شعرت بانها غمرت عقلي وقلبي وكل احاسيسي !

ـ ان زوجي سيكون سعيدًا جداً ، عندما ازفّ اليه الاخبار الطيبة ، اذ انه يعرف حقيقة شعوري بخصوص هذه المشكلة ! لقد كنا نجلس هو وانا ، ونتحدث عن هذه الرغبة ؛ كما ان ابنتي واسمها "لوشينتا" ستطير فرحا ! لأنها طالما هي الاخرى قد تمنت و حدثتني كثيراً في هذا الموضوع ؛ بأنه لو يكون لها خالٍ او عمٍ ! ان زوجي كذلك ليس له اخاً وانما له اختان فقط ، وهما تسكنان بعيدا عنا ؛ انهما تعيشان في ولاية اريزونا !

ـ وكم عمر ابنتك ؟!

ـ عمرها سبع سنوات ؛ انها شعلة متوقدة من الذكاء والوعي والادراك، ، وإسمها على قائمة الطلاب المتميزين لدى مدير المدرسة ! إنها طالبة في نفس المدرسة التي ادرّس بها . لقد تزوجنا بعد أقل من شهر من تخرجنا من الجامعة .

ـ لاشك بانها جميلة كأمها ، ثم لاشك انها ورثت الجمال والذكاء منك ايضا ! قلت .

ـ صدقني ؛ انها اجمل مني كثيرًا واذكى ! قالت وهي تبتسم .

ـ لقد ذكرتِ لي بأنكِ من خارج الجامعة ، فما سبب وجودك هنا ؟

ـ أنا مدرّسة تاريخ في احدى المدارس الثانوية في مدينة "سانتا مونيكا"، وكذلك طالبة مسائية في برنامج الماجستير، هنا ، في هذ الجامعة . إنّني أكتب الآن أطروحتي و أتيت اليوم ، لابحث عن المراجع ، لان هذه المراجع لا تتوفر إلّا هنا في مكتبة هذه الجامعة فقط . لقد اخذت اجازة هذا اليوم لأمضيه هنا ، بالبحث عن المراجع التي اريدها ! قالت .

ـ لا إله إلا هو ، مقدر الأرزاق ومسدد الخطى ! حقاً إنه رب يعبد ! قلتها بالعربية وجسمي يهتز ورعاً ورهبة ؛ وعيناي تذرفان وابلاً من الدموع الغزيرة الحارة ! وقبل أن تسألني ماذا قلت ؛ ترجمتها لها وأضفت ؛

ـ ان الخالق ، سبحانه وتعالى ، قد رتب كل شيء لكي نلتقي ، وآمل ان يكون لقاءنا لقاء خير وسعادة وبركة ، لكل منّا ؛ انت و زوجك و ابنتك و كذلك أنا !

ـ آمل ذلك ؛ و إن كنت واثقة بانها ستكون صداقة سعادة لكل منا ! قالت وهي تهز رأسها مؤكدة مقولتها .

ـ وهل زوجك مد رّس تاريخ مثلك ؟ سألتها .

ـ لا ؛ انه مدرس رياضيات في احدى المدارس الثانوية البعيدة من هنا قليلا ، في مدينة" لونج بيش" . إنه يفكر بترك مهنة التدريس والعمل لدى احدى شركات الاستثمار ؛ اذ انه يعتقد بانها اقل عناءً واجزل عطاءً !

ـ اتمنى له التوفيق من كل قلبي ! قلت. وبعد ان تمهلت قليلا سألتها :

ـ متى تريدينني ان اقابله ؟ ! أعني ما رأيك ان ادعوكم ثلاثتكم ، للعشاء في احد المطاعم التي تحبونها ؟!

ـ لا ! أنت تأتي الى بيتنا للعشاء اولاً ، فتتعرف على زوجي وابنتي ، وبعدها نقبل دعوتك ! تمهّلتْ قليلا ثم سألتني :

هل مساء يوم الجمعة القادم ، بعد غد ؛ الساعة السادسة ؛ مناسب لك ؟

نعم ؛ مناسب جداً . قلت بعد ان فكرت قليلا !

وصفت لي المنطقة وكتبت لي رقم الهاتف على ورقة صغيرة اخرجتها من حقيبة يديها ؛ تصافحنا بعدها ثم توجه كل منا الى حيث موقف سيارته .

*****

طلبت من بائعة الزهور التي اتعامل دائما معها ، بأن تختار لي سلة من زهور القرنفل المتميزة ، فقد اعلمتها بأنني اريدها لامرأة لها عندي محبة واحترام متميزين ، وانني اعتبرها اختاً لي ، هنا في أمريكا !

ضحكت المرأة وهي تنظر إليّ وتبتسم نظرات ذات مغزى ، ثم قالت :

ـ يبدو لي يا بني ، بأن جميع النساء اللواتي تصادقهن كلهن متميزات ، اذ أنني ومنذ أن عرفتك وأنت لا تشتري لهنّ الا سلال الأزهار الغالية والمتميزة !

ـ صدقيني يا سيدة روزانا ، إن صاحبة هذه الزهور امرأة متميزة جدا عندي ؛ و صدقيني ايضاً ان قلت لك بأنه لا توجد بيننا اية علاقة رومانسية ! انها متزوجة وعندها ابنة عمرها سبع سنوات ؛ تعرفت عليها قبل يومين فقط !

ـ اتمنى لك صداقة دائمة وحظا سعيداً ! انك تعرف كم احترمك وكم احبك و كم اتمنى لك السعادة و الهناء يا بني ! قالت وهي تبتسم وتناولني سلة الزهور .

* * * * *

صاحبة محل الزهور هذه، السيدة روزانا بلتكيان ، أرمنية الأصل. إنها امرأة جميلة جدا وناعمة ، ذات جاذبية جنسية تدير رؤوس العُباد وتلهب مشاعر الزهّاد ! إنني لم اقابل امرأة فى حياتي من هي اكثر اخلاصاً ولا اعظم وفاء للإنسان المرتبطة به اكثر منها ! انها لا تسمح لرجل ان يسمعها حتى كلمة ثناء تمس شرفها او عفتها ! إنها ذات صحة وعافية ممتازتين ، كما انها صافية البشرة ناصعة البياض ، لا تفارق الابتسامة شفتيها ! انها في الواحد والخمسين من عمرها ، كما اعلمتني فيما بعد وبعد ان اصبحنا أصدقاء ! كنت قد ظننتها قبل ان تعلمني حقيقة عمرها ، بأنها في مثل سني ، لنحافة جسمها و رشاقة قوامها و لجمال وجهها و لإحمرار خدّيها !

انها وزوجها من لبنان ، وهو يعمل جزارا في احدى "السوبرماركتات" الكبيرة . لقد هربا ايام قصف بيروت ! لقدتعرفت عليهما قبل عامين . انهما لا يستطيعان انجاب اطفال لأسباب أجهلها . لقد دعواني لزيارتهما في منزلهما مرات عديدة ، ودعوتهما انا بدوري اكثر من مرة ، وكنا كثيرا ما نتحدث عن الوطن وأخباره ، وخصوصا عن لبنان وما يفعله الاعداء به من قتل وتدمير !

ان السيدة روزانا ليست صاحبة المحل ، إذ ان مالكته سيدة أرملة يونانية متقاعدة ، أوكلت اليها المحل وتعاقدت معها بعد ان اختبرت امانتها وصدقها ، وكذلك مقدرتها لمدة عامين ونيف ، حيث كانت تعمل موظفة لديها .

تركتُ السيدة روزانا ودخلتُ احد المتاجر الكبيرة ، حيث قسم الألعاب ، واشتريت لعبة جميلة تليق بابنة مضيفاي ، ثم توجهت بعدها الى قسم المشروبات الروحية ، فاخترت قارورة نبيذ فرنسية الانتاج تقدم مع الطعام ، لأقدمها للزوجين لنحتسيها ثلاثتنا ، مع وجبة العشاء !

ناولت البائعة قارورة النبيذ لتعمل لي بها مستندا ، وبعد ان فعلتْ اعلمتني الثمن ، فتحت محفظة نقودي ولذهولي وجدت ان ما معي من النقود لا يكفي ، مما احرجني

واخجلني جداً ! فكرت ان اكتب لها شيكا بالمبلغ ، فمددت يدي الى جيبي لأخرج دفتر الشيكات ، وكأنما قوة إلهية منعتني من ان افعل ! لقد وجدت لساني يقول ، وبدون وعي مني ، اكلم البائعة واعتذر لها بعدم وجود نقود كافية معي ، وانني سأعود فيما بعد لأخذها ! قلت هذا وانصرفت وشعور بالخجل وعدم الارتياح يساورني بل ويقلقني !

كان الزوج هو الذي فتح لي باب الشقة ورحب بي ترحيباً حارا ً، وكانت تعلو شفتيه ابتسامة كبيرة جذلى ، فتصافحنا ثم عانقني حتى انه احرجني لحرارة عواطفه ، ثم قال :

ـ لا تتصور يا اخي سهيل سعادتنا ، لوشينتا وانا ، حينما حضرت زوجتي واخبرتنا عن قصة تعرفها عليك ، وانك تكرمت وقبلت دعوتها وانك لا تمانع ان تكون اخاً لها وخال لابنتنا ! لقد شكرنا الله ان يسر لنا انساناً نستطيع ان نقضي معه أوقاتاً ممتعة ، وأن نبثه اشواقنا ومحبتنا ! قال الرجل بحماس وصدق وهو يحرك يديه ويهز رأسه لتساعده بالتعبير عما يقصد !

لعل الرجل ، وبسبب زخم وحرارة اللقاء ، نسي ابنته التي كانت تقف غير بعيدة عنا ترقبنا وتنتظر ان نشركها في حديثنا ، إذ لم اجد نفسي الا وانا اقول لها :

ـ كيف حالك ايتها الشابة الحلوة ؟! حقاً انك جميلة جدًا ! انا خالك واسمي سهيل ! لقد احضرت لك هذه اللعبة وارجو ان تنال رضاك ! قلت ذلك وانا اناولها اللعبة بيدي اليسرى وامد لها يدي اليمنى مصافحاً .

ـ اعذرني يا أخي ! لقد انستني فرحة لقائك ان اقدم لك حبيبة قلبي ، الجميلة لوشينتا ! قال الزوج ذلك وفتح يديه على وسعيهما وهو يشير الى ابنته ، ثم اضاف :

ـ هذه لوشينتا الحلوة حبيبتنا ، امها وانا ، رفيقتي عندما اراقب التلفاز واقوم ببعض الاعمال البيتية ؛ ومساعدة والدتها بالمطبخ وتنظيف البيت ! انها طالبة ذكية ومجتهدة جدًا .

ـ ماما قالت لي بأنكَ توافق على ان تكون خالاً لي ، وانا فرحت كثيرا ! أنا دائما حزينة اذ انه لا خال لي ولا عم العب واتكلم معهما ويأخذاني الى اماكن حلوة ! ان جميع اصدقائي وصديقاتي لهم خال او عم او اكثر ! قالت ببراء ة ورقة أذهلتاني !

ـ نعم ايتها الجميلة لوشينتا ! انني احب كثيرًًا جدًا ان اكون خالاً لكِ ؛ وصدقيني انني وانا ايضا فرحت كثيراً بانك انتِ كذلك ، وافقت على ان اكون انا خالك ! قلت ؛ وبعد ان فكرت قليلا اضفت :

ـ عندما يكون والداك مشغولين وتحبين الذهاب الى اي مكان تريدينه ، فانه يسعدني جدا جداً أن آخذك بسيارتي الى المكان الذي تحبين . قلت هذا وصرت امسّد بيدي اليمنى شعرها مما اسعدها جداً !

ـ شكرًا جزيلاً ياخالي ! قالت وهي تعانقني وقد ازدادت فرحتها واتسعت ابتسامتها !

حملتها وضممتها الى صدري وقبلتها على خديها بحرارة وشوق ، مما اسعدها جدًا ، فقبلتني هي بدورها مما زاد في سعادتي أيضاً !

لقد ذكرتني بنوال ، ابنة اختي الكبرى اميرة ، والتي كنت مولعاً بها جداً لدرجة الهوس ، بسبب بعض تصرفاتها الطفولية وما كانت تقوله من كلمات ساذجة وبريئة !

في هذه الاثناء اقبلت الزوجة وكان وجهها يطفح بُشرا وعلى شفتيها ابتسامة جميلة فتصافحنا ، ورحبت بي وبالغت بالترحيب ، ثم اضافت :

ـ مرحباً بك ياأخي سهيل ! كم نحن سعداء بانضمامك الى عا ئلتنا ! قالت الزوجة وابتسامة جذلى تغطى وجهها ، وفرحة متأججة تشع من عينيها !

ـ إنه ليسعدني جداً أن آتي لرؤية اختي الحبيبة آمنة ، وأخي الحبيب بيتر ، وإبنة اختي لوشنتا ! قلت بحماس ، وقلبي يزغرد في داخلي وجسمي يرقص طرباً !

ارجو ان تعتبر ان بيتنا هذا هو بيتك الثاني ، تأتي اليه كلما شئت ! اننا نأمل ان تزورنا كل يوم وتمكث معنا لفترة طويلة !

جلسنا حول طاولة الطعام والتي تتسع لأربعة أشخاص فقط ؛ أجلسني الزوج على رأس الطاولة وجلس هو قبالتي ، وجلست الزوجة على يمينه و جلست الصغيرة على شماله .

سحبتْ الصغيرة كرسيها ووضعته ملاصقا لي ، مما اسعدني جداًً ومما جعل الزوجين يحتجان بصوت واحد بان فعلتها هذه ستضايقني وستعيقني عن تناول الطعام ، ولكنني اكدت لهما ، وانا اضم الصغيرة الى جانبي وقد زاد كرسيها التصاقا بي ، حيث قلت :

ـ أنه على العكس من ذلك ، إذ ان فعلتها هذه تسعدني جدا ، واذا سمحتم فإنني ارجو ان تبقوها الى جانبي !

ـ لابأس ! اذا كانت هذه رغبتك ! قالا معاً .

طلبت الي الزوجة ان أقرأ مباركة الطعام باللغة العربية ، وبما انه لا يوجد عندنا مباركة للطعام مثلما هو عندهم هنا ، واننا نكتفي بالبسملة ، الا انني اعلمتها بانه يسعدني ان افعل !

لقد شكرت الله ان ارسل لي هدية ثمينة هذا اليوم ، بأن عرفني على هذه العائلة الكريمة ؛ ورجوته سبحانه وتعالى ، ان يديم صداقتنا وان يحفظها من الزلل والشوائب !

سألتني الصغيرة "ماذا قلت ؟"، فترجمت لها ذلك وزدت عليه قليلا ، فذكرت بانني شكرت الله ان ارسل لي ابنة اخت جميلة وذكية إسمها لوشينتا ؛ مما اسعدها جدا جدا ! نهضت بعدها عن كرسيها وعانقتني بحماس وحرارة ، ثم قبلتني على خديّ الاثنين وهي تبتسم .

حالما ابتدائنا بتناول الطعام طلبت اليّ الصغيرة ان اطعمها بيدي ، فاعترض الأب بشدة حتى قبل ان ابدي الرغبة بالموافقة ، ولكن الزوجة اقترحت بان اطعمها لقمة واحدة فقط ، ولكنني اطعمتها لقمتين ! لاحظت بعد أن فعلت ذلك ، بأن الصغيرة لم تستمر في تناول طعامها ، اذ توقفت عن الأكل كليا حيث كانت تنظر إليّ ! لقد قرأت في عينيها وكأنما تقول لي " ارجوك ان تستمر في اطعامي" !

ـ انتِ تزعجين خالك يا حبيبتي ، فتحولين بينه وبين تناول طعامه ! قالها الأب شبه غاضب وبلهجة تقريع وتأنيب شديدتين ، مما جعل عينا الصغيرة ترغرغان ، ثم تنزلان بعض الدموع ، مما احزنني فقلت :

ـ صدقاني ، انني اشعر وانا اطعمها بيدي هاتين بسعادة لا توصف ، اذ ذكرتني بأيام حلوة مضت كنت اضع بها ابنة اختي في حجري واطعمها الوجبة كاملة ! ولهذا ارجوكما ان تسمحا لي بان افعل ذلك وان لا تحرماني من هذه السعادة التي من الصعب عليّ ان أصفها لكما ! قلت.

ـ ولكنها ستحول بينك وبين تناولك لطعامك ! قال الزوج محتجا ؛ اما الزوجة فلم تقل شيئا واكتفت بابتسامة شكر وامتنان .

ـ سأطعمها لقمة وآكل انا لقمة ، اذا سمحتما ؛ قلت مخاطباً الزوجين .

ـ كما تريد ! قال الزوجان يقاطعان بعضهما بعضاً .

ـ بقيت أفعل ذلك حتى انتهينا من تناول الطعام .

بعد ان شكرني الزوجان بحرارة ، وقفت الصغيرة وعانقتني بطفولة بريئة وقبلتني على خدي ، فضممتها الى صدري ! لقد شعرت حقاً انني استنشق ملابس ورائحة ابنة اختي ، نوال !

لاحظت ان انواع اللحوم المتواجدة على طاولة الطعام هي فقط الدجاج والسمك ، فقد أعلماني بانهما مدركان تماما باننا ، نحن المسلمون ، لا ناكل لحم الخنزير، كما انهما نفسيهما لا يحبذان تناوله لكثرة ما يحتاجه الانسان من شرب للماء بعد تناوله ؛ كما اخبراني !.

لقد اعلماني ايضا بانهما لا يشربان الا الماء القراح والحليب وعصير الفواكه . انهما لم يقدما ولم يسألاني ان كنت اريد شايا او قهوة ، كما كان يفعل الذين يدعونني الى منازلهم ! لقد فهمت منهما انهما ينتميان الى كنيسة "المورمن" ، والتي تحرم على اتباعها تعاطي المشروبات الروحية بجميع انواعها واشكالها ، وكذلك فأنها تنصحهم بعدم شرب القهوة او الشاي وكذلك جميع انواع المرطبات والمشروبات الغازية التي تحتوي على المادة المنبهة !

تساءلت مستغرباً ، كيف عرفتم انني مسلم ولست مسيحياً ، علماً بان مواطني البلاد العربية مزيجا من الديانات !

لقد فهمت من حديثك ، عند التعارف ، وكثرة ذكرك للفظ " الله" وتحفظك عن الكلمات غير اللائقة ، ادركت عندها بانك لا بد وأن تكون مسلما ً! قالت الزوجة .

هنا ، هزتني عاطفة دينية شديدة واعترتني مسحة صوفية روحية ، فشكرت الله ان الهمني الى عدم شراء قارورة النبيذ حتى لا احرج مضيفي واحرج نفسي !

اثناء تناول وجبة العشاء وخلال السهرة كانت الاسئلة تنهال علي من ثلاثتهم ، وكانت جميعها عن طفولتي وعن دراستي وعائلتي ومدينتي التي نشأتُ بها وكذلك عن الطعام والعادات والتقاليد ، فكنت اجيبهم بعد ان اضيف اليها شيئاً من التعليل والايضاحات ، بسبب اختلاف الحضارات ، مما اسعدهم كثيرا واسعدني أنا ايضا !

كانت الصغيرة لوشينتا ، طيلة الامسية تجلس في حضني ، وكنت اقبلها بين الفينة والاخرى واضمها الى صدري ! بقيت افعل ذلك حتى نامت ، عندها طلبت إليّ والدتها ان اتكرم واساعدها بحملها ، ثم اخذناها الى الفراش !

ـ لا تستطيع يا أخي سهيل أن تتصور سعادتي ، ولا شك أن بيتر و لوشينتا يشاركانني هذا الشعور ، اذ كنت دائما أشعر أنه ينقص عائلتنا شيئا مهماً لتكتمل سعادتنا ، لم استطع ان أتأكد منه ؛ و الآن فقط عرفته ، و هو ان يكون هناك انسان نحبه ويحبنا ؛ يهمه حالتنا وأحوالنا وكذلك نفعل نحن نفس الشيء ! مرة أخرى أشكر المسيح أنه عرفنا عليك ! قالت و هي تكاد تبكي من شد ة التأثر بعد أن غطّينا الصغيرة ، بالبطانيّة، نحن الاثنين معاً !

ـ صدقيني يا أختي الحبيبة ، سانتيش ، ان سعادتي لا تقل عن سعادتكِ ان لم تكن أكثر ! لقد افتقدت كثيراً عائلتي بالوطن ، وكثيراً ما تمنيت لو استطيع أن أتعرّف على عائلة كريمة تقبلني كصديق لهم ، أجلس معهم و نتحدث كلما يهزّني الحنين الى الأهل و أحاديثهم ! و ها هو الخالق قد تكرّم عليّ و رزقني أختاً أخرى ، ثم زادني بأن رزقني الى جانبها بأخ كريم و ابنة أخت قطعة من الجمال و العواطف الرقيقة !
جرى هذا الحديث بيننا وكنا نجلس نحن الأثنين الى جانب بعضنا بعضاً على كنبة صغيرة موضوعة بجانب سرير الصغيرة .

هنا هجمت المرأة عليّ وعانقتني ووضعت رأسها على صدري ، و بلا شعور ولا إرادة مني وجدت نفسي أمرُّ بيدي اليمنى على شعرها ذهاباً و عودة ، و أنا أقرأ سورة آية الكرسي ! بعدها شكرت الخالق لهذه الهدية و رجوته أن يديم و يبارك صداقتنا ! بقيت هي صامتة لا تتحرك حتى انتهيت من قراءتي فسألتني ماذا قلت : فأعلمتها ما قرأت !

لم تعلق على ما قلت ، و انما رأيتها تمسح دموعها بظهر يدها !

بعد أن خرجنا من غرفة الصغيرة ، أعلمت الزوجة زوجها بكل ما قلناه وفعلنا ه ، حيث كانت تتكلم وهي ما زالت تكفكف دموعها ! فقال الزوج وهو يبتسم و يهزّ رأسه يميناً و شمالاً :

ـ من الغريب العجيب أن هذا ما كان يدور بعقلي أثناء وضعكما الصغيرة في الفراش ! لقد تمنيت لو أن سهيلاً متزوجاً وعنده ولد أو بنت ، في مثل سن لوشينتا ؛ لكانت سعادتنا قد اكتملت ووصلت قمّتها ! وبعد أن تمهل قليلاً أضاف :

ـ صدقني يا أخي سهيل ، ان سعادتنا نحن الثلاثة ، لا يوجد كلمات كافية في اللغة تعبرعنها ! الشكر لله ولك أيضاً ، أن تكون أخاً لنا !

لقد أسعدني كلام الزوج ، و ان كنت واثقاً بأن زواجي من أمريكية شبه مستحيل ! لقد تسألت بيني وبين نفسي ، لو حدث هذا ، هناك في الوطن الحبيب ، معقل العفة والأحتشام ، فهل يقبل الروج من زوجته أن تفعل هذا ، حتى ولو كان هذا الأنسان أخاها حقاً ؟!

ـ لا أدري ان كنت قد لاحظتَ هنا ، وهو أن رجال الدين لا يلبسون ملابس خاصة تميزهم عن بقية الناس ، كما يفعلون في بقية الامم ! قالت السيدة سانتيش ، فجأة :

ـ نعم ، لقد لاحظت ذلك واستغربت الأمر ، و لكن عجبي زال عندما اعلمني احد الاساتذة عندنا بالجامعة ، بأن امريكا كبلد اكتُشفَ حديثا ، يحاول اهله ان تكون عنده اشياء كثيرة تميزهم عن بقية الامم ، الناطقة بالأنجليزية ، والامثلة على ذلك كثيرة ... فمثلا تهجئة كثيرا من الكلمات الانجليزية الموجودة في اللغة الأم ، يغيرون هنا تهجأتها فيذكرون بالقاموس أن هذه التهجئة هي الانجليزية ، ولكن الامريكان يهجئونها هكذا ! ثم ذكر كثيرا من التصرفات التي لا مثيل لها في العالم حتى ترتيب التاريخ قد غيروه ؛ اذ أن جميع دول العالم تضع اليوم اولاً ثم الشهر ثانياً ثم العام بعد ذلك ، اما هنا فيضعون الشهر اولاً ثم اليوم ثم العام ! قلت .

ضحكت وقالت بأنها تعرف ما عنيت ، ثم اضافت :

ـ لقد رأيت قبل عدة شهور في جريدة "لوس انجلوس تايم" ، صورة مكتوب تحتها : "رجال دين عرب مسلمين ومسيحيين مجتمعين في اسطنبول ، تركيا ، يبحثون القضايا الدينية التي تشغل بال مواطنيهم ! ان الذي جلب انتباهي هو هذه الملابس الواسعة الفضفاضة ، وكذلك فان بعضهم يلبس على رأسه غطاء اسود وآخرون يلبسون على رؤوسهم لباس ابيض ! احتفظت بالصورة حتى اقابل من يستطيع ان يجيب على سؤالي ، وعندما تعرفت عليك قبل يومين قلت لنفسي سأسألكَ عنها عندما تحضر !

ـ إنّ رجال الدين المسلمين ، يلبسون جبّة سوداء وعمامة بيضاء بداخلها طربوش أحمر حوله لفّة بيضاء ، اما رجال الدين المسيحيين ، فهم يلبسون قلنسوة سوداء ويضعون الصليب على صدورهم ! قلت ذلك وتناولت الصورة منها وبدأت أحدق بها واقرأ ما كُتب تحتها :

تأملت الصورة لأكثر من دقيقة ، ثم انفجرت اضحك بهستيريا !

بقيت اضحك والمرأة تتأملني وقد عبس وجهها ، اذ لا شك انها استغربت ضحكي المفاجئ وغير المبرر ، ولكنني عندما استطعت ان املك زمام نفسي ، وبينما كنت امسح دموعي بمنديل قماشي اخرجته على عجل من جيب جاكيتي قلت :

ـ ارجوكما ، وبحرارة شديدة ان تعذراني ! قلت ذلك وانا ما زلت مستمراً في تجفيف دموعي !

ـ لا شك ان هناك من سبب لضحكك ! لقد اثرت عندي غريزة معرفة السبب ! قالت الزوجة .

استأذنت الزو ج و الزوجة ، ثم دخلت الحمام وغسلت وجهي ، وعندما عدت رفعت الصورة وأشرت بابهام يدي اليمنى الى أحدهم فيها وقلت :

ـ انظري الى رجل الدين هذا ! ولما تأمّلته قالت وهي تبتسم :

ـ فليسامحني الرب ان له نظرات ثعلب خبث ومكر!

ـ أنا اعرفه ، اسمه الخوري ايوب . انه من سكان مدينتا ، السلط .لقد أمضيت بضع ساعات أتحدث اليه ! قلت .

ـ لا بد وانه رجل ممتع جداً ! انه وهو ينظر اليّ اشعر ان نظراته ... ! توقفت ولم تكمل ، وقد احمرّ وجهها خجلاً ، فحوّلتْ ناظريها عني !

هنا نهض الزوج بحماس ، اذ لا شك ان غريزة حب الاستطلاع عنده قد وصلت عنانها ، فاستأذنني بان يرى الصورة ، ولما ناولتها له بعد ان أشرت الى المعني ، قال وهو يضحك :

ـ يا الهي ! ان له نظرات غريبة ، أشعر وهو ينظر اليّ وكأنما يعرّيني من ملابسي ! قال ذلك وانفجر يضحك ، وشاركنا ه الضحك ، زوجته وانا !

بعد ان توقفنا عن الضحك قصصت عليه قصة ابونا الخوري ايوب معي !

ـ تعرفتُ على يوسف ، إبن أبونا الخوري أيوب ، بواسطة صديق لكلينا . لقد عرفت إسمه الأول فقط ، يوسف ، عندما كان هذا الصديق يكلمه ، وعرف هو كذلك ، إسمي الأول فقط من خلال حديث هذا الصديق معي ! نحن في دول العالم هذا ، ؛ قد نعرف إنسانا لفترة طويلة ولا نعرف إسمه ، و إذا صادف وعرفنا اسمه أثناء الحديث ، فإن ما نعرفه هو إسمه الأول فقط !

ـ لقد أحببت يوسف منذ اللحظة التي تقابلنا وتكلمنا بها ؛ فهو شاب مرح وكريم جدا بالاضافة الى أدبه الزائد واحترامه لكل من يتكلم معه ! ولكن الذي كرهته به وتمنيت لو أنه يتركه ، هو أنه كان يدخن رغم صغر سنه ، وأنا اكره التدخين لدرجة لا توصف ! كما أنه يحب أن يشرب العرق ! إنه مشروب مسكّر! إنه النوع الذي يقدمه المطعم اللبناني، الذي سأدعوكم إليه قريباً ، إن شاء الله ! إن الفرق بينهما أن ما يقدمه المطعم هنا مصنوع في لبنان ، بينما الذي كان يشربه صديقي يوسف ، مصنوع في الأردن ! لقد استنشقت رائحته مرة فكدتُ اختنق ، ولولا انهم هبوّا لنجدتي

بمناولتي كاساً من الماء لكنت قد اختنقت ! لقد بقي حلقي يؤلمني لأكثر من أسبوع !

ـ هل نفهم من ذلك أنك لم تدخن في حياتك أبداً ؟ ! سأل الزوج.

ـ أبداً ! أبداً ! أبداً ! وأقول لك الصدق ، إنني أتضايق كثيرا عندما أكون مع مدخنين ، وان كان الاحتشام المزيف يمنعني من ان اعلن ما أضمُر !

ـ وماذا عن شرب الكحول ؟! سأل الزوج .

ـ أشرب ، نادراً جداً ، كأساً صغيرة من النبيذ مع العشاء ، وبعضاً من البيرة لأطفئ لهيب الحر ! قلت بخجل.

تبادل الزوجان النظرات وتمنيت لو أعرف ما دار برأسيهما !

ـ المهم ، طلب إليّ صديقي يوسف ، بعد تعارفنا بحوالي شهر ، عصر أحد الأيام أن أرافقه إلى بيتهم لنشرب الشاي سوية ، فقبلت الدعوة . كان بيتهم في حي الميدان ، غرب مدينة السلط ، أما بيتنا فكان يقع في حي الجدعة ، شرق المدينة . ان كامل مساحة مدينة السلط في ذلك الوقت لا يتعدى الأربعة كيلومترات مربعة ؛ والمسافة بين بيتينا حوالي كيلو متر واحد ، وكان تعداد سكانها بحدود العشرين ألفاً !

كان بيت صديقي كبير الحجم ، أكبر من معظم البيوت التي أعرفها ، بل أكبر حتى من بيتينا الاثنين ! ليس ملاصقا لأي بيت آخر من جميع أطرافه ، بعكس معظم البيوت التي أعرفها . كان حول بيته من جميع الأطراف مساحة لا بأس بها خالية من الأبنية تحيط به بيوت متناثرة ... حيث أن العمران لم يملأ الأراضي الخالية حوله ، كما هي الحال في بيتنا في الجدعة ... حيث أن معظم البيوت متراصة وتشترك في جدار واحد ! قلت .

ـ وهل أثمان الأراضي مرتفعة حتي تكون البيوت متلاصقة بهذا الشكل الغير صحي ؟! سأل الزوج .

ـ أنه على العكس من ذلك . لقد كانت أسعار الأراضي ، وما زالت رخيصة جداً ، ولكن الناس يحبون أن تكون بيوتهم متلاصقة جداً ، إذ لعله الشعور بالأمان ! قلت .

ولما لم يعلّق أحد من الزوجين أضفت .

ـ كان يوجد أمام البيت مساحة واسعة من الأراضي المزروعة ببعض أشجار التين والمشمش والزيتون ، كما كان يوجد شجرة كبيرة جدا مترامية الأطراف والغصون ، أمام البيت تماماً ! و كان ملاصقاً لها ، معرّش من الدوالي المحملة بقطوف العنب المغطاة بأكياس من الورق ، حيث كان الوقت صيفاً. عندما دخلنا داخل البوابة الكبيرة رأيت والد صديقي ، الخوري أيوب ، جالساً أمام البيت ... وعندما اقتربنا منه لاحظت أنه كان جالسا على إحدى الكراسي الخشبية ذات الجوانب المرتفعة، في وسط مجموعة كراسي مثله تحيط به ... ما عدا أن الكرسي الذي كان يجلس عليه كان موضوعا عليه

"دوشك" مصنوع من القماش المهترئ ! كانت جميع الكراسي قديمة ، أكل الدهر عليها وشرب ؛ وكذلك الدوشك ، وكان أمامه إبريق شاي وكأس نصف مملوء ة . حالما رآنا أبونا الخوري ،ابنه وأنا ،مقبلين من بعيد ، ابتسم ورحّب بنا ، وعندما وصلنا ألقينا السلام عليه كالعادة ... نهض ، وبعد أن تصافحنا ، أشار إليّ أن أجلس إلى جانبه ، على يمينه ، وجلس ابنه على الكرسي الذي على يساره . لم يكن الناس في تلك الفترة قد توصّلوا بعد الى أنهم عندما يقابلوا بعضاً أن يتعرفوا على بعض بأن يقدم أحدهم نفسه الى لآخر ، ولا حتى أن يقدم هو نفسه ! كانوا يجلسون لساعات طوال وربما لأيام وهم يتحدثون مع جليسهم ولا يعرفون شيئا عن هذا الجليس إلا ما يقوله هو عن نفسه !

ـ لماذا لا يفعلون ذلك ؟ سألت الزوجة.

ـ السبب هو الجهل ، انه جهلٌ اجتماعي وتأخر حضاري ، وكذلك عدم معرفتهم بأصول اللياقة والايتيكيت ! إنّ من احدى العادات التي تعجبني جدا هنا ، في أمريكا ، هو أن الانسان عندما يقابلك يقدم لك نفسه ، فيعلمك اسمه وعمله ، وكل شيء عن نفسه يحبك أن تعرفه ! ان هذه ظاهرة حضارية رائعة جدا في رأيي ! قلتُ .

ـ وهل ما زالوا يفعلون ذلك الى اليوم ؟ سأل الزوج.

ـ وسيظلون يفعلون ذلك إلى ابد الآبدين ! قلتُ بغيظ ممزوج بالقهر.

ضحك الزوجان ولم يعلقا !

ـ نتيجة حديثنا معا ً، وبعد أكثر من نصف ساعة من الحديث المتواصل ، عرف ابونا الخوري ابن من أنا اكون ، ولمّا تأكد ولأكثر من مرة من اسم والدي الكامل واسم عائلته وكذلك كنيته ، قال بغضب وقد انتفخت اوداجه واحمرّت عيناه وصار يتكلم بسرعة وتواصل !

ـ قل لوالدك، أن الخوري أيوب غاضبٌ عليك جداً جدا ً، وأنه لن يغفر لك ولن يسامحك ! لم يكن يمضي أسبوع واحد دون أن يأتي الى بيتنا هنا ونتحدث طويلا ونشرب الشاي والقهوة ، وأحيانا نتغدى أو نتعشى سوية ! كان يأتي أحيانا راجلاً و أحياناً راكبا بغلة ، وجاء عدت مرات راكباً فرسه "عُبيّة" !

فتحت فمي لأعلق على ما قال ، ولكن الرجل لم يعطني الفرصة و إنّما أضاف بسرعة وكأنما يركبه عفريت !

ـ كان دائما يأتي محملا بحاجيات الطعام ! كان يحضر سلال العنب والتين وصناديق الرمان و"سحاحير" البندورة والفقوس والباذنجان والكوسا ! كان يحضرَ لنا بعضاً من كل ما تزرعون وكل ما تربون من دواجن وماشية ! لطالما أحضر لنا لحماً ً ودجاجاً وجميداً وزبدة وسمناً ... مرّات كثيرة تعشينا سوية وسهرنا حتى ساعة متأخّرة من الليل ! لقد كان يحبني كثيرا و يستمتع بأحاديثي و يضحك لنكاتي !

وعندما صمت للحظات ليرطب شفتيه بلسانه انتهزت أنا فرصة صمته فقلت :

ـ والدي يا أبونا الخوري ؛ توفي قبل ثلاثة عشر عاما ! قلت بغيظ وقهر شديدين ، ولكن ممزوجين بألم وحزن ممزق !

التفت إليّ وسألني ماذا قلت ؟! أعدتُ عليه ما قلت ؛ أعاد نفس السؤال ولما تأكد من اسم والدي و كنيته ، صاح بأعلى صوته:

ـ أخي وصديقي العزيز عبد الله أبو جوهر ، توفي قبل ثلاثة عشر عاما وأنا لا أعرف ؟! يا الهي ! يا مصيبتي ! يا ضيعتي ! يا قطيعتي ! قال ذلك وضرب بيديه الاثنتين على رأسه فطارت " عمّته" خلف الكرسي وسقطت على الأرض ! وظل يلطم ويندب وينوح لأكثر من خمسة دقائق ، وأنا أرافقه النحيب وسكب الدموع ، ولكن بصمت ! كان الابن يرقبنا وقد تجمّد في مقعده مذهولا حائرا لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول !

بعد حوالي خمس دقائق من البكاء الحار والنحيب المتواصل ، توقف هو وتوقفت أنا ايضا ، احتراما له ... وبعد أن جفف كل منا دموعه طلب إلى ابنه أن يحضر إبريق الماء فغسل كلٌّ مِنّا وجهه !

كان الزوجان طيلة هذا الوقت محدقان بي يستمعان باهتمام شديد لما أقول ، لاحظته على وجهيهما ... وعندما تمهلت قليلا لأجمع أفكاري وقبل أن أواصل حديثي سأل الزوج :

ـ لقد ذكر مضيفك بأن والدك عندما كان يحضر لزيارته كان يكون راكبا فرساً أو بغلة ، فلماذا لا يأخذ تاكسي أو يركب أوتوبيس ؟!

لم أدرِ هل أبكي أم أضحك للمفارقات الحضارية الشاسعة ، غير أنني ابتسمت وقلت :

ـ كان الناس في ذلك الوقت ، والكثيرون منهم ما زالوا يفعلونها حتى هذا اليوم ، يتنقلون كذلك بين المدن والقرى التي تبعد عن بعضها عشرات الكيلومترات ، إما ركوباً على ظهر الدواب واما سيراً على الأقدام ؛ لأن الباص الوحيد الذي كان يعمل بين مدينتنا والعاصمة عمره أكثر من عشرة أعوام معظم أيامه معطلا ... ووالدي لأنه مثرٍ وشيخ قبيلته ، كان قلما يذهب إلى مكان ماشيا على قدميه ، فإما راكبا فرسه أو بغلته أو حماره !! لايوجد سيارات أصلاً !

ـ يا لها من رومانسية ! قال الزوج .

ـ حقاً ، يا لها من رومانسية لا مثيل لها ! وكذلك لا شك أن هذا الرجل ممتع جدا ! قالت الزوجة .

طلب أبونا الخوري من ابنه يوسف أن يذهب خلف البيت إلى قنّ الدجاج ، حيث يتجمع ما عندهم من الدجاج ، ويحضر له ديكاً واحداً وسكينا من داخل البيت ، ولمّا عاد ومعه ما طلبه منه خطا خارج "الحوزة" ، مكان جلوسه ، و طلب إلى ابنه بأن

يمسك الديك بين يديه فشمّر هو عن ساعديه وذبحه ورماه أرضاً ... ثم طلب من ابنه أن يأخذه بعد أن يهدأ رقصه من حرارة الروح ، ويطلب من أمه أن تطبخ عليه " منسفاً " عشاءً لنا !

ـ وهل يمكن أن يُذبحَ أي من الطيور خارج المسلخ ؟! ثم لماذا لم يشترِ واحداً مذبوحا وجاهزًا ؟ سألتْ الزوجة .

ـ ولم تستغربين؟! ألم نكن نفعل هذا، يا حبيبتي ، قبل خمسين سنه ، هنا في أمريكا ؟! أجابها الزوج .

أمّا أنا ، فقد شكرت الله أننا متأخرون عن العالم الحديث خمسين سنة فقط وليس أكثر؛ وشكرت الزوج أيضا لأنه وفر علي مشقّة أن اشرح لهما بانه لا يوجد في الأردن كلها ، في تلك الأيام ، مكان يبيع الدجاج لا حيّا ولا مذبوحاً ، ولكنه سامحه الله لم يكمل معروفه معي لأنه سأل :

ـ أما كان من الأسهل عليه لو أنه اشترى بعض اللحم الموجود عند الجزار ؟!

ـ كان يوجد في ذلك الوقت في كل مدينة السلط، لحّاماً واحداً فقط ، يذبح ذبيحة واحدة إما جدياً أو خروفاً في صباح كل يوم ، وكان يعلقه أمام دكّانه . إن عدد الزبائن الذين يشترون اللحم من عند الجزّار قليلون جداً، لأن الناس يأكلون اللحم عادة في الأسبوع مرة أو مرتين، والكمية التي تشتريها هذه العائلة قليلة جداً، قد تكون وقية أو وقيّتين على الأكثر ! وبما أن الزبائن الذين يشترون اللحم هم هم لا يزيدون ولا ينقصون ، فإن الذبيحة تنفذ عادة عند الظهر! إن أبونا الخوري أيوب لو أراد أن يشتري لحماً عند حضوري لما كان بامكانه أن يفعل ! إن اللحام عادة يبيع ذبيحته ويذهب الى بيته قبل أن يؤذن الظهر ! قلت .

ـ يا له من شيء ممتع حقا ! قالت الزوجة وقد اهتزت في مقعدها وفردت ابتسامة كبيرة فوق شفتيها !

ـ نعم سهيل ! أرجوك وضّح ! هذا شيء ممتع جداً ! قال الزوج وقد أضاء وجهه هو الآخر وافترت شفتاه عن ابتسامة رقصت لها غمّازتاه واتسعت حدقتا عينيه ، وكذلك اهتزّ فوق مقعده !

ـ إن معظم سكّان مدينة السلط في تلك الفترة، هم فلاحون يملكون أراضٍ يزرعونها أو مزارعون يستأجرون الأراضي فيزرعونها . إنك قلّما تجد بيتاً لا يربي به أهله دجاجاً أو حماماً أو الاثنتين معًا ! وكانوا عندما يأتيهم ضيفٌ عزيز عليهم ، يقدمون له وجبة طعام ويعتقدون بأنه لا بد من أن يكون فيها لحما ، فإنهم يذبحون له دجاجة أو حمامة !

ـ صدقني يا أخي سهيل، إنّ ما تقصه علينا الآن لهو امتاعٌ حضاريٌّ وثقافي، يفرح القلب ويسعد الروح ! قالت الزوجة بحماسٍ .

ـ لا شك بأنه تراثٌ عظيم ، افتقدناه الآن ! قال الزوج بحماسٍ لا يقل عن حماس زوجته .

ـ أما أنا فصدقوني أن قلت لكم بأنني أحنّ لتلك الأيام وأفتقدها كثيرا ، لأنها وبالرغم من صعوبتها إلّا أنها جزء من ذكرياتي السعيدة ! ابتسمت ثم واصلت سرد قصّتي مع أبينا الخوري:

ـ بعد العشاء طلب أبونا الخوري إلى ابنه يوسف أن يقطف لنا بعض العنب من دالية وصفها له على شمال البيت ، و بعد أن احضرها الابن وغسلها من جرّة ماء غير بعيدة عن مكان جلوسنا ، بدأنا نأكل و نتسامر حيث تحدّثنا في مواضيع يومية عادية شتّى .

ـ إنني ومنذ أن قابلت عصر هذا اليوم ، أبينا الخوري أيوب ، وفكرة سؤاله عن القصّة التي سمعتها عنه ، مستبدة بي ! تلك القصةالتي يتحدث بها سكان مدينة السلط و يتندّرون بها ! إنني و كلما هممتُ أن أسأله عنها نكون قد بدأنا نتحدث في موضوعٍ جديد !وأخيرا انتهزت فرصة صمته للحظات ليعدل من وضع عمامته ، عندما قلت :

ـ إن منزل ناصر الحدّاد يقع أمام منزلنا بالضبط في حارة الجدعة ، وكلّما خرجت من بيتنا أو عدت إليه أمرُّ من أمامه ، فأرى زوجته وولديه التوأم ذوا الأربع سنوات وابنته ذات العامين ! إنني كلما أرى أمهم جالسة معهم ؛ إما تحدّثهم أو تطعمهم أو تلعب معهم ينشرح صدري ، فألقي السلام عليها وكذلك اثني على جمال وصحّة ما انجبت ، فتبتسم و تشكرني ! بالمناسبة إن أمهم صغيرة السن وجميلة جدا ، ودائما تحمل فوق شفتيها ابتسامة حلوة ! أنني أشاهد معهم زوجته الثانية تساعد الأم في حمل الصغار و اطعامهم !

ـ آه ! انتم جيران ؟! لم أكن أعرف ذلك ! أنا أعرف فقط أنه يسكن في الجدعة الفوقا ؛ على كل حال لولاي أنا لما كان لناصر هذه الزوجة ولما كان له هؤلاء الأطفال ! قال و هو يبتسم ويغمز بعينه اليسرى ؛ ثم أضاف :

ـ أنا لم أرَ بيتهم ؛ هم الذين كانوا دائما يأتون الى هنا ؛ كما انه لم يسبق لي أن زرت والدك في بيتكم ! لقد كان هو الذي يأتي إلى هنا أيضاً !

ـ وهل القصة التي سمعتها عنك و عن ناصر الحداد صحيحة ؟! سألت بتردد و تلعثم مخافة أن يغضب !

ـ وماذا سمعت ؟! سألني و رأسه يترنح ذات اليمين و ذات الشمال ، ثم فرد ابتسامة كبيرة اضاءت كل زاوية من زوايا وجهه ؛ بعدها مشّط لحيته بأصابع يده اليمنى ثم رقّص شاربيه !

ـ لقد سمعت قصصا كثيرة متضاربة ، غريبة وعجيبة، بعضها صعب التحقيق و جزء منها مستحيل التصديق ! وما زال الله جمعني بك ، فأحب أن أعرف الحقيقة منك ؛ هذا إذا سمحت وتكرّمت عليّ !

ـ وبماذا تهمك معرفة الحقيقة ؟! صدّقني يا بني أنه لا يوجد في هذا العالم حقيقة مطلقة ، وأنّ الخير والشر ، الحق والباطل ، الحب والكراهية ، العدل والظلم ، وكذلك الصح والخطأ ؛ كلها أشياء نسبية ! إنه لا يوجد واحد منها مطلق تماما ، كلها

نسبية وتعتمد كيف ننظر إليها ونتعامل معها ! هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنها تعتمد على تربيتك وثقافتك ومدى استيعابك ! وبعد ان استراح قليلا أضاف :

ـ إن عالمنا هذا هو مجموعة من الأكاذيب والخرافات ، وكل انسان يفسر القصة كما يشاء ويهوى !

ابتسمت أنا كالأبله ، لأن عقليتي، في تلك الأيام ، لم تكن تستوعب ما قاله أبونا الخوري ! لم أكن وقتها قد درست الفلسفة وعلم المنطق ومقارنة الأديان ؛ و لا كنت قد قرأت الغزالي ، ولا القدّيس اوغسطين ، ولا ابن رشد، ولا الفارابي، ولا افلاطون ؛ ولا غيرهم الكثيرون ... !

جاءني ناصر الحداد الى بيتنا هنا في احدى الأمسيات ، قبل ثماني سنوات ، وحالما رآني ألقى بنفسه عند قدمي وصار يبكي كالطفل الصغير، وهو يستعطفني ويرجوني أن أحل مشكلته ! وعدته بأنني سوف أفعل ان كنت استطيع ! ولما تأكد من أنني سأفعل ، نهض وجلس إلى جانبي وبدأ يقصّ عليّ قصته ! قال بأن والده زوّجه بابنة عمه ، رغماً عنه ، والتي كان عمرها واحد وثلاثون عاماً ، بينما كان هو عمره تسعة عشر عاما فقط ! كان ذلك قبل سبعة وعشرون عاما ! انجبت له ولداً ، إسمه نجيب . كان ولداً ذكياً و مطيعاً و يحبه كثيراً ! كان طالبا ممتازا ؛ توفي قبل عامين بمرض لم يعرفون اسمه ! لقد تجاوزت زوجته الآن الخمسين عاما ، ثم انها دائما مريضة ولا تستطيع ان تقوم بواجباتها المنزلية وكذلك لا تستطيع ان تلبي رغباته الجنسية ! إنه يريد زوجه تؤنّس وحدته و تطبخ له طعامه و تغسل له ملابسه وتعتني بشؤون بيته ! انه يريدها كذلك أن تنجب له من يحمل اسمه ويرث ما يتركه عند وفاته ؛ و هو كثيرٌ كثير! لقد أعلمني ايضا بأن وضعه المادي ممتاز جداً و يستطيع أن يعيل زوجة ثانية وبسهولة متناهية ! ثم أكد لي أن زوجته وافقت على أن يطلقها أو ان يبقيها على ذمته وتبقى ساكنة معه حيث أنه لا وريث له !

ـ حقا يا أبونا ؛ إن وضعه المادي ممتاز جدا ! إنه يملك "كوراً" إسمه "كور ناصر الحداد.". إنه الكور الوحيد في مدينة السلط ! إنه يحذي كل ما في مدينة السلط وما حولها من الخيل والبغال و البقر ، و هو يسنُّ الفؤوس وسكك الحراثة ومناجل الحصاد. ! لقد كان والدي ، رحمه الله ، يحذي عنده فرسنا وبغلتنا وثوري الحراثة ، وكذلك كل ما يحتاج من سن أدوات الزراعة ! وكنا ندفع له بعد الحصاد كميات كبيرة من الحنطة !

ـ المهم ؛ لقد أعلمني بأنه شرح وضعه المأساوي لجميع خوريّي المنطقة وإنه استعطف منهم بأن يسمحوا له بأن يتزوج من ثانية ، حيث أن زوجته وافقت على أن يطلقها أو يبقيها في ذمته ، ولكنهم رفضوا وبشدة ، أن يكلّلوه على زوجة جديدة ! لقد أعلمهم بأنه خطب فتاة ابنة عشرين عاما فوافقت على الزواج منه ، وكذلك وافق والداها ، اذا وجد من يكللهما للزواج ! أن مذهبنا ، المذهب الكاثوليكي ، يحرّم الطلاق و كذلك يحرّم الزواج بثانية ، إن كانت زوجته الأولى حية . إنه يريدني أن أجد حلاً لمشكلته وأنه سيدفع لي أي مبلغ أطلبه ، مهما كبر !

وهنا قاطعني السيد هاميلتون عندما قال:

ـ لا شكّ أنه كان في وضع صعب جدا !

ـ كان الله في عونه ! قالت الزوجة سانتيش.

وبعد أن انتهى الزوجان من تعليقيهما تابعت أنا سرد القصة :

ـ طلبتُ إليه أن يأتيني مساء اليوم التالي ، وإن شاء الله، سأكون قد وجدت حلاً لمشكلته ! قال ابونا الخوري ! وبعد ان عد ل عمته أضاف ؛

ـ صدقني يا بني ، إنني قد أمضيت طيلة الليل أفكر، ولم يزر الكرى جفنيّ حتى هداني الله الى الحل ! لقد قلت لنفسي واقتنعت بما قلت ! بما أن الشرع الاسلامي قد حلل لكل رجل من اخواننا المسلمين ، رفاهية وتدللا وبطراً، وعددهم مئات الملايين ، أن يتزوج الواحد منهم ، ليس بزوجتين اثنتين ، ولا حتى بثلاث وانما باربع زوجات ، يعاشرهن في نفس الزمن ؛ ألا يحق لرجل مسيحي واحد ، وعددهم أيضا مئات الملايين ، أن يتزوج بثانية ، مع أنه لا يستطيع أن يعاشر زوجته الأولى ، ويريد هذه الزوجة لحاجة ماسة بل حيوية ؟! فلمَ هذا التشدد والتّزمت والطغيان الظالم وغير المبرر ؟! قال ذلك بحماسٍ وبصوتٍ غالٍ وهو يحرك يديه يميناً وشمالاً والى اعلى واسفل ، و كأنما يحاول أن يقنع نفسه بأن ما فعله هو الصواب ! وبعد أن عدّل أبونا الخوري من عمته ، أضاف:

ـ عندما حضر ناصر الحداد الى هنا في الليلة التالية ، واعلمته بأنني وجدت له حلاً لمشكلته ، هجم على قدميّ يقبلهما وهو يبكي بحرقة ولوعة وهو يردد كلمات الشكر والدعاء الى الله ان يمنحني العافية والخير والبركة والسعادة ، وان يمد في عمري ! لقد طلبت اليه ان ينهض واعلمته أن يأتي إليّ هو وعروسته ووالديها ! لقد سألته عن اليوم الذي يستطيع أن يكون به جاهزاً للزواج ، فاعلمني بأنه سيكون مستعداً بعد ثلاثة ايام على اكثر تقدير، لأن كل شيء متفق عليه وجاهز وينتظر فقط من يقوم له بالمهمة ! لقد أكدتُ عليه أنني لا أريد أحداً غيرهما هما الأثنين وأب وأم عروسه !

ـ ألا يضعك هذا التصرف أمام مسؤوليةٍ كنسّةٍ ؟! سألته بسذاجة متناهية ، ولكنه لم يجبني وانما اكتفى بابتسامة كبيرة وببرم شاربيه وتمشيط شعر لحيته ، فقال بحماس:

ـ أيهما يرضي الله أكثر ، ان يعانق ناصر الحداد، في آخر الليل مخدته أم حليلته ، أم أن ينظر الى زوجات الجيران و يشتهيهن ويموت حسرة وكمداً؟! انه عندها سيشعر بالسعادة والرضا ويشكر الله ثم يمجّد المسيح أن صار له عائلة بعد أن كان وحيدا ؛ لا أهل له و لا حبيب ! قال أبونا الخوري ، أيوب ، بحماس !

ـ جوابه أقنعني بل ألجمني ؛ فلم أقل شيئا ، وانما بقيت أنظر اليه بعينين مدهوشتين ... !

نظرت الى مضيفي ، السيد والسيدة هاملتون ، فوجدت أنهما ينظران اليّ بذهول ، فاسترسلت في سرد قصتي .

ـ هل ترى شجرة الزيتون هذه التي بجانب معرّش الدوالي ؟ ! إن عمرها ما ينيف عن المئة عام ! إنها وكما ترى ، لها جذور عديدة قوية وعميقة ، ثخينة ورحبة ،

يستطيع الواحد منها أن يحمل انسانين وبكل سهولة ! انها هنا متواجدة قبل أن نبني بيتنا هذا بمدة طويلة ! لقد قطعت شجرتين كانتا مكان البيت هذا والذي بنيناه قبل أكثر من عشرين عاما ! إنني ما زلت الى اليوم ، نادماً على فعلتي هذه ! لقد تمنيت لو أنني تركتهما وبنيت البيت في الأرض الخالية من شجر الزيتون ! قال لي أبونا الخوري أيوب وهو يحدق بي بعينيه المتقدتين !

ـ لقد قرأت بأن شجر الزيتون يعيش آلاف السنين ، ولهذا السبب يسمونه " الشجرة المباركة " ! قلت.

ـ نعم ، هذا صحيح ! المهم عندما حضر ناصر وعروسه وأمها وأبوها ، طلبت من ناصر ومن عروسه أن يصعدا الى الشجرة ، وان يجلس كل منهما على غصنين متقابلين ، وان يمسكا بايدي بعضهما البعض ، وان ينظر كل واحد منهما الى السماء ويقول للاخر؛ "لقد زوجتك نفسي أمام الله وأمام السيد المسيح"، وبعد أن فعلا ذلك ، قلت بصوت جهوري عالٍ و حماسٍ شديد متّقد "أزوجّك يا ناصر الحداد ، ياابن عيدة ، وانتِ يا عبلاء يا بنت هنية ، يابنت عوده الورّاد ، ازوجكما أنا الخوري أيوب ابن كرمة ، باسم الكنيسة الكاثوليكية ، أمام الله وأمام السيد المسيح ، زوج وزوجة " ! قمت بعد ذلك بقراءة ما يجب قراءته بمثل هذه الحالة الدينية ! فهل تعتقد يابني بأنني عملت خيراً أو شراً ؟! سأل ذلك وأحدق بي بعينين كليلتين !

ـ في رأيي المتواضع جدّاً ، أنك قمت بعمل جبار ، أمام الله وأمام السيد المسيح وأمه العذراء مريم ، بل وأمام العالم كلّه ! يجب أن يسجله لك التاريخ ، وأعتقد جازمًا أن الله ألهمك بأن تقوم بهذا العمل الجليل والرائع ، لأنه قد يأتي من صلب ناصر الحداد ابن عيده ، ما ينفع الانسانية ! وبعد ان انتظرتُ قليلاً أضفت :

ـ واشكرك ايضاً ، يا أبانا الخوري ، أنك تكرمت وقصصت عليّ حقيقة ما حدث ، حيث أنني سمعت قصصا كثيرة مختلفة ومتناقضة ! قلت وقد وقفت وشددت على يديه بحرارة و صدق .

ـ شكرا لك يا بني ؛ و رحم الله والدك و ادخله جنات الخلد . انت صغير السن ولكنك ، صدّقني ، كبير العقل ، و أنا سعيد جداً جداً أن أرى إبن أخي عبد الله أبو جوهر، رحمه الله ، بعد كل هذا الغياب الطويل !

شهادة اعتز بها وأفخر من أبونا الخوري الجليل ، صاحب العقل الكبير وحلاّل المشاكل ، المعقدة والشائكة ! قلت هذا وإبتسمت ، وابتسم هو الآخر !

المهم ؛ انت تعرف يا بني ، أن الناس في مجتمعاتنا البدائية والمتخلفة ، لا ينامون ولا يتركون أحداً ينام ، دون أن يتكلموا عليه بسوء ويطعنوا في سمعته ! الكل يريد أن يعلمك بأنه صاحب أخلاق ومباديء ، حامي الفضيلة وراعيها !

ـ صدقت يا أبانا الخوري ! صدقت ... !

ـ إنه لم يمض أسبوع حتى استدعيتُ لأَمثُل أمام لجنة من الرهبان والقساوسة ، الذين اتهموني بأنني خالفت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، فزوجت رجلا متزوج ، وزوجته ما زالت حيّة ترزق ! لقد انكرت ذلك بشدة وقلت لهم : "هاتوا برهانكم إن كنتم

صادقين" فقالوا : " لا يوجد ورقة مكتوبة ولا شهود ، وانما قيل لنا أن الخوري أيوب قد فعل ذلك ! ضحكت لقولهم وقلت لهم ، بأنه في ديانتنا ، وكذلك في الديانت الأخرى ، إذا لم يعترف المتهم بخطئه ولا يوجد شاهد يشهد ضد هّ ، فإن عليه أن يقسم اليمين إما على الانجيل ، ان كان مسيحيا ، و إما على القرآن ، ان كان مسلما ! فوضعوا الانجيل أمامي ووضعت يدي عليه واقسمت لهم بسيدنا المسيح وبأمه مريم العذراء ، وبالله العظيم وبجميع الانبياء والقديسين وكذلك بجميع الكتب السماوية ، بأنني لم أكلّل ناصر الحداد ، لا في السماء ولا في الأرض ، فصدقوني ونسوا القصة ... ! ولكن أهل مدينة السلط ، سامحهم الله ، لم ينسوها ، بل يتندّرون بها فيبهّرونها ويفلفلونها على طريقتهم الخاصة ! قال وهو يبتسم ابتسامة المنتصر !

ـ هل هذه قصة حقيقية أم من نسج الخيال ؟! سأل الزوج وهو يحدق بي كالمنوّم !

ـ كيف تسأل هذا يا حبيبي ، وسهيل يقول لك بأنه رأى بطل القصة ، الخوري أيوب ، بأم عينيه وسمعه بأذنيه ؟! قالت الزوجة .

لم أعلق على سؤال الزوج ولا على جواب الزوجة ، و إنما قلت :

ـ كلّما مررت من أمام بيت ناصر الحداد و زوجته عبلاء الورّاد ، في طريقي عائدا الى بيتنا او منصرفا منه وأراها وهي ، إمّا تلاعب أطفالها و إمّا و هي تطعمهم ، فألقي السلام عليها فتبتسم لي ابتسامة تفرح قلبي ! إنها كثيراً ما تستوقفني ، فتعطيني بعض المعمول أو الكنافة أو أي شيء آخر يفرح قلبي ، ثم تمنحني ابتسامة اختٍ كبرى لي ! قلت بحماسٍ ثم أضفت :

ـ أشكر الله وأشكر أبونا الخوري أيوب ، للعمل الجبار الذي قام به خدمة للسيد المسيح و للديانة المسيحية ؛ و كذلك خدمة للإنسانية ! قلت .

ـ لقد ظلمناه عندما قلنا عنه خبيثاً ؛ كان يجب أن نقول ، أنه خوري داهية ! قال الزوج وهو يتأمل الصورة من جديد .

ـ شكرا يا سهيل ! شكراً يا أخي ! كم أنا سعيدة أنني احتفظت بالصورة وسألتك عنها ! ثم اضافت :

ـ حقا إنها قصة غريبة جدا وممتعة أيضاً ! قالت الزوجة وقد اشرق وجهها .

ـ كثيرا ما يحدث في بلادنا قصصا يعجز الخيال عن وصفها ، ولهذا سمُّينا الشرق ، بلد العجائب والغرائب ، وكذلك بلد الخرافات والأساطير ! قلت .

و هل قابلت الخوري أيوب بعد تلك الليلة ؟ سأل الزوج .

ـ في الحقيقة لا ؛ لقد شكرت صديقي يوسف تلك الليلة أنه عرّفني على والد ه ، اذ انني سعدت جداً جداً بلقائه ، وأعلمته بأننا سنلتقي ونمضي معا وقتا ممتعا ... ولكنه أعلمني بأنه ضابط في الجيش وكتيبته معسكرة في الصحراء ، وأن عليه أن يسافر غدا ليلتحق بوحدته ... لأن اجازته والتي كانت لمدة ثلاثة أيام قد انتهت ! لقد

وعدني بأن سيتصل بي حالما يعود الى السلط . لقد فكّرت بأن أذهب وأزور أبونا الخوري ، ولكني خجلت وانتظرت حتى يتصل بي الابن و اذهب لزيارة الاثنين معاً ! لكن الذي حدث هو أنني التحقت بجامعتي في القاهرة ، حيث انتهت العطلة الصيفية ! عندما عدت في عطلة الصيفية التالية ، عملت كل ما بوسعي لأقابلهما ، اذ انني أحب أن أرى الاب ثانية ، ولكنني لم أوفّق ! لقد حاولت أيضا في عطلة الصيف الذي يليه ولم يسعفني الحظ ! أتيت بعدها رأساً الى امريكا !

ـ يبدوا لي بأنك تعرف الكثير عن مدينة السلط وأهلها وكذلك عاداتهم وتقاليدهم ! قالت الزوجة .

ـ هذا صحيح ، فأنا ابن مدينة السلط الخالدة ! ولدتُ و ترعرتُ و أمضيت أيام طفولتي و يفاعتي بها ؛ و كذلك درست في مدارس كتاتيبها ! جلست صيفا و شتاء على أرضها دون أن يكون تحتي حتى قطعة خيش ولا حصيرة قش ، تحمي قاعي من برد الشتاء القارص وحر الصيف اللافح ! كما أن قدماي "أكلتا" فلقات كثيرة من ضرب عصيّ "مطارق" أغصان الرمان التي كان المرحوم الشيخ عفيف زيد الكيلاني وعبد الحافظ العزب يلهبان بها قيعان أرجلنا وقيعان أجسامنا أيضا ... نحن طلابهما ... عندما كنا لا نحفظ الدرس أو نرتكب خطأ يغضبهما ... وكذلك تخرجتُ من مدرستها الثانوية ! إنه و لشدّة حبي و احترامي وعشقي الشديد لها ، فإنني لا أذكر اسمها دون أن أرافقه بكلمة تعظيم وتكريم ، وتقديس ومحبة ! قلت .

ـ يبدو لي بأن مشايخ كتاتيب مدينتك هذه ، كانوا متشددون جداً في تعليمكم ! قال الزوج.

ـ نعم ، هذا صحيح . لقد ولدت بها وتخرّجت من مدرستها ، وكذلك تخرج منها الرعيل الأول من المتعلمين الذين أسسوا الأردن ، وأوصلوه إلى ما وصل اليه من تقدم علمي و ازدهار أدبي و حضاري ... فمن مدرستها تخرّج الكثيرون من الأدباء و الشعراء و الفنانون والسياسيون والقضاة و المحامون و الحكّام و قادة الجيش ! و كذلك منها خرج المناضلون الذين قضوا حياتهم يدافعون عن حياضها و حياض الأقطار العربية الأخرى ! إنني فخورٌ جدا أنني ولدت بها و انتمي إليها ! قلت .

ـ يبدو لي أن السلط مدينة جميلة ولها تاريخ عتيد ، كما أن أهلها يعيشون قصصاً شيّقة وممتعة ! قال الزوج.

ـ حقاً يا أخي سهيل ، إنك موسوعة من المعرفة ، اذ ان قصصك هذه عن مدينتك وأهلها شيقة وممتعة ! قالت الزوجة .

ـ إنها تخبر سامعيها عن عادات أهلها وتقاليدهم وكذلك كرم ضيافتهم ؛ كما وأنها تعلّمهم الحكمة والتسا مح ! أضاف الزوج .

نظرتُ إلى ساعتي ونهضتُ واقفاً ، ثم قلت :

ـ يا إلهي؛ ما أسرع ما يمرُّ الوقت ، عندما يكون الانسان بين أصدقائه ومحبيه !

ـ لقد كانت حقاً من أمتع سهراتنا ! قالت الزوجة !

لقد غادرت شقتهم حوالي منتصف الليل ، بعد عناق حار وبعد أن اتفقنا على موعد دعوتي لهم الى العشاء بعد غدٍ ، حيث ان عندهم ارتباط بكنيستهم مساء اليوم التالي .

*****

الفصل الثامن

تعرفت على جود ي زوهراب ، في محل بيع الزهور الذي تديره السيدة روزانا بلتكيان ؛ وهي أرمنية مثلها ولكنها مولودة هنا في كاليفورنيا ! لقد حضر جدها وجدتها الى امريكا من أرمينيا أيام الاضطهاد التركي لبني قومهما .

كان الوقت عصراً ، وكنت عائداً من الجامعة بعد انتهاء المحاضرات في طريقي إلى شقتي ، من مساء يوم الجمعة ! فكرت ، كما كنت أفعل في كثير من الأيام ، بأن أتوقف في مكان بيع الزهور لأتحدث بعض الوقت ، مع السيدة روزانا ، بأن أمتّع أحاسيسي بعذوبة حذيثها وسحر نظراتها ... وان كنت لا أنوي شراء زهوراً !

لقد كان يسعدني كثيراً التحدث إليها ، إذ أشعربسعادة غمرة وراحة نفسية عظيمة عند رؤيتها ! إن في أحاديثها الكثير من المواعظ والحكم ، كما أنها تفتقدني كثيرا كإبن لها لم تلده ! لقد كانت تتهمني بطريقة تحببية بأنني لم أعد أحبها ، وأن النساء الأخريات قد أخذنني منها !

فتحت الباب الزجاجي الكبير لمحل الزهور ، فاهتزت الأجراس المعلقة خلف الباب ، فرأيت السيدة روزانا من خلف الستارة واقفة خلف الحاجز داخل المحل ، وحالما رأتني رحبت بي كعادتها ترحيبا حاراً وقد أضاء وجهها وعلت شفتيها تلك الابتسامة الحنونة التي تقابلني بها دائما ، والتي رؤيتها تفرحني بل وتسعدني كثيراً !

إنني أشعر عندما أرى السيدة روزانا و هي تلفني بابتسامتها الدافئة الحنونة ، و كأنما دخلت غديراً مملوءً بالعطور ، وأنني قد خلعت ملابسي و ألقيتُ بنفسي به ، مضطجعاً على ظهري ... ثم بعدها وهي تعانقني باهداب عينيها ، فأسمع صوتها الملائكي و هي ترحّب بي ؛ فأشعر حقاً أنني بدأت أسمع موسيقى ناعمة و حالمة ، أحسُّ بعدها بسعادة و سلام و أمنٍ و اطمئنان !

ـ لقد أتيت يا بني بالوقت المناسب ، اذ إن عندي صديقة عزيزة عليّ جدا ، أحبك أن تتعرف عليها ! قالت ذلك وقادتني إلى خلف الستارة حيث يقع مكتب صغير به عدة كنبات .

حالما دخلنا خلف الستارة ، لاحظت فتاة نحيفة الجسم طويلة القامة بيضاء البشرة ، ذات شعر ذهبي طويل مرسل على كتفيها كأنه عناقيد عنب أو سبائك من ذهب ، مصفف بطريقة فنية رائعة ، ولكنها ذابلة الخدين تعلو وجهها مسحة خفيفة من الحزن !

وقفت الصبية حالما دخلنا ، فقالت السيدة روزانا وقد فتحت يديها بيننا :

ـ أقدم لكِ يا حبيبتي ، صديقي وابني البروفيسور سهيل دهشان ، أستاذ العلوم السياسية في جامعة كاليفورنيا . إنه عربي من الأردن .

لاحظت أن جسم الفتاة قد ارتعش قليلا ، وعلت وجهها سحابة خفيفة مزيجا من الكآبة والسرور معاً ! التفتت إليّ مضيفتنا وقالت :

ـ بروفيسور دهشان ! هل لي أن أقدم لك صديقتي جودي زوهراب ؛ إنها أرمنية مثلي ، ولكنها مولودة هنا في أمريكا . إنني أعتبرها كأبنتي ، وقد عوضني الله بها عن عدم إنجابي .

لاحظت ، ويدانا تتشابكان بالسلام ، أن يدها كانت ترتجف قليلا وأن ابتسامتها وهي تنطق جملتها ، "لي الشرف بمعرفتك "، كانت ابتسامة باهتة تنقصها الفرحة الحقيقية ، كما لاحظتُ أيضاً نظرة حزينة في عينيها ! تمهلت المرأة قليلا ثم اضافت :

ـ إنها تعمل في قسم الملابس النسائية في احدى محلات " روبنسون " التجارية الفاخرة في مدينة "سانتا مونيكا ".

حقا ! لقد كانت الفتاة تحفة فنية رائعة ، بالرغم من شحوب وجهها وذبول خدّيها ... وكذلك بالرغم من الألم والحزن الشديدين الظاهرين على وجهها !

مرت لحظات قليلة وانا احدق بالفتاة متسائلا في سرّي ، عن سبب احزانها وذبولها ! لاشك ان السيدة روزانا لاحظت وجومي واستغرابي فقالت :

ـ تعرّفت جودي على شاب لبناني من الذين دخلوا امريكا بتأشيرة زيارة لمدة قصيره ، على ان يعود بعدها لبلاده ... ولكنه اراد ان يبقى وباستمرار في امريكا حيث انه لا يرغب بالعودة الى لبنان ! إن القانون الامريكي يسمح له بالبقاء اذا تزوج بمواطنة امريكية ! لقد تظاهر هذا الشاب بحبه الشديد لها فتزوجته ، و بعد أن تمهّلت قليلاً أضافت :

ـ لقد اعلمها بانه يريد البقاء معها والاعتناء بها للأبد ، وكثيرا ما حدثها عن المستقبل وعن الاولاد ، فتزوجته وساعدته على ايجاد عمل حتى حصل على الوثائق التي تؤهله للبقاء في امريكا ! وفجأة وفي ليلة مظلمة اختفى ، بعد ثمانية شهور قضاهما معها ! انها لم تسمع منه ولا عنه منذ ذلك الحين ، وكان ذلك قبل سنتين !

هنا رقصت نحلات الباب الخارجي ، علامة قدوم بعض الزبائن ، فاستأذنت مضيفتنا وخرجت لأستقبالهم .

لعل ما قالته السيدة روزانا قد شجع الفتاة للحديث عن حبيبها الذي هجرها ، فقالت :

ـ لقد كان محمود حبي الأول فأحببته بكل ذرة من جوارحي ! لقد كنت اشتري له الملابس وكنت اغسلها وأكويها له ! كنت احممه والبسه وامشط له شعره كما تفعل الأم لصغيرها ! وجدت له عملاً في مضخة بنزين ، وكنت آخذه واعيده بسيارتي بعد ساعات العمل الى البيت ! لقد كنت اطبخ له واطعمه بيدي هاتين ، ولا انام الا بعد ان يأوي هو الى الفراش ! كنت اريده ان يدخل الجامعة ليحصل على وظيفة جيدة ، فلقد كان يحمل الشهادة الثانوية فقط ! كنت اريده ان يكون مهماً وناجحاً في الحياة ! لقد كان يسعدني كثيراً أن أقوم على خدمته وأن أراه سعيداً !

كانت تتكلم بصوت حنون وشجي ، شعرت وكأنما هو صوت كمان حنون حنون ، أيقظ أحاسيسي وهيّج مشاعري !

ـ وهذا نذل آخر من انذال العرب ، ينظم الى القطعان المتشردة والمنتشرة في جميع بقاع الأرض ! قلت لنفسي بالعربي ! وعندما سألتني ماذا قلت اجبتها :

ـ حقاً !لقد كان محيطاً من النذالة والخسة ، ليفعل ذلك بفتاة مثلك ... تملك كل هذا الحب العظيم ، وتقدم له كل هذا العطاء ...ثم تحبه مثل هذا الحب المتميز ، وتقدم له كل هذه التضحيات !

ـ صدّقني يا بروفيسور سهيل ؛ انني لست حاقدة عليه بل ولست حتى غاضبة منه ! انه لو يعود إليّ الآن ويطلب مسامحتي ، لما ترددت لحظة في قبولها ! لقد افتقدته كثيرا ، ومنذ تركه لي لم احب أحداً من بعده ، بل وصدقني انني لم اسمح لأحد ان يلمس جسدي ! قالت ذلك و بدأت تبكي بحرقةٍ ولوعة أحرقتا دمي !

ـ الم اقل ، بأنكِ صاحبة قلب كبير ، وانكِ لا تملكين الا الحب والعطاء ؟! قلت مطيبا خاطرها ومواسياً اياها ؛ ثم اضفت :

ـ انه من الصعب جدا ، بل ومن شبه المستحيل ان يجد الرجل ، في هذه الأيام ، فتاة تحبه مثل هذا الحب ! قلت مخلصا ً؛ ثم أضفت :

ـ إنني لو أجد واحدةً تحبني مثل حبك لمحمود ، لبقيت معها و لما فكرت بمغادرتها ! قلت غير صادق ، ولكن لأطيب خاطرها !

ـ شكراً جزيلاً ! ألم تجد أنت بعد واحدة لتسعدك ؟! سألت باهتمام زائد لاحظته بلهجتها وبنظرات عينيها !

ـ صدقيني ، انني وجدت الكثيرات ، ولكن العيب بي أنا ! أنا انسان متقلب ، وربما اكون أسوأ من صاحبك محمود ؛ اذ انني لا يمكن ان احب ولا ان اخلص لامرأة واحدة ! ان في قلبي خرق كبير كبير ، لا يمكن ان يحتفظ بحب امرأة واحدة ! قلت.

ضحكت من بين دموعها لهذا التعبير الغريب العجيب وقالت :

ـ اذن ؛ اذهب الى جرّاح قلوب ماهر واطلب اليه ان يرقع هذا الخرق ! قالت .

ـ ذهبت الى الكثيرين ، وكلهم اعلموني بانه لا شفاء لي منه ، لأنه مرض مستعصٍ نتيجة لتراكمات حضارية واجتماعية ودينيه ، وكذلك قبليّة ! قلت .

ـ إنك تتكلم الغازاً يا بروفيسور ، وليست عندي الثقافة الجامعية لأفهم ما تقول ! قالت ثم أضافت :.

ـ لقد ولّد عندي منذ صغري عدم حصول أحد من أهلي على شهادة جامعية ، إحساس بالخيبة و الفشل ، و بمركّب النقص أيضا ؛ فتولدت عندي رغبة عارمة لملئ هذا النقص ... ولكن يبدو انه قدرنا نحن جميعا ، أفراد عائلتي ، أن نكون كلنا ذو ثقافة متوسطة ! قالت جودي بأسى و حسرة !

ـ لا أفهم ما تعنين ! قلت و أنا أحدّق في وجهها الذي كان مملوءً بهجة و نضارةً و قد تبدل فجأة الى ذبول و فقدان البهجة .

ـ كان جدي و جدتي مزارعان لا يقرآن و لا يكتبان ، عندما حضرا هرباً الى امريكا من أرمينيا بسبب الأضطهاد التركي للأرمن ! لقد أنهى أبي و عمّي الابتدائية فقط ثم اشتغل والدي في كراج للسيارات تعلّم فيه تصليحها واشتغل عمي في مكان لبيع الأدوات الصحية فتعلم مهنة السباكة .

ـ صدقيني يا جودي أن هذه المهن التي تنظرين أنتِ اليها بدونيّة و عدم احترام ، تجلب لصاحبها دخلاً خيرًا من صاحب قميص أبيض ذا قبة منشّاة . قلت بحماس .

ـ هذا صحيح ؛ ولكنه عادة إنسان غير مصقول ؛ ثم إن والدتي لم تكمل حتى الدراسة الثانوية ؛ فاشتغلت سائقة باص مدرسة و ما زالت تفعل ! لقد التحق أخي الوحيد با لجيش كميكانيكي بعد أن تعلم المهنة في نفس الكراج مع والدي !

ـ و أين أ خيكِ الآن ؟ سألتها .

ـ إنه يعمل مع القوات الأمريكية المرابطة في اليابان . إنّه عسكري برتبة رقيب ميكانيكي ، و متزوج من يابانية رزق منها بأبنتين . لقد قضيت عنده إجازتي في اليابان ، لأول مرة صيف العام الماضي .

ـ هذا رائع جدا ! قلت .

ـ خلال عامي الأخير لدراستي الثانوية اشتغلت أيام السبت فقط في محل صغير لبيع الأحذية النسائية ، وعند بدء العطلة الصيفية طلبت إلي صاحبة المحل أن أعمل طيلة أيام الأسبوع فوافقت . لقد كنت أريد أن يكون عملي هذا مدة العطلة الصيفية فقط ، حيث انني كنت عازمة على أن ألتحق بالجامعة لأحصل على البكالوريوس ثم الماجستير و ربما الدكتوراة ؛ ولكن رفاهية الحياة التي وفرّها لي راتبي ، جعلني أتجاهل رغبتي ! قالت جودي بأسى و حسرة .

ـ الملايين في هذا العالم لا يحملون شهادة جامعية ، و بعضهم لا يحمل حتى الابتدائية ، ومع ذلك فهم سعداء جداً ! و ملايين مثلهم يحملون شهادات عليا و لكنهم تعساء ! المهم أن يكون الانسان راضٍ عما هو فيه ! قلت متفلسفاً !

ـ ولكنني غير راضية عن نفسي ! لقد أدركت الآن بأنني تعيسة جداً ، و زادت تعاستي بعد أن قابلتك وتكلمت معك ، فعرفت بأنني ارتكبت غلطة لن أسامح نفسي بسببها ! قالت .

ـ لقد أرعبتني ياسيدة جودي ؛ وكيف أكون أنا السبب ؟! قلت و أنا أحدق بها مذهولاً !

ـ لو كنت أحمل شهادة جامعية ، لكنت قد فهمت الفلسفة التي تتكلم بها و لكنت

ربما استحقيت حب برفيسور جامعة ! قالت و قد رغرغت عيناها.

ـ صدقيني يا جودي ، أنكِ تستحقين حب مدير جامعة وليس فقط برفيسور فيها ! انكِ تملكين قلبا كبيراً وعقلاً نيّرًا وعواطف متوقدة ! أنتِ بحر من الأنوثة و الرقة و النعومة والحنان والدفيءْ أيضاً ؛ صدّقيني ! عندما أنظر في عينيك أشعر بسعادة لا توصف ؛ يحدث ذلك على عكس ؛ عندما أكون مع فتاة جامعية تفلسف الأشياء و تعقّد الأمور ! أنتِ بسيطة و بساطتك هي الحب والحنان و الأنوثة ! أنتِ بحر من العطاء ! أنتِ محيط من الحنان ! صدقيني !

ـ إذن ؛ لما لا تقبل أن أكون فتاتك الدائمة ؟!

ـ لأنني كما قلت لكِ ؛ أنا انسان أناني لا أستطيع أن أحب امرأة واحدة ولا أستطيع أن أخلص لها ! إنني لا أريد أن تحبينني ثم تفشلين بهذا الحب ! صدقيني ، و أقسم لك بكل ما أؤمن به ! إنه يحزنني جدًا جداً أن أراكِ تصدمين في حبّك مرة أخرى ، و خصوصا عندما أكون أنا السبب ! وبعد أن رطّبت شفتيّ بلساني أضفت ؛

ـ إنني و الله سأجن و افقد عقلي لو أكون السبب في تعاستك ! أنا أريدك أن تكوني مع انسان يحبك و يقدرك و يحترمك ! قلت هذا صادقاً وبأخلاص ، ثم أضفت ؛

ـ دعيني ابسّط لك الأمر . ان ما اعنيه هو انه وبسبب الحياة القاسية التي عشتها والمجتمع المتزمّت الذي ولدت به ، فقد تولّدت لديّ عقدة جعلتني لا استطيع التميز بين الخير والشر ، بالنسبة للنساء ؛ فأُصبتُ بهذا الخرق !

هزت رأسها عدة مرات وكأنما لتقول لي بانها اقتنعت ، وان كنت انا متأكد بانها لم تفهم ما عنيت ؛ ثم اضفت :

ـ هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ، فان تربيتي الدينية والعائلية وكذلك اخلاقياتي وضميري كلها مجتمعة لا تسمح لي بان اعد واحدة بالزواج ولا حتى بالإخلاص ؛ لذلك فأنا اعيش حياة غير ملتزمة بالنسبة للمرأة !

رأة ! إنني أقول لهن ومنذ البداية وبكل صراحة وامانه ، انني ملتزم نحوهن كحبيب فقط ، ولكن ليس حباً يقود الى الزواج !

ـ وهل يقبلن بشرطك هذا ؟! اعني ان الفتاة دائما تتوقع من الشاب الذى يشاركها الحب بان يقود هذا الحب الى الزواج ! قالت.

ـ فلتفكر ما تشاء ، ولتعتقد ما تريد ؛ ولكنني اؤكد لها هذا منذ البداية . ان بعضهن يقبلن بشروطي وبعضهن يغضبن ويتركنني ... ولكن القسم الثالث منهنَّ يظننَّ انني بعد ما اعرفهن واعرف ما عندهن من اخلاص وتضحيات ، وما يتمتعن به من جمال وجاذبية ورقة ، بأنني سأغير رأيي ! قلت .

ـ ولم لا تستطيع ان تخلص لامرأة واحدة ؟! سالت وعلائم العجب والأندهاش تتزاحمان فوق وجها !

ـ سمّها لعنة الشرق الذي اتيت منه ، بلد "التابوهات"، بلد الحلال والحرام ! قلت.

ـ ولماذا تعتقد بانها لعنة ؟! سألَت.

ـ لكثرة ما سمعت من ترديد هذه الكلمات ؛ مع ان معظم قائليها لا يؤمنون بها وبعضهم لا يطيقون حتى سماعها ! وبعد ان بللت شفتي بلساني اضفت:

ـ اننا كلما نرى شيئاً او نسمع قولاً تصاحبه دائما كلمة : عيب ... حرام ... لا يجوز ... عار... خطأ ... ممنوع ؛ حتى اصبحت لا اميز بين الصح والخطأ ، والخير والشر ! صدقيني أنني لشدة كرهي واحتقاري لتلك الكلمات صرت امارسها جميعها ، عن عمدٍ وسبق اصرار !

ـ وما علاقة هذا بعدم مقدرتك على الوفاء لإمرأة واحدة ؟! سألت.

ـ انه بسبب تراكم افكار ، بعضها وراثية وبعضها مكتسبات حضارية ، وبعضها عقد نفسية ؛ اما الجزء الفلسفي منها فمن الصعب عليك فهمه ! قلت.

ـ اتمنى لو انني كنت خريجة جامعية ، لكنت فهمت عليك ؛ لكنني اعترف بعجزي ! انا فتاة بسيطة لا افهم التعقيدات ! قالت بتواضع خجل.

ـ صدقيني يا سيدة جودي ، انني اهيم غراما وشوقاً بالفتيات البسيطات من امثالك ، لأن صداقتهن لا تجلب لي المتاعب ، كما انهن غير معقدات وتسعدني محبتهن لي ؛ فما رأيك ان نتعشى هذه الليلة سوية في شقتي ونقضى الليلة معا ؟! لقد طبخت البارحة فاصولياء مع لحمة وبصل وبندورة ، وفلفلتُ الى جانبها أرزا ً! سأسخن لنا ما طبخت واذا لم يعجبك ، سأشوي لك قطعة من اللحم البقري واعمل الى جانبها سلطة خضراء ! سيعجبك اكلي ؛ انا طباخ لا بأس به ! قلت .

ـ يا لك من جرئ وصريح ! انك تبدي رغبتك علانية و دون مواربة ! قالت وهي تتضاحك وتلقى برأسها الى الارض خجلاً وقد احمرّ خديها وجبينها .

ـ ارجوكِ لا تفلسفي الاشياء ؛ فهل تقبلين دعوتي او ترفضينها ؟! قلت .

لم تجب وانما استمرت في الضحك ، ثم اخرجت منديلا قماشي من حقيبة يدها وصارت تمسح به عرقها المتصبب ، ثم قالت بتردد وخجل:

- هذه الامور لا تُطلب من الفتاة صراحة ، وانما تحدث

نتيجة لتوالي الاحداث . قالت .

وهنا وقفت امامها كالرمح المشّرع ؛ ثم أحنيت لها قامتي باحترام وأدب شديدين وفتحت لها يديَّ الأثنتين على وسعيهما ، ثم قلت :

ـ هل تقبل سيدتي ومالكة عقلي وقلبي ، بأن تمنحني الشرف والمسرة معا وان تتكرم عليّ وترافقني الى شقتي لنتناول العشاء معاً ؟! قلت ذلك وامسكت بيديها الاثنتين وساعدتها على النهوض، ثم قدتها باتجاه الباب حيث كانت مضيفتنا تتحدث مع احد الزبائن !

أعلمتها مستأذنا بانني اريد ان ادعو ابنتها الى العشاء !

إبتسمت مرحبة بالدعوة متمنية لنا قضاء وقتا سعيداً.

خرجنا الى حيث تقف سيارتي ، وهناك فتحت لها الباب فابتسمت وشكرتني ؛ ثم سألتني وماذا عن سيارتها ، فاعلمتها بأننا سنعود لأخذها غداً صباحاً ، ثم دَخلتْ ودخلتُ بعدها وانطلقنا .

أخرجتُ البندورة والخس والخيار والجرجير وليمونة من الثلاجة ، وطلبت إلى جودي أن تغسلها جميعها و تعمل لنا سلطة ، ثم أشرتُ إلى مكان قارورة زيت الزيتون

و طلبت إليها ان تضع شيئا منه فوقها ! بعدها اخرجتُ طنجرتي الفاصولياء والأرز ، ووضعتهما على الغاز و بدأت أسخّنهما ، بينما كنت أرتب الطاولة لاثنين !

ـ أنا أعرف البندورة و الخس و الليمون ؛ و لكنني لم أرَ الشيئين الآخرين إطلاقاً ! قالت.

ـ هذا اسمه "خيار" ؛ جلبه المهاجرون الفلسطينيون إلى أمريكا ، وهو مصغّر للخيار الذي عندكم ، والذي طوله بحجم القدم ؛ أما " الجرجير " فليس له عندكم مثيل ! إننا ، نحن العرب ، لا نذهب إلى بلادٍ إلا و نقدم لها شيئاً مما عندنا ، حضاريّاً ؛ ثقافيّاً ؛ و إما زراعيّاً ! قلت بفخر !

إبتسمت و لم تعلّق ، وأثناء تناولنا وجبة العشاء قالت وهي تنظرفي عيني ووجها يطفح سروراً وعيناها تشعّان حبورا ً:

- صدّقني يا بروفيسور سهيل ، أنني لم أذق في حياتي ألذُّ و لا أشهى من هذا الطعام ، لا طبخ والدتي و لا طبخي أنا ، حتى وأنا أطبخ لمحمود ! إنك طبّاخٌ ماهر، حقاً !

ـ وصدقيني يا سيدة جودي ، إنني و حتى الآن ، لم أقابل فتاة من لها نعومتك و رقّة أحاسيسك وزخم عواطفك ! قلتُ صادقا ً.

ـ شكرا جزيلا ، إنني و الله ، لم أعرف إنساناً مَن عنده كل هذا الزخم من العواطف و دماثة الأخلاق ! قالت.

ـ إذن ، أنتِ لستِ نادمة على معرفتكِ بي ؟! سألتها.

ـ إنني على العكس من ذلك تماماً ؛ فأنا شاكرة للخالق ثم للسيدة روزانا ، أن تكرّما وعرفاني عليك ! قالت بسرور وهي تبتسم.

ـ ما زلت تعتقدين عنّي هكذا ، فإنني أريد أن أطلب منك طلبا ؛ و حتى نزيل الرسميات بيننا ، فإنني أريدك بأن تناديني سهيل فقط ، و أنا اناديكِ جودي ؛ إذ لا حاجة لقولنا بروفيسور والسيدة . قلت .

ـ ضحكت بسعادة وقالت : هذا يسعدني أكثر !

إن الذي احزنني بل واحرق دمي هو اننا ونحن ما زلنا بالفراش و بعد ان انتهينا جودي وانا من تطارح الغرام ، انخرطت الفتاة ببكاء حار ومفجع ، مما حيرني بل واذهلني ! لم افتح فمي ولم احاول اسكاتها ، ولا حتى مواساتها ، وانما بقيت مستلقياً على ظهري كما ولدتني امي وكذلك كانت هي !

بعد حوالي خمس دقائق من البكاء الحار والمتواصل ، توقفت ثم اقتربت بجسمها من جسمي حتى التصقت به وطوقتني بشوق وحرارة شديدين ، ثم دفنت رأسها في صدري وبدأت تتكلم :

ـ ان الشاب الوحيد الذي احببته بكل جوارحي واحساسي ، وما زلت افعل ، هو محمود ! انني لم انسه يوما وقلما تمر ليلة دون ان ابكي لفراقه حتى تبتل

وسادتي ! إنه اول انسان احببته واول انسان منحته جسدي وقلبي ! هنا اصطخبت عواطفها مجدداً ؛ ثم اضافت :

ـ لقد امضينا ثمانية شهور وبضعة ايام سوية ، كانت كلها سعادة وحبور !

انتظرتْ للحظة ، وكنت ما زلت اسمع تنهنهاتها وتوتجعها فصارت تبكي بألم ولوعة اشد من السابق ! توقفت بعدها عن البكاء ثم اضافت :

ـ لقد قابلته ولم اكن اعرف معنى الحب الحقيقي ، ولم اكن قد جربته بعد ، وكنت آنذاك بالعشرين من عمري ! لقد مضى الآن على فراقنا سنتان كاملتان، وانني والله ما زلت احبه من اعماق قلبي ، وانني اتمنى في كل يوم ان يعود اليّ ونستأنف حياتنا من جديد !

ـ يا له من انسان محظوظ ! لو وجدت واحدة تحبني مثل هذا الحب لكنت ، ربما قد غيرت رايي بالمرأة وبالحب والزواج ! اخيراً قلت مازحاً . لم تعلق على ما قلت وانما اضافت:

ـ لقد كان مملوءً حباً وعاطفةً وحناناً ! كان يذوب رقة ونعومة وخجلا ً؛ لم يتكلم الا كلامًا رقيقاً ومؤدباً ! لقد كان دائماً مرحاً وسعيداً ، وكذلك كان جاداً ؛ تشعر الواحدة منا معه بالأمان ! كان دائما يتحدث عن الأولاد والمستقبل ، واننا سنشتري بيتا وسننجب اطفالاً حالما يحصل على البطاقة الخضراء ! تصور ! بعد ثلاثة ايام بالضبط من استلامه البطاقة الخضراء اختفى ، ولم اعد اسمع منه ولا عنه شئيا ً! قالت ذلك وانفجرت تبكي !

تركتها تبكي ، فبكت ربما لدقيقتين ،وعندما توقفت ، قلت :

ـ اعذريني يا جودي لما سأقوله ، وآمل ان لا اجرح مشاعرك ولا اشوّه الصورة الجميلة التي تحتفظين بها لحبيبك السابق ! لقد كان محمود هذا اكبر مخادعاً واكبر نذلاً ! لقد كان كلامه المعسول كذباً وخداعاً ! لم يكن يحبك وانما كان يحب البطاقة الخضراء التي سيحصل عليها بواسطتك ! صدقيني انني قابلت وللأسف الشديد والحزن القاتل ، العديد من شبابنا العربي ، الطلبة ، الذين يرغبون بالبقاء بعد اكمال دراستهم الجامعية في امريكا ، ومن اجل الحصول على البطاقة الخضراء ، يتظاهرون بحب الفتيات الامريكيات ... بعضهن عجائز والاخريات صورًا مجسمه من القبح والبشاعة ، وبعضهن ذوات سواد كالفحم ، يتزوجوهن ثم يتركوهن بعد حصولهم على تلك البطاقة !

ـ هذا صحيح . لقد سمعت قصصاً كثيرة مثل قصتي ! قالت وهي تمسح دموعها بظهر يدها ، ثم أضافت :

ـ وبما ان هذه الظاهرة انتشرت كثيرا ، فقد ادركت بعضهن اللعبة ، فصرن قبل ان يوقعن على قسيمة الزواج ، يطلبن مبلغا كبيرا من المال مقدماً ! قالت .

ـ ان هذا عار كبير يعطي للأسف الشديد سمعة سيئة عن شبابنا العربي . ولهذا السبب غيّرت الحكومة الامريكية قانون الحصول على البطاقة الخضراء ، بحيث لا

يتمكن الشاب العربي المتزوج من أمريكية الحصول على تلك البطاقة ، الا بعد زواج يدوم سنوات ، ليتأكدوا من حسن نيته ! قلت و قد شعرت حقاً بألم شديد !

ـ انني اعرف كل هذه الحقائق ، ولكنني ما زلت احب محمودا ! قالت ذلك وانهمرت من جديد في البكاء !

" الجنون فنون ! " قلت لنفسي !

تصور بعد رحيله فقط بأكثر من سنة ، صرت اقبل دعوة بعض الشباب لأخرج معهم، وصدقني انهم عندما كانوا يقتربون مني او يلمسوا جسدي كنت ارتجف وارتعب ! لقد كنت اعتبر نفسي متزوجة من رجل في الكنيسة امام الله وامام السيد المسيح ، وكذلك امام الكاهن وكل البشر ! لقد وعدت الله على الوفاء له عندما كتبنا عقد الزواج ! لقد طلب إليَّ أن نتزوج على الطريقة الاسلامية فوافقت برضاً و قناعة ! انتظرتْ قليلا ثم اضافت:

ـ لقد كان بعض الذين يدعونني وارفض ان أدعهم يلمسوا جسدي ، كانوا يظنون انني شاذة وغير طبيعية ! صدقني يا سهيل انك اول رجل بعد محمود ، اشعر معه بالاسترخاء والراحة ثم الأستمتاع والأمان ! وصدقني ايضا انك اول رجل اسمح له ان ينال جسدي ، بعد محمود !

ـ ما اسعدني يا جميلتي ، بأن اكون اول رجل يشرب ماء الخلود من شفتيك ويرضع شهد العسل من نهديك ! قلت وأنا أداعب حلمتي نهديها بشفتي !

ابتسمت ثم ازدادت بي التصاقا ، ولما لم تعلق أضفت :

ـ مع انني لا يهمني الجسد ، ان التي تهمني هي الروح ! قلت مازحا ً.

ـ إنني لا استطيع ان اعدك بهذا ؛ ان روحي وقلبي وكل عواطفي ما زالت متعلقة بمحمود !

ـ ما اسعده ! لو اجد من تحبني مثل حبك لمحمود لرجوتها ان تتزوجني في التو و اللحظة ! قلت غير جاد وإنما لأواسيها ولأطيب خاطرها !

ـ صدقني ! ان هناك الكثيرات ! قالت بحماس .

ـ ان قولك هذا يشجعني كثيرا ، فهل نستطيع كلما كانت هناك فرصة مناسبة لكلينا ان نتقابل ونمضي وقتا طيّباً معا ؟!

لم أسمعها تجيب وانما شعرت ، رغم ظلمة الغرفة ، بان رأسها ينزل ويصعد ، وهو يلامس صدري ، اشارة الموافقة .

دار هذا الحديث بيننا في الفراش حوالي الساعة الثالثة من صباح يوم السبت .

بقينا نائمين حتى ساعة متأخرة من نهار اليوم التالي ، وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر ، نهضت جودي وعملت لنا افطاراً ! لم تسالني ما الذي اريد اكله ولم تستأذني ، وعندما طلبت الي ان انهض واعلمتني ان الافطار جاهزاً . وجدت الطاولة

مكدسة بأطايب الطعام والشراب ! القهوة والشاي وعصير البرتقال ... وكذلك عصير البندورة ... البيض المسلوق والمقلي ايضا ... المربى ، الخبز المحمص ، وكذلك كأس من الحليب المثلج !

ـ وكيف عرفتِ انني احب شرب الحليب المثلج ؟! سألتها لأنني اعرف ما طبخته وهو ما يعمله الامريكان صباحا لفطورهم ، ولكن الحليب المثلج يشربه عادة الصغار بينما الكبار يشربون القهوة والشاي ! سألتها .

ـ لأنني رأيت عندك كرتونتين من الحليب ، واحدة مملوءة والاخرى نصفها ، فأدركت بلا شك بأنك تفضل شرب الحليب مع طعامك ! قالت.

ـ ما اذكاك ياجودي ! صدقيني انني منذ اتيت الى امريكا وذقت طعم الحليب المثلج وهو مشروبي المفضل ، فإنني أفضله على جميع أنوع المشروبات ! إنني لا أحب جميع انواع " الصودا" ، وارفض ان اتناولها ؛ أنا اشرب فقط الأعصرة الصافية , كعصير الفواكه والخضروات فقط ! قلت.

بقينا نأكل ونتسامر لأكثر من ساعتين عندما سالتي جودي ان كنت املك فرشاة اسنان زائدة ، فأعلمتها ان في خزانة الحمام اكثر من واحده لم تمس بعد !

عندما عادت وقفت امامي كالسيف المشرع ، وقالت وهي تنظر الى وجهي ؛

ـ لقد طلبتَ الي ان تأخذني الى الفراش ؛ فهل من حقي ان اطلب منك نفس الطلب ؟! سالت بجرأة اذهلتني ؛ انا الأنسان المتعود على الاحتشام المزيف والحياء المصطنع ! فقلت دون تفكير ولا تردد :

ـ لكِ كل الحق في ذلك ! وقبل ان انهي جملتي كنت أحملها واتوجه بها الى غرفة النوم !

هنـــــــ

انني سأظل اتذكر هاذين اليومين وكذلك هاتين الليلتين ما دمت حية ! اقسم لك ، انني شعرت وكأنما ولدت من جديد ! إنك تسعد الواحدة منّا ، فتشعرها بأنوثتها و جمالها و تمنحها اطمئناناً نفسي و عاطفي ! قالت هذا وهي تمسح دموعها المتساقطة كحبات المطر بخلف يديها الاثنتين !

ـ وانا اشكرك بدوري ومن اعماق قلبي ايضا ، على ان تكرمت وقبلت دعوتي ! لقد سعدت كثيرا بقبولك دعوتي ومنحي هذه الفرصة ! انني اتمنى لو تتكرمين عليّ بها ثانية وتقبلين دعوتي بان نقضي معاً عطلة نهاية الاسبوع القادم أيضاً ! قلت .

ـ اقبلها وبكل سرور ؛ ولكن ما رأيك ان تكون انت ضيفي ، الأسبوع القادم ، وتأتي إلى شقتي ؛ اذ انك ستكون الرجل الوحيد الذى يدخلها بعد مغادرة محمود ! قالت ذلك وقد لاحظت الفرحة في عينيها والابتسامة فوق شفتيها !

ـ اعذريني ، واصدقك القول بانني لا اشعر بالاسترخاء التام وحتى لا انام نومًا عميقًا إلا في شقتي وفي فراشي ! إنني حتى عندما احتاج للنوم خارج شقتي ، في فندق او عند صديق ، فان النوم لا يزور مقلتي الا بعد تقلب في الفراش لمد طويلة ! قلت صادقا ؛ ولمّا لم تعلق اضفت :

ـ إن وقتي طيلة ايام الاسبوع وكذلك لياليه مملوء بالمحاضرات والتحضير لها ، وكذلك بالترتيب للاجتماعات ولحضورها ومن ثم جمع المعلومات للأبحاث وكتابتها ! ان عندي دائما مقابلات مع الطلبة العرب من داخل الجامعة وخارجها ، لنناقش قضايا الوطن ! بعد ان بلعت ريقي اضفت :

ـ باختصار شديد، خمسة ايام الاسبوع ولياليه جميعها ، أقضيها بعمل جاد ومتواصل ، اما عطلة نهاية الاسبوع ، من مساء يوم الجمعة حتى صباح يوم الاثنين ، فهي للراحة والاستجمام فقط !

رأيت ابتسامة حزينة تعلو شفتيها فأضفت :

ـ على كل حال ، سأكون في شقتي يوم الجمعة القادم بحدود الساعة السادسة ، يسرني حضوركِ بعدها متى تشاءين ؛ قد اطبخ شئيا ان شعرت برغبة للطبخ ، فنتعشى سوية ، وان لم يكن كذلك فسنخرج ونتعشى في الخارج ! اما اذا رغبت فسنسهر بالخارج ايضا او نعود لشقتي . انني اترك الخيار لك ، فأنت ضيفتي !

ـ أنا أعمل حتى الخامسة والنصف ولا اخرج من مكان عملي قبل الساعة السادسة ، حيث اذهب بعدها الى شقتي لاستحم ثم سأحضر بعدها الى هنا . تمهلت قليلا ثم اضافت :

ـ ولكن ما رأيك ان ادعوك انا ونتعشى بالخارج ، ولا حاجة لان تفكر بما ستطهو ؟!

ـ شكرا على الدعوة ، ولنؤجل الحديث عنها الآن ؛ تعالي عندما تستطيعين ، فلا حاجة للسرعة ؛ ثم بعدها نقرر ماذا واين سنأكل ، وهل نأكل بالخارج ام نبقى بالبيت ! قلت.

ـ حقًا انك انسان ذو قلب كبير تغمر الذين حولك بالمحبة وألأحترام وكذلك بالسلام ! قالت ذلك وتقدمت مني وطبعت على شفتيّ قبلة خاطفة و خرجت .

*****

توقفت عصر يوم الجمعة في محل السيدة روزانا ، وحالما رأتني اضاء وجهها وفردت على شفتيها ابتسامة كبيرة ، ثم نظرت الى نظرة احسست بانها تريد ان تقول شئيا ولكنها انتظرت لأقول انا اولاً ، فقلت :

ـ اريد سلة قرنفل جميلة ! نطقتُ جملتي وانا ابتسم وأتأمل وجهها المشرق !

ـ انني اعرف هذه المرة لمن ستكون ، انها لجودي زوهراب ! وقبل ان اسألها كيف عرفت ، أضافت :

ـ لقد اخبرتني بانها ستلتقيك الليلة ! لقد هاتفتني مساء يوم الاثنين بعد أن عادت من عملها ، وكانت تكاد تطير فرحا !لقد أعلمتني بأنك دعوتها لتكون برفقتك عطلة نهاية هذا الاسبوع أيضاً ، وانها قضت عطلة الأسبوع الماضي ضيفة عندك ! لقد امضت اكثر من الساعة على الهاتف وهي تحدثني و بالتفصيل ، عمّا دار بينكما !

ـ نعم ؛ لقد فعلت ؛ وهذه الزهور سأقدمها الليلة لها ! قلت .

ـ وهل انت جاد في علاقتك معها ؟ ! سألت وهي تتأملني وتتفحصني وكأنما تراني لأول مرة !

ـ لا أعرف ماذا تعنين بكلمة جاد ؟! سألت.

ـ أعني ؛ وهل تريد ان تتخذها صديقة دائمة لك ؟!

ـ طبعاً ؛ لا ! قلت بإنكار ، ثم استدركت بعد ان تنبهت الى تسرعي بالإجابة ، فأ ضفت:

ـ إنه ليس من السهل أن أفعل ذلك !

ـ ولم لا ؟ ! و هل لأنه سبق لها ان احبت وتزوجت ، ام لأنها ليست خريجة جامعة ، وان ثقافتها بسيطة ومتواضعة ؟! سألت شبه مستنفرة !

ـ لا هذا و لا ذاك ؛ لقد اعلمتها السبب ، واظن انها اقتنعت . قلت.

ـ الحقيقة انها لم تقتنع ، وان كانت قد تظاهرت بذلك ! لقد قلتَ لها بانك لا يمكن ان تكتفي بحب امرأة واحدة ، وانك لا يمكن ان تخلص لأية امرأة، مهما كان حبك لها وشغفك بها ؛ ولكنها اعلمتني ، بل اكدت لي ، بانك تقول هذا لأنك لم تجد بعد المرأة الجديرة بحبك والتي تكون كفؤا لهذا الحب ! قالت .

ـ ما كنت اعتقد انها ذكية الى هذه الدرجة ، حتى تفكر مثل هذا التفكير المنطقي ! ضحكت ثم أضفت :

ـ وهل هي تعتقد أنها المرأة الجديرة بحـبي ، حتى تقول هذا ؟!

ـ نعم ؛ إنها تعتقد بان عندك عقدة بخصوص الوفاء للمرأة ، وهي تعتقد ايضا انها المرأة التي ستخرجك من هذا المرض ! قالت.

ضحكت حتى دمعت عيناي ، وبعد ان جففت دموعي بمنديلي القماشي قلت :

ـ كيف ستشفيني من مرضي هذا ، وهي نفسها مريضة وبجنون ، بحب زوجها محمود ، رغم مرور سنتين على رحيله ؟!

ـ لقد اكدت لي اكثر من مرة، بانها بعد ان قابلتك واستمعت الى حديثك وعرفت ما تملك من عاطفة نبيلة وقلب كبير، وخاصة بعد ان قضت معك عطلة نهاية الاسبوع ، قد نسيت محمود تماماً ولم تعد تفكر به ... وان الشخص الذى تحبه الآن ولا تستطيع الابتعاد عنه أو أن تعيش بدونه هو أنت ! قالت وهي تؤكد على مقاطع الكلمات !

"جاءك الموت يا تارك الصلاة !" وجدت نفسي انطقها بالعربي دون وعي مني !

ـ ماذا قلت ؟! سألت وهي تحدق بي وقد اتسعت حدقتا عينيها استغراباً ، فلاحظت ، ولأول مرة منذ تعارفنا ، بأن في عينيها سحر مذهل ، وانها تفيض انوثة وعذوبة ورقة ؛ اكثر بكثير من الفتيات الصغيرات ، رغم تجاوزها الخمسين ! الشكر لك يا لبنان يابلد الدر الحسان !

بقيتُ محدّقا بها بعينين واسعتين مذهولا ؛ وكأنما ارها لأول مرة، فقلت:

ـ صدقيني يا سيدة روزانا ، انني ولأول مرة اراك بهذا الجمال الصارخ ، والذي هزني من أعمق اعماقي! قلت ثم استدركت :

ـ اعني لأول مرة منذ رايتكِ ، اشعر ان لجمالك صوفية وقدسية راهب دير ، يشع نور الهي من عينيه ؛ يحركان احساسي ويهزاني من الاعماق ! لقد شعرت حقاً بسعادة غامرة لا توصف ! قلت وانا اتأمل وجهها وكأنما اتعبد !

ـ شكرًا يا بني ! شكرًا يا سهيل ! لو رأيتني ايام كنت في السادسة عشر من عمري وحتى وانا عمري ثلاثين عاما ، لظننت أنني حورية من حوريات الجنة ! لقد سمعت الكثيرين يقولون بأن جمالي نادر ومتميز ، مما كان يسعدني جداً! إنني اذكر أيضاً ، عندما كنت اتمشى في ساحة البرج في بيروت ، او ونحن في مصايف عاليه واشتورة وبحمدون وضهر البيدر وغيرهم ؛ كيف كان يقف الشباب مذهولين امامي حينما يرونني ! كنت أشعر بسعادة غامرة ، وأنني أحلق بين الغيوم ! قالت.

ـ لقد احسست بان المجاملة والرسميات بيننا قد انتهت ، عندما خاطبتني باسمي مجردًا و بدون لقب ، حيث انكِ دائما تخاطبينني بالبروفيسور أو بالأستاذ سهيل !

ـ سأفعل ذلك منذ الآن ، ان كان هذا يسعدك ! قالت.

ـ ولكن لماذا...؟! قلت هذا وتوقفت عن الكلام فجأة ، إذ أدركت أنني قد أجرح شعورها !

لم توقفت ؟! اكمل سؤالك! قالت.

لا شيء ! قلت وقد شعرت بخجل شديد !

ـ اعرف ماذا كنت تريد أن تسأل ! إنك تريد أن تسألني ، ما زلت أنني كنت أملك كل هذا الجمال ، فكيف تزوجت جزاراً ولم أتزوج رجلاً ذو منصب عالٍ رفيع المستوى ؟ ولمّا لم اقل شئيا اضافت :

ـ صدقني يا بني ، انه تقدم لخطبتي الكثيرين ، مسلمين ومسحيين ، ذو ثقافة عالية ومناصب كبيرة ، ولكن للأسف لم يكن بينهم واحد ارمني ! إن ابي متعصب جداً جداً لقوميته الأرمنية ، ولا يمكن ان يزوجني بغير رجل ارمني ... ولذلك زوجني لابن شريكه في الملحمة ، جورج زوجي الحالي ! إنه لم ينل قسطا كبيرا من التعليم ! لقد انهى دراسته الابتدائية فقط ، وكذلك أنا ! انه رجل مهذّب جدا ً، يحبني ويحترمني كثيرا ، وانا سعيدة معه ! إنني لم اذكر ان حدث بيننا سوء تفاهم او أنه اغضبني ! انه زوج وفيٌّ ومخلص كما أنه يحبني كثيراً !

ـ أنا متأكد من ذلك . أنتِ تعرفين كم احبه واحترمه ، وكذلك كم احبك انتِ و أحترمك ! ما اجمل بل ما اروع ، يا سيدة روزنا ، ان يعشق الرجل امرأة محرمة عليه ؛ إذ يشعر بأنه يعشق باقة من أزهار الورود والقرنفل ، مضمخة بالمحبة والعطور ... يعشق كتلة من الغيوم ... مزنة من السحاب ... يدفن نفسه بها ويحلم ويتأمل ! وانا اعشقك وكأنك احدى محارمي ! انني أحسُّ ، وأنا اسمع صوتك ، بسعادة من الصعب عليّ ان اصفها لكِ ! قلت.

ـ وأنا أحبك كثيرا وكأنك ابناً لي ! أحس وأنا أسمع صوتك أو وأنا أراك ، بسعادة من الصعب عليّ أن أصفها لك ؛ صدّقني ! قالت .

مرت فترة صمت وفجأة صارت تضحك ثم قالت :

ـ لقد نسينا قصة جودي ! ان الذى اريد ان اقوله لك بأنها لم تعد تفكر بحب محمود ؛ وانما صارت تفكر بك وتحبك انت ، اضعاف أضعاف ما كانت تحب محمود ؛ كما اعلمتني ... للأخلاق الحميدة التي تتمتع بها ، ولثقافتك العالية ولمعاملتك المتميزة لها ؛ وكذلك لتدليلك واحترامك الزائدين لها !

ـ كل هذا هي قالته لك عني ؟! انني ، وكما قلت لكِ ، لا يمكن ان احب امرأة واحدة والتزم بحبها ، ثم انني لا اريد ان احطم قلبها مرة اخرى . قلت .

ـ اذن كيف ستتعامل معها وهي قد وقعت بحبك وانتهى الأمر؟! سألت .

ـ يحزنني ان اسمع ذلك ، إذ أنني وكما قلت لك اريدها كصديقة عادية ،أدعوها لنقضي عطلة نهاية الاسبوع معا ... آخذها إلى الخارج ونقضي وقتا ممتعا سوية ... ثم نذهب بعدها الى السينما أو أي مكان تحب ؛ قبل ان نعود الى شقتي لقضاء بقية العطلة معا ! ان صحبتها اراحتني بل واسعدتني كثيراً ، رغم قصتها الحزينة ! انها فتاة بسيطة ، جميلة وناعمة ؛ وسأفعل ذلك كلما كان الوقت مناسبا ً. قلت .

ـ لا ادري ؛ ان كانت ستقبل هذا ! ان الفتاة التي ترى شابًا لمرات عديدة ، تتوقع منه ان تكون فتاته الوحيدة ! قالت .

ـ لقد صارحتها بحقيقة شخصيتي ورسمت لها كيفية علاقتي بها ، فوافق ! قلت .

ـ انا امرأة وافهم شعور المرأة جيداً ! انك حتى وان كنت قد اكدت لها هذا فهي لم تقتنع بذلك أبدا ؛ لأنها تتأمل بان تغير رأيك وان تغنيك معرفتها عن النساء جمعياً ! قالت.

ـ انها تتحمل مسؤولية تفكيرها ، ان كان هذا ما تفكر به ! قلت وحملت سلة القرنفل ثم ودعتها وانصرفت .

*****

حالما دخلت شقتي ووضعت سلة القرنفل وما احمل من حاجيات الطعام والشراب على طاولة المطبخ ، تحللت من ربطة عنقي وبدلتي وبقية ملابسي ثم دخلت الحمام ! القيت بنفسي في "البانيو" ! شعرت براحة نفسية غامرة وباسترخاء عميق في جسمي، وتمنيت لو استطيع ان اغفو وسط الماء ولو لدقائق ! لقد كانت الحرارة في الخارج شديدة ولا تطاق !

لقد فكّرت طويلا بما قالته السيدة روزانا عصر هذا اليوم ، بأن الفتاة إذا اقتنعت بشاب و أحبته ، فإنها حتى لو أعلمها بأنه لا يمكن أن يحبها و أنه لن يبقى معها لفترة طويلة ، إلا أنها تتمسك به على أمل أن يغيّر رأيه و يصبح مولعاً بها و لا يقوى على فراقها !

لقد رَثيتُ حقاً لجودي ، وتمنيت لو أنها لم تفكر بي كما قالت السيدة روزانا ، وإنما تفكّر بي كشخصٍ يعبر حياتها ويمضي دون أن يترك أي انطباع يجعلها تتعلق به وتبني عليه آمالاً واسعة وأحلاماً كبيرة !

اللعنه ! اللعنة ! لماذا خلقني الله هكذا ؟! و هل هي نعمة من الله أم نقمة منه ؟! لماذا لم تحبني سميحة ، وقبلها زينة ؛ يومٍ كنتُ حزمة من العواطف المشتعلة ، وكومةً من الأحاسيس المرهفة ، أحترق شوقاً وأذوب حنيناً إلى كلمة رقيقة و بسمة حنان من احداهنّ ؟! تساءلت لماذا أنا سخيٌّ في عواطفي، كريمٌ فيما أقدم ، حتى أجعلهنَّ يحببنني ويتعلّقن بي ؟!

كم تمنّيت لو أنني أكون غير هذا ، لكنتُ ربّما أسعد حالاً و أهدأ بالاً ؛ و لكن هيهات ! هيهات !

لا ادري كم مضى من الوقت وانا مستلق على ظهري في الماء مغمض العينين ، مسترسلاً مع أفكاري ، عندما سمعت جرس الباب ، فتساءلت من يكون الطارق يا ترى ؟!

لقد ذكرت لي جودي بانها لا تغادر مكان عملها قبل الساعة السادسة ، ثم تذهب الى شقتها فتستحم وتعتني بنفسها ، وبعدها ستحضر الى شقتي وقد تكون الساعة بحدود الثامنة مساءً ، كما قالت !

نهضت متثاقلا ولففت جسمي بمنشفة كبيره وتوجهت نحو الباب لأفتحه ، فلاحظت بطريقي ان ساعة الحائط تقترب من السادسة .

- هل لي ان أساعدك يا آنستي ؟! سالت الفتاة الواقفة خلف الباب وأنا أحدق بها ، بجمالها وزينتها ! لقد بدت لي وكأنها حورية خرجت لتوها من البحر

ضحكت الفتاة فشعرت وكأنما ضحكاتها همسات ووشوشات قُبَل ؛ فقالت بصوت عذب وكأنه عزف كمان حنون !

ـ الا تعرفني يا حبيبي سهيل ؟! انا جودي ؛ حبيبتك ، وهل نسيتني ؟!

لقد نسيته تماماً ! لقد توصّلتُ إلى قناعة بأنه لم يكن يحبني و إنما كان يحب البطاقة الخضراء التي سيحصل عليها بسبب هذا الحب الكاذب ! لقد أحببته أيام كنتُ غرّة ، ولم أكن أعرف معنى الحب الحقيقي ! لقد كان حب مراهقة ... حبًا غير ناضج ... ! قالت بحماس وهي تستعمل يديها لتساعدها في توضيح فكرتها !

ـ أنتِ التي تتكلمين ألغازاً الآن يا جودي ! أنا الذي لا أفهمك ! أنتِ تتكلمين كلاماً يصعب فهمه حتى على خريجي الجامعات ! قلت و أنا أبتسم .

ـ اووه ؛ حبيبي سهيل! أنا واثقة من أنك تعرف ما أعني !

لم اعلق على ما كانت تقول البنية ، ولم افتح حتى فمي ، وانما كنت آكل شفتيها وعنقها ونهديها و أُقبّل بشوق ونهم كل مكان في جسدها وهي تستجيب لضماتي وعناقي وقبلاتي باشتياق ورغبة محمومتين !

بعد ان تطارحنا الغرام مرتين متتاليتين وهمد جسدانا وكان كل واحد منا مستلق على ظهره عاريا كما ولدتنا امهاتنا نحدق بالسقف ، لاحظت ان جسم جودي يهتز ويرتجف وانها تحاول بصعوبة ان توقف ذلك ! فسألتها ما الأمر، وليتني لم افعل ، اذ لعل سؤالي لها قد شجعها فانفجرت ببكاء متواصل ، مرتفع تارة ومنخفض اخرى ؛ مكتوم مرة وعلانية مرة اخرى ، نواح بعض الوقت وتفجع اوقات اخرى !

تركتها تبكي ، تتوجع وتتفجع ، فلم اسألها السبب ولم احاول مواساتها ؛ وانما تركتها حتى اخرجت كل ما بداخلها من حزن والم واحباط متجذرة في اعماقها ! ثم صارت بعدها تتكلم :

ـ عندما غادرت شقتك صباح يوم الاثنين ، استولى عليّ احساس غريب عجيب ، و داهمني احباط ويأس شديدين ! لقد شعرت وكأنما تركت روحي وقلبي وكل أحاسيسي وعواطفي معك ! لقد شعرتُ بانني وحيدة في هذا العالم ، خائفة و اكاد اختنق ! لقد كنت مرعوبة جدا ، أشعر وكأنما حيوانات متوحشة تنقض عليّ لتفترسني !

ـ ولمَ لم تهاتفينني ، لكنت قد خففت عنك مما كنت تعانين ، او حتى لماذا لم تأتي لزيارتي ؟!

ـ لقد خجلت ان افعل ذلك اول الأمر ، فقد خفت ان تسخر مني ؛ ثم تجرأت بحجة انني اريد ان أطمئن عليك ، ولكن عندما فعلت لم تجب ! لقد بقيت احاول الى ساعة متأخرة من الليل ولكن دون جدوى !

ـ لقد كنت في اجتماع طلاب عرب حتى منتصف الليل ، ولم أدخل شقّتي إلّا قبل الواحدة صباحاً بدقائق ! ولكن لمَ لم تهاتفينني في الليلة التالية ؟

لقد فعلت ذلك مرات كثيرة ؛ كما حاولت في معظم الليالي بعدها ؛ ولكنني لم اوفق ! لقد صار عندي قناعة بانك لا ترد على الهاتف .

أنا لا أتجاهل الرد على الهاتف إطلاقاً ، لأنه قد يكون من أحد الطلبة العرب ! إنني كثيراً ما استدعيت ليلاً لأساعد بعضهم إمّا لحل مشاجرة مع طلبة يهود بسبب قضايا سياسية ، أو بسبب مشاجرة حزبيّة بين بعضهم بعضاً ! صدّقيني يا جودي انني لا أتجاهل مكالمة واحدة ، مهما كان الوقت متأخرا ، اذ انني اخشى ان تكون مكالمة ضرورية ! انا غالبا لا أعود الى شقتي الا بعد منتصف الليل ، اذ انني أتأخر إمّا في مكتبي او في احدى الاجتماعات ، وما أكثرها ! قلت هذا بعد ان مشَّطتُ شعرها بأصابع يدي اليمنى .

لقد كنت اتصوركَ أحياناً بأحضان امرأة غيري ، فاحسُّ ان الغيرة تحرقني وتمزق قلبي ؛ فاصرخ من اعماق قلبي ؛ رحمتك اللهم وغفرانك ! قالت.

ـ ما هذا الكلام يا جودي ؟! إنكِ بكلامكِ هذا تحرقين دمي وتمزقين وجداني ! ألم اقل لكِ بانني لا يمكن ان احب امرأة واحدة ، وإنني وان حدث وأحببت فإنني لا يمكن ان أكون لها وحدها ؟! لقد أعلمتك الأسباب جميعها وبإسهاب !

ـ نعم اعرف كل ذلك ؛ لكنني أحبك و أغار عليك ولا استطيع ان اتصورك بأحضان امرأة غيري !

هنا شعرت ان المناقشة معها عقيمة وانها لا يمكن ان تقتنع بحججي وتعليلاتي ، فغيرت مجرى الحديث :

ـ عندما فتحت لك الباب و رأيتك تقفين خلفه ، ظننت ان احدى حوريات الجنة قد هبطت عليّ من السماء لتمنحني الحب والجمال والسعادة ! قلت ويداي تداعبان خديها .

ـ هل صحيح يا حبيبي ؟! شكراً ؛ شكراً ! ما اسعدني بان اعرف انك تعتقد هذا ! قالت وقد اضاء وجهها من جديد وتورد خداها ثم اضافت :

ـ لقد كنت والله اشعر قبل ان أتعرف عليك بانني ضائعة وأفتقد ذاتي وابحث عنها دوماً !

ـ إن كلامكِ يسعدني كثيراً ! انتِ محيط من الحب والحنان ... أنتِ بحر زاخر من الوفاء والعطاء والتضحية ، يا جودي ! انكِ تغمرين الذين حولك بتفانيك وكرم اخلاقك ! لا شك انهم جميعا ... يحبونكِ... يحترمونكِ ويتمنون لك الخير والسعادة ! قلت مخلصاً ومن صميم قلبي .

ـ انا لا أريد الاّ حبك انت ! انني اموت بك حباً ؛ بعد ان تعرفت عليك وغمرتني بلطفك واحترامك ، ثم بحبك وحنانك ! إنني شعرت بأنني لا استطيع ان ابتعد عنك ، إذ أنني عندما افعل اشعر بالاختناق ! لقد اخذت اجازة بعد ظهر هذا اليوم وذهبت الى الصالون وتجملت لكي اسعدك ! كانت تتكلم بتواصل دون توقف ، وكأنما تقرأ من ورقة ؛ فأدركت بأن البنية لا شك تحفظ ما قالت عن ظهر قلب لكثرة ما رددته بينها وبين نفسها طيلة أيام الأسبوع !

ـِ انتِ جميلة دون ان تتجملي ! انتِ في نظري اجمل فتاة على وجه الارض بحنيتك وتواضعك ! انت طيبة القلب جدا يا جودي . انك والله تحرقين دمي ! لقد اوقعك الله في حب انسان أفّاق مغامر مثلي يحمل صليبه على ظهره ، امضى طفولته مشرداً يقطع الطريق بين بيتهم الحجري في حارة الجدعة ، وبيتهم المصنوع من شعر الماعز في منطقة " الخارجة – سوادا "، يبحث عن زيْنة ، ليعيد على مسامعها للمرة الألف بأنه يتعذب بحبها ويرجوها بأن تحبه ، إذ أنه يريد أن يتزوجها عندما يكبر! اما هي ، فكانت تكفكف له دموعه ولتعيد على مسامعه بانها لا يمكن ان تحبه لأنه ما زال صغيرا على الحب ! إنه في الرابعة عشرة من عمره ... فيبكي بحرقة ولوعة بين يديها يرجوها ان تحبه ، ومن جديد تؤكد له بانها قد بلغت السادسة عشرة من عمرها ، وانها ستتزوج قريبا ... فيبكي بين يديها ! ومن جديد تؤكد له مرة اخرى بانها لا يمكن ان تحبه ، لان البنت تتزوج صغيرة بينما الولد ينتظر حتى يكبر ويكمل دراسته ، ويعمل ليعيل زوجته واولاده ! لقد امضى ايام طفولته يتخبط في متاهات الحياة ، ينهض من حب فاشل ليغرق في حب جديد اكثر فشلا وأغزر دموعاً !

ـ عدت تتكلم ألغازا ً! لقد قلت لكَ انني لم ادرس في الجامعة لأفهم ما تقول ! قالت بحزن وأسى !

ـ كلام العواطف النبيلة الصادقة ، لا يحتاج يا جودي الى ان يتخرج صاحبه من الجامعة ولا حتى من المدرسة الثانوية ! أنتِ تتكلمين دائما بصدق واخلاص , وكلامك يخرج من صميم قلبك ويدخل في اعماق الوجدان ، صدقيني !

ـ اصدقني القول أنت وأرح قلبي ، فهل تحبني ؟! انا لا اطلب منك ان تحمل لي نفس الحب الذى احمله لك ! انا اريدك ان تحبني ولو قليلا !

ـ صدقيني انني احبكِ كلما تكونين معي وانتِ بين ذراعي ، اعانقك و أرضع حليب الخلود من نهديك ، ولكن حالما تبتعدين عني فإنني انساكِ ، لأنني كما قلت لك ضعيف الذاكرة وفي قلبي خرق كبير لا يحتفظ مطولاً بحب امرأة !

ـ اذن دعني اكون معك دائما حتى تظل تحبني ولا تفكر بغيري ! قالت.

ـ لقد قلت لكِ انني سريع الملل ، وانني دائما ابحث عن حب جديد ! انني قطعا سأملّك وسأتوقف عن حبك ، فاحب فتاة غيرك، وعندها سيتحطم قلبك ، وانا والله لا اريد ان اراك محطمة القلب ! قلت بحراة وحرارة وصدق !

ـ ولكنك ستحطم قلبي لا محالة ! قالت بانكسار مذهل أدمى قلبي و أحرق وجداني !

ـ ولهذا حذرتكِ من حبي ورجوتكِ ان لا تحبينني ! هل نسيت ذلك ؟!

ـ صدقني انني لم أنْسَ ، ولكن قلبي سامحه الله لم يستأذنّي بحبك ، فأحببتك بكل طاقاتي وبكل كياني !

ـ لقد ظلمتني يا جودي وظلمت نفسك أيضاً ! ظلمتني لأنكِ حمّلتني وزرك وظلمت نفسك لأنك تتعلقين بوهم ! انك تحبين وهماً ! أنا وهم يا جودي ! أنا مجموعة من الأوهام ... من العقد ! كتلة من المتناقضات ! لقد تيتّمت و أنا صغير وضربنا عمنا و أهان والدتي و اخواني و أخواتي و طردنا من كرمنا ، الذي كان في ذلك الوقت المتنفس الوحيد لنا طيلة أيام السنة ! الكرم الذي نستطيع به أن نتوقف ، نحن جميع أفراد العائلة ، عن اجترار آلامنا و أحزاننا ! لقد أخذه منّا ! إنّ حياتي كلها حزن متواصل !

وهنا انخرطت البنية في بكاء مريرٍ مرير ، فلم اجد نفسي الا وانا اشاركها البكاء والنحيب ، و ربما بحزن أشد و ألم أعمق ! وبقينا نواصل البكاء والنحيب حتى استنفذنا كل ما لدينا من طاقات ، فتعانق جسمانا ورحنا بعدها في سبات عميق !

استيقظت بعد منتصف الليل بدقائق قليلة فوجدت أن الشقة كانت تسبح في ظلام دامس ، ولكنني استطعت أن أميّز على ضوء الشارع المتسلل من نافذة غرفة النوم جسم جودي العاري الملاصق لصدري ، والمتكوّر بين ذراعي ، وكذلك شعرها الذهبي متناثرا فوق الوسادة ! تأملت الجسم الأبنوسي قطعة قطعة ، و لفترة طويلة ، من أخمص رأسها إلى أسفل قدميها ، ولا أدري لماذا شعرت فجأة بمسحة صوفية و رهبة ربّانية ، تستولي على كل ذرة في كياني ! لقد بدأ جسمي يرتعش و دموعي تنزل بغزارة !

لقد أوجع وجداني وأدمى قلبي أن أعرف أن جودي قد أوقعها الخالق في حبّي ... أنا الأنسان الأناني والمعقّد ، والذي في قلبه خروق وشقوق لا يمكن أن يحتفظ ولا أن يقنع بحب امرأة واحدة ، وكذلك لا يمكن أن يخلص ولا أن يكتفي بحبِّ إمرأة واحدة فقط !

* * * * *

الفصـــــــــل التاســـع

وهنا تذكّرت زيْنة وحبّي لها ، ولا أدري لماذا تذكرتها الآن بعد كل هذه السنوات الطويلة ؟! ألأنه كان حباً من طرف واحد ، تماما كحب جودي لي الآن ؛ أم لأنه كان حباً لا أمل فيه ولا رجاءً منه ؟! لقد كان حبّ عذاب وسهر ودموع ، من طرف واحد ؛ من طرفي أنا ... !

كنت وقتها في الرابعة عشر من عمري ، وكانت زينة أكبر مني ربّما بعامين ثلاثة ، وربما اربعة !

كانت البنات في ذلك الوقت يتزوّجن مبكرات جداً وفي مثل سنّها بل وحتى أصغر قليلاً ؛ لزوج ربما يكون عمره ضعفي عمرها وقد يزيد قليلا ؛ وفي بعض الأحايين ثلاثة أضعاف عمرها !

لم يكن الناس في ذلك الوقت يهتمون ولا حتى يفكّرون بفارق السن، بين الزوج والزوجة ! لقد سمعنا كثيرا عن زيجات حدثت بين فتاة في السادسة عشرة من عمرها وبين زوج قد تجاوز الخمسين ! لقد كان من النادر أن تذهب الفتاة الى المدرسة و حتى معظم الرجال الذين يعرفون القراءة والكتابة ، يعرفون فقط مبادئها وغالبا لكي يقرؤوا القرآن الكريم فقط !

إن العادة المتبعة عند عائلتنا وكذلك الكثير من العائلات التي تحمل اسم عائلتنا ، والتي تملك أراضٍ زراعية مجاورة لأراضينا قرب مدينة عمّان ...التي كان وقتها حجمها بحجم القرية الآن ... رغم أنها كانت عاصمة البلاد !

كان والدي يذهب و برفقته أخويّ اللذين ، من زوجته الأولى، واللذين لم يدخلا مدرسة قط كمعظم أبناء المزارعين ؛ كما كان يذهب برفقته أيضاً رجلين اثنين أو أكثر ، ليساعدوه في حصد الزرع ونقل المحصول على الحيوانات الى بيتنا في السلط ! كذلك كانت تذهب برفقته ايضا أختاي الكبيرتان ، أميرة وآمنة لتجهّزا لهم الطعام ولتساعداهم في جمع المحصول ! كانوا يذهبون ويسكنون في بيت شعر اسود في أراضينا المتواجدة قرب مدينة عمّان طيلة مدة الحصاد !

لقد كان الجميع عادة يسكنون في بيوت شعر مصنوعة من شعر الماعز ، ولم تكن والدتي ترافق والدي في مهمته هذه ، و انما كانت تمكث معنا ، أخي و أنا ، حيث كنّا طلابا في مدرسة السلط الثانوية ، و لم نكن قد انهينا العام الدراسي بعد ... وكذلك كان يمكث معنا أختايَ الصغيرتين ، أمون ورفقة !

كان المزارعون يمضون شهراً و ربّما أكثر و هم يجمعون الغلال و ينقلونه الى بيوتهم في السلط ، ثمّ يرحلون بعدها الى " الخارجة – سوادا " ، والتي تبعد بضعة كيلو مترات من مدينة السلط ، وذلك للإصطياف !

لقد كان لكل عائلة من تلك العائلات كرم متواضع جداً من العنب ! أما نحن فكان لنا وحدنا ضعفي ما كانت تملكه بقيّة العائلات الأخرى مجتمعة !

كانت جميع الكروم محاطة بجدران مبنية من الحجارة ، و أتذكّر جيدا أن الجدران التي كانت تحيط بكرمنا أعلى بكثير من بقية الكروم الأخرى ، ولست أدري السبب !

كان بيت شعرنا مع خمس بيوت شعرٍ أخرى مبنية إلى الجانب الشرقي من كرومنا ، وكان على الجانب الغربي منه يوجد خمسة بيوت أخرى ، و كان بيت شعر عائلة زينة واحد منها !

لقد كان عليّ لكي أذهب من مضاربنا إلى المضارب الأخرى أن أقطع كرمنا من أوله إلى آخره !

لقد كان الوقت صيفا ، وكان عمري يومها أربعة عشر عاما ! لقد كنت في ذلك الحين شعلة متأججة من العواطف المستعرة ! لقد قرأت منذ بدء عطلة المدرسة الصيفية ، في ذلك العام ، أكثر من خمسة عشرة رواية ، جميعها روايات عاطفية كتبت في الفترة الرومانسية ، لروائيين عالميين مشهورين ، مترجمة الى اللغة العربية ، مثل: ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون ، سيرانو دي بروجراك ، تاييس ، أحدب نوتردام ، وغيرها الكثير الكثير ... وكذلك كل ما كتبه جبران خليل جبران ، والمنفلوطي ، و آخرين !

كانت مدة الاجازة المدرسية ، في ذلك الحين ، ثلاثة أشهر كاملة ؛ و هي: تموز و آب و أيلول !كنت جالسا عصراً تحت شجرة المشمش والوحيدة والضخمة جدا ؛ والتي كان قد زرعها والدي رحمه الله ، حيث أنها الشجرة الوحيدة المتواجدة في تلك المنطقة ! لم تكن هذه الشجرة هي المميّزة الوحيدة التي تميّز كرومنا عن بقيّة الكروم الأخرى ، وإنما كان هناك بئر نستعمل ماءه طيلة فصل الصيف ، بينما كان جميع جيراننا المجاورون لنا ، وبدون استثناء ، يحضرون ماءهم من مدينة السلط على ضهور الحيوانات !

كنت جالساً أسرّح طرفي واطارد خيالاتي وأهيم في سماوات العشق والغرام ، متأملاً ما حولي من كروم العنب ، حيث السهول الممتدة والوديان العميقة والجبال المرتفعة !

كنت أفعل ذلك تارة وأعود الى الكتاب الذي بين يديّ تارة أخرى ! انني اتذكره جيدا ! لقد كانت ، رواية "مارثا البانية" لجبران خليل جبران ! كنت مستغرقا في تفكيرٍ عميق عميق ، عندما تنبّهت فجأة إلى فتاة تقف خلفي بحذر و خجل شديدين ، تتأملني و على شفتيها ابتسامة خجلى !

شعرت لحظتها ، عندما تقابلت عيوننا ، و كأنما سهاما قد اخترق قلبي ، وصار يرقص كالطير الذبيح !

ـ هل أخفتكَ ؟! سألت الفتاة و هي تبتسم ! يالإبتسامتها كم هي ساحرة ومفرحة ! لقد شعرت أنها هزتني من الأعماق !

ـ انكِ لم تخيفينني ، ولكنكِ أسعدتِني ! قلت متلعثماً و أنا أحملق في وجهها مسطولاً كالمنوّم ، و قد بدأ قلبي يدقّ دقاتٍ عالية سريعة و متتالية ! لقد شعرت بفرح و سعادة من الصعب عليّ وصفهما !إنني مازلت اشعر بسحرها حتى الآن !

ـ أرسلتني أمي لأحضر بعض العنب ، و بعد أن ملأتُ السلة بالعنب من الطرف الآخر للكرم ، وفي عودتي رأيتكَ مستغرقا تقرأ ، فتمنّيت لو أنني أعرف القراءة والكتابة ! قالت بصوت حنون وساحر ، و أشارت بيدها اليمنى الى حيث كرمهم !

لاحظت أن للفتاة أصابع طويلة ونحيفة جدا ، وكأنما هي مصنوعة من العسل المصفّى ! قالت بصوت عالٍ و كأنما هو كمان يعزف لحناً رومانسيا في ليلة ربيع صافيه !

ـ يعتقد معظم الناس في بلادنا ، أن البنت ان تعلمت القراءة والكتابة ، فانها ستكتب مكاتيب غرامية الى الشباب ! وهذا في اعتقادهم ضد الشرف والاخلاق ! قلت.

ـ أنا لا يمكن أن أفعل ذلك ! لو كنت أعرف القراءة والكتابة ، لاستطعت أن اقرأ القرآن الكريم ، ولكنت قد ساعدت أخي الصغير في دروسه ! قالت .

ـ و هل لكِ أخ طالب ؟

ـ نعم ، عمره عشر سنوات. اسمه هاشم . طالب في مدرسة السلط الثانوية . إنه يحتاج دائما الى من يساعده في دروسه . أمي دائما تطلب من ابن الجيران ، منصور، أن يساعده ؛ و هي تعطيه بعض الزبيب أو الحلاوة أو بيضة أو "تعريفة"؛ و عندما نكون طابخين لحم تعطيه قطعة لحم ! قالت بصوت عذب ورخيم .

ـ في أي صف ابن الجيران هذا ؟! سألتُ.

ـ هو في صف أخي هاشم ، ولكنه الأول على الصف ! هو مجتهد جدا جدا ، أهله يقولون بأنه يستحق أن يكون في صف أعلى . قالت .

ـ لو كنتِ تذهبين الى المدرسة لكنتِ ساعدته ، ولما كانت امك بحاجة الى ان تطلب مساعدة ابن الجيران ! قلت .

لم تعلق على ما قلت و انما هزّت كتفيها ، وكأنما تقول هذا صحيح !

ـ أنا اسمي سهيل ، استغرب كيف أنني لم أقابلك قبل اليوم ، و كرمنا مجاور لكرمكم ! قلت .

ـ أنا أعرفك . رأيتك صيف العام الماضي ، ولكنك لم تكن بهذه الحيوية ، و هذا النضوج ! أنت الآن شاب ، ما شاء الله ! قالت ذلك واتبعتها بابتسامة شعرتُ أنها استولت على ما تبقى من عقلي وعواطفي ، وكل كياني !

ـ لقد كان من سوء حظّي أنني لم أقابلكِ ! قلت بحماسٍ وحزن شديدين .

ـ أنا اسمي زيْنة ، أنا أعرفك جيدا ؛ رأيتك أول مرة ، قبل عامين هنا في الكروم ، ولكنك كنت صغيرًا ! أنت كبرت هذا الصيف كثيرا ً! ما شاء الله ! قالت ذلك وبعد أن تمهلت أضافت :

ـ ذلك بيت الشعر هو بيتنا ! قالت واشارت الى احدى بيوت الشعر المتواجدة في السهل الواسع المحاذي لكرمنا من الجهة الأخرى .

عذوبة ابتسامتها ، ورخامة صوتها ، ونصاعة اسنانها ، وحمرت خدّيها ، وطول قوامها ، وكذلك انسدال شعرها ، خلبت لبّي وتكرتني في ذهول كامل ! لقد شعرت لحظتها و كأنما كنت في نفق ضيق و مظلم و فجأة تحول هذا النفق ، الضيق والمظلم ، الى حديقة غنّاء ، تعج بالأزهار والورد ... و زينة وأنا ، ممسكي بأيدي بعضنا البعض ، نتمختر به بدلال وحبور !

ـ لي أخت اسمها آمنة ، هي صديقتي وأحبها كثيرا ً! انك تشبهينها إلى حد كبير ! قلت مغيّرا مجرى الحديث .

ـ نعم ؛ هذا صحيح ! أنا أعرفها ! نحن نشبه بعضنا إلى حد كبير ، ولكنها هي أجمل منّي و أرق و أنعم ! و قبل أن أسألها متى و أين رأتها ، أضافت :

ـ لقد تعرفت عليها هنا صيف العام الماضي ، و رأيتها مرتين صيف هذا العام حتى الآن . لقد فكرت عندما رأيتك أنها ربما تكون معك ، وإلّا لما كنت قد أتيت إلى هنا !

ـ ولم تقولين هذا ؛ ثم هل أنتِ نادمة أنكِ أتيتِ ؟!

ـ لا ، لست نادمة ؛ ولكنني خائفة من كلام الناس ! إنهم اذا رأوا فتاةً و وشاباً لوحدهما ، يظنون بهم السوء ويتكلمون عليهما كلاما سيئا ، وهذا يضر بسمعة البنت ولا يقبل رجل أن يتزوجها !

ـ معكِ كل الحق يا زينة ؛ الناس في بلادنا دائما يسيؤون الظن بالآخرين ، سامحهم الله !

ضحكت واهتزّ جسمها الأهيف النحيف ، ولم تقل شيئا !

يا إله السماء ، ما أجمل ابتسامتها ، وما أعذب صوتها ! لقد شعرت لحظتها ، والله ، وكأنما ارتفعت الى السماوات العلى ، ودخلت جنة الخلد ! ياله من شعور سعيد ... سعيد ... أشعر به لأول مرة في حياتي ... ! نعم ،لأول مرة في حياتي !

ـ على كل حال شكرا ، أنكِ تكرّمتِ عليَّ وأتيتِ ! لقد أسعدني التعرف عليكِ كثيراً ! ولما لم تعلّق ، أضفت :

ـ آمل أن أراكِ في كل يوم هنا ! سأنتظركِ كل يوم ! أنا آتي كل يوم هنا !

لاحظت أن ابتسامتها قد فارقتها و قد احمرّ خداها و ارتعش جسمها ، ثم غادرت على عجل دون ان تقول شيئا ! لقد ندمت كثيرا على ما قلت ، لانها لا شك قد اغضبتها مقولتي !

حالما غادرتني زينة ، شعرت بأن عقلي وقلبي وتفكيري وكل عواطفي ، جميعها ، قد ذهبت معها ؛ إذ احسست لحظتها برغبة مجنونة قوية و مسعورة تدفعني ، فلم أجد نفسي إلا و أنا أركض خلفها و أصيح بغير و عيّ ولا إدراك مني :

زينة ... ! أرجوكِ ... ! لا تذهبي ...! إبقي قليلاً ! أرجوكِ ! قلت وأنا أركض خلفها !

التفتتْ خلفها وتبسّمت ، فشعرت و كأنما غزال يتلفّت خلفه ، مما زاد في اشتعال عواطفي و تأججها ، فسألتني :

ـ ماذا قلت ؟!

يالصوتها ، ما أعذبه ! انه عندليب يغرّد ! لقد شعرت و كأنما اسمعه الآن فقط ولأول مرة !

ارتبكتُ ، بل و خفتُ ، و بدأ قلبي يقفز كسعدانٍ يرقّصه صاحبه ، فصرت أتكلم دون ضوابط ولا روابط !

ـ هل يجب أن تذهبي ؟! أعني ؛ هل أنتِ مشغولة ؟! أعني ؛ ابقِ مدّة أطول حتى نتكلّم ! أعني النهار ما زال بأوله ! هل أنتِ مستعجله؟! أنا أحب أن أتكلم معك ! كلامك أسعدني ...كنت أتكلم كالذي يهذي او كالمصاب بالحمى ، و أنا أتلعثم وأمسح بظهر يدي عرقي المتصبب !

ضحكت ، ولا شك أن سبب ضحكها ، هو كلامي الغير مترابط ، والذي كالهذيان ... فقالت :

ـ نعم ، أنا مستعجلة ؛ لقد تأخرتُ كثيراً ؛ أمي سينشغل بالها عليّ ! قالت ذلك وتابعت سيرها .

عندما وصلتْ نهاية الكرم ، وقبل أن تهمّ بعبور الطريق الضيق الذي فُتح مؤخراً بالسياج المحيط بالكرم ، للذين يدخلون ويخرجون ؛ توقّفت قبل أن تضع قدمها على أول المدخل ، فنظرتْ خلفها الى حيث أقف ، فوجدتني ما زلتُ متجمدا في مكاني مسمّراً ، أحدق بها مسحورا ً؛ وهنا رفعت يدها اليمنى الى اعلى و هزّتها بالهواء ، علامة الوداع ! بقيت محدّقا بها حتى رأيتها تدخل بيتها و تختفي داخله

!ألعنة ! العنة ! لماذا خلق الله الحب ، بل لماذا خلق لنا قلوباً تخفق !!؟

اللعنة ! اللعنة ! مرة أخرى ! إنني والله أخجل أن أقول هذا حتى بيني و بين نفسي ، فلقد شعرت برعشة ممزوجة بقشعريرة ضربت جسمي ، من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي ! لقد اخضلّت عيناي بعدها بالدموع ، ثم أجهشت في بكاء متفجّع عميق ، وبصوتٍ عالٍ ، لم أتوقف عنه إلا والشمس تسقط خلف قباب وكنائس و منارات المآذن في مدينة القدس الشريف ، و التي استطيع أن أرى أنوارها ليلاً، عندما أقف فوق احدى زوايا سور كرمنا المقابلة لها !

على ضوء قنديل الكاز ، المعلّق وسط بيت شعر أهل زينة ، حتى أطفئ في ساعة متأخرة من الليل ، أمضيت الوقت أرقب تحرّكاتها و تحركات كل فرد من افراد

عائلتها ! لقد لاحظتُ أنه لا بدّ من أن يكون لها أمّين اثنتين ، ولا بد أن يكون والدها متزوج من امرأة أخرى الى جانب أمها !

اطفئت جميع القناديل المضاءة في بيوت الشعر المتجاورة ، وخيّم هدوء سلامٍ لم يعكّره الا نباح بعض الكلاب ، بين الفينة والأخرى ... وانا ما زلت مسمرا فى مكانى ، أحدق بعيونٍ دامعة وقلب واجف ، في بيت شعر الماعز الأسود الذي تسكه زينة وأهلها !

*****

ان من عادتي أن انام طيلة ليالي اشهر الصيف ، ونحن نسكن الكروم ، أمام بيت الشعر؛ لأنني أحب أن أرقب النجوم في السماء وهي تظهر وتختفي ؛ وكذلك لأشاهد القمر وهو يظهر من خلف السحب ، ليرسل ضوءه على السهول والوديان والوهاد المحيطة به ، ثم وهو يختفي ! كما كنت أرقب السحب وهي تتحرك وتجوب السماء شرقا وغربا والقمر يختفي خلفها تارة وتختفي النجوم خلفها تارات ، وكأنما هم أطفال يلعبون لعبة "الغمّاية" !

بينما كنت أطارد بناظريّ هذه التحركات في أعالي السماء ، ومسحة صوفيّة إلهيّة تتسلل الى كل مسامة من مسامات روحي و قلبي و جسمي ، بل و كل كياني ! لقد خيّل إليّ أنني رأيت زينة تمسك بيدي و نسير سوية يدًا بيد ، نركب احدى هذه السحب و نتمختر فوقها ، بدلال و سعادة ؛ تتلفتْ هي يمينا و شمالا، وكأنما تقول للكون ؛ "انظر كم أنا جميلة وسعيدة ! " ! كنت أنا أمسك بيدها ... بقيت أنا سارحاً مع خيالاتي وأحلامي السعيدة والمفرحة ، حتى رحت في سباتٍ عميق !

*****

ليس لهذه العائلات المصطافة بجانب كرومها من وقت محدد لجلب العنب الذي تأكله يوميا الى بيوتهم ، فبعضهم يحمل سلّته و يقطفه في الصباح الباكر ، وبعضهم في الضحى وآخرون بعد الظهر، وغيرهم عند المساء ! وبما أنني غير واثق متى أهل زينة يذهبون الى كرمهم ليحضروا عنبهم الذي يأكلونه يومياً ، فقد خفت أن تقوم هي بهذه المهمة في الصباح الباكر ... لذلك نهضت مبكرًا جداً، مع أنني لا أنهض من فراشي عادة قبل الضحى ! إنه حتى تلك الساعة تكون الغيوم الكثيفة جداً ، ما زالت تحجب الشمس عن الظهور !

لقد خفت أن تأتي زينة مبكرة و تقطف العنب و تعود دون أن أراها ، ولهذا ذهبتُ مبكراً جداً وجلست تحت شجرة المشمش انتظر قدومها ! عند العصر ، نعم عند العصر ، جاء والد زينة يحمل سلّته وقد ملأها بالعنب ثم انصرف مما ملأ قلبي حزنا شديداً !

ذهبت في اليوم التالي لأرى زينة ... مرّ النهار و جاء الليل و مضى معظمه و أنا ما زلت أنتظر زينة ، ولكنها لم تحضر ! عدت الى بيتنا حزينا مكسور الخاطر ، جريح القلب ، أجرجر أذيال الخيبة ! لم تأتِ زينة لتقطف العنب، ولم ألمحها حتى من بعيد ! لم يزر الكرى جفني في تلك الليلة إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل ! كنت أتقلب في فراشي ذات اليمين وذات الشمال، وعندما سهوت رأيت أحلاماً مرعبة ! كانت زينة

تجري هاربة مني وأنا أركض خلفها ، أستعطفها وارجوها أن تنتظرني ، اذ أنني اريد أن أقول لها كلاما مهما ، ولكنها ترفض رجائي واستعطافي باصرار و عناد ! ما أقسى قلبها ، سمحها الله !

عندما استيقظت في الصباح كان لساني جافاً كعظمة ، وكان جسمي يرتجف وكأنما أنا واقف عارياً في ليلة ثلج زمهرير ، وكانت ملابسي غارقة في العرق !

قضيت طيلة اليوم التالي أيضاً ، ومنذ الصباح الباكر، وانا انتظر مجيء زينة ، وعندما فقدت الأمل من مجيئها، عدت في المساء الى البيت حيث كانت اختي آمنة تنتظرني ! سألتني أين كنت طيلة النهار، واعلمتني انهما ، هي والوالدة وبقية افراد العائلة، قد ظنوا انني ذهبت الى بيتنا في المدينة ؛ ولكنهم اكتشفوا انني لم افعل ذلك ، لأنهم قد ذهبوا الى هناك ولم يجدوني ! إنهم في طريق عودتهم الى الكروم ، اجتمعوا مع زينة وامها، واللتين كانتا هما أيضاً عائدتان الى الكروم ، اذ اعلمتهم زينة بانها قابلتني قبل يومين وتحدثنا بعض الوقت، وانني ولد مؤدب وخجول !

ضحى اليوم الثالث ، وكنت أجلس تحت شجرة المشمش كعادتي في كل يوم ، جاءت زينة وزوجة والدها ليملآن سلال العنب ، وخلسة ، من خلف زوجة والدها منحتني ابتسامة وحيتني بيدها اليمنى بأن هزّتها الى اليمين والى الشمال ! لكنني لم أردّ على ابتسامتها وهزّت يدها ، وانما اعلمتها بغضب لاهب بتحريك رأسي ويدي وجسمي ، بأنني غاضب منها ! لقد شعرت لحظتها ، بأن لي كل الحق عليها ان اغضب وأن ألومها، لعدم مجيئها ! لقد صار لي ثلاثة ايام انتظر قدومها ، على أحرّ من الجمر !

اتسعت ابتسامتها وازداد وجهها اشراقاً ، فشعرت وكأنما كنت في ليلة ظلماء غاب قمرها ، وفجأة ظهر البدر ! لقد احسست بعدها براحة نفسية وسعادة إلهية غمرتا قلبي و روحي معاً !

ملأت المرأتان سلّيتيهما عنباً وانصرفتا ! سارت الزوجة وسارت زينة خلفها ، وثلاث مرات طيلة الرحلة ، إلتفتت زينة خلفها ، وفي كل مرة كانت تمنحني ابتسامة تزيد في تأجج عواطفي و إلهاب مشاعري ! عند العصر عادت زينة لوحدها تمشي على استحياء بتمهل زائد وكأنها تداعب قطوف العنب ولا تريد قطفها ؛ وعيناها لا تتوقفان عن النظر الى حيث شجرة المشمش ، فعرفت أنها تبحث عنّي ! اقتربت منها وقلت :

ـ لقد صار لي أربعة أيام لاأترك مكاني هذا ، تحت شجرة المشمش ، إلا في المساء ، انتظر مجيئك و لكنكِ لم تأتِ ! إنني ومنذ ان رأيتكِ أول مرة لم تفارق صورتك مخيّلتي ، اذ أنني طيلة الليل أحلم بك ! لماذا غبت عني كل هذه المدة ؟! ألم أقل لك أنني انتظر مجيئك ورجوتك ألا تتأخري عليّ ؟! أنا أحبك يا زينة ... أحبك كثيراً ولا استطيع أن أعيش بعيدا عنك ! انك لا تستطيعين أن تتصوري كم تعذبت منذ ان رأيتك ذلك اليوم !

كانت فقط تستمع إليّ و أنا امطرها بهذه الأسئلة ، بينما كانت هي مستمرة في مداعبة قطوف العنب ، وبعد أن توقفت ، اجهشتُ ببكاء هستيري دام لأكثر من

دقيقتين ! بَقيتْ لمدة ليست بالقصيرة تتأمل وجهي وعلائم الحزن والأسى تغطي وجهها ثم قالت:

ـ إنه يفرح قلبي ويسعدني كثيرا أن أعرف أنك تحبني ، لأنك شاب خجول ومؤدّب ، وأخ صديقتي العزيزة آمنة ! أنت متعلّم ولك مستقبل عظيم ، خصوصا بعد ان تكمل دراستك ، ولكنه يحزنني كثيرا أنك تحبني هذا النوع من الحب ! إنني لا استطيع أنا أن أحبك لأنك أصغر مني كثيراً ، حيث إنه قد يتقدم لخطبتي رجل هذا العام او ربما العام القادم ، فأتزوج ! انت ربما لا تتزوج قبل عشر سنوات !

ـ ولكنني أحبكِ ، ولا يمكن لرجل أن يحبك كما أحبك أنا ! صمت قليلا ثم أضفت :

ـ أنا بحبك يا زينة ؛ والله ما بنام الليل ؛ طول الوقت وأنا بفكر فيكي وبعيط ! من ساعة ما شفتك ، و أنتِ بتلقطي العنب وأنتي ما بتروحي لي من بالي ! والله إني أحيانا بظل طول اليوم والليل وأنا قاعد قبال بيت شعركُو حتى أشوفك ! أقول يمكن تيجي تلقطي عنب وأكلمك ، و أحيانا أظل طول الليل قاعد قبال بيتكُو اتطلع عليه حتى اشوفك داخل البيت ! والله اني اظل طوووول الوقت وأنا بعيييط ! أنا بدي أتجوزك يا زينة عشان أظل جنبك ! أنا بشعر بخوف كثير لما أكون بعيد عنّك ، وبشعر بالامان والسعادة لما بكون قريب منك ! قلتُ هذا لزينة عندما قابلتها بين الدوالي وهي تقطف عناقيد العنب ، وتضعها في سلة كانت تحملها وتنظر بين اللحظة والاخرى في اتجاه بيتهم ، بيت الشعر الأسود ، مخافة أن يرانا أحد !

ـ أرجوكْ، ما تعيطش يا سهيل ، دموعك بتحرق دمي ! بتخليني والله أنا أعيط كمان ! أنا كمان ، والله بحبك مثل ما بحب اخوي هاشم ! إنتْ ولد عاقل ومؤدب و ذكي كمان ! أنا بنبسط والله لمّا بشوفك ، وبتمنى لو إني أقدر أشوفك كل يوم ؛ بس بخاف إذا شافنا حدا من الناس يحكو عليّه وبتصير سمعتي مش كويسة وما حداش بتجوزني ، وبقولي عني بنت وسخة !

ـ أنا ما بدي إياكي تحبيني مثل ما بتحبي اخوكي هاشم ! أنا بدي اياكي تحبيني أنا ، لأني بحس معاكي بالامان والأطمئنان . لما تكوني بعيدة عني والله العظيم ، بشعر كانه وحش بده يوكلني !

ـ انته لسَّع زغيّر على الزواج يا سهيل! عمرك لسّع ثلثطعشر سنه وبدّك على الاقل مثلها حتى تقدر تتجوز ! لسّع قدامك مدرسة تخلصها ، وبعدين تتوظف وتصير تجيب مصاري ، وبعدييين... بعدييين ... بتتجوز ! أنا يا سهيل ما بروحش على المدرسة وعمري سطعشر سنة والسنة هاية او السنة الجاية بتجوز ! فيه زلام كثيرييين... بدهم يتجوزوني !

ـ بس همه ما بحبوكيش مثلي أنا ! وهمّه ما بعيطوش لما ما بتكوني معهم ! أنا والله العظيم ، وحق سيدنا محمد والنبي شعيب كمان ، إني أمس قضيت ثلاث ساعات إبطولها وانا بفكّر بيكي وبعيط !

ـ الحب وحده ما بكفيش يا سهيل ! المره منا بدها رجّال يطعمها ويكسيها ويعيّشها ؛ وانت لسّع أمك بتطعمك وبتكسيك كمان ! أنا لازم أروّح هسع ! امي رايحة تقلق عليَّه ! أنا تأخرت كثير ! بخاطرك !

وغادرتني زينة ... وتركتني ممددًا على الأرض الحمراء ، بين أسراب دوالي العنب ، أذرف الدموع الغزيرة ... الغزيرة ... وأنهنه ... ! ذهبت زينه وذهب عقلي معها !

بقيت ممدّداً بين أسراب الدوالي ، أبكي بوله وحرقة ، أفكّر بزينة و بما قالت ، و أتساءل و أسأل نفسي؛ إذا كان حقاً ما تقول ، فلم الله ابتلاني بهذا الحب الغريب العجيب ؟! لماذا ؟! لماذا ؟ كان يقطع عليَّ تفكيري بين الفينة والأخرى ، نباح كلاب أهل زينة و كلاب أصحاب بيوت الشعر المجاورة لهم !

بقيت أذرف الدموع حتى ساعة متأخرة من الليل، عدت بعدها الى بيتنا ووضعت نفسي في الفراش واستأنفت البكاء ، وبقيت أبكي ، حتى أدركتني رحمة السماء ... فنمت ... وما زال ما قالته زينة يتردد على مسامعي !

ـ بدّي حبكَ إلي ، يخليك طالب مجتهد ... تكون بوظيفة عالية... تكون رجل يقولو عنه الناس ... رجل شهم و مهم ... مش رجل عاديً ! بديي أفتخر بيك ، لما تكون في منصب مهم وعالٍي ، أقول لنفسي هذا الرجل كان بحبك يا بنت يازينة في يوم من الأيام ، بدي إياك تكون ...

لم تكمل زينة جملتها ، إذ وصلنا صوت والدها من أعلى السلسال يقول:

إ تأخرتِي يا بنتي ، خفنا يكون صارلك مكروه ! قالها من فوق سلسال الدوالي !

ـ أنا بخير يا والدي ؛ هذا سهيل ابن عمي وجارنا هون ، بساعدني بتلقيط العنب !

ـ بارك الله بيك يا ابني لمساعدتك زينة . قال الأب.

ـ هذا واجبٌ عليّ يا عمي ، ويسعدني كثير كثير مساعدتها ! و بعد أن رطّبت شفتي الجافتين بلساني وهدأ بعضًا من روعي، قلت:

كيف حالك يا عمي ؟ أنا بعرفك بس انت مابتعرفنيش . قلت.

ـ على كل حال ، إحنا إتعا رفنا ، وان شاء الله رايحين إنشوف بعضنا إكثير إكثير بعد اليوم ! وبعد أن فكّر قليلا أضاف:

ـ أنت تعرف ، إحنا ووالدك أولاد عم ؟ رحم الله والدك ؛ كان رجل عظيم ! خسرت العائلة خيرة رجالها ! بخارطرك !

ـ مع السلامه ياعمي !

حملت زينة سلّة العنب وغادرت هي و والدها و قالت لي:

بخاطرك ! سلّم على آمنة !

لقد شعرت والرجل يتكلم معي بأنني لم أحب زينة فقط ، و إنما أحب والدها ، عبد الرحمن المطلق أيضا ! لقد تمنيت من أعماق قلبي ومن صميم وجداني، لو أن يكون هذا الرجل هو عمّي !

مشيت كالمنوّم وكأنّما أعطيت إبرة مخدّرٍ قوية جدا ! ذهبت إلى حيث شجرة المشمش و تمددت تحتها ، رأسي إلى الشمال وقدماي إلى الجنوب ؛ تماما كما يفعل المسلمون عند دفن موتاهم ! لقد اعتبرت نفسي أنني قد متُ فعلاً بعد أن سمعتُ ما قالت زينة لي ! لقد قطعت الأمل بأن تكون زوجة لي وأنني سأمضي عمري إلى جانبها ، أستمتع بمحبتها وعطفها ... رحت بعدها في سباتٍ عميق !

استيقظت في ساعة متأخرة جداً من الليل ، فوجدت أن أطرافي متجمدة ، فانخرطت في بكاء هستيري ... بكيت ليلتها أضعاف أ ضعاف ما بكيت يوم وفاة والدي !

قبل أن تنتهي العطلة المدرسية الصيفية لذلك العام ، وقبل أن تنتهي الثلاثة أشهر التي كان من المفروض أن نقضيها نصطاف في الكروم ، طردنا عمي من كرومنا ، بعد أن أهان امي واخي ! و هكذا حُرمتُ من رؤية حبيبة القلب زينه !

كانت كرومنا تقدّر بعشرات الدونمات ، تحتل جبلين كاملين ووادي ، وكانت ذات هواء عليل ومناظر خلابة وبها بئر ماء نشرب منه طيلة الصيف الماء المثلوج ! كان جميع الذين يسكنون حولنا ، وعددهم يزيد عن العشرة عائلات ، يحضرون مايحتاجون من الماء من مدينة السلط ، على الحيوانات ، وكنا نحن الوحيدين الذين لا نحضر الماء من المدينة !

*****

احتدم بي الشوق لرؤية زينة ، بعد بدء العام الدراسي لدرجة أنني كنت اشعر أحيانًا أنني أكاد أختنق ! لم أعرف طريقة لكي أراها بها ولو حتى من بعيد ، مع أنني فكرت طويلا وفي كل الوسائل ! صمّمتُ أن أنتظر حتى تنتهي العطلة الصيفية وتعود هي وأهلها من الكروم الى المدينة ، عندها سأفكر بطريقة أراها بها ! لم أكن أطمع أن أكلّمها ، كنت أريد أن أراها فقط ؛ حتى ولو من بعيد ! لقد اشتقت الى رؤية وجهها ؛ ابتسامتها ؛ سماع صوتها ! ما أحرّ لهيب الشوق الذي يشتعل في قلبي ! أللهم رحمتك وعفوك وغفرانك ! أللهم ألهمني الصبر والسلوان على بعاد زينة !

*****

كنا نحن نسكن في أقصى الطرف الشرقي من مدينة السلط ، والمحاذي للمدرسة التي أذهب أنا إليها ، وكذلك يذهب اليها اخو زينة ! كان أهل زينة يسكنون في أقصى الطرف الغربي من المدينة .

إن العادات والتقاليد وثقافة المجتمع الذي نعيش به ، لا تسمح ولا تتسامح مع شابٍ يذهب لرؤية فتاة ، حتى ولو كانت ابنة عمه القريب، فكيف الحال مع ابنة عمٍ

بعيدٍ جداً ، كزينة ؟! ان هذا مستغرب ومستهجن بل وحتى مستحيل أيضاً ! الحب في مجتمعاتنا العتيدة ؛ عيب ... محرم ... مستهجن ... نقصٌ في الرجولة ... ! إنه لعنة !

فكّرت أن أذهب وأمر من أمام بيت أهل زينة ، لعلّي ألمحها ولو من بعيد ، ولكن لا يوجد طريق نافذ من أمام بيتهم . الطرق كلها تقود الى بيوت محددة ، لا يسلكها إلا ساكني تلك البيوت أو زائريهم !

لقد كان حتى الذهاب لتلك الحارة التي تسكنها زينة مستبعد جدا ، لأنه ان حدث ورآني أحد الأولاد من مدرستي ، الذين يعرفون انني لست من حارتهم ، فانهم سيستغربون بل سيغضبون و يشعرون بالاهانة ، إذ أنني تعدّيت على حرمة حارتهم و قدسيتها وأمنها ! إننا نحن ، جميع طلاب مدرسة السلط الثانوية ، نعرف بعضنا بعضاً جيدا ، ويعرف كل واحد منا أين يسكن الآخر !

ان ثقافتنا الاجتماعية تقول ان الشاب الذي يأتي من حارة الى حارةٍ أخرى ، اذا لم يكن هناك انسان قادم الى بيته ، فلا شك انه قادم " ليبصبص وليتصبب " على البنات ، وهذا فعل قد يسيل بسببه الدم ! نعم ، الدم !

أقولها صادقا ، ومن صميم قلبي ، أنني وبسبب هذا التّزمت الاجتماعي و التفكير القبلي ، عزمت ، عندما أكبرعلى أن أرحل عن هذه المدينة ، وان كان حبّها واحترامها وشوقي اليها ، بل وتقديسها ، معشعشٌ في عظامي ووجداني وكل كياني !

ثلاثة شهور مرّت وربما أكثر ، على عودة المصطافين من الكروم الى بيوتهم ، وبدء العام الدراسي الجديد ، وعقلي لا يكفّ ، ليل نهار عن التفكير بطريقة أستطيع أن أرى بها زينة ... لألمحها ولو من بعيد ... كنت أبكي شوقاً وقهراً ! يا الله كم يتعذّب العاشق في بلدنا !

لقد كانت صورة زينة لاتفارق ناظريَّ ليل نهار ! كنت أراها في كل صفحة من صفحات الكتاب الذي أفتحه وعلى ورقات الدفاتر التي أكتب عليها ! كنت أراها ، والله ، حتى في صحن الإدام الذي أغمّس الخبز منه ؛ وأراها واقفة الى جانب الاستاذ في الصف وهو يشرح الدرس ، وكذلك وأنا أقطع المسافة بين بيتنا والمدرسة ذهابا وعودة ؛ في منامي وأحلامي ! لقد كانت لا تفارق عقلي ووجداني لحظة واحدة ؛ و كان الشوق و الاشتياق نيران ملتهبة و دائمة الاندلاع في داخلي !

لم أكن أعرف أيهما بيت زينة بالضبط ، وان كنت أعرف أنه واحد من خمسة بيوت متجاورة !

لقد صادف أن كنّا مدعوون في العام الماضي ، والدتي وأخواتي وأخي وأنا ، عند خالتي ، جميلة ، على الغداء بمناسبة طهور ابنها القادم الجديد ، وكان بيتهم يقع قرب بيت زينة واعمامها المجاورين لهم . لقد سمّت خالتي أسماء أصحاب البيوت واحدا واحدا و هي تشير اليها و ترينا إياها ، واذكر أنها ذكرت اسم والد زينة من بينهم ، و لكنني لا أذكر أي بيتٍ منهم كان ! لقد كان هذا قبل أن أقابل زينة وأقع في حبّها ، ولهذا لم أعره إهتماماً !

لا شك أن الخالق رأف بحالتي ، فأراد ان يخفف من معاناتي اذ اقسم به ، بأنني لم أخطط شيئا وإنما كان هو ، سبحانه وتعالى ، الذي يقودني دون أن أعِ ماذا أفعل !

توقّفت في طريقي الى بيتنا عصر أحد الأيام ، بعد انصرافنا من المدرسة للحظات ؛ ألقيت بكتبي على عجل ، ثم خرجت وتابعت سيري ، وما هي إلّا لحظات حتى لحقت بأخ زينة ، هاشم ، في طريقه الى بيتهم ! لقد كنا نعرف بعضنا البعض، فقد عرّفته على نفسي عند بدء العام الدراسي ، وكنّا بعدها دائما نسلم على بعض كلّما تقابلنا ، على اساس أننا ابناء عمومه ! لقد كنت اجد راحة نفسية عظيمة جدا ، كلما قابلته وتحدثت اليه ! لقد كنت أشم به رائحة عطر زينة وحلاوة اعطافها ! لم أكن أجرؤ على أن أسأله عن اخته ، اذ ان هذا معيب ومستغرب جداً جداً ، ومن المحرمات ايضاً !

أعلمته بأنني ذاهب للاطمئنان على صحّة صديقي ، عبد الكريم يوسف الدروبي ، في حيّ "العيزرية" ، وكان قد رآنا مرات عديدة معا نتمشى في ساحة المدرسة وعرفتهما على بعض ! لقد أعلمته بأنه صار له يومين لم يحضر الى المدرسة وقيل لي أنه مريض جداً !

لقد كان على الذي يذهب من بيتنا الى العيزرية ، ان يسلك احدى الطريقين ، الطريق العليا وهي طريقٌ ضيقة ووعرة ، ولكنها أقصر ؛ أما الطريق السفلى ، فهي التي تمر من أمام بيت أهل زينة أو بالقرب منه ، وبالرغم من أنها أطول إلا أنها سهلة ومريحة ! إن المسافة بين بيتينا تستغرق حوالي العشر دقائق سيرا حثيثاً ! استغرقت رحلتنا، هاشم وأنا ، بعض الوقت ؛ وعندما اقتربنا من بيتهم أشار اليه وودعني ؛ ومن ثم تابعت أنا سيري . فجأة ارتفعت ضربات قلبي وتسارعت ، حتى خلت انه يكاد يخرج من حلقي ! لقد خُيّل اليّ وأنا أنظر إلى بيتهم ، أن زينة قد ظهرت فجأة عندما رأتنا ، فابتسمت وهزّت يدها اليمنى مرحبة بنا ثم اختف !
كان الوقت عصرا ، رأيت أولاداً يلعبون الكرة ، مستعملين كرة الشرائط العتيدة ، فسألتهم ان كانوا يعرفون بيت صديقي عبد الكريم ، فصاحوا جميعهم بصوت واحد ، طبعا نعرفه ! عندها أشار أحدهم اليّ أن أتبعه وواصل الباقون لعبهم !

الناس في مدينتنا العتيدة ، في تلك الأيام ، لا يغلقون أبواب بيوتهم الا عندما يأوون الى فرشهم أو عندما يكونون خارجها ، اذ تبقى طيلة الوقت مشرّعةً أبوابها، ليلاً و نهارًا ، صيفًا و شتاءً ! لا شك أن هذا موروث ورثوه عن الأولين ، و هو أن اغلاق الواحد منهم بيته ، يعني أنه لا يقبل استقبال الضيوف ، الذين هم ضيوف الرحمن ، و أنه انسان بخيل نذلٌ و خسيس ، يحتقره الناس وحتى يتجنبون مكالمته !

ما كاد عبد الكريم يرى دليلي من آخر الشارع ، يشير الى بيتهم ويراني معه ، حتى أسرع للقائي مرحباً بي وشاكراً للولد الذي ارشدني ! رحّبا بي، والدا عبد الكريم ترحيباً حارًا جداً ، وفرشت لي والدته احدى الفرشات التي ينامون عليها ، احتفاء واكراما بصديق ابنهم الذي من شدة حبه و اخلاصه له ، قطع المدينة من طرفها الى طرفها الآخر ، ليطمئن على صحة صديقه وليقوم بواجب الصداقة الصادقة نحوه !

لقد كان عبد الكريم هذا ابنهم الوحيد ، و لقد ورث عن والديه دماثة الخلق و نبل العواطف و الاحترام المتقد للآخرين !

لم تكن عادة اقتناء كراسي و طاولات في بيوتنا موجودة بعد ، فلقد وصلتنا بعد مدة طويلة ومتأخرة ! كنّا عادة نجلس على الأرض عندما نتناول طعامنا وحتى عندما كنا نكتب ، فقد كنا إمّا نتكئ على ركبنا أو على الوسادة التي نضع رؤوسنا عليها وإما ننبطح على الأرض و نكتب !

كنت طيلة وقت الزيارة لا أتوقف عن التفكير بزينة ، وكنت آمل أن ألمحها ولو من بعيد ! كانت فكرة رؤيتها تضغط على عقلي ووجداني وتمنحني رعشة من السعادة ممزوجة بالقلق ! بعد حوالي ساعة قضيناها بالحديث في شتى المواضيع عن الأهل والدراسة والأصدقاء والأقارب ، وكذلك ماذا يريد كل منا أن يكون بالمستقبل ، نهضت لأنصرف ، وبصوت واحد اقسم الوالدان بأنني لن أغادر الا بعد أن نتعشى سوية ، اذ أن شوربة العدس تطبخ الآن على النار ! وللزيادة في اكرامي والترحيب بي ، قَلَتْ الأم بيضتين بالسمن البلدي ، وأقسمتْ عليّ بأن آكلهما لوحدي !

لحظة مغادرتي بيت صديقي عبد الكريم ، والذي أعلمني بأنه قد شفي من مرضه وأننا سنلتقي غدًا في المد سة ، ارتفعت دقّات قلبي وتوالت ، حتى خلت أنني لم أعد اسمع ولم أعد أميّز ما يدور من حولي ! لقد شعرت بالخوف والرهبة ، وكانما انا قطعة صخرة متحركة ، لا روح فيها ولا إحساس أبدا ً! لقد كنت حزمة من الرعب و القلق و التوتر !

لقد كان كعب حذائي يضرب طبلتيّ أذنيّ، وشعرت بدبيب ثقيل لخطواتي يزحف نحو جمجة رأسي ، وكان لساني عظمة في فمي ! بعدها بقليل شعرت بأنني قد فقدت الاحساس بذاتي ، وانني اتحرك على هذه الأرض كشبح ....!

لقد توكلت على الله وعزمت أمري ، بأنني يجب أن أرى زينة في طريق عودتي الى بيتنا ، مهما كانت المخاطر ومهما كانت النتائج ! لم أكن وقتها قد تذوّقت الخمر بعد ، ولكنني بعد أن فعلت شعرت وكأنما قد شربت قارورة خمر كبيرة كاملة دفعة واحدة ، اذ تخدر جسمي ونامت جيمع أحاسيسي ، فصرت قطعة من اللحم والعظم المتحركتين دون احساس بوجودي ودون شعور بما يجري حولي !

كانت قدماي فقط تدبان فوق الأرض ، اذ احسست وكأنما أنا انسان آليٌّ يتحرك بلا ارادة منه ولا تفكير ! بقيت سائرا احدّق بالظلمة أمامي ، حيث لم يكن في ذلك الوقت لا قناديل تضيء الشوارع و لا القمر ظاهراً في كبد السماء ؛ لا التفت يمنةً ولا يسرة ، وقبور العيزرية على يميني وشمالي ، وانا احدق بالظلمة بعيون جامدة و عقل معطل و شعور ميت !

لقد كان يقابلني بعض المارّة الذين يعبرون من أمامي كاشباح من شدة الظلمة ، فقد كنا في آخر الشهر الذي لا قمر به وحتى النجوم مختفية خلف السحب ، و هو شهر كانون أول !

تابعت سيري ، دون أن يرمش لي جفن ! أنا ذاهبٌ الآن لأرى زينة ، و ليحدث ما يحدث و ليرني من يراني وليقل الناس عني ما يقولون ! أنا ذاهب الآن دون خوف او تردد، لأواجه مصيري ؛ أسير بضلفي إلى حتفي !

بقيت سائراً حتى وصلت خلف بيت زينة ، انحرفت الى الشمال قليلا وسلكت طريقي اليه ، و ما هي الا خطوات حتى كنت أقف فوق البرحة التي أمام البيت ، فوجدت نفسي أجلس على حجارة مرصوصة وموضوعة أمامه ! لقد كانت الظلمة شديدة جداً ، وكان من الصعب جداً أيضاً أن تميّز من أمامك ، فهم يتحركون كالأشباح ! لم تكن القناديل الكازية التي تضيء الشواع الرئيسة ليلاً قد بدء وضعها في الحارات بعد .

مضى على جلوسي أكثر من دقيقتين عندما بدأت استرد وعيي وادراكي ، فلمحت على ضوء المصباح داخل البيت أمامي شبحاً يتحرك ؛ عندها بدأ شيء من عقلي وأحاسيسي يعودا إليّ قليلاً قليلاً ، وبدأت وكأنما أفيق من حلم ! فجأة ظهرت زينة عند الباب !

توقف قلبي عن الخفقان وصرت أحدق بها بعيون جامدة وفم مفتوح على سعته ! لم تصدّق عيناي ماتريا ! زينة بلحمها ودمها ؟! بجمالها وسحرها ! بنعومتها ورقتها !بأنوثتها وعذوبتها !

ـ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ! من هذا ؟! سهيل ! سهيل ! ماذا تفعل هنا ؟! قالت وهي تقترب مني وتحدق بي استغراباً !

لم أجبها لأنني لم تكن عندي المقدرة أن أفعل ، و انما انفجرت أبكي بصوت عالٍ لا شك أن من كان في البيت قد سمعوه !

لم تعد السؤال بل ولم تتفوه حتى بكلمة ، و انما جاءت ووقفت الى جانبي ووضعت يدها اليسرى على رأسي وصارت تمسّد على شعري ! كنت أنا أبكي بحرقة ولوعة و هي صامتة ! بعد أكثر من ثلاث دقائق توقفت أنا عن البكاء ، و بدأت هي تتكلم !

ـ حزنا كلنا ، أنا وأمي وأبويه ، لما علمنا إن عمك طردكم من كرومكم ، و غضبنا أكثر لما إعرفنا إنه ضرب والدتك و أخوك ! استغربنا ان يكون فيه عم عنده كل قساوة القلب هذي وماعندهوش ضمير! زعل من والدي وأعمامي لأنهم لاموه على معاملته السيئه إلكم . طلب منهم مايدخلوش ! على كل حال أنت واخوك الآن بتدرسو وبتصيرو موظفين ، أحسن من أبنه العامي اللي مابروح عالمدرسة !

انتظرتْ قليلاً ثم أضافت:

ـ حبك إلي بسعدني كثيركثير ؛ أنا والله والله بحبك كمان من كل قلبي ياسهيل ، بس مثل ما قلت إلك ، بحبك مثل ما بحب أخويه هاشم ! أنت زغير وبدّك إسنين طويلة طويله حتى تتزوج ، بس أنا يمكن أتجوز هاي السنه أو السنه الجايه ! أنا قلت إلك هذا الكلام لما تقابلنا في الصيف ! أنا قلت إلك بدّي حبك إلي يكون حافز إلك يرفعك الى فوق فوق ! بدّي اسمع إنك تخرجت من المدرسة و ممكن تكون روحت للخارج ، الى مصر او سوريا و تعلمت أكثر، وبعدين ترجع و تستلم وظيفة عالية في الحكومة ؛ وقتها أفتخر بيك و أكون سعيدة وأقول لنفسي ، هضاك الرجل العظيم ، صاحب الوظيفه الكبيره كان بحبني لما كنا زغار ! أنا حزينة كثير كثير إنك بتتعذب في

حبي ، ويا ليتني أقدر إعمل إلك إشي يخفف من عذابك ! سأتذكرك طول ما أنا حية ومابنساك ... بدّي تروح هساع قبل ما يجي واحد من أهلي ، أخذتْ امي أخوي هاشم عند ابن الجيران يساعده في دروسه ، وأبويه برجع من زيارة دار عمي بخيت بعد إشويه ! مرت أبويه راحت تزور اهلها ! بخاطرك ! قالت ذلك و دخلت إلى البيت .

تركت زينة ، فعادت دموعي تنهمر من جديد وعواطفي تشتعل ، وان كنت اشعر الآن بسعادة لا توصف و راحة نفسية لا تتصور ، فها أنا الآن قد رأيت زينة و تحدّثنا سويّة ، فعلمت بأنها تحمل لي نفس العواطف ونفس المشاعر، وان كان القدر يأبى أن نعيش معاً !

عدت من المدرسة إلى البيت عصراً بعد أقل من شهر على تلك الحادثة ، فوجدت أن أختي آمنة ، صنوة الروح وكاتمة اسراري العاطفية ، غائبة عن البيت ، و لما سألت عنها قيل لي بأنها مدعوة عند احدى صديقاتها التي ستتزوج الليلة .

لم أسأل من هي هذه الصديقة ، ولم تعلمني أختي أميرة من هي ، لأنني شعرت أن ذلك لا يعنيني، ولكن عندما عادت أختي آمنة من زيارتها وجدت علامات الحزن على وجهها بدلا من بصمات الفرح ، فاستغربت ذلك و لم أسألها عن السبب ! قبل أن نأوي إلى مضاجعنا أشارت إلي أختي أن أتبعها وعندما كنّا لوحدنا همست بأذني :

ـ لك معي سلام من زينة ! لقد تزوّجت الليلة من ابن عمها ، هو ضابط برتبه عالية في الجيش. تقول لك بأنها لن تنساك أبداً، ولكنها ترجوك أن تستمر في دراستك لأنها ستظل تتابع أخبارك وتريدك أن تكون شخصا مهما في السلط وانك لك وظيفة عالية !

دمعت عيناي ولم أقل شيئا ، و إنما تركتها و عدت الى الداخل ووضعت نفسي في الفراش و وغطأت رأسي باللحاف وبكيت طويلاً طويلاً ، وبحرقة ... بقيت أبكي حتى أدركتني رحمة السماء فنمت !

لقد عاهدت نفسي على أن أكافح في الحياة على الرغم من مصاعبها الكثيرة ، التي كانت تواجه العائلة ، من فقر مدقع ، وفقدان المعيل ، ونكدالعم ، و مشاكل عائلية أخرى !

استرجعتُ بمخيلتي قصتي مع زينة ، وأنا ملقى في الفراش إلى جانب جودي ، فنهضت دون أن تشعر بي ، ثم توجهت الى مكتبي وجلست خلفه وبدأت أكتب رسالة إلى زينة ! نعم زينْة ، حلم الطفولة ، أعلمتها بها بأنني نفّذت كل ما طلبته مني، وحققت لها أمنيتها ! فقد أنهيت دراستي الثانوية والجامعية العليا ، وها أنا قد تخرجت من أرقى الجامعات العالمية وأصبحت بروفيسور جامعة متميز، وأدرّس فيها أيضاً ! الشكر لمقسم الأرزاق وفالق النوى !

تناولت مغلفا وبدأت أكتب العنوان ولكنني تذكرت ، بكل حزن و مرارة ، بأن زينة عامّية لا تقرأ و لا تكتب ! عندها عدلتُ عن فكرة ارسال الرسالة ، فاحتفظتُ بها لنفسي ، مع مااحتفظ به من ذكريات الطفولة المعذبة والسعيدة أيضاً !

*****

الفصـــــــــــل العاشـــــــر

بقيت جودي بصحبتي طيلة عطلة نهاية الأسبوع ، حيث قضينا يوم السبت نسبح معاً على شاطئ "لاجونا بيش" ، ثم نمنا تلك الليلة في إحدى الفنادق المتواجدة في التلة المرتفعة و المطلة على شاطئ المحيط ؛ أما يوم الأحد فقد أمضيناه نتسكّع في شوارع مدينة "هوليود" ! لم تفارقني جودي إلا صباح يوم الاثنين لتذهب إلى عملها !

*****

جاءت جودي إلى شقتي احدى الامسيات ، وكان ذلك بعد تعارفنا بحوالي ثلاثة شهور ، وكانت عيناها حمراوين كالدم من كثرة البكاء ، ولما سألتها السبب قصَّتْ عليّ قصتها فقالت :

لقد ذكرت لك عند بدء تعارفنا بأن لي أخاً برتبة وكيل يعمل ميكانيكي في القوات الأمريكية المرابطة في ألمانيا ، عمره واحد وثلاثين عاماً . لقد حضر هو و زوجته و أولاده من ألمانيا في إجازة وكان ذلك قبل تعارفنا ، أنت و أنا بحوالي تسعة شهور . لقد أعلموني بأن لهم صديق أرمني مثلنا وهو أيضا ميكانيكي في الجيش و يحب أن يتزوج من فتاة أرمنية مثله . لقد أكّدوا لي بأنه متديّن جداً ، لا يدخن ولا يشرب الخمر وليس له علاقات رومانسية . لقد أعلمته زوجة أخي عني و أرته صورتي فابدى رغبته بأنه يحب أن يراني عندما يأتي في إجازته إلى أمريكا والتي ستكون عصر الغد ! إنه من المفروض أن أستقبلهم أنا في المطار و أحضر أخي و زوجته و ولديه إلى شقتي ، و أحجز له غرفة في الفندق ، إسمه " جيكوب يعقوبيان " ! لقد أعلمت زوجة أخي بأنني لا أريد أن أتزوج لأنني ما زلت أحب محمود و ما زلت أطمع أن يعود إليّ يوما و نستأنف حياتنا من جديد ! ولكن زوجة أخي أعلمتني بأنني أعيش في وهم و على أمل كاذب ، وأن محمود لم يحبني ولن يعود إليّ و من الخير أن أتزوج و خصوصا و الشاب المتقدم لي من ملّتي ، وأنهم يعرفونه جيدا ! إنه شاب مستقيم وسيكون زوجاً عظيماً و أباً مثالياً ، و كذلك فإنهم لا يريدونني أن أظل عزباء ، إذ أنهم يريدونني أن أكون زوجة و أماً وانشيء عائلة ؛ فوعدتهم بأنني سأفكر بالأمر .

ـ ألف ألف مبروك ! والله لقد أفرحتني ! اذن ، و لم البكاء ؟! سألتها باستغراب و قد حملقت بها و فتحت يديّ تعجبا !

ـ أنا لا أريد أن أتزوج ولا أريد أن أذهب إلى ألمانيا ! أريد أن أبقى معك ! أنا أحبك أنت ! قالت و أجهشت بالبكاء من جديد ! .

ـ وصدقيني أنني أحبك أنا أيضا يا جودي ؛ ولكن الحب وحده لا يكفي . الحب يحتاج الى التزام ، إلى انسان يتحمل المسؤولية ... و أنا انسان استطيع أن أحب كل يوم امرأة جديدة ، ولكنني لا استطيع أن ألتزم لواحدة منهن ، لأنني انسان متقلب ، في قلبي خروق ودمامل كثيرةٌ ، كثيرة ! لقد ذكرت لك هذه الحقيقة منذ أول تعارفنا !

ـ أنا مدركة لتلك الحقيقة ، ولكنني كنت أطمع أن تغير رأيك ! قالت و هي ما زالت تنشج !

ـ صدقيني يا جودي أنني أحبكِ ، وإن مستقبلكِ و سعادتكِ و استقراركِ يهمني كثيراً كثيراً ، و أرى أنه لمن الخير لكِ أن تقبلي الزواج من هذا الشاب الذي زكاه لكِ أخوكِ و زوجته ، وبحرارة .

لم تعلّق على ما قلت و انما واصلت البكاء و النشيج مما آلمني و أدمى قلبي !

ـ نحن يا جودي في هذه الحياة كحجارة الشطرنج ، يسيرنا القدر كما يشاء ، فأرسل لكِ محمودا فأحببته بكل جوارحكِ وطاقاتكِ ، وتظاهر هو بمبادلتكِ الحب ، ولكن بعد أن حقق غايته منك اختفى في ليلةٍ لا قمر بها ... ثم أرسلني الله لكِ فأوقعكِ في حبّي ، و لم أكن خيرًا من محمود ، و إن كان عذري الوحيد أمام الله وأمام ضميري ، هوأنني لم أخدعكِ ، إذ أعلمتكِ حقيقة وضعي المتقلب منذ البدء !

ـ كان دائما عندي أمل أن تتزوجني ! قالت من بين دموعها !

ـ آسف أن أخيب أملكِ ! صدقيني أنكِ بعد أن تتزوجي ستشعرين بالإطمئنان والأمان ، وأنكِ ستحبين زوجكِ و خصوصا بعد أن تنجبي منه ، عندها ستنسينني كما نسيتِ محمود !

ـ أنا لا يمكن أن أنساك ! محمود قد أساء إلي ، أما أنت فقد ساعدتني في أشد أيام محنتي !

ـ و صدقيني أنني الآن أساعدكِ أيضا ، أن توافقي على الزواج من الشاب المتقدم لخطبتكِ !

ـ إنه من الصعب عليّ جدا أن أتصور نفسي بأحضان رجل سواك ! صدقني !

ـ أصدّقك ! ستنسينني كما نسيتِ محمود عندما تجدين من يحبك ويمنحك الأمان و الاستقرار ؛ صدقيني ! قلت بحماسٍ و أمانة .

لم تعلق و إنما تابعت بكائها ونشيجها !

هنا أنهضتها و قدتها بيدها و طلبت إليها أن تدخل الحمام و تغسل و جهها ، و قدتها إلى الفراش و تمددت إلى جانبها و صرت أمر بيدي فوق شعرها و أنا أقرأ في سرّي ما تيسر من آيات الذكر الحكيم ، و رجوت الخالق من صميم قلبي و بحرارة و صدق و إخلاص، بأن توافق على الزواج من ذلك الشاب و أن تسعد في زواجها !

بقيت أفعل ذلك حتى راحت في سباتٍ عميق ! وفي صباح اليوم التالي قالت لي البنيّة وهي تغادر شقتي من بين دموعها وهي تنهنه :

ـ سأخبره عن علاقتي الرومانسية معك و مع محمود ، و سأعلمه أيضا إنني ما زلت أحبك ! إنني لن أخبئ عليه ، فان قبل أن يتزوجني سأوافق على الزواج منه !

ـ نعم يجب أن تخبريه و بكل صدق و أمانة ، حتى تعيشين مع نفسكِ بسلام ! قلتُ بحماس شديد و صدق و اخلاص .

كانت الساعة بعد منتصف الليل بقليل ، مساء اليوم الرابع الذي غادرت به جودي شقتي عندما رنّ الهاتف . لم أكن قد وضعت نفسي بالفراش بعد و إنما كنت أستعد لذلك ! كنت قد أمضيت الثلاث ساعات الأخيرة أحضّر لمحاضرة سألقيها في تمام الساعة الخامسة من عصر اليوم التالي على مجموعة من الخريجين و الخريجات في الجامعة ، طلاب الدراسات العليا ، عن " المشاكل التي جلبها البترول على الوطن العربي الكبير ، في الربع الثالث من القرن العشرين ! "

لقد أعلمتني المتلكمة بأنها عاملة الهاتف في فندق " فلامنقو – البجعة " في مدينة " لاص فيجص " بولاية نفادا ، و أن شخصاً يريد أن يكلمني !

نقز قلبي لذكر " لاص فيجص "، تلك المدينة المجنونة المسعورة ، والتي لي بها ذكريات عزيزة و غالية ... تلك المدينة العجيبة ، و التي يأتيها السواح من جميع أنحاء العالم ، ليقامروا و يسكروا و يعربدوا ، وكذلك لكي يأكلوا مختلف أنواع الطعام و أجوده ؛ ثم ليتزوجوا أو ليطلقوا في خلال ساعتين اثنين ! أن قوانينها بخصوص الزواج و الطلاق ، تختلف إختلافاً كلياً عن جميع بقية الولايات المتحدة الأمريكية كاملة !

كانت المتكلمة جودي ، و كانت و هي تتكلم في قمة الاثارة و السعادة ! لقد أعلمتني بأنها هي و اخيها و زوجته و أولاده و كذلك " جيكوب يعقوبيان " في مدينة" لاص فيجص !" لقد حضروا صباح هذا اليوم وهم يمضون وقتاً ممتعاً جداً ، ثم أضافت :

ـ أريد أن أشكرك يا دكتور من صميم قلبي ، على الوقت الرائع الذي قضيناه معاً . إنني لن أنسى أفضالك عليّ ما دمت حية ! لم أكن أعرف حقيقة الحياة إلا بعد أن تعرفت عليك وعشت معك واستمعت الى نصائحك وحكمك ! حقاً إنك انسان عظيم ونبيل. لقد قضيت معك أسعد أيام عمري و فتّحت عينيّ على حقائق كثيرة لم أكن لأعرفها لولا علاقتي بك !

فتحت فمي لأعلمها بأن سعادتي لا تقل عن سعادتها ، ثم لأسألها عن أخبار المتقدم لخطبتها لولا أنها سبقتني و قالت و هي تتضاحك :

ـ جيكوب إلى

جانبي ، يريد أن يكلّمك !

ـ مرحبًا يا فروفيسور سهيل ! أريد أن أشكرك أنا الآخر من صميم قلبي . جودي أخبرتني عن علاقتكما بالتفصيل و عن معاملتك العظيمة لها ، وكيف كنت تعاملها و كأنها ملكة فتدللها و تداعبها و تحملها إلى الفراش و كأنها طفل صغير... و تمسد بيديك على رأسها حتى تنام ... و ... و ... و ... الخ الخ الخ ! وصار يعدد مناقبي و أفضالي !

هنا ، دخلت أنا في شبه غيبوبة من شدة الخجل من نفسي ، و احترت و اختلطت علي الأمور إن كنت حقا في حلم أو حقيقة ؟! و هل ما أسمعه و أنا نائم أو مستيقظ ؟! ولكن الذي أكد لي أنني في علم و ليس في حلم عندما سمعت الشاب يقول :

ـ أعدك يا بروفيسور، بأنني سأعاملها مثل ما أنت كنت تفعل معها ! بل سأزيد على ذلك ، بأن أساعدها في الطبخ و تنظيف البيت و غسل الملابس !

ـ بارك الله بك ، إنك لم تخيّب ظني بك ! حقاً إنك رجل كريم وشهم ! وجدت نفسي أقول بطريقة عربية تجاملية ، ولكن دون وعي مني !

ـ على كل حال سنعود الى لوس أنجلوس بعد ثلاثة أيام ، و سندعوك لنتعشى سوية ! هذه جودي تريد أن تكلّمك ! قال ذلك و ناولها سماعة الهاتف .

ـ مرحباً يا سهيل مرة أخرى ! أشكرك على النصيحة . لقد قبلت أن أتزوج يعقوب ؛ انه شاب كريم ذو أخلاق عالية ، و لقد أحببته بعد أن تقابلنا و تحدثنا . لقد وصلنا ظهر هذا اليوم إلى هنا و خلال أقل من ساعتين أنهينا مراسم الزواج . سننام هنا أربعة ليالٍ أخرى ثم نعود بعدها إلى " سانتامونيكا " ونقضي أربعة أيام نطير بعدها إلى ألمانيا .

ـ مباركتي الحارة و بالرفاه و البنين ! قلت بحرارة من صميم قلبي ، وقد اغرورقت عينان بالدموع !

ـ سأظل أتذكرك و اتذكر الأيام الحلوة الجميلة التي قضيتها معك ! وصل إلي صوت جودي على الهاتف .

ـ أنتِ فتاة معطاءة وذات قلب كبير يا جودي ، وستكونين زوجة و أمّاً مثالية ؛ صدّقيني ! أحبّي يعقوب و أطيعيه ، إذ يبدو لي أنه شاب شهم و نادر الوجود. ! قلت بصدق و إخلاص .

بينما كان الشاب يعدد مناقبي و بطولاتي الغرامية التي قمت بها نحو زوجته قبل أن تعرفه ، و الخبرات العاطفية التي اكتسبتها من معاشرتها لي، و كيف أنني كنت أحملها إلى الفراش ... إنه يشكرني على شهامتي و تضحياتي !

تذكرت جارنا منصور في مدينتنا السلط الخالدة ، أيام كنت ابن سبع أو ثماني سنوات ... عادت أمي من زيارة جارتنا ام منصور وزفت إلينا البشرى ، نحن أولادها و بناتها ! قالت بأن منصور قد وافق أخيراً على أن يسامح زوجته و أن لا يطلقها ، وذلك رحمة بابنه ، إبن الخمسة شهور ... وكذلك لأنه فقير ولا يستطيع ان يتزوج غيرها ! لقد تاكد له ، بأن زوجته بهية ،كانت لها علاقات نظراتية وإبتسامات تحببيه ، وليست كلامية ، مع ابن الجيران ، قبل أن يتزوجها ! لقد اكتشف بأن زوجته والتي هي من حي "الحارة" ، أنها عندما كانت تذهب عصراً الى النبع لتملأ جرتها ، تجد أن إبن الجيران واقفاً على جانب الطريق، فيبتسم لها ! وبعد أن أقسمت لزوجها بالله العظيم و على المصحف الشريف و بجميع الأنبياء بأنها لم تكلمه أبداً، ولم ترد حتى على إبتسامته بإبتسامة مثلها ، عدل عن طلاقها !

وبما أنني لم أكن مثقفا بعد ، بعادات و تقاليد أهل السلط العتيدة ، سألت والدتي ان كان محرماً أن يتكلم الجار مع جارته ويبتسم لها ، تجاهلت أمي سؤالي ؟!

فسبحان الذي خلخل الموازين و قلبها ؛ وسبحان الذي غيّر المفاهيم وبدّلها ، بأن يشكر الزوج عشيق زوجته قبل أن يتزوجها ، لأنه كان يحملها إلى الفراش قبل أن يعانقها !

لا اله الا هو ، حقا ؛ إنه ربٌّ يعبد ؛ اذ في نفس الليلة التي كان من المفروض أن أذهب بها لأقابل جودي و زوجها وأن أتعشى معهم و مع أخيها و عائلته ، تعرفت صباح ذلك اليوم على كريستينا ! إعتذرت عن الحضور بحرارة لأسباب لأسباب لم أكن أتوقعها ، ووعدتهم أن أكون في استقبالهم ، ان شاء الله ، عندما يأتون صيف العام القادم في إجازتهم السنوية من ألمانيا !

" فسبحان الذي بدّل لنا الدرهم بدينار ! "

" أنا إبن جلا وطلاّع الثنايا متى أضع العماة تعرفوني ! "

لاأدري ، لماذا إستولت عليّ في تلك اللحظة ، مسحة صوفية ، شعرت أنها أحرقتني ! لقد ذكّرتني باليالي التي كنت بها طفلاً صغيراً ، أذهب بها الى المسجد كل ليلة ، في شهر رمضان الفضيل ، لأصلي صلاة العشاء و صلاة التراويح !

* * * * *

الفصل الحادي عشـــر

قبل إسبوع من يوم إفتتاح المطعم ، وجّهت الدعوة الى أكثر من ألف شخص من مختلف الأعمار والأجناس و من مختتف الوظائف والطبقات الأجتماعية !

كان المستقبلون السيد والسيدة هارشفيلد ، وأختها وزوج أختها السيد والسيدة جوليانا كامبرلان ؛ اللذان يملكان أيضا مطعماً من الدرجة الممتازة ! كذلك سيدة قريبةلعائلة هيرشفيلد ومعها زوجها ، بالإضافة إلى كريستينا وأنا !

كان العم المدير يرشد الضيوف إلى مقاعدهم بعد أن يرحب بهم ويسألهم عن صحتهم وأخبارهم ؛ كما كان يلقي بأوامره وتعليماته إلى النادلين والنادلات ليفعلوا هذا أو لا يفعلوا ذاك !

كان بعض النسوة ، الحشريات منهن واللواتي تتملكهن غريزة حب الاستطلاع ، واللواتي عادة ما يكنّ متقدمات في السن ؛ يسألن كريستينا "من يكون هذا الشاب ذو الفحولة المتوقدة والوسامة المتميزة !" ، فكانت تجيبهن بدلع وغنج وهي تتثنى وتتضاحك ؛ "إنه حبيبي !"

كان من بين المدعوين الدكتورة "كنياتا" ، مديرة دائرة دراسات الشرق الأوسط في الجامعة ، وجميع أساتذة القسم وسكرتيرته ، وزوجها الدكتور "مورتمير" رئيس قسم الأمراض التناسلية في الجامعة ... وابنتهما سارة ، وهي مديرة فرع في إحدى البنوك، يصحبها زوجها مارتن ، وهو يملك مطعماً متواضعاً ! لقد رشّحته والدة كريستينا ، وقتها ، ليدير مطعمنا هذا ، ولكن والدها رفض لاعتقاده بعدم كفاءته ! وكذلك كان من بين المدعوين أختي الحبيبة سانتيش هاملتون وزوجها بيتر ؛ وكذلك صديقتي اللبنانية السيدة روزانا زوهراب ، صاحبة محل بيع الزهور ، وكذلك زوجها !

* * * * *

يقع المطعم على الشارع الرئيسي بأجمل بقعه في مدينة هوليود، حيث الأماكن دائما ، ليلاً ونهاراً ، مزدحمة بالناس ! لقد أثث بأجمل الأثاث وأفخره ، إذ لا شك بأن مديره ، السيد " ميلر " كان في مخيلته بأن زبائنه سوف يكونون فقط عُلية القوم وأغناهم ، من مشاهير ممثلي هوليود والعاملين في حقل السينما !

لقد كانت الصحون والكؤوس والشوك و الملاعق ، كلّها مطلية بالفضة ؛ أما الكراسي والطاولات فقد كان فرشها مصنوعاً من المخمل السميك الناعم ، يبعث الفرحة والسرور عند لمسه والجلوس عليه ! إن المرء عندما يجلس عليها ويضع ذراعيه فوقها ، يشعر وكأنما احتضنته يدٌ حنونة وعانقته راحة وسعادة الاهية ، لا يحب أن يفارقهما !

كانت الجدران محلاة بأجمل الرسوم شكلاً وأرقاها ذوقاً ومنظرا ً، لأناس وحيوانات و أزهار ؛ وكانت الأرض مفروشة بأفخم السجاد و أجوده ، فيشعر الذي يمشي فوقه وكأنما يسير فوق طنافس مخملية لا تتواجد إلّا في قصور حكّام غرناطة وبلاط هارون الرشيد ! لقد كانت الوجبة في هذا المطعم تكلّف ضعف مثيلاتها في مطعم آخر من أفخم مطاعم هوليود و بفرلي هيلز ؛ ومع هذا كان المطعم دائما مكتظا بالزبائن وقائمة الانتظار طويلة جدًا ! كان النادلون والنادلات لايمشون كما كان يفعل من هم على شاكلتهم فى المطاعم الأخري ، وإنما كانوا يجرون بل يتسابقون !

إنّ المطعم يقدم وجبتي الغداء والعشاء فقط ، ويبدأ باستقبال ضيوفه الساعة الثانية عشرة ظهراً ويتوقف عند منتصف الليل ؛ وان كان آخر مرتادي المطعم ، لا يتركونه قبل الواحدة صباحا ؛ أمّا مساء الجمعة والسبت فلا يغادرونه قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً !

إنّ المطعم يتسع لحوالي الف ضيف ، وكان به صالتان كبيرتان يتوسطهما "بارٌ" ضخم به ثلاثة موظفون رجال ، يجهزون القوارير وكؤوس الشراب إلى النادلين والنادلات ، والذين كان عددهم حوالي العشرة موظفاً لمختلف الوجبات و"الشفتات" ، ليقدمونها بدورهم الى الضيوف ؛ كما كان به أربعة طباخين كلّهم رجالاً.

لقد جلب انتباهي أن النادلات جميعهن كنَّ صغيرات السن ، بين العشرين والرابعة والعشرين من أعمارهنّ ، ذوات جمال صارخ وأنو ثة متوقدة يذُبن رقّة ونعومة ، وعندما يمشين وكأنّهنّ يرقصن ! لقد كن عندما يتكلمن مع الرجل الضيف ، وكأنما يدعونه ليأخذهنّ إلى الفراش ! كنّ كأنهنّ جئن ليتقدمن إلى مسابقة اختيار ملكة جمال ؛ نحيفات كأنهن أعواد الخيرزان ؛ ذوات عيون ساحرة ، و عندما ينظرن الى الزبون الجائع ، وكأنما يدعونه الى غرف نومهن !

أما الرجال فكانت أعمارهم بين السادسة والعشرين والثلاثين ، أصحاب أجسامٍ قوية مفتولي العضلات ... وسيمون جداً وكأنهم اختيروا ليقوموا بدور رومنسي ، في احدى أفلام هوليود ... تنضح عيونهم بالشبق وتفيض شفاههم بالشهوة !

إنني ومنذ قدومي الى امريكا قد تناولت وجبات عديدة في مختلف مطاعم كاليفورنيا ، شمالها وجنوبها ، فاخرها ومتواضعها ... فلم أرَ مثل هذه التشكيلة الفريدة من النادلين والنادلات ، إلا في مطعمنا العتيد هذا ! حقاً ، إنه مطعم متميز !

عندما سألت كريستينا عن سبب هذا السر الفريد والمتميز ، وقد كنّا نجلس في مكتب المدير ننتظر لنتناول وجبة العشاء ؛ ضحكت بسعادة وحذل وغبطة أيضاً ! وبعد أن قبّلتني على شفتي قبلة خاطفة وطبطبت بيدها اليمنى على ظهري ، قالت :

ـ إن هذا هو سر المهنة ، ولكنني سأخبرك عنه ! إنه ومهما كان تفكير الأنسان وثقافته عميقة أو ضحلة ؛ ومهما كان عمره صغيرًا أو كبيرًا ، وكذلك مهما كان جنسه ذكراً أو أنثى ... فإنه يحب أن يكون الآخر الذي يتعامل معه ، في ريعان شبابه ، وخصوصاً للمتقدمين في السن من الجنسين ! إذ أنه يفرح قلوبهم ويسعدهم أن يروا

الذين يقومون على خدمتهم ، يُفرحون قلوبهم ويسرون نظرهم ؛ بشبابهم وجاذبيتهم ورقة تعاملهم !

ـ وهل هذه الفكرة ، هي فكرة والدك أو والدتك ، أو هي فكرتكِ أنتِ ؟! سألت .

ـ ولا واحداً منّا ؛ إنها فكرة العم هنري !

ـ حقّاً ! إنه مثال صادق لليهودي المتميز ! قلت وأنا أبتسم !

ـ ولهذا السبب ، اختاره والدي من بين جميع المتميزين الذين يعرفهم ! قالت بدلع وهي تتثنى وتغمز بعينها اليسرى !

ـ لا عجب ! لا عجب ! انني اشكر الله أن رزقني بحبيبة ذات ذكاء متوقد وجمالٍ باهرٍ وأدب متميز أيضاً ! قلت وقد لففت يدي البسرى حول خصرها والصقتها بجسمي وطبعت قبلة ملتهبة على شفتيها ، مما أسعدها ، فعانقتني هي الأخرى !

ـ شكرًا يا حبيبي ! شكرًا !

نحن كذلك نشكره أن أرسل لنا شاباً متميزاً في كل شيء ؛ بالشهامة والرجولة والأخلاق ! قالت.

لقد لاحظت من أسئلة المستقبلين المتعددة والشخصية ، بأنهم يعرفون الضيوف معرفة حميمة وجيدة ، فهم عندما يستقبلون الضيف فإنهم يخاطبونه بالاسم المجرد ! إنهم يسألونه عن الصحة والحال والأحوال وكذلك يسألونه عن صحة وسبب عدم حضور، الأبن أو الأبنة أو الزوج أو الزوجة !

بدأ الضيوف يتوافدون على المطعم في تمام الساعة السادسة مساءً ، وكانت مدة تواجد كل ضيف منهم حوالي الساعتين قد تنقص أو قد تزيد قليلا ، وكأنما كانوا مبرمجون لذلك ، حتى لا يزدحم المطعم بالحضور وحتى لا يشعر أحدهم بأنه يجب أن يرحل ... وإنّما يغادر باختياره ... وذلك ليترك مجالاً لآخر غيره !

لقد غادرت آخر مجموعة من الضيوف حوالي الساعة الثانية صباحاً ، وكانوا هؤلاء قد حضروا قبل منتصف الليل بقليل !

لم تسمح لنا الظروف ، نحن جميع أفراد المستقبلين للضيوف ، أن نجلس مع أحدٍ منهم فنتناول وجبة طعام أو نحتسي كأسا من المشروب ، إذ كان جلّ اهتمامنا مركزاً على الترحيب بهم عند قدومهم وتوديعهم ، ثم شكرهم على تكرمهم بمنحنا شرف الحضور !

إنه وعندما انصرف آخر الضيوف ، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحا بقليل ، وكان الواحد منا خشبة مسندة لا يقوى على الوقوف ولا حتى على الكلام ! لقد ألقى كل منّا بنفسه فوق احدى كنبات صالة انتظار الضيوف !

لم يكن باستطاعة أحد منا ، نحن جميعا ، المستقبلين والطهاة ومقدمي الشراب والنادلين والنادلات ، أن يقود سيارته فيعود الى منزله ! لقد استعمل بعضنا سيارات

الأجرة وطلب البعض الآخر مساعدة قريب أوصديق ! كان الواحد منّا عندما يلسعه الجوع أو يشعر بالضمأ ، خلال الحفل ، يغيب داخل المطبخ لدقائق فيلتهم بعض " الشطائر" ويشرب ما ترغب به نفسه ، ثم يعود أدراجه إلى مكانه في غاية السرعة ليرحب بالقادمين أو ليودع المغادرين !

لم أكن واعياً عندما غادرنا المطعم ، كريستينا وأنا ، فقد كنت منوّماً ، وإنما عرفت عندما استيقظت في اليوم التالي ، أن كريستينا كانت تعرف مقدما ما سيحدث ، فحجزت لنا في اليوم السابق ، سيارة أجرة وغرفة في إحدى الفنادق الفخمة والقريبة من المطعم ، وعند انتهاء الحفلة جاءت السيارة وأخذتنا !

* * * * *

عندما استيقظنا ، كرستينا وأنا ، من نومنا عصر اليوم التالي وكنت بملابسي الداخلية فقط ، وكانت كريستينا عارية تماما ، يتطوّح نهداها فوق صدرها الأتلع ، وترقص غمازتا خديها ، وعينيها تتوقدان رغبة وشهوة ؛ سألتني عن رأيي في الحفلة وفيما اذا كانت حسب توقعاتي ! ضحكتُ بمرارة وحزن شديدين وقد دمعت عيناي !

ـ الحقيقة أنني لم أكن أتوقع أن يكون الحفل بهذه الفخامة والأبهة ! لقد فاقت ترف وعظمة ليالي ألف ليلة وليلة ! لقد سعدت برؤية بعض رجال السينما والفن ووجهاء القوم وكذلك التحدث إليهم ؛ كما وأسعدني جداً التعرف على أصدقاء عائلتكم المتميزة ! قلت .

ـ لقد همست احدى الضيفات بأذني وقالت ، بأنك تتمتع بفحولة مذهلة ورومانسية متميزة ؛ وتصلح لأن تكون ممثلا سينمائيا ! قالت كريستينا وهي تتثنى وتهز كتفيها باغراء ووله ؛ وتتضاحك بغنج ودلال ودلع وقد غمزت بعينيها !

ـ و لم لمْ تخبريني لحظتها ، لكنتُ أريتها فحولتي أمام الحضور ! قلت وأنا أضحك !

ـ لو كنت فعلت ذلك ، لقتلتك وقتلتها ! قالت شبه غاضبة !

ـ و هل تريدين قتلي ثانية ؟! لقد قتلتني أول يوم وقعت عليكِ عيناي ! قلت متصنعاً الجد ، وأنا أبتسم !

ـ إذن ، تعالَ لأقتلك الآن ! قالت ذلك واقتربت منّي وقد فارقها بعضاً من غضبها فعانقتني بحرارة وصارت وكأنّما لتأكلني !

صرت في تلك اللحظة قطعة ملتهبة ومشتعلة من الشهوة الثائرة المتوقدة ، ولا أظن أن كريستينا كانت أقل مني تأججاً واشتعالا ، فهجمنا على بعضٍ يأكل الواحد منّا الآخر ، وكأنما هو قطعة من الشواء في يوم ذي مسغبة ... وبعد عراك دام لفترة ليست بالقصيرة ، همد جسمانا منهكين !

مرّ بعض الوقت ونحن ملقّحين على ظهورنا ، نحدق بسقف الغرفة صامتين ، وفجأة نهضت كريستينا وقالت "أنا أموت جوعا ؛ ماذا تريد أن تأكل ؟" وقبل أن تسمع جوابي انزلقت نحو الهاتف المجاور لسرير النوم وطلبت مطبخ المطعم وسمعتها تطلب

اليهم أن يرسلوا شيئا ذكرته لم أتبينه ! سألتني ما أريد ، فقلت لها دون أن أعرف ما طلبتْ "مثلكِ تماما" فقالت للذي على الخط الثاني "واحد آخر نفس الشيء ولكن ضعفي الكمية" ، وعندما أحضرت النادلة الطعام كانا طبقانِ من القريديس، ممزوجين بأنواع عديدة من أكلات فائقة اللذة والطعم ؛ لا أعرف أسماءها ولم أذقها من قبل ؛ مع ابريق من القهوة وتوابعها !

بعد أن جهّزت النادلة طاولة الطعام انصرفت ؛ وبعد أن انتهينا من أكل ما احضرت ، شعرت من جديد فجأةً برغبة عارمة إلى جسم كريستينا فحملتها وهي تتضاحك وألقيت بها فوق السرير والتحمت بها !

لا شك أن سمك "الشرم" القريدس ، هو طعام متميز لخيول التشباية وحصن التلقيح ، إذ شعرت أنني ما زالت بي رغبةٌ لمطارحتها الغرام ، ولكنها رفضت باصرار وعناد وهي تتضاحك ، بحجة أن ذلك سيضر بصحتي وان كانت هي سعيدة بهذا السيل العرمرم من مطارحات الغرام المتواصلة !

لم أذق سمك القريدس قبل حضوري إلى أمريكا ، وحتى بعد أن حضرت ، فقد أكلته بضع مرات وبكمية قليلة جدا ؛ أما بعد أن تعرفت على كريستينا ، فقلما يمر يوم دون أن تطعمني إياه !

كنّا في الوطن نأكل لحم الضأن مرة كلّ أسبوع أو اثنين ، وكانت الكمية بحجم حبة التين أو تزيد قليلا ؛ أما السمك العادي فكنّا نعرفه ونراه ولكننا لم نذقه ، لأننا لم نكن نملك النقود لشرائه ، ولأن وجوده غير متوفر في الأسواق كاللحم !

أمّا سمك القريدس هذا ، فقد قرأت عنه في كتاب الزراعة ، تأليف أستاذ مادة الزراعة في مدرسة السلط الثانوية ، الأستاذ شكيب الداغستاني ، أيام كنت طالبا فيها ، حيث يقول " يوجد نوع آخر من الأسماك يعيش في المحيطات ، إسمه باللغة العربية الفصحى القريدس ، طعمه لذيذٌ جدا ، يأكله فقط ، أغنياء أوروبا وأميركا ، بسبب إرتفاع أسعاره الفاحش " ! وبعد أن إبتسم و غمز بعينهاليسرى أضاف ؛ " إنه يقوي الخصوبة عند الرجال ! "

أسجد لك أيها الرب العظيم ، تقديساً واحترامًا واجلالاً ، فها أنا أنضمُّ اليوم إلى قائمة الأغنياء ، الذين يأكلون القريدس ، وبكميات ضخمة ! حقاٌ ، إنك رب تعبد !

لقد تصورت أستاذنا الجليل ، شكيب الداغستاني ، بوجهه البشوش اِلناصع البياض ، والذي لا تفارقه الابتسامة ، وهو يقف أمامنا ، نحن طلاب فصله ، وبيننا ولديه كمال وإحسان ، حيث يميّل طربوشه الأحمر الجذاب ، تارة إلى اليمين وأخرى الى الشمال ، وهو يخاطبنا قائلاً "سيذهب واحد منكم الى امريكا ، ليكمل دراسته فيها ، وهناك ستقع في غرامه حسناء يهودية ، ذات جمال صارخ متميّز وأنوثة متأججة ، فتطعمه كثيرا من سمك القريدس ! " قال ذلك واتبعها بابتسامة وغمز بعينه اليسرى !

بعد أن تحممنا و حلقت ذقني وتزينت كريستينا ، غادرنا الفندق بسيارة أجرة ، توجهنا بعدها إلى مطعمنا ، وكانت الساعة بحدود السادسة عصرًا ، إذ نحن في شهر آب ، حيث النهار طويلٌ طويل !

إنّ الذي أحزنني بل أدمى وجداني ، عندما عدنا من الفندق كريستينا وأنا ، وأرانا السيد مدير المطعم كميات اللحوم والأسماك والقريدس ... وكذلك الكميات الضخمة من شتى أنواع الخضار المطبوخة ، بالاضافة الى مختلف أنواع الحلويات ، حيث كانت كلّها ملقاة في ثلاث حاويات ضخمة !

عندما سألت مدير المطعم ، السيد ميلر، أما كان هناك من وسيلة لتجنب هدر هذه الكميات الضخمة من الطعام ... أكد لي بأنه كان يتوقع أكثر من ذلك بكثير ... اذ أن مطعماً مثل مطعمنا هذا في يوم افتتاحه ، يجب أن يكون الطعام كله جاهزاً عندما يتدفق الضيوف جميعهم دفعة واحدة ... لهذا اضطررنا لإعداد كميات ضخمة من جميع الأصناف التي ننوي تقديمها ، مسبقاً ! قال.

ـ ولمَ لم نحتفظ بهذا الطعام فنقدمه لضيوفنا في اليوم الثاني ، بدلاً من إلقائه بحاويات القمامة ؟! سألت بلهجة صارمة !

ضحك الرجل طويلا ، ولست ادري ان كان قد ضحك من سذاجتي ام من غبائي ، أم من الأثنين معاً ! لكنه كان مؤدبا عندما أجابني :

ـ يا بني ! ليس عندك الخبرة ، كما أنك لا تعرف قوانين البلد ! إنه لا يمكن أن نقدم طعاماً بائتا لزبون ! ان الطعام المتبقي يلقى عادة في حاويات القمامة ! إننا سنطبخ بعد اليوم فقط ما يطلبه الزبون أولاً بأول ، ولن يكون هناك ما يلقى بالحاويات ، إلا ما يتركه الزبائن في صحونهم !

ضحكت بمرارة ، فقد تذكرت صديقي وابن صفي في مدرسة السلط الثانوية ، ابراهيم عبد الفتاح الجنيني ، صاحب " حلويات الجنيني" وابن السلط الخالدة ! لقد أعلمني يوماً ونحن صغاراً ، بأن والده وجميع بائعي الكنافة ، وكذلك أصحاب المطاعم في مدينة السلط وعمّان وجميع المدن الأردنية ... فإنهم يسخّنون ما يتبقى من كنافة من يوم أمس أو قبله ، ويبيعونها للزبائن وكأنما هي مصنوعة في ذلك اليوم !

لقد تذكرت في تلك اللحظة ، مدينتي الخالدة ، السلط الصامدة وأهلها ، الذي يعيش الواحد منهم ويموت وهو يحلم بقطعة لحم كبيرةٍ كبيرة ، ينهي بها حرمانه ويشبع بها سغبه !اللعنة ! اللعنة ! إن الناس عادةً لايتذكرون أيام مسغبتهم ، أو علي الأقل يحاولون نسيانها ، أما أنا ، فليسامحني الله ، فأنني أضل أذكرها وأجترها كما يجترالجمل طعامه المتواجد في بطنه قبل إسبوع !

عندما انزلتنا سيارة الأجرة أمام المطعم ، كريستينا وأنا ، وقفنا مذهولين ونحن نشاهد أعداد الزبائن الذين يملأون قاعات الطعام والبار وصالة الانتظار ؛ حتى خيّل إلينا أن الدعوة كانت ليومين متتاليين وليس ليوم واحدٍ فقط ، هو الأمس! كانت سيارات الضيوف تدخل مكان دخول السيارات وتخرج منه دون أن تجد مكانا تقف به ، مما اضطر العاملون بمواقف السيارات لوضع يافطة تقول " نأسف ! المواقف مملوءة ! "

ما كدنا كريستينا وأنا ندخل المطعم ووجهينا تطفحان سعادة وحبورًا ، ونحن نتلفت حولنا ونتصفح وجوه الضيوف المتواجدين في قاعدة الانتظار ، وهم ينتظرون دورهم ويتزاورون وابتسامات جذلى تعلوا وجوههم ، حتى قابلنا والدا كريستينا ...لا شك أنهما

كانا بانتظارنا ، وهما يرقصان طرباً وحبوراً ... إذ حالما رأيانا هجما علينا عناقاً وتقبيلاً ، وكأنما كنّا عائدين للتو واللحظة من شهر العسل !

ـ لم نكن نتوقع هذا الاقبال المنقطع النظير ! قالت الأم وهي ترقّص يديها وووجهها يشع حبورًا والابتسامة تتراقص فوق شفتيها !

ـ لم يتوقف الهاتف عن الرنين منذ لحظة الافتتاح ظهر هذا اليوم حتى الآن ، يطلبون حجز طاولات ، حتى اضطررنا للاعتذار لأن جميع الطاولات محجوزة حتى ساعة الاغلاق ! قال الأب .

قبل أن يُنهي الأب جملته كان مدير المطعم ، العم هنري ، قد اقبل هو الآخر وهو يرقص طرباً والأبتسامة الكبيرة تبتلع نصف وجهه ، وقال بعد أن رحّب بنا وهنّأنا على هذا النجاح الباهر:

ـ سأطلب إلى أحد المضيفين أن يجهّز لكما طاولة مكتبي لتتناولا عليها وجبة العشاء ، اذ أنه من الصعب جداً ايجاد طاولة خالية لكما ! قال وهو يهزّ رأسه وكأنما ليؤكد مقولته !

ـ هذا النجاح الباهر والمنقطع النظير ، سببه تفكيركم المتميز وتخطيطكم المتقن ! قُلت بحماسٍ وأنا اصّر على مقاطع الكلمات ، مخاطباً الثلاثة ، ثم وأنا اضرب بقبضة يدي في الهواء مؤكداً قولي !

ـ ما أسعدنا أن تكون إبناً لنا ! قالت الأم وقد اتسعت ابتسامتها وازدادت فرحتها ، وهي تضمني من جديد !

ـ سهيل إبننا الثالث ومحبتنا له لا تقل عن محبتنا لإبنينا جيكوب وأندرو ! قال الأب .

ـ إن محبتي لكم كلكم واعتزازي بكم ، لا تتسع لها السماوات والأراضيين ! قلت مبالغا بذلك على الطريقة العربية !

ـ أشعر بالغيرة وانا أرى انساناً يقاسمني حبكما يا أماه ، أنتِ و أبي ! قالت كريستينا بطريقة مازحة وهي تتضاحك وتتثنى بغنج ودلا !

ـ لا حاجة للغيرة يا حبيبتي ؛ أنتما ولدينا ؛ ونحبكما بالتساوي ! قالت الأم وهي تضم ابنتها برموش عينيها وابتسامة حبور وسعادة كبيرة تبتلع وجهها !

ـ نحن لا نميّز في حبنا بين إبنتنا ورجلها ! قال الأب وهو يهزّ رأسه ليؤكد مقولته.

لم أرتح لما قاله الأب ، فأنا كعربيٌّ شكّاك ظنّان ، بدأت أشرّق واغرّب . تتنازعني الشكوك وتنهال عليّ الأفكار من كل حدب وصوب ؛ ولم أتوقف عن ذلك إلا بعد أن سمعت صوت العم هنري يقول :

ـ والآن تفضلوا الى مكتبي جميعكم لتناول وجبة العشاء ! قال وهو يفتح يديه الاثنتين مرحباً بنا ويشير باتجاه مكتبه .

طلب السيد المدير من مضيفٍ ومضيفة ، أن يساعداه لتجهيز طاولة مكتبه ، ليتناول أربعتنا عليها طعام العشاء ، بينما كان السيد والد كريستينا يحدثنا عن المردود الضخم الذي سنحصل عليه ، كريستينا وأنا ، خلال عام !

بعد أن اخلوا طاولة المكتب ووضعوا ما عليها في احدى الزوايا ، فرشوا فوقها غطاء من القماش الحريري الناعم ، سرعان ما اختفى بعد أن نشروا فوقه صحوناً و أكواباً و ملاعقاً و شوكاً ، كانت جميعها مطلية بالفضة ؛ ثم مُلئت بعدها بأطايب الطعام وأشهاه !

كان يقوم على خدمتنا أحد المضيفين تحت اشراف العم هنري ، والذي كان لا يتوقف عن الترحيب بنا في غدواته و روحاته ، وهو يتفقد الضيوف ويرحب بهم ، يلقي بارشاداته وأوامره الى المضيفين والمضيفات !

ذلك المساء ، ونحن في الفراش ، وكريستينا راقدة الى جانبي عارية تماما وهي تضمني تارة وتقبلني تارة أخرى ؛ تتلاعب بشعر رأسي مرّة وتدغدغ خاصرتي لتضاحكني مرات ... تنتظرني لاعانقها واركب فوقها ، عندما سألتها عمّا كان يعني والدها بكلمة " رجلها " ، قالت بحبورٍ وقد ازداد ضحكها وغناجها وتراقصها ذات اليمين وذات الشمال :

ـ رجلها ؛ يعني حبيبها ... عاشقها ... حاميها ... زوجها ... ! قالت وكأنما تلقي قنبلة !

لم أعلق، وإنما قلت لنفسي " جاءك الموت يا تارك الصلاة ! "

عندما مررت ببيت أختي سانتيش و زوجها ولم تكن كريستينا معي ، ذكرت لهما ما قال والد كريستينا وكذلك جوابها عندما سألتها فضحكا وقالت الزوجة :

ـ أخشى يا أخي ، وقد بدأ الآن المطعم يعطيكما مردوداً جيداً ، أن تطلب إليك كريستينا أن تتزوجها بعقد نكاح رسمي !

ـ ليس كريستينا وحدها التي ستطلب من سهيل أن يتزوجها ، سيفعل ذلك والداها ! قال الزوج بحماس وقد أغمض عينيه وضرب بقبضة يده اليمنى في الهواء وهزّ إبهامه إلى أعلى وأسفل !

ـ و إن لم أفعل ؟! سألت .

ـ سيطلبانِ اليك أن تتركها وترحل ! سيقولان لكَ ، إنّ فتاة تتمتع بكل هذا الجمال وكل هذا الغنى ، فإن الآلاف من الشباب يتمنون الزواج منها ! قال الزوجان يقاطعان بعضهما .

أما أنا فابتسمت ولم أعلق !

إن حياة البذخ والترف ، وكذلك حياة الحفلات والسهرات وأكل المطاعم الفاخرة ، جميع هذه المسليات ، لم تمنحني السعادة ولم تدخلني في الصميمية ! إنني لم أعتبرها إنجازاً أدبياً أو ثقافياً أفتخر به أو أنال به الرضا عن نفسي ! إنني أعتبرها جميعها من أمتعة الدنيا الفانية !

لقد إفتقدت الساعات الطويلة التي كنت أجلس بها خلف مكتبي ، أقرأ وأكتب ، أتأمل وأفكر ، أحلم وأتصور ، اناقش واجادل ! لم اتخلى ولا قيد أنملة عن واجباتي نحو طلابي وطالباتي ! إنني كأستاذ جامعة ملتزم ، لم أذكر أنني تغيبت عن محاضرة واحدة ، ولم أعتذر عن القيام بأية مهمة أسندت الي ! كنت أحضر إجتماعات الطلبة العرب ، وأقوم بجميع النشاطات التي كنت أقوم بها قبل تعرفي على كرستينا !

*****

عندما كنا ننهي عملنا اليومي ، كرستينا وأنا ، وكذلك عندما لا يكون عندنا التزام نؤدّيه ، نذهب الى المطعم ؛ وبعد ان نتزاور مع العم هنري ، ونتناول طعام العشاء فيحدثنا عن شؤون المطعم وانجازاته ونعود باخر الليل ، نذهب الى شقتي أو شقة كريستينا و نقضي الليل سوية ، و إما أن يذهب كل منا منفرداً إلى شقته .

لم يمنعنا إمتلاكنا للمطعم من ممارسة نشاطاتنا العديدة والمختلفة ، فقد كنا نقضي عطل نهاية ألأسبوع في إحدى المنتجعات أو على الشواطيء ! لقد ذهبنا الى سان فرنسيسكو وقضينا ليالٍ ممتعة في منتجع "كارميل" ، وذهبنا الى جزيرة "كتالينا "! لقد أحبت كرستينا عائلة الهاملتون كثيراً وخصوصا إبنتهم ، فكانت كثيراً ما تصرّ على مرافقتهم لنا !

لقد كنا عادة نتناول وجبة العشاء في مكتب العم هنري ، حيث يقوم على خدمتنا دائما نادلٌ وليس نادلة ، مما جعلني أعتقد بأن ذلك بايعازٍ من كريستينا ، حتى لا يكون هناك مجال للاحتكاك بالنادلات ذوات الجمال المتميز والأنوثة المتوقدة !

بعد مضي حوالي أسبوع طلبت إليّ كريستينا أن أتخلى عن شقتي وأن أسكن معها ، حيث ان شقتي صغيرة وقديمة وتقع في منطقة شعبية مزدحمة بالسكان ، بعكس شقتها الواسعة والجديدة ، والتي تقع في أجمل المناطق القريبة من الجامعة وأقلها ازدحاما بالسكان ! كما أن سكننا معاً يقلل من أوقات بعدنا عن بعض ! إن الاهم من ذلك ، هو توفير مبلغاً من المال أجر الشقة و أثمان الكهرباء والماء .

لقد اقتنعت أنا بالفكرة أول الأمر و حبّذتها بل و رحبّت بها ، ولكنني عندما استشرت أختيَ الحبيبة سانتيش ، نصحتني بأن لا أفعل ، حيث أن ذلك سيشجّع كريستينا على طلب توثيق عقد زواج ، و هو ما أرفضه رفضاً قاطعاً .

لا أدري لماذا ؟! لقد كان يسعد كريستينا أن تأخذ دائما معنا ضيوفا للعشاء ، عندما نذهب الى مطعمنا ! لقد تساءلت ، فهل هو طبع كرمٍ أصيلٍ بها ، أم هو بقصد التفاخر والمباهاة ! على كل حال فقد أسعدني كثيراً تصرفها هذا ، إذ توسعت دائرة معارفنا وتوطدت صداقاتنا! ، مع كثير من المدعوين !

لقد دعونا مرات عديدة ، مديرة دائرة الشرق الأوسط في الجامعة و زوجها الدكتور روبرت زمرمان ، نائب مدير قسم السكري في مستشفى الجامعة وكذلك ابنتها وزوجها ، كما دعت كريستينا زميلاتها في العمل وبعض الصديقات ! أما انا فقد دعوت مرات عديدة بعض الزملاء من اساتذة القسم ، وكذلك بعض الطلبة والطالبات العرب ،

ذوي النشاط السياسي والاجتماعي ! أما والديها فلم يكن يمضي اسبوع دون أن نراهما فنتعشى سوية في مطعمنا ، كريستينا وانا ، وإما في مطعم أحدهما .

الفصل الثاني عشر.

ـ هل تعرف يا حبيبي ما أهمية يوم السبت ، ليس السبت القادم ، ولكن الذي يليه بالنسبة لنا ، أنت وأنا ؟! سألتني كريستينا وهي تهم بدخول الحمام لتستحم قبل أن نأوي إلى فراشنا ؟!

ـ إنه اليوم الذي تعرفت به عليكِ وسلبتني عقلي وكل حواسي ، وكذلك وقد عانقتك أربع مرات متتالية ! قلت و أنا أصرّ على مقاطع الكلمات !

وبعد أن ضحكت طويلاً بسعادة و جذل قالت :

ـ كان هذا قبل عدة شهور من ذلك اليوم ؛ فقد كان يوم اثنين ولم يكن يوم سبت ؛ إذ انني احفظه جيدا ولن انساه !

ـ إنه اليوم الذي أعلمتك به بأنني قد أقبل العرض المغري ، كأستاذ للغة العربية ، الذي قدمه لي المسئوول عن تدريس اللغة العربية في مدينة " كارميل " الساحرة ، وبقيت تبكين حتى أكدّت لكِ بأنني لن أفعل !

ـ لا ، ليس هو .

لقد كنا ، كرستينا وأنا ، نقضي عطلة نهاية الأسبوع في مدينة " كارميل " الساحرة والتي أعشقها ، فتعرفنا في إحدى مطاعمها على المدير والمسئوول عن تدريس اللغة العربيية للجيش الأمريكي ، فعرض علي وظيفة مايعادل ضعفي راتبي في الجامعة !

ـ اذن ، انه اليوم الذي طلبتِ به منّي أن أتزوجك فغضبتي وتركتني ! قلت.

تجاهلتْ ما قلت ، ولكنها قالت مغيرةً الحديث :

ـ انني يا حبيبي ومنذ اللحظة التي وقعتْ بها عيناي عليك ، وأنا أعيش في سعادة متواصلة ، حتى أنني لم أعد أعتبر يوما منها يختلف عن الآخر ! قالت بجدٍ وحماس !

ـ و أنا كذلك يا حبيبتي ! أشعر أنني اعيش في جنة هنا على الأرض ، وانا اضمك الى صدري واشرب رحيق الحياة من شفتيك !

ـ ما أسعدني بك يا حبيبي ! انني و منذ ان تعرفت عليكَ ، فإنّك جعلت كل يوم في حياتي له ذكرى سعيدة ويوم احتفال ! انك تجعلني أعيش دائما في غاية السعادة وإنني أعيش في حلم لذيذٍ لذيذْ ! قالت وعادت قبل أن تدخل الحمام و قد انهالت عليّ تقبيلاً !

ـ والآن قولي لي بربّك ، ما هي مناسبة السبت ، هذه ؟! سألتها .

ـ انه اليوم الذي حققنا به انجازاتنا المادية ، أنتَ وأنا ؛ وهو يوم العيد السنوي لأفتتاح المطعم ! قالت .

ـ ان الانجاز الوحيد والعظيم في حياتي ، هو أنتِ ، يا أغلى ما في الوجود ! ان كل ما عداكِ هو وهمٌ زائل ! انتِ الحقيقة الوحيدة و الجميلة و المفرحة في حياتي ! قلتْ بحماس و أنا أحدّق بعينيها !

و هنا هجمت عليّ تعانقني من جديد و تلتهم شفتيّ !

يا إله السماء ! لقد قبّلتُ و عانقت العشرات ، وكذلك عاشرت كثيراً من النساء الأمريكيات ، جميلات وأنصاف جميلات ... صغيرات ومتقدمات في السن ؛ لكن كنكهة عناق ومعاشرة كريستينا ، وكذلك لتأجج عواطفها وحرارة عناقها ، لم أرَ مثيلاً له في غيرها ! لا شك أن في جسمها أعاصير و زوابع نيران تثير الحرائق في كيان كل من تعانقه !

ـ أرجوكِ ! اذهبي و استحمي أنتِ لأستحم أنا بعدك ، ثم نذهب إلى الفراش ! قلت وأنا ابعدها عنّي .

ـ أرجوك ! تعال نستحمُّ معاً ! إنني لا استطيع أن أنتظر حتى تستحم أنت أيضا ! قالت وهي تقودني نحو باب الحمام .

كان جسدانا يلتهبان شوقا لبعض عندما خرجنا من الحمام ، فحملتها وألقيت بها فوق الفراش ، و رقدت الى جانبها ثم التحمت بها !

بقينا نتعارك لفترة ليست بالقصيرة ، و لم نتوقف عن العراك حتى خمد جسمانا ؛ ثم رحنا بعدها في سباتٍ عميق !

صباح اليوم التالي ، أعلمتني كريستينا بأن العم هنري ، مدير المطعم ، سيقدم التقرير السنوي لمصاريف المطعم و ارباحه يوم عيد افتتاحه !

*****

ألفصـــــــــــل الثالث عشر

وحلَّ يوم السبت الموعود ؛ يوم عيد ميلاد مطعمنا العتيد ! بعد ان انتهينا خمستنا ، كريستينا و والديها ، العم مدير المطعم و أنا من تناول طعام الغداء ، حيث كانت الساعة بحدود الثالثة بعد الظهر ، دخلنا مكتب العم المدير ، الذي قال بعد أن رحّب بنا من جديد ترحيباً حارا ً:

ـ لقد تجاوز مطعمنا التوقعات في ارباحه ، و ذلك بسبب حسن الأدارة و جودة الطعام ! لقد قمت بادارة خمسة مطاعم خلال العشرين عاما الماضية ، والشكر لله فقد كانت كلّها موفقة و ناجحة ؛ أما نجاح مطعمنا هذا ، فلم يكن له مثيل ! لقد كانت توقعاتنا هو ان ندفع ثمن المطعم ونملكه خلال ثماني سنوات ، ولكننا وبسبب حسن الادارة وجودة الطعام ، كما ذكرت لكم ، فاننا سندفع ثمنه و نملكه بعد ست سنوات من الآن ! لقد وفرنا سنتين ، وان كنت اتوقع في نهاية المطاف ان يكون خمس سنوات فقط !

لقد صفّقت الأم بحماسٍ لاهب ، بعد أن نهضت واقفة ، ثم تبعها الأب و كذلك فعلتْ كريستينا ، و كنت أنا آخرٍ من صفّق ، و لكن بغير حماس ! بعدها عانقت الأم ابنتها ثم عانقتني بعد ذلك ، و فعل الأب مثل ما فعلت زوجته ، بحماس لا يقل عن حماسها !

تقدم بعدها العم هنري و عانق كريستينا ثم عانقني وشد على ايدينا ، كما هنأ الوالدين و شكرهما على اختياره لهذه المهمة الحساسة ! دخلنا المطعم بعدها ، و كانت بانتظارنا طاولة مزيّنة ، تناول خمستنا طعام الغداء الذي كان يحتوي على ألذّ الاكل و اغلاه !

ـ اعتقد انكما تصرفتما بمنتهى العقل و الحكمة ، عندما صممتما على ان لا تأخذا نقوداً مما يجنيه المطعم ، وأن تعيشا على راتبيكما اللذين تحصلان عليهما من

وظيفتيكما ... و كذلك بأن تدفعا جميع النقود التي تكسبانها من المطعم لسداد ما عليكما من دين للبنك ! قال الأب بحماس و هو يشير بيده ليؤكد مقولته .

ـ وبسبب هذا القرار الحكيم انخفضت مدة سداد الدين من ثمان سنوات إلى سبعٍ ، انقضت واحدة منها وقد تقلّ سنة اخرى حتى نهاية العقد ! قالت الأم و هي ترقّص حاجبيها و تبتسم !

ـ عندي ثقة كبيرة بأنه بعد خمس سنوات من الآن ، سيؤول المطعم بالكامل لكريستينا وسهيل ! قال العم المدير.

ـ قل ان شاء الله ! وجدت نفسي لا شعورياً أقول بالعربي ، متأثراً بتربيتي الدينية و ثقافتي الإجتماعية !

لا أعتقد ان أحداً من الحضور لاحظ تعليقي ، حيث أن الأم قالت بتأنٍ وتلذذ وهي تتأملنا ، كرستينا وأنا ،بمحبة ووله !

ـ بعد خمس سنوات من الآن سيكون كامل دخل المطعم لكما وحدكما ، وسيكون مبلغاً ضخمًا جداً ؛ عندها تستطيعا ان تستقيلا من وظيفتيكما ، إن أحببتما ، و تسافرا الى اوروبا او امريكا الجنوبية أو حتى الى الشرق الأوسط ، أو كلّها مجتمعة ... أن تقضيا اوقاتاً ممتعة في منتجعاتها و فنادقها !

ـ مهنة التدريس عندي مقدسة و تمنحني متعة الهية ! إنني لن اتركها ما زالت عندي القدرة لممارستها ، مهما تعاظم دخلنا من غيرها ! قلت بحماس وصدق وأنا أصرّ على مقاطع الكلمات !

ـ وأنا كذلك أحب أن احتفظ بوظيفتي ، اذ انني اظلّ على اطلاع على ما ينتجه الفكر العالمي ؛ اللهم الا اذا رغب سهيل أن أتركها ! قالت كريستينا و هي تتأملني و تبتسم !

ـ لن أطلب منكِ البقاء في عملك أو تركه ؛ انتِ سيدة الموقف ! قلت بحرارة و صدق .

ـ سيطلب منك عندما ... ! قالت الأم و هي تتضاحك ، ولكنها لم تكمل ؛ فقد قاطعها الأب شبه غاضباً قائلاً :

ـ ليس وقته الآن يا مونيكا ! قال ذلك ثم أضاف ؛

ـ إن أحببتما ، فسأشتري لكما مطعماً آخر في مدينة أخرى ؛ و بعد أن تمهل قليلاً أضاف :

ـ هذه المرة سأعمل كل جهدي أن يكون في مدينة " لقونا بيش " وسأحاول أن يكون على شاطئ البحر ، وسأختار له مديراً من الأكفّاء الذين أعرفهم ، قديرٌ و طموح ! قال مخاطباً زوجته.

ـ هل تعرف يا داوود ، من خطر على بالي ؟! دانتيه روجرز ؛ إنه شابٌ قدير و طموح جداً ، هو الآن مدير مطعم صغير يقدم الوجبات السريعة . إنه بعد أربع سنوات سيكون قد كسب خبرة ممتازة ، تستطيع أن تطلب اليه أن ينضم الينا . قالت الأم وقد أشرق وجهها وعادت اليه الأبتسامة الثي فارقته عندما نهرها الأب !

ـ لقد أصبتِ يا حبيبتي ؛ إنه شاب طموح و حاذق ! قال الزوج و هو يهزّ رأسه بحماس .

ـ ما أمهركم بالتخطيط ! حقاً إنّكم يهوداً ! قلت في سرّي .

ـ كما أنّ عليكم أن تجدوا من يحل مكاني ، اذ بعد أربع سنوات قد أفكّر بالتقاعد ! قال العم هنري .

ـ ماذ ؟! تتقاعد في الخمسين من عمرك ؟! لا شكّ أنك تمزح ! قال الأب و قد قفز من على كرسيه و كأنما لدغته أفعى !

وبعد أن ضحك العم هنري وتراقصت غمازتاعينيه ، أجابه :

ـ لا، سأكون وقتها في الثامنة والأربعين من عمري ؛ لا تقلق ! سأظل في خدمتكم ما دمتم ترغبون في ذلك .

ـ الأولاد ، سهيل و كريستينا لن يستغنيا عنك يا هنري ، ما دمت حيّاً ؛ انهما لن يجدا من يقوم بهذه المهمة خيراً منك ! قالت الأم بمنتهى الحماس وهي تستعمل يديها و تحرك رأسها يميناً و شمالاً !

ـ أنا أُحبُّهُما كثيراً ، و أعتبرهما ولدي ! قال بخجل وهو يبتسم .

ـ ونحن نعتبرك والدنا الثاني ، سهيل وأنا ! قالت كرستينا .

ـ العم هنري رجل عظيم ، كرستينا وأنا محظوظان أنه تكرم وقبل أن يدير مطعمنا ! قلت . بعدها نظرت الى والد كرستينا وأضفت :

ـ لقد كانت فكرة المطعم مفاجأة لنا حقاً ، كرستينا وأنا ! شكرًالك ياعمي ! قلت .

هنا نظر اليّ نظرة طويلة وعميقة ، أحسست من ابتسامة الفرحة التي تغطي وجهه بأنه يحبني حقاً !

ـ لو تعرفان المفاجأة الأخرى التي سأفاجأكما بها ، أنت وكرستينا ، لكنتما حقاً أدركتما مقدار حبي لكما !

ـ وهل هناك مفاجأة أعظم من مفاجأة المطعم ياعمي ؟! سألت .

ـ وما هي يأبي ؟! سألت كرستينا بشوق ولهفة .

ـ وما هي ياداوود ؟! أنت دائماً تستشيرني قبل أن تقدم على اتخاذ أي قرار ! قالت الزوجة وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة وهي تحملق بزوجها !

ـ هذه حقاً أردت أن تكون مفاجأة لكم جميعاً ، أنتم الثلاثة ! قال بحماس وهو يبتسم بتلذذ وسعادة .

حقاً ، ان الرجل أثار عندي غريزة حب الأستطلاع ، أما المرأتان فقد رجوتاه لأنيفصح لأن ميزان حرارة صبرهما قد نفد !

هنا تكلم الرجل بتأنٍ وتأمل !

ـ صديقنا حيمس ماكدونالد ، يفكر ببيع بيته بسبب زواج ابنه وابنته ، حيث رحل الأبن الى شيكاغو ورحلت البنت الى سان فرنسيسكو ، ويقول بأنه هو وزوجته لايحتاجان الى بيت كبيربعد اليوم . عرضت عليه أن اشتريه لولدينا ،سهيل وكرستينا ، بدلاً من أن يسكن كل واحد منما منفرداً !

ـ أصبت ياحبيب القلب ! حقاً ! لقد أفرحتني ! ومتى يستطيع الأولاد الرحيل اليه ؟! سألت الزوجة .

ـ خلال شهرين علي أكثر تقدير ، حيث أنني أريد أن أدخل عليه بعض التغيرات البسيطة ! قال الرجل بحماس !

وهنا هجمت كرستينا على والدها تعانقه بحماس وهي تردد كلمات الشكر والثناء .

لقد وجدت أنا أنه من غير اللائق أن لا أظهربعض الأمتنان والحماس فتقدمت من الرجل فعانقته وقبلته وقلت :

ـ ما أكرمك وما أعظمك ياعمي ! لايوجد كلمات كافية في قاموس اللغة تعبّر عن شكرنا وامتنانا ، كرستينا وأنا ! حقاً ، إنك إنسان نادر الوجود ! قلت وأنا أشدّ على يده ، بصدق وحرارة !

وهنا تحمس الرجل وقال مخاطبنا نحن الثلاثة .

ـ هل تعرفون لم وقعت بغرام هذا البيت ؟! ليس بسبب جماله وكبره ، ولكن بسبب وجوده غير بعيد من بيتنا ! أقل من نصف ميل ؛ يستطيع الأولاد السير على أقدامهم !

ـ أريد يا داوود أن تشتري لأبننا سهيل سيارة مثل سيارة كرستينا ، ولكن موديل هذا العام , إنه لايليق بإستاذ جامعة متميز ، إبننا الحبيب ، أن يركب سيارة "فوكس فاجن " قديمة ! قالت الأم بحماس .

ـ صدقيني يازوجتي العزيزة انني فعلت ، ولكن وكيل سيارات " الفراري" نصحني أن أنتظر شهرين آخرين حتى ينزل الموديل الجديد . أنه من جماعتنا وأنتِ تعرفينه وزوجته سارة صديقتك ! انه أندرو روبشتاين ! قال وهو يصرّ على مقاطع الكلمات !

ـ إذن تعيد سيارتي ياأبي الى الوكالة وتشتري لي سيارة جديدة ! قالت كرستينا .

ـ سأفعل ياحبيبتي ! سأفعل ! قال الأب وقد ازداد إشراق وجه !

ـ شكرً ياعمي ! إنني سعيد بسيارتي . قلت صادقاً وبحماس !

ـ لا، نحن لانقبل لرجل إبنتنا إلا أغلى أنواع السيارات ! قالت الأم بحماس !

" جاءك الموت ياتارك الصلاة ! إقتربت الساعة وانشق القمر ! لقد حصحص الحق وزهق الباطل ! يبدو ياولد ياسهيل ، ياشيخ البدو ، أن رحيلك قد قرب وأن ساعة عودتك الى تخوم حفر الباطن قد اقتربت ! " قلت لنفسي .

وهنا نهضتُ من على مقعدي ، وسرت حتى وقفت امامها ، وبكل الغل والقهر ،فتحت ذراعي ولففتهما حول عنقها ، وقبلتها على الخدين قبلتين ملتهبتين وأنا أقول :

ـ شكراً لكِ ياأجمل وأكرم أم خلقها الله ؛ انك ووالدي بحر من العطاء !

إنفجر الزوج وكذلك فعل العم هنري يضحكان على تصرفي الأرعن ، مماشجعني على أن أقبلها هذه المرة على عنقها ! لقد اسعدت فعلتي هذه المرأة كثيراً وأحسست أنها كادت تتهاوى بين يدي !

ـ ومذا عني أنا ؟! فهل نسيتني ياحبيبي ؟! سألت كرستينا وهي ترقبني وعدم الأرتياح يبدو على وجهها !

ـ أنتِ قطعة منها ، وأنا أحبكما الأثنتين معاً ، فأنت طبق الأصل عنها ! قلت ذلك وتقدمت منها وقبلتها قبلة حارة على شفتيها ، مما أسعدها !

ـ لقد إبتعدنا كثيراً عن قصة المطعم ! هل قررت كم ستكون الزيادة للعم هنري ياأبي؟! سألت كرستينا .

ـ لم أفعل بعد . أريد أن اسألكما انتِ و سهيل أولاً ! كم تريدان زيادته الشهرية ، ثم لا بد من منحه كذلك زيادة سنوية أيضاً ؛ حسب قانون العمل والعمال . قال الأب.

ـ ما رأيك يا حبيبي ؟ ! سألتني كريستينا .

ـ الرأي رأيكِ . أنا لا أفهم في هذه القضايا . أنتِ حددي المبلغ . قلت .

ـ أنا أقترح أن نعطيه زيادة خمسة وعشرين دولارا ًً؛ فما رأيك يا حبيبي ؟ سألت كريستينا .

ـ طبعًا ! طبعاً ! خمسة وعشرون دولارا ًً. قلت بحماس و كرم حاتميّ ، وكنت أعني المكافئة السنوية ، وليس المكافئة الشهرية !

ـ خمسة و عشرون دولاراً شهرياً ، أي زيادته السنوية تكون ثلاثمائة دولارًا .إنه مبلغ متواضع ، و سنضا عفه له العام القادم ! قالت كريستينا.

ـ وكم تظن أنه يجب أن تكون المكافئة السنوية يا بني ؟! سألتني الأم .

ابتسمت ببلاهة ، وقلت بغير وعي مني : أنتِ والحبيب الوالد تقرران المبلغ .

ـ شكرًا يا بني ؛ حقاً ، إنّك شهم و أصيل . أجابت الأم ، أمّا الأب فقال :

ـ اكتشف كل يوم ميزة جديدة في ابننا و حبيبنا سهيل !

ـ نمنحه مكافئة سنوية خمسمائة دولاراً ، ما رأيكِ يا حبيبتي ؟ سأل الزوج زوجته .

ـ كما ترى يا حبيبي ! أجابت الأم ثم و كأنما تَذَكرتْ حيث التفت نحونا كريستينا و أنا وسألت : ما رأيكما ، أنتما ، يا أحبائي ؟

ـ ما رأيك يا سهيل ؟ سألتني كريستينا .

ـ الذي تقرّرونه ثلاثتكم ، أنا موافق عليه ، قلت بحماسٍ مصطنع !

ـ المبلغ متواضعٌ جداً وسنضاعفه له في العام القادم . قالت الأم .

أما أنا فابتسمت بمرارة عندما فكّرت أن هذا المبلغ " المتواضع " هو ثمن دونم أرض تجاري ، وليس سكني ، في أغلى مناطق عمّان الغربية ، في الأردن العظيمة والحبيبة !

*****

الفصـــــل الرابع عشـر

ذهبنا ، أختي سانتيش وزوجها وأبنتهما وأنا الى المطعم العربي في مدينة هوليوود الشهيرة ، والذي يقدم اللحم المشوي " الشوش كباب" على الطريقة العربية ، وكذلك محشي الكوسا والباذنجان وورق العنب والكبة بنوعيها النيئة والمشوية ، مع جميع انواع المقبّلات من سلطات ومتبلات وغيرها . كان ذلك قبل أن أتعرف على كرستينا !

كان المطعم العربي الوحيد في المنطقة ، وكانت أسعاره خياليّة ، خصوصاً للذين يشربون العرق اللبناني ... فلا يرتاده إلا الذين على استعداد أن يدفعوا مبالغ باهضة ثمن وجبة طعام ! كان صاحبا المطعم رجل لبناني وزوجته ، يقدمان فقط الاكلات اللبنانية وكذلك يقدمان العرق اللبناني ؛ كل هذا بالإضافة الى الموسيقي والاغاني اللبنانية ايضا !

لقد كانت اصوات فيروز وصباح وماجدة الرومي ووديع الصافي وغيرهم من المطربين اللبنانيين يتناوبون على الغناء ، وكانت اصواتهم جميعها تصدح بحماس وحنيّة مما سرَّ كثيرًا ضيفيّ ، فشكراني بحرارة ، على الأكل اللذيذ والجو الرومانسي ! فجأة قالت الزوجة بحماس مخاطبة إيّانا :

ـ أنتما مدعوان الى العشاء الأسبوع القادم ، في أيّةِ ليلية تختارانها لناكل نفس الطعام الذى تناولناه الليلة ، ولا اقبل منكما اي اعتذار !

ـ وانا ادعوكما بدوري الأسبوع الذي يليه ، على ان تتفقا على الليلية التي تناسبكما وكذلك لااقبل اي اعتذار ! قال الزوج أيضاً وهو مستغرق بالضحك .

ـ بعد اذن اخي سهيل ، نحن نقبل الدعوة وبكل سرور يا زوجي العزيز . قالت الزوجة وهي تضحك أيضا ؛ أما انا فقلت مازحا، وان كنت اتصنع الجدّية والحزم :

ـ مهلاً ايها القوم ! دعوني اقول لكم ! ان عاداتنا وتقاليدنا العربية الاصيلة ،تفرض علينا ان نقدم الضيافة للذي يأتي الى بيوتنا لمدة ثلاث ليالي متتاليه ... دون ان نسأله عن اسمه ولا سبب مجيئه ولا من اين اتى ولا الى أين ذاهب ... وانا بدوري سأدعوكما ثلاث مرات متتالية ، ثم بعدها اقبل دعوتكما ! قلتها متندّراً على بعض من عاداتنا و تقاليدنا العربية .

ـ وهنا انفجرا يضحكان ، وعندما توقفا عن الضحك ومسحا دموعهما بالمحارم القماشية التي امامهما قالا يقاطعان بعضهما بعضاً :

ـ يجب علينا ان نذهب الى بلادكم هذه ونستمتع هناك في كرم وعادات هذا المجتمع ! قالت الزوجة ا ما الزوج فقد قال :

ـ نعم ؛ يجب علينا ان نذهب الى هناك دون تردد ، ونستمتع بكرم وعادات هذا المجتمع الرائع والمضياف !

ضحكت انا ولم أعلق ، غير ان الزوجة اضافت :

ـ ان فاتورة مطعم مثل هذا ، ثلاث مرات في ثلاث اسابيع متتالية ، يأخذ جزءا كبيرا من ميزانية اي واحد منا ، وهذا ما لا أقبله لك يا اخي سهيل !

ـ عندي اقتراح واعتقد انه معقول جدا وسيرضي الجميع . قال الزوج ثم انتظر قليلا ، ولما لم يعلق احدنا على ما قال ، بقينا صامتين ننظر اليه بشوق ولهفة لنستمع الى ما عنده !

ـ بما ان صديقي سهيل سيمرُّ علينا كل ليلة لزيارتنا وليتحدث الى ابنة اخته لوشينتا ، فيقص عليها بعض القصص ولا يتركنا الا في ساعة متأخرة من الليل ، فاقترح ان ياتي كل ليلة ويتناول عشاءه معنا ، بدلاً من ان يتعشى في شقته او في احد المطاعم لوحده ! لاشك ان طعامك يا زوجتي العزيزة ، الذ واشهي ، من كثير مما تقدمه المطاعم التي يرتادها ؛ كما انه يقلل من فاتورة ثمن الطعام ؛ وبهذه الطريقة يستطيع التمكن من دفع فاتورة المطعم لثلاثتنا ، في ثلاث ليال ! قال هذا وهو ينقل طرفه بيننا ؛ اذ لعله كان يريد ان يستمزج آراءنا ، وماذا سنقول !

ـ فكرة رائعة ياعزيزي ! اتفقنا ! صاحت الزوجة فرحه ! وهي تهز رأسها علامة الأعجاب والموافقة !

لا ادري ان كان الرجل جاداً فيما يقول إلا انني إلتجمت ! لقد صرت أقارن كيف يفكر الامريكان وكيف يحسبون حساباتهم ، و أقارن بين عادتنا وعاداتهم ،

وتفكيرنا وتفكيرهم ! إننا نحن العرب نعتقد بأن ذلك منتقد بل ومعيب جدًا ، مع أن الحقيقة في رأيي هو منطق سليم ومقبول !

لم يريا مبلغ فاتورة الدعوة الأولى ، فقد عملت كل ما في وسعي أن أحول بينهما وبين ذلك ، و لكن في الدعوة الثانية استطاعا أن يريا المبلغ ، مع أنني حاولت جهدي أن لا يفعلا ... أنّ النادلة بدلاً من أن تضع الفاتورة أمامي وضعتها أمام الزوج ، الذي نظر إليها في نفس الوقت الذي نظرت فيه زوجته اليها ! لاحظت أنهما تبادلا نظرت استغراب و دهشة ، و لكنهما بقيا صامتين !

أثناء السهرة قالت الزوجة فجأةً :

ـ إنّ عاداتكم جميلة جداً و لكنها مرهقة للمضيف !

ـ لا شكّ ، أنّ أولئك الأقوام ، كانوا فخورين و سعداء بها عندما بدأوها ، و قد يكون الذين جاؤوا بعدهم قد استثقلوها ، لأنه في الزمن القديم لم تكن ضيافة الضيف ، مكلفة و ملزمة مثلما هي عليه فيما بعد، فصار من الصعب التخلص منها !

ـ وهل ما زالوا يتقيّدون بمثل هذه العادات ؟! سأل الزوج .

ـ إنّ كثيرا من العادات و التقاليد القديمة قد اندثرت في هذه الأيام ، والكثيرون من الناس لم يتجاهلوها فقط و إنما صاروا يحتقرونها و يسخرون منها ! إنّ هذا يحدث في المدن ، و لكن في القرى و بين القبائل الرحّل فإنهم ما يزالون متمسكين بها ! قلت .

- لا شك أنها كانت جميلة في الماضي ، و لكنها الآن مثقلة بسبب تعقيدات الحياة ! قال الزوج .

- هذا صحيح ! قلت .

رغم رفضي الشديد و اصراري العنيد و رجائي المتواصل ؛ إلا أنّ الزوجين ، أصرّا ، في المرة الثالثة ، أن يدفعا هما الفاتورة !

إنني وفي كل ليلة بعد العشاء ، تؤكد عليّ سانتيش ، بأن آتي مساء الغد للعشاء ! و تؤكد علينا نحن الاثنين ، بعد أن تعرفت على كرستينا . لقد كنّا نتعشى كل ليلة تقريباً خمستنا معاً ، الهاملتون الثلاثة وكريستينا وأنا ، إمّا في بيت الهاملتون وإما في مطعم أم كريستينا ، التي تدعونا على الأقل مرة في الأسبوع ! لقد كنّا كثيراً ما نحضر معنا كرستينا وأنا ، ما تحتاجه وجبة العشاء من لحوم أو أسماك أو خضراوات أو فواكه وحلويات ! كان هذا قبل ان يكون لنا مطعمًا !

إنه للحقيقة والتاريخ ، إنه في كل مرة كنا نذهب كرستينا وأنا الى بيت الهاملتون ، حتى ولو لزيارة قصيرة ، فان كرستينا كانت دائماً محملة بشتى حاجيات الطعام وكذلك بلعبة للوشنتا ! لقد أحبتها الصغيرة جداً وصارت تصر على أن تجلس بحضنها كلما زرناهم !

كانت كرستينا دائمًا تقول ، بأن النقود إنوجدت ليصرفها الناس وليس ليدخروها ، على عكس ماهو متعارف عليه من أن اليهود يعبدون النقود ! كانت دائماً تدفع للنادلة التي تقدم لنا الطعام ، أضعاف ماهو متعارف عليه ، حتى صرت أعتقد بانه لابدّ وأن يكون دم كرستينا دماً عربياً !

*****

الفصل الخامس عشر

منذ ان تعرفت على كريستينا ولا يمضي يوم واحد دون ان يرى احدنا الاخر . اننا قد نتقابل وقت أخذ استراحاتنا الصباحية او في استراحة بعد الظهر ، وقد نتناول الغذاء معًا في الجامعة ...اما العشاء فعادة ما نتناوله في شقة احدنا ؛ هذا اذا لم يكن عندنا الرغبة في الذهاب لتناول العشاء في منزل أصدقائي الهاملتون ! لقد كنا أحياناً نذهب الى مطعم والدتها والتي كانت قد دعتنا دعوة مفتوحة ، ومن صميم قلبها ، بان نحضر وعلى الرحب والسعة في اي وقت نريد ؛ وكلما يكن لدينا وقت !

لقد كانت والدة كرستينا دائما تعلمنا بل وتلح علينا كلما زرناها او هاتفناها ، باننا نسعدها بمجيئنا كل ليلية بل كل وجبة ! لقد كانت تنصحنا بان نوفر نقودنا لنصرفها على شراء الملابس واشياء ترفيهية اخرى ! لكن في الحقيقة لم يفكر احد منا بتوفير نقوده من اجل ادخارها للمستقبل !

اما الليل فقد كنا نقضيه ، كرستينا وأنا ، اما في شقتها او شقتي ، ما عدا عطلة نهاية الاسبوع حيث كنا نقضيها دائما في شقتي ، هذا اذا لم نكن خارج المدينة . لقد كنا نذهب عادة الى احد المنتجعات القريبة ! كانت كريستينا ، تفضل دائما ان نقضي ليالي الاسبوع الخمسة ، باستثناء ليلتي نهاية الاسبوع في شقتها ، لان هذا يخفف عليها مشقة الاستيقاظ مبكرًا صباح يوم الاثنين للذهاب الى شقتها حتى تستطيع ان نستحم وترتدي ملابس غير التي كانت قد ارتدتها باليوم السابق ! كان ذلك كما اعلمتني وهي تضحك بدلع وشبه خجلى ، يؤكد لزميلاتها بالعمل بانها قضت ليلتها مع رجل خارج شقتها ، اذاجاءت الى مكان عملها ترتدي نفس ملابس اليوم السابق !

إن الذي كان يريحني بل ويسعدني أيضاً ، هو أنني كثيرا ما أكون إما داعيًا او مدعواً ، وعندما يكون لدي ارتباطات أخرى وأعود إلى شقتي متأخراً جداً ، أجد أن كريستينا جالسة إمّا في سيارتها و إما في شقتي تنتظر عودتي ! انني لا أذكر ولا مرة واحدة طيلة فترة تعارفنا بأنها عاتبتني أو تذمرت بسبب تأخري ! إنها وللحقيقة والتاريخ ، فقد كانت دائما تعانقني بشوق وولهفة وهي تبتسم وتقول:

ـ آمل أن تكون قد أمضيت وقتاً سعيداً يا حبيبي !

ـ نعم ؛ لقد كان ! لو كنتِ برفقتي لكنتُ اكثر استمتاعاً ولمكثت مدة اطول ؛ لكنني عدت اليك ياحبيتي لانني لا اقوى على بعادك طويلا ! كنت دائما أقول مطيّباً خاطرها !

ـ شكرًا يا حبيبي ! انا واثقة بانك لا تقبل الذهاب الى اي مكان بدوني ، الا اذا كان اصطحابك لي غير ممكن !

ـ صدقيني يا حبيبتي ؛ أنكِ عندما لا تكونين معي أشعر بضيقٍ شديد و بوحدة قاتلة ! قلت صادقاً وبحماس !

ـ أقسم لكَ أنني أمرُّ بنفس التجربة ، ولولا أملي بلقائك في آخر الليل ، لربّما كنت قد اختنقت من شدّة شوقي إليكَ ! قالت وهي تمسح دموعها بظهريدها . و لمّا لم أعلّق أضافت :

ـ لقد أعلمت هذه الحقيقة لوالدتي ، فاعلمتني بأنني ما زال هذا هو ما أشعر به نحوك ، فيجب عليّ أن أحاول دائماً ارضاءك ؛ وأن أفعل ما يسعدك و لا أتصرف تصرفاً أو أقول قولاً قد يغضبك ! إنني آمل أن أكون قد فعلت ذلك دائما ! قالت بمسكنةٍ هزّت وجداني و أثارت كوامن أحزاني !

ـ إنّكِ ، و منذ لحظة تعارفنا ، وحتى الآن ؛ لم تقولي ولم تفعلي ما يغضبني أو حتى يكدّر خاطري ! أنتِ محيط من الحب والدفيء والحنان ياكرستينا ! إن هذا هو ما يجعلني أفتقدكِ بجنون و أشعر بضيقٍ شديد يكاد يخنقني ، عندما لا تكونين معي ! قلت صادقاً .

ـ ما أسعدني أن أسمع هذا يا حبيببي ! أرجوكَ ؛ أرجوكَ ؛ أن لا تتردد أبداً أبداً بأن تخبرني ان قلتُ أو فعلت شيئاً يغضبك !

ـ سأفعل ؛ سأفعل ! قلت ذلك و أنا أضمها إلى صدري وشفتاي تعانقان شفتيها !

*****

لقد اعلمتني كريستينا ذات ليلة قصة زميلتها ، سوزان ، التي تعمل معها فى المكتبة . لقد هجرها حبيبها بعد حب دام اكثر من عام كامل ، لانها ترفض طلبه دائما بان ينام معها الا بعد ان تجرى مراسم الزواج دينياً واجتماعياً !

ـ سمعت قصصاً كثيره من هذا النوع ، شباب وشابات متمسكون بهذا المعتقد ، بعضهم اكتسبوا هذا من الوالدين وبقية افراد العائلة ، وبعضهم تعلموه فى المدرسة او الكنيسة . قلت ثم اضفت :

ـ وهل تظنين بأن زملاءك وزميلاتك بالعمل ، يشكون بأننا قد لا نكون ننام معاً ؟! سألتها .

ـ نعم ؛ إنهم يعتقدون ذلك ؛ لأن الزميلات وخصوصا العازبات منهن يسألنني دائماً وبشوق ولهفة ، إن كنتَ أنتَ ممتعاً بالفراش ، وأنك كعاشق أجنبي تختلف عن الشباب الأمريكي ، فأجيبهن دائماً أن الذي بيننا هو صداقة فقط ، لم تصل بعد إلى درجة المعاشرة الجنسية !

ـ وهل تظنين أنهن يصدقن ذلك ؟! سألتها .

ـ لا أظن أنهن يصدقن ذلك ، ولكنهن يعرفن ، كما يعرف جميع الذين نعرفهم بأننا مخطوبان لبعض ، وأننا سنتزوج في المستقبل القريب ! قالت .

ـ اذا كان أي عاشقان ينويان الزواج مستقبلاً ، فما العيب في أن يناما مع بعض ؟! سألتها غير جاد !

ـ كنت أجيبهم دائما بأن هذا صحيح ، ولكن ممارسة الجنس بين الحبيبين تكون عادة بعد الزواج فقط لا قبله ، واذا حدث وأن أخلاّ بهذه التعاليم، فقد ارتكبا خطيئة ! هذا حسب تعاليم ديانتنا اليهود ية ! قالت .

ضحكت من براعة جوابها ولم أعلق ، إذ إن ما تقوله هو حقيقة في الديانة اليهودية الأصيلة ، وقبل أن تفسده حركات الصهيونية الجديدة . إنني أعتقد أن ديانتها في هذه الايام ، هي اكثر الديانات السماوية الثلاثة التي تبيح الجنس قبل الزواج !

ـ وهل تعرف والدتك بأننا نعيش كزوج وزوجة ؟!

ـ نعم ! قالت بخجل وأنزلت عينيها إلى الأرض استحياء ثم أتبعتها بهزة من رأسها وأضافت :

ـ لقد غضبت مني كثيراً أول الأمر ؛ لكنني عندما أكدت لها بأننا سنتزوج قريباً فرحت وسامحتني !

ـ وهل تقبل والدتك بان تتزوج ابنتها بزوج من غير ديانتها ؟! سألت وانا أتأمل ملامح وجهها لأعرف وقع سؤالي عليها !

ـ ان والدتي متحررة جداً ، وكذلك والدي ، اذ ان كل ما يهمهما عندما يتزوج احدنا ، نحن اولادهما ، هو ان يكون الواحد منا سعيدًا في حياته ومؤمنا فيما يفعل ! قالت ذلك وهي تحرك يديها لتؤكد مقولتها !

بعد مضي حوالي شهر على تلك الحادثة ، سألتني كريستينا فيما إذا كنت أريد أن ينشأ أولادنا ، طبقاً لتعاليم الديانة اليهودية أو الإسلامية ، فأعلمتها بأنني أريد أولادي ان يكونوا مسلمين موحدين ؛ لا أريدهم أبداً أن يدينوا بأية ديانة أخرى ؛ متجاهلا قولها "أولادنا" !

ـ لا مانع عندي إذا كانت هذه هي رغبتك ، وإن كنت أحبهم أن يتربوا حسب تعاليم الديانة اليهودية ؛ لأنني أستطيع أن أثقفهم ثقافة دينية يهودية صحيحة ومتينة . إنني أجيدها تماماً ...أما الديانة الإسلامية فلا بدّ لي من أن أدرسها حتى تكون لدي المعرفة الكافية بتعاليمها لأستطيع أن أثقفهم بها ! قالت.

ـ ومن الذي أخبرك بأننا سننجب أطفالاً ؟! سألتها بفجاجة وغلظة !

ـ ألا تريدنا أن ننجب أطفالاً بعد أن نتزوج ؟! سألت والخيبة تغطي وجهها .

ـ ومن قال لكِ بأننا سنتزوج أصلاً ؟! سألتها بغضب لاهب وقد احمرّ خداي .

ـ وماذا تعني ؟! أليست النتيجة الطبيعية لكل حب هي الزواج ؟! سألت .

ـ إلا حبي أنا ! فإنه يختلف عن جميع المحبين ! قلت وأنا اصرّ على مخارج الكلمات لتفهم وتعي الرسالة كاملة ؛ ثم أضفت وانا اهزّ ابهام يدي اليمنى :

ـ أنا يعربيّ متعصب لعروبتي ؛ ومع أن ديني لا يمانع بأن يتزوج الرجل المسلم بامرأة من أية ديانة سماوية أخرى وصاحبة كتاب ، كاليهودية أو المسيحية ، حتى لو بقيت هي على ديانتها ؛ إلا أنني لا أقبل إلا أن أتزوج بعربية مسلمة ، مؤمنة وموحدة ... مهما كان حبي قوياً لتلك الفتاة ، ومهما كان تعلقي بها شديداً ! أنا قومي عربي ... أنا يعربي حتى النخاع !!

ذهلت كريستينا لِمَا قلت ، بل صعقت ! بعد جدال دام لأكثر من ساعة ، لملمت أغراضها وانصرفت ، وصفقت الباب خلفها !

انقضى أسبوع ويومان بالضبط ، ولم أر أو أسمع لا من كريستينا ولا عنها ؛ كذلك لم أتصل بها أنا أو أحاول أن أراها ، لأنني إن فعلت فمعنى ذلك بأنني مقتنع بل وموافق على ما طلبت مني !

لقد سألني عنها بعض الزملاء والزميلات ، الذين كانوا يعرفون عن صداقتنا ومقدار عمقها ومتانتها ؛ فكنت أعلمهم دائماً بإن علاقتنا قد انتهت نهائيا بسبب اختلاف الثقافتين وكذلك اختلاف المفاهيم الأيديولوجية والحضارية ! لقد كنت أقصد من وراء ذلك ، أن يصلها قولي هذا ، حتى تعرف أنني جاد بما أقول .

عندما ذهبت إلى شقة أصدقائي عائلة الهاملتون مساءً ، قابلتُ أختي لوشينتا و أعلمتها بما جرى من حديث بين كريستينا وبيني ، و أعلمتها أيضا بأنها لممت حوائجها و تركت الشقة غاضبة !

ـ إنّ أية فتاة يا أخي ، تقبل دعوة شابٍّ للخروج معه للمرة الثانية ، فمعنى ذلك أنها استلطفته ثم أحبته ؛ وأنه من الممكن أن يكون لها زوج المستقبل ! انك أنت وكريستينا صار لكما ما يقارب الستة شهور تعرفان بعضاً و تخرجان معًا ، و هذه مدة ليست بالقصيرة . أنتما لا تخرجان معاً بالمناسبات فقط ، وانما تعيشان معاً كزوج و زوجة ، ومن غير الطبيعي أن لا تفكر كريستينا بالزواج منك ! و بعد أن أرجعت خصلت شعر نزلت فغطّت جزءا من وجهها ، أضافت :

ـ إنني و منذ مدة طويلة و أنا أتوقع أن تأتي إليّ وتعلمني بأنها طلبت إليك أن توقّعا عقد الزواج ! إنّ ما تقوله ليَ الآن لا يفاجئني إطلاقاً !

ـ ولكنكِ تعرفين رأيي جيدًا في هذه القضيّة ، وهو أنه لا يمكن أن أتزوج إلاّ عربية مسلمة ؛ لقد ذكرت لك الأسباب في حينها ! قلت.

ـ أنا مدركة لهذا ، ولكنها هي لا تقبل هذا التعليل ! إنها تحب إنساناً و تتوقع من هذا الإنسان أن يظل إلى جانبها طيلة عمرها ، و أن تنجب منه أطفالاً و تنشيء عائلة ! قالت .

ـ هل أنتِ واثقة من أنها تفكّر هكذا ؟! قلت .

ـ أجل ؛ كثقتي بوقوفكَ أمامي الآن ... ! قالت . .
ـ ذهبت السكرة وجاءت الفكرة! قلت لنفسي .

*****

لقد افتقدت كريستينا كثيرًا ، حتى كنت اشعر احيانا بالاختناق ! لقد فكرت اكثر من مرة ان اهاتفها او ان اذهب واعتذر لها ، بل واطلب منها ان نعود لبعض وانني اقبل الزواج منها وبشروطها ؛ لكنني كنت دائما اغير رأيي في آخر لحظة !

لقد افتقدت مداعباتها وضحكاتها وتدليلها لي وقفشاتها ، كما افتقدت كثيراً جسمها اللدن الناعم والتي كانت تصر دائماً على أن أحتضنه وأدفن رأسي بين نهديها عندما كنا نأوي إلى فراشنا حقاً ! لقد كان الفراش بارداً وكئيباً جداً ، حتى كان معظم الليل ينقضى وانا اتقلب فى فراشي من جانب الى آخر ، وكنت في كثير من الأحايين ارمي بالغطاء بغضب لاهب بعيداً عني ؛ أذهب بعدها إلى الثلاجة و أفرغ في جوفي قارورة من الماء المثلج !

لقد افتقدت كثيراً جداً أيضاً الحمام الذي كانت دائماً تصر على أن تقوم به قبل أن نأوي إلى فراشنا ! كانت تملأ "البانيو" بالماء الساخن، وتمزجه بالصابون السائل المعطر وتقودني إليه كطفل صغير تمسك أمه بيده وهي تناجيه وتناغيه وتدلله ... ثم تدلك لي جسمي وتعمل لي مساجاً لمدة طويلة ، أشعر بعدها بسعادة واسترخاء عظيمين ، وأنني أحلق بين الغيوم وفي أجواء السماء العلى ... بعدها تخرجني من الماء وتجفف لي جسمي ثم تضعني بالفراش عارياً وترقد إلى جانبي وهي عارية ايضاً ، ثم تعطيني صدرها لأرضعه وهي تتضاحك ، وكأنما أنا رضيعها الذى رزقها الله به بعد انتظار وصبر طويلين ... وهي تردد كلمات تدليل مغناجة ومناغاة !

*****

لا شك ان السبب الذي جعلني أتصرف هكذا ، هو القحط العاطفي والحرمان الجنسي ، الذي عانيت منهما أيام الطفولة واليفاعة ! لقد بلغت السادسة و العشرين من عمري لم يلامس جسدي امرأة ! لقد كانت سنوات عمري كلها جوع و حرمان و معاناة ، ثم عذابٌ و سهر و دموع !

أنا رجل مفجوع حتى نخاع النخاع بالنسبة للمرأة ، ولا أستطيع أن أعيش بدونها أسبوعاً واحداً ، منذ قدومي إلى أمريكا ! إنني أريد دائما امرأة الى جانبي تشعرني برجولتي وفحولتي ؛ تشبع لي جوعي و تروي لي ظمأي ! امرأة تدللني كما تدلل الأم طفلها ... ! ولهذا فقد شعرت بوحدة قاتلة تمزق كياني بعد غياب كريستينا ، وأنني يجب أن تكون برفقتي امرأة هذا المساء ؛ إن أمكن ! وخطرعلى بالي نستاشيا ماكنتاش ، وادعوها لنقضي الليلة سوية !

*****

الفـصل السـادس عشـر

لقد تعرفت على الآنسة " نستاشيا ماكنتاش " ، بطريقة غريبة وعجيبة حقاً؛ فقد كنت عائداً لتوي إلى مكتبي من آخر محاضرة لهذا اليوم ، وكانت بحدود الساعة الثانية بعد الظهر !

كنت قد أخرجت من جيبي حزمة المفاتيح الضخمة لأجد من بينها مفتاح المكتب. لم أكن قد عثرت عليه بعد عندما شعرت بحركة خلفي؛ وعندما التفت وجدت فتاة ، طويلة القامة ممشوقة' القوام ذات جمال متميز ، واقفة تبتسم ! لم يسبق لي أن رأيتها من قبل ! رحبت بها و تابعت بحثي عن المفتاح ، وعندما وجدته فتحت ودخلتُ ودخلتْ هي خلفي.

بعد أن ألقيت بما أحمل من كتب ودوسيات فوق المكتب ، أشرت اليها أن تتفضل بالجلوس، بعد أن رحبتُ بها ثانية دون أن أسألها عن سبب زيارتها، وإنما قلت !

- وجهك غير مألوف لي، إذ لا أظن أنك طالبة في احدى المساقات التي أحاضر بها ، وإنما تُسعدني جداً زيارتك لي والتعرف عليكِ !

- حقا ، ما أنبلك ! إنّ الذين مدحوك لم يوفوك حقك من الثناء ! إنك لم تسألني، كما يفعل الأخرون، عن سبب زيارتي، بل رحَّبت بس ترحيباً حاراً وقدمت لي مقعداً ! أقولها مرة ثانية ؛ ماأكرمك وما أنبلك !

- لقد كان آباؤنا ، أيام المد القومي والتألق الحضاري ، يستقبلون الضيف في بيوتهم لمدة ثلاثة أيام، يعطونه منامةً ويقدمون له الطعام ولا يسألونه عن اسمه ولا عن سبب حضوره، إلا إذا هو ذكر لهم ذلك ! قلت لها هذا و أنا أضحك.

- و لهذا السبب أنت ورثت عنهم هذه العادة العظيمة ! قالت بحماس وهي تبتسم.

تجاهلت تعليقها و أضفت !

- إن في نيتي أن أتوجه إلى مطعم الأستاذة لتناول وجبة الغذاء؛ فيسعدني جداً إن تتكرمي عليّ و تمنحيني شرف قبولك دعوتي لأتناولها بمعيتك ! قلت وأنأ أ تأمل عينيها العسليتين، وشعرها الذهبي المرسل على كتفيها وكأنها عناقيد من الذهب !

- إنني و لكثرة ما تحدثوا عن كرمك و دماثة أخلاقك، كنت أتوقع أن تضيفني فنجان قهوة بعد أن تسألني عن سبب زيارتي لك، ولكنني لم أكن أتوقع دعوة على الغذاء ! يالك من رجلٍ عظيم !

- وإذا كنت لا ترتاحين في مطعم الأساتذة ، نذهب إلى مطعم الطلبة، أو حتى نذهب إلى أحد المطاعم القريبة. قلت بحماس.

- ما زلت قد تركت لي الخيار، فإنني أفضل الذهاب إلى مطعم الطلبة ؛ وذلك وبصراحة مطلقة ، فإنني أحب أن تراني الطالبات اللواتي أعرفهن ، و أنا أتغذى معك ! قالت وهي تتضاحك.

- و هو كذلك. قلت و قد نهضت و اشرت إلى الباب فخرجتْ وخرجتُ بعدها.

لقد ذكرت لها في طريقنا بأنه لا يمرّ اسبوع دون أن أدخل مطعم الطلبة وبصحبتي بعض الطلاب أو الطالبات العرب، لمساعدتهم في حل مشاكلهم الأكاديمية أو المادية ... وكثيراً من الأحايين لإرشادهم لتجنب مضايقات الطلبة اليهود المتعصبين ضدنا !

ما كدنا نفرد صحون الطعام أمامنا على الطاولة، وكنت لتوي قد انتهيت في سرّي من ذكر البسملة وشكر الخالق على هذا الطعام الذي نحن على وشك تناوله، وقبل أن تبدأ الصبية بوضع أول لقمة في فمها قالت وهي تسدد إليّ نظرات ساحرة من عينيها النجلاوين وتبتسم.

- إنك حتى الآن لم تسألني ما اسمي و ما سبب زيارتي لك !

- لقد أخبرتك بأنني لن أسألك إلّا بعد مُضي ثلاثة أيام في ضيافتي ! قلت وأنا أتصنع الجد !

انفجرت تضحك لفترة حتى سالت دموعها، و بعد أن جففتها بالمنديل الورقي الذي أمامها قالت !

- وهل معنى ذلك أنني سآتي إلى مكتبك يومين آخرين و نتغدى سوية ، ثم بعدها أبوح لك بالطلب الذي أتيت من أجله ؟ !

- أو تأتين إلى شقتي وتمكثين ثلاث ليالٍ في ضيافتي، بعدها أسألك عن سبب زيارتك لي !

وهنا انفجرت الصبية تضحك وتكركر بصوتٍ عالٍ لمدة ليست بالقصيرة، وحتى دمعت عيناها ، مما جلب انتباه عدد كبير من الطلبة المجاورين الذين صاروا ينظرون إلينا ويبتسمون !

عندما كفت عن الضحك ومسحت دموعها من جديد اعتذرت وبحرارة أكثر من سابقتها وقالت !

- ارجوك ! ارجوك اعذرني ! إنني لم أسمع في حياتي كلها كلاماً بهذه الجرأة وهذا الصدق ! حقاً ، إنك إنسان نادر وعظيم ! وحقاً أيضاً إنهم لم يوفوك نصيبك من المديح ! قالت وقد بدأت بتناول الطعام بشهية وتلذذ.

- صدقيني، إن قلت لك بأنني سعيد جدًا أن أراكِ تضحكين بقلب خلي ؛ و إنك سعيدة بجلستك هذه ؛ و أنك لست نادمة على معرفتي ! قلت بصدق و حرارة.

- و كيف لي ألا أكون سعيدة بمعرفتك و أنت غمرتني بكل هذا اللطف والكرم ونحن لا زلنا في أول تعارفنا !

-على كل حال آمل أن تدوم ثقتك بي ! قلت.

- اطمئن ، لن أندم . و بعد أن أعادت خصلة من شعرها سقطت وغطت عينها اليسرى ، قالت !

- اسمي نستاشيا ماكنتاش ، طالبة دراسات عليا؛ احضّر للدكتوراة ، واختصاصي فلسفة وعلم نفس !

- اللهم استر ! لقد أرعبتني حقاً ! فلسفة وعلم نفس دفعة واحدة !؟ يا للمسكين ؛ ذلك الرجل الذي يوقعه سوء حظه بحبك ! إنك ستعقدينه وسيصاب بالجنون، وأنتِ دائما تتفلسفين عليه ؛ ودائما تحللين شخصيته وما يقول !

قلت ذلك على عجل وكأنما كنت ألقي خطبة من ورقة مكتوبة ومعّدة؛ مما جعلني أنا نفسي أستغرب مما قلت !

و من جديد ضحكت بتلذذ و قالت:

ـ ما أجرأك !

- صدقيني يا آنسة ماكنتاش ، انني أتجنب وبكل ما أستطيع ؛ نقاش أو حتى التكلم مع طالبات الفلسفة ؛ لأنهن يفلسفن كل ما يقال ولا يَقبلن الرأي الآخر ! قلت.

- وأنت صدّقني أيضاً يا برفسور دهشان، إنني لست واحدة منهن؛ إذ إنني أقبل الرأي الأخر إذ اقتنعت بما يقول !

- حقاً وصدقاً ، لقد اسعدتني بقولكِ هذا، فشكرًا لكِ. قلت.

- والآن هل تريدني أن أخبركَ سبب زيارتي؟!

- قلت لكِ أنني لن أطلب إليك ذلك إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام متواصلة في ضيافتي ، احترامًا لعادات أجدادي؛ اللهّم إلّا إذا أحببت أنتِ أن لا تنتظري ! قلت وأنا أتصنع الجد .

- هل معنى ذلك أنك تقبل ضيافتي في شقتك ثلاثة أيام ، دون أن تسألني سبب زيارتي ؟!

ـ ثلاث سنوات إن أحببتِ ! قلتها بتباهٍ و فخر جاهلي !

-عندها سيكون عليَّ أن أطبخ لكَ ، وأغسل ملابسك ، و أنظف لك الشقة.

- لن أزعجك في عمل ذلك أبدًا ، إذ أنني قلما آكل في الشقة ، وعندما أحب أن أفعل فهو من أجل أن أطبخ بعض الأكلات العربية التي أحبها، وأيضا أجيد طبخها . اما تنظيف الشقة وترتيبها فهناك لي جارة، سيدة متقاعدة تقوم في عمل ذلك يومياً .

ـ إذن ، أعمل لك مساجًا ، ثم أحممك ، و بعدها ادفئ فراشك ليلًاً ! قالتها بجرأة أذهلتني و صدمتني أيضا ، و هي تتضاحك !

- لا أدري ماذا تعنين ! قلت و أنا أحملق بها و قد أغمضت عيني نصف إغماضة ، متظاهرًا بعدم المعرفة !

- دعني أولًا أقول لك سبب زيارتي ! إنني لم أقابل أحداً من طلبتك و خصوصًا الطالبات ، إلاّ و يتكلمون عنك بحماس و احترام شديدين أذهلانني ! إنهم يقولون بأنك اجرأ أستاذ على الساحة الأكاديمية ؛ وكذلك أسخاهم في منحك للعلامات التقديرية ! إنك تعاملهم و كأنهم أصدقاء أعزاء لك ، تتحدثون و تتزاورون و كأنكم في زيارة لبعض ، وليس في قاعة محاضرات !

ـ صدقيني يا آنسة ماكنتاس ، إني ورثت هذا البحر الزاخر و النهر المتدفق من الكرم و المحبة عن والدّي ! لقد كان بيتنا دائمًا مفتوحًا و مرحبًا بالسائلين و المحتاجين ! كانت والدتي تقدّم الطعام للفقراء و المحتاجين رغم قلته و حاجتنا الماسة إليه، نحن صغارها ! قد يكون ما تقولينه صحيحًا، و لكنني غير مدرك له ، اذ أن هذه هي طبيعتي و هكذا تربيت ! على كل حال، أشكرك شكرًا جزيلًا أن جلَبَتِ انتباهي لهذه الحقيقة التي لم أكن مدرك لها قبل الآن !

- إنهم و لكثرة ما استهبوا بمدحك فقد وقعت في حبك ، و صممت على أن أتعرف عليك و أحاول أن أكون فتاتك ؛ خصوصًا بعد أن سألتهم إن كنت متزوجًا، فأعلموني بأنهم يعتقدون بأنه لا يوجد لك حتى صديقة ! قالت شبه خَجلى وعيناها تحاولان أن تتجنبا النظر الى عيني !

و هنا استغرقتُ في ضحك طويل ؛ و بعد أن توقفتُ قلت:

ـ يا لي من إنسان محظوظ ! لقد قال أحد شعراؤنا ، " والأذن تعشق قبل العين أحيانًاَ ". لم أكن أعرف أن هناك فتاة جميلة وساحرة أيضاً ، وطالبة علم نفس وفلسفة ، تهتم بي وتتبع أخباري ! قلت متظاهرًا بالهزل وإن كنت حقاً فرحاً بما قالت !
تجاهلتْ تعليقي ، وتابعت حديثها بجدية أكثر وحماس أكبر:

- لقد تعملقتَ في عيني ووصلتَ عنان السماء ، ووقعت حقًا في حُبك ، عندما لم تسألني عن سبب زيارتي وإنما دعوتني إلى الغذاء ، وأن أختار المطعم الذي أريد... وكذلك غضبك عندما أستأذنك بأنني أريد طلب صنفٍ غالياً من الطعام ... وفوق ذلك لقد وجدتك ليس فقط جريئا و كريمًا، وإنما وسيمًا وجذابًا لدرجة مذهلة ! قالت بحماس وهي تستعمل يديها لتؤكد مقولتها !

وهنا وبلا إرادة مني وجدت نفسي أنفجر ضاحكًاً ؛ ولم أستطع كبح زمام ضحكي إلا بعد فترة ليست بالقصيرة ؛ فقلت:

- على كل حال شكراً لإخباري ، إذ لا أحد قبل اليوم أخبرني بهذا ! لقد أعلمنني الكثيرات بأنني جميل الوجه والمحيا إلى جانب جرأتي و شجاعتي الأدبية !

- أعذرني إن قلت لك بأنني لا أصدق ذلك ، وإنما تقولها تواضعًا وتادبًا ! قالت.

- شكرًا على الثناء؛ ولكن دعيني أحدثك عن سبب جرأتي الزائدة وشجاعتي الأدبية ! إنني ومنذ أن وعيت نفسي ، وأنا لا أسمع في البيت إلا كلمات ؛ هذا عيب ؛ وهذا حرام ؛ وهذا لا يجوز ... ! وعندما ذهبت إلى المدرسة والمسجد ، لم أسمع إلا كلمات ، هذا لا أخلاقي ، وهذا يُدخل نار جهنم.؛ وعندما كبرنا وخرجنا إلى الحياة، فقد استلمنا أحباؤنا رجال المخابرات والمباحث، فكمموا أفواهنا إلا بمدح إلحا كم و زبانية ! ولكن عندما اتيت إلى أمريكا ، شعرت أنني كنت مسجونا في قمقمٌ فانطلقت ! لقد وجدت أن سقف الحرية لا حدود له ، وأنك تستطيع أن تقول كل ما تعتقد دون أن يحد إنسان من حريتك ، و لهذه انطلقت اصول وأجول !

- شكرًا جزيلًا على الأيضاح ! قالت.

وبعد أن رطبت شفتيها بلسانها، قالت شبه خَجلى وهي تتجنب النظر إلى وجهي:

- والآن ، إعذر صراحتي ؛ فهل تقبل أن أكون ، فتاتك ؟!

- قبل أن أجيبك على سؤالك هذا، دعيني أقول لك بأنني لست فقط أحترم صراحتك و شجاعتك الأدبية ؛ و إنما أقدسهما ! إنه قبل خمسة عشر قرنًا ، كانت هناك سيدة جليلة اسمها خديجة بنت خويلد الأسدية ، تقدمت من رجل اسمه محمد بن عبد الله وعرضت عليه أن يتزوجها . لم يتهمها بني قومها ، في ذلك الوقت ، بأنها داست على العادات والتقاليد ؛ وإنما احترموها واثنوا على جرأتها وشجاعتها ! إنه لا عجب أن تاتي أنتِ اليوم ، في زمن النور والحرية والديمقراطية ، وكذلك في زمن الأخاء والمساوات ؛ وأن تعرضي علي أن تكوني فتاتي !

وهنا نهضت الفتاة من قبالتي ودارت حول الطاولة وعانقتني ثم طبعت على خدي قبلة خاطفة وعادت الى مكانها وواصلت تناول طعامها ؛ وبعد قليلٍ سألت ؛

ـ وهل معنى ذلك بأنك قبلت بأن أكون فتاتك ؟! سألت وهي تتأملني وتبتسم وتطلق من عينيها النجلاوتين سهاماً أشعلت الحرائق بدمي !

ـ المشكلة هي ليست أن أقبل أو لا أقبل ، المشكلة أعمق من ذلك بكثير؛ وهو أنني لايمكن أن أحب إمرأة واحدة وأخلص لها لفترة طويلة ! قد أحبها إسبوعاً ؛ شهراً ؛ وربما بضعة شهور ، وربما أكثر ؛ ولكنني سرعان ما املّها وأبحث عن غيرها ! وبعد أن تمهلت قليلاً أضفت :

ـ سميه مرض ... سميه لعنة ...معتقدات قبلية ... ترسبات حضارية ...فلسفات فكرية ... ارهاصات حضارية ... تزمتات دينية ... وقد تكون هذه كلها مجتمعة ... ! قلت .

ـ أنت الآن الذي تفلسف الأمور ولست أنا ! حقاً؛ لم أفهم ما قلت ، على الرغم من أنني طالبة فلسفة ! قالت وهي تقلب يديها !

ـ دعيني أبّسطها لكِ ! إن قلبي كالغربال ؛ يحب امرأة ، فلا يمكث هذا الحب إلا فترة ، قد تكون شهراً وقد تكون اكثر قليلاً ... فيملها ... ثم يبحث عن حبٍ جديد ... ! وككذا دواليك ... ! قلت بحماس !.

ـ لابد وأنك تمزح ! !قالت وقد حملقت بي مشدوهة !

ـ انا في منتهى الجد ! لقد أحببت في حياتي نساء كثيرات ؛ معظمهن حتى أنني نسيت اسماءهن ! تبقى الواحدة أياماً وربما أسابيع ثم أملها فأفتش عن غيرها ! قلت .

ـ السبب هو لأنك حتى الآن لم تقابل الفتاة التى تحتل عقلك وتملأ قلبك وتشبع عواطفك ؛ حتى تستمر بحبك لها ، ولا تقوى على فراقها ! قالت بحماس وحرارة !

وبعد أن ضحكتُ طويلاً على تعليقها أضفت :

ـ صدقيني ، كلهن يقلن ذلك ؛ وكل واحدة منهن تعتقد أنها النطاسي البارع الذي يستطيع أن يشفيني من مرضي هذا ! إنني أستطيع أن أزعم بأنكِ فكرتِ هكذا ! قلت .

وبعد أن ابتسمت هزّت رأسها عدة مرات الى أعلى وأسفل ، قالت :

ـ نعم ، لقد فكرت هذا ، حقاً !

ـ والآن وقد فهمتِ طبيعتي ، فهل تقبلين بأن تكوني فتاتي لفترة لا أحد يعلم مدتها إلا الله ، خالق الأكوان ؟!

ـ ولم تخبرني من الآن ؟! سألت باستغراب وحيرة !

ـ سمها أمانة مني ... إخلاص ... صدق ... وفاء ... إنني لا اريد أن أحطم قلبكِ ... أريدكِ أن تعرفي مسبقاً ماينتظركِ ، حتى لا تتهمينني بالخسة والنذالة وعدم الوفاء ، بعد أن اعتقدتِ بي الكرم والشهامة والرجولة !

ـ حقاً ؛ إنك تحيرني ! لقد تركتني في حيرة وذهول كاملين !

ـ والآن ، دعينا نغادر وقد إنتهينا من تناول طعامنا ، ونذهب الى شقتي ، إذ لا التزامات عندي بقية هذا اليوم .

ـ أحب ذلك كثيراً ! قالت وهي تبتسم ، وقد أضاء وجهها وتأججت عيناها !

توقفنا في طريقنا الى شقتي واشترينا بعض حاجيات الطعام ، وكذلك اشتريت لها باقة من الزهور قدمتها لها ، مما أسعدها كثيراً ، وقبلتني على خدي قبلة خاطفة

! لم أذهب الى محل صديقتي اللبنانية روزانا لشراء الزهور ، إذ شعرت بأن محبتها لي قد فترت بعد أن رفضت الزواج من صديقتها جودي ... وإن كانت هي تؤكد لي وبشدة ، بأن محبتها واحترامها وكذلك شوقها لي لم يتغير ولم يتأثر ... وأنها دائماً تسعدها رؤيتي !

لاأدري لماذا، إنني ومنذ أن وعيت على نفسي ، وأنا لا أطيق رؤية المدخنين من الرجال، إذ أنني اكره التدخين كراهية مطلقة ، وكذلك أتجنب صداقة بل وحتى رؤية الرجال المدخنين ! هذا بالنسبة للرجال ، أما بالنسبة للنساء ، فأنه يجعلني أصاب بالإحباط والقرف ! إنه في رأيي جريمة نكراء بحق الأنوثة والجمال والعفة ! إنه يشوّه الصورة الرومانسية للمرأة !

إنني عندما أرى إمرأة تدخن ، وخصوصاً اذا كانت صغيرة وجميله ، أشعر وكأنما بال أحدهم على الأنوثة والعفه والطهر والجمال ، فاحس باشمئزاز وقرف شديدين ، وأنني أكاد أن أتقيأ ! إنني اتصور وكأنما انساناً جلفاً يبول على سلة من الأزهار والورود والقرنفل ، ثم يلقي بها في حاوية القمامة ، فأشعر بأنني أريد أن أستفرغ !

لقد شكرت الله كثيراً أن جميع الذين أحبهم واتعامل معهم ، لايدخنون فقط ، وانما يكرهون التدخين كرهاً شديداً ،لأسباب عديدة !

إن كرستينا ووالديها لايدخنون ، وكذلك صديقاي ، السيد والسيدة هاملتون ، وأيضاً مديرة دائرة الشرق الأوسط في الجامعة ، الدكورة كنياتا ! إنهم جميعاً يعرفون أنني أكره التدخين وأفضل تجنب صداقة المدخنين !

لم تدم صداقتنا ، نتاشيا وأنا ، إلا ليلة واحدة فقط ، فقد أعلمتها صباح اليوم التالي ، وبكل صراحة وصدق ، رأيي بالتدخين والمدخنين ، وخصوصاً الأناث الصغيرات والجميلات !

أعلمتني الشابة بأنها ستتوقف عن التدخين في التو واللحظة ، وبكل سعادة وسرور! لقد أعلمتها بأنها حتى لو كانت تملك الأرادة الجبارة لتركه ، وكذلك النية الصادقة والمخلصة ، فأنها تحتاج الى عام كامل على الأقل ، لتتخلص أنفاسها وجسمها من رائحته ، المعشعشة والمتجذرة في كل جزءٍ من كيانها !

لقد أعلمت نتاشيا، بأنني عندما أكون مع إمرأة في غرفة النوم ، فانني أتوقع أن يكون عبق انفاسها وأرومة انوثتها وفيض حنانها، يدخلني في متعة سرمدية ؛ ليس فقط مايميزها عن الرجل ! إنني أنهض عادة بعدها ، فأستحم واتوضأ ثم أسجد خاشعاً واصلي ركعتين شكراً لله تعالى على نعمته ، قبل أن أصلى الفرض الذي فرضه علينا ، رب السموات والأرضين !

لقد أدمت البنية قلبي واحرقت وجداني ، وهي تخبرني من بين دموعها ونشيجها ، بأنها لم تشعر يوماً ، بجمال وروعة انوثتها وبفيض حنانها ، إلا بعد أن عانق جسدي جسدها ! و إنها لم تشعر يوماً بالأمان إلاّ بعد أن تعارفنا وتحادثنا ! لقد أعلمتني أيضاً وهي تنشج لو أن أحدهم أعلمها يوم بدأت التدخين قبل ثلاث سنوات بانها ستقابل يوماً رجلاً تحبه كل هذا الحب ويدللها كل هذا الدلال، لرفضت رفضاً قاطعاً أن تلمس حتى مجرد اللمس هذا الملعون الذي إسمه السجاير !

تحت ضغط زخم العواطف واصطخاب الوجدان ، تركتُ الشقة على عجل صباح اليوم التالي ، وأنا اتمزق ألماً وأحترق خزناً ! لقد أدمى وجداني منظر البنية وهي تبكي وتتوجع ! تركت الشقة على عجل لألحق بأول محاضرة عندي ، وطلبت اليها أن تترك لي مفتاح الشقة تحت الباب عندما تغادر !

لقد طلبت اليها ان تترك رقم هاتفها إن رغبت ، فقذ أكلمها يوماً ،لأطمئن ، على حالها واحوالها !

عدت عند منتصف الليل الى شقتي بعد أن تناولت وجبة العشاء في بيت أصدقائي الهاملتون ، فوجدت رسالة طويلة من نتاشيا ، كانت صلوات ابتهال وطقوس عبادات !

لقد قرأتها مرات عديدة حتى إستطعت أن استوعبها ! لقد كانت تحليل عميق وموسع لشخصيتي ولتفكيري وتصرفاتي ! كانت تحليلاً صادقاً ومسهباً ، نفسياً وفلسفياً ، فتح عيوني وجلب انتباهي على حقائق كثيرة وعميقة لم أكن افكر بها قبلاً !

لقد بقي تحليل نتاشيا لشخصيتي فترة طويلة يعيش معي في ضميري ووجداني ، ثم ضاع في زحمة العمل وتراكم الأحداث ، الى أن تذكرتها هذا اليوم ! لقد فكرت أن أهاتفها وادعوها الى العشاء لولا مكالمة والدة كرستينا لي !

*****

الفصـل السابع عشر

سمعت جرس هاتف مكتبي يرن وانا اعبر القاعة في طريقي اليه عائداً من آخر محاضرة عندي ، وقبل ان افتح الباب كان رنينه قد توقف !القيت بما احمل من كتب ودوسيهات فوق المكتب وصرت ابحث في دفتر هواتفي عن رقم هاتف الآنسة نستاشيا ماكنتاش ، عندما رن جرس الهاتف من جديد ! كانت المتكلمة السيدة مونيكا هارشفيلد ام كريستينا ، وبعد ان سألتني عن الصحة والتدريس ثم عن اخبار العائلة في الوطن ، وخصوصًا الوالدة ! ذكرت لي كيف انه صار لها مدة طويلة لم ترني وانها قد اشتاقت لي وافتقدت احاديثي الشيقة وجلساتي الممتعة ! ثم ذكرتني بان لا انسى ان لدي دعوة مفتوحة للعشاء في مطعمها في اي وقت اشاء ، لوحدي او مع من اريد !

كان حديثها كعادتها وديّاً جداً ؛ رقيقاً ناعماً بشوشاً ، يفيض بالعواطف والمشاعر والمحبة ، تتمنى وأنت تستمع اليها لو أن تستمر لمدة طويلةٍ طويلة ، حيث أن سحر حديثها ينقلك الى عالم مخملي من العطور الأنثوية الدافئة ؛ ثم ختمت حديثها بقولها :

ـ لقد صار لنا مدة لم نرى بعضنا بعضًا ولم نتعشى معاً سوية ! إن زوجي وانا ، ندعوك لنتعشى معاً هذا المساء في الوقت الذى تختار ! ان داوود لديه اخباراً سارة يحب ان يزفها اليك ! قالت ذلك واتبعتها بضحكة دلع وغنج زادت في إلهاب مشاعري شوقاً الى كرستينا !

ـ يسعدني ذلك كثيراً ! سأكون عندكم بحدود الساعة الثامنة ، بأذن الله ؛ اذ ان عندي اجتماع القسم الاسبوعي والذى سيبدأ بعد نصف ساعة من الآن ، ولا ادري كم يستغرق ولا متى سينتهي ! قلت .

ـ بلغ تحياتنا الحارة ، زوجي وانا ، الى الدكتورة كنياتا روزنتال ، وذكرها بان لا تنسى دعوة الاسبوع القادم .

ـ سأفعل ؛ قلت وقد دبّ الهلع في قلبي !

عندما بلغت الدكتورة روزنتال ، تحيات السيدة روشفيلد قالت بعد ان شكرتني :

ـ عندنا الاسبوع القادم عيد "الهانيكا" اليهودي ، ومن المفروض ان يحضره عدد كبير من الأهل والاصدقاء ؛ ولما لم اعلق اضافت :

ـ كن جيداً مع ابنتهم يا أستاذ سهيل ! لقد اعلموني بأنها تحبك ومعجبة بأخلاقك كثيراً ! انني اعرفها جيداً إذ أنها مخلصة ووفية في صداقتها ! انها فتاة ذات اخلاق عالية . لقد سألوني عنك فأثنيت عليك وطمأنتهم بان لا يقلقوا بخصوص علاقتك بابنتهم !

ـ شكرا لك يا دكتورة ؛ وسأكون عند حسن ظنك بي ؛ بإذنه تعالى ! قلت هذا وقد بدأ الخوف والقلق يستَبدان بي من جديد !

كنتُ في ذلك اليوم بحالة من اليأس والاحباط الشديدين ، لدرجة من الصعب عليّ تصورهما ! لقد شعرت أن الدنيا في عينيّ كما يقولون "اضيق من سَمَ الخياط" ! انني ومنذ ان أتيت الى امريكا ، لم أشعر بمثل هذا الشعور الممزق ، ولم يستولي على قلبي وروحي هذا الاحساس المدمر بالوحدة والغربة والضياع !

انني ، ومنذ أن عُيّنت في هذه الجامعة المتميزة ، كأستاذ علوم سياسية ، لم أشعر بمثل هذا اليأس ولا هذا الاحباط ! إنني وعلى العكس من ذلك ، كنت دائما فرحا مرحا سعيدا متفائلا بالمستقبل وبحياة رافهة رغيدة !

ان مديرة دائرة الشرق الأوسط ، وكذلك جميع الأساتذة و الأستاذات وكذلك الموظفين والطلبة وخصوصا الطالبات ، كلّهم يحبونني ويتوددون إليّ ويثنون على طريقتي في القاء المحاضرات وكذلك سعة اطلاعي وحسن معاملتي واحترامي لكل من اتعامل معه !

انه وحتى الدكتورة كنياتا روزنتال ، مديرة قسم دائرة دراسات الشرق الأوسط، في الجامعة ، فإنها تعاملني بإحترام وشفافية يعجز اللسان عن وصفهما !

إنها عندما تريد أن ترى أحداً من أعضاء القسم ، فإنها تطلب إلى سكرتيرة القسم أن تتصل به هاتفياً أو تتصل به هي شخصياً ، وإمّا تكتب له ملاحظة وترسلها مع أحدهم ، أمّا أنا فإنها إن أرادت رؤيتي أو اسناد مهمة تريد مني القيام بها ، فإنها تحضر إلى مكتبي بنفسها !

إنها عادة تقرع باب المكتب أولا ، فتستأذن قبل أن تفتح الباب وتدخل ؛ هنا أترك أنا مقعدي على عجل لأقابلها في منتصف الطريق ! بعد أن ألفَّها بذراعيّ وأضمها الى صدري، أقبّلها على الخدّين وكذلك على رأسها ، فأقول لها مرحّباً :

ـ مرحباً بكِ يا سيدتي ! أرحّب بك بشوق ومحبة ! كم تسعدني هذه الزيارة ! لا شك أنّ والدتي قد زودتني هذا اليوم بأدعيتها الصالحة حتى تذكرني ، الأم الرؤم ، الدكتورة كينياتا ، فتشملني بزيارتها وتمنحني بعضاً من وقتها ، وكذلك لتزودني ببعضاً من تعليماتها ونصائحها !

عندها تشكرني لمبالغتي في ترحيبها ، مما يخجلها ويسعدها أيضاً ! فتشكرني من جديد وتعيد على مسامعي عبارتها المعهودة :

ـ إنكَ شاب شهم ومهذّب ، كم أتمنى لو يكون لي إبناً مثلك !

ـ انه لشرف عظيم لي يا سيدتي أن أكون ابناً لكِ ! كنت أردد دائما لها نفس الإجابة .

وبعد كل هذه المجاملات ، أصرُّ عليها أن تجلس مكاني بينما أجلس أنا قبالتها ، استمع بإصغاء واحترامٍ شديدين لما تقول ، فأهز رأسي بعدها وأضع يدي فوقه ، على الطريقة العربية التجاملية ، قائلا لها :

ـ سأفعل ذلك يا سيدتي ، وبكل احترام وسرور ، كما ويسعدني أن أقوم بما تطلبين .

أما عندما تغادر مكتبي ، فإنني احتضنها ثانية وأقبّلها على الخدين ؛ ثم أضع يدي على ظهرها حتى أوصلها إلى باب مكتبها فتدخله وأغلق الباب خلفها !

* * * * *

حالما دخلت موقف سيارات المطعم ، رأيت سيارة كريستينا واقفة في الزاوية امامي ، في مكانها المعهود ، شعرت بشوق شديد وحنين جارف الي صاحبتها ، وتمنيت لحظتها لو انها كانت في السيارة لهجمت عليها وعانقتها ولكنت نهلت من شفتيها حتى ارتويت ! انني اكاد اختنق عطشاً لرضاب ريقها وسلافة شفتيها ؛ ولكنت اعترفت لها بانني قد افتقدتها كثيرًا ، وخصوصا قبلاتها ومداعباتها وافتقدت اكثر و اكثر من ذلك ، اصرارها على ان تطعمني بيدها و هي تناجي وكأنما أنا طفلهاالصغيرالمدلل!

عندما دخلت من الباب الزجاجي الكبير للمطعم ، وجدت ان السيد والسيدة روشفيلد ينتظرانني امام الباب ، اذ لاشك انهما كانا قد شاهداني وانا اوقف سيارتي !

عانقني الزوج اولاً وبحرارة ثم تبعته الزوجة ، وكان عناقها اشد حرارة من الزوج ! لقد قبلتني على الشفتين كما كانت تفعل دائما ، مما اخجلني واربكني وخصوصا وهي تفعل ذلك امام زوجها! إنني ادرك ان هذا شيء طبيعي هنا ، لكن جذوري الشرق اوسطية وثقافة العيب والحرام التي ورثتها عن آبائي واجدادي ، و ان هذا يجوز وهذا لا يجوز ، ما زالت متجذرة في شرايني وتتحكم في تصرفاتي وتفكيري !

رحّبّب الزوجان بي ترحيباً حارا ً، ثم سألاني عن الصحة والحال ، وكذلك عن الأهل والأحبة في الوطن ، وان كنت قد استلمت حديثاً رسائل منهم !

قادتنا الزوجة نحو الطاولة التي كنا نجلس عليها دائما والتي كانت عبارة عن "بووث" يتسع لستة اشخاص ! إنها تقع في زاوية من زوايا القاعة الواسعة ، امام شباك زجاجي كبير يطل على حديقة صغيرة غناء ، ذات ازهار وورود منسقة بطريقة فنية رائعة ، تشرح القلب وتسر الخاطر !

بعد ان سحبت لمضيفتي الكرسي وأحنيت لها قامتي احتراماً ، كما كنت افعل دائماً ، فتحتُ يديَّ الاثنتين مشيراً لها بالجلوس ، فجلست ؛ ثم شكرتني بعدها ومنحتني ابتسامة عذبة ثم غمزت لي بعينها ، كعادتها ، علامة التقدير والشكر والامتنان !

ما كدنا نجلس ، حتى اقبل نادل ونادله محملين بصحون عديدة من المقبلات المختلفة ، بالإضافة الى قارورة شمبانيا كبيرة ؛ وبعد ان رتبا امامنا كل شيء بطريقة فنية رائعة استاذنا وانصرفا .

تلفّتُ حولي ابحث عن كرستينا ، ولما لم ارها شعرت بخيبة في قلبي وانقباض في صدري ، فأعدت عيني وصرت اتأمل السيدة روشفيلد ، فلاحظتُ ان الفرحة التي كانت دائماً تملأ وجهها قد اضمحلت ، وأن الإبتسامة التي كانت دائماً تعلو شفتيها قد ذبلت ، مما أحزنني جداً !

ـ عندي لك اخبارًا مفرحة يا بني ؛ لقد وافق البنك على اقراضنا كامل المبلغ الذى طلبناه ، وسيدفع لنا النصف في الحال والنصف الثاني بعد ان ننتهي من تجهيز المطعم ، حيث يجري السيد هنري مفاوضات مع صاحبه ليسلمنا اياه بعد شهر تقريبا . قال السيد روشفليد .

ـ شكراً لك يا عماه ! لولاك ، لما تحققت كل هذه الإنجازات العظيمة ! كريستينا وانا مدينان لك وشاكرين لك هذا المجهود الجبار ! قلت بلهجة ينقصها الحماس ، إذ انني غير متأكد بالنسبة لعلاقتنا ، كريستينا وانا !

ـ لا تشكرني يا بني ! كريستينا ابنتي وانت ابني ، ولا يُشكرُ الأب لما يقوم به نحو ولديه ! قال بحماس وصدق واخلاص شعرتهم في كلامه !

ـ لقد فهمت منك بانكم قد اتفقتم على جميع التفاصيل ، فماذاتعني ياعزيزي ، بالمفاوضات ؟! سألت الزوجة .

ـ هذا صحيح يا حبيبتي . لقد اتفقنا على كل شيء ، ولكن بعد ذلك خطرت على بالي فكرة رائعة ، لمصلحة الأولاد طبعاً ... وهي ان نكتب بعقد الايجار فقرة تنص على ان يكون الاستئجار بقصد الشراء . نقول إذ بعد ست سنوات يحق للمستأجرين، سهيل وكريستينا ، شراء المحل بالسعر الحالي وليس بالسعر الذي يكون عليه بعد ست سنوات من الآن ! انني لا اشك بانه سيكون في ذلك الوقت اكثر بكثير مما هو ثمنه الآن ! اظن انني لا أبالغ ان قلت لكِ بانه سيكون ضعف الثمن ان لم يكن اكثر ! قال الزوج ومطّ شفتيه وهزّ رأسه بفخرٍ واعجاب !

ـ وهل يجوز هذا يا حبيبي ؟! سألت وهي تتأمل وجه زوجها بفخر وإعجاب أيضاً !

ـ نعم يجوز ، اذا ذُكر بالعقد عند بدء الاستئجار ! لقد ذكرت هذا الى السيد "ميلر " فأعجبته الفكرة واثنى على تفكيري وحصافتي وبُعد نظري ! قال الزوج وغمز بعينه اليمنى واتبعها بهزة من رأسة للأعلى والاسفل عدة مرات ، وهو يتأمل زوجته ثم يتأملني انا بعدها .

ـ وهل تعتقد يا داوود ان السيد" ملير" يستطيع ادارة المطعم بمقدرة وكفاءة ؟! سألت المرأة زوجها !

ـ من فضلك يا حبيبتي لا تستعملي ، كلمة مقدرة وكفاءة فقط ، بل قولي بمقدرة وكفاءة عاليتين ! لقد صار للسيد ميلر ما ينيف عن واحد وعشرون عاما وهو يدير هذا المطعم ، وكان قد بدأه بمحل بسيط جدا ، فانظري الآن الى حجمه وسمعته ! انه من انجح واشهر مطاعم مدينة "بيفرلي هيلز" !

ـ إذن ، وما السبب الذى جعل صاحبه يفكر ببيعه ؟! سألت الزوجة .

ـ ان صاحبه لا يريد ان يبيعه في الوقت الحالي ؛ انه يريد تأجيره فقط خصوصاً وقد كان عرضنا مغرياً بالنسبة له ! إنه يريد ان يتقاعد ، واننا نأمل ان يقتنع في المستقبل ويوافق على بيعه لنا بعد السنوات الستة ، ولهذا السبب نحن نحاول اقناعه بان يذكر ذلك في العقد . قال الزوج .

ـ يا لك من زوج عظيم ! انك حقاً عبقري ! كم انا فخورة بك يا حبيبي ! هل تعرف ياداوود أنني أكتشف بك كل يوم ميزة تجعلني أحبك وأقدرك أكثر؟! قالت وقد منحت زوجها ابتسامة كبيرة و طبطبت بيدها اليمنى على ظهر يده اليسرى الموضوعة أمامها على الطاولة !

ـ وانا فخور بكِ ايضاً يا حبيبة قلبي ! ان امرأة تدير مطعماً مثل هذا ، بكل هذا النجاح والكفاءة ، لا شك انها إمرأة متميزة وعظيمة جداً ! قال الزوج وهو يطبطب بيده اليمنى على يد زوجته اليسرى الراقدة على الطاولة امامه !

ـ انا مسرورة انني تزوجت برجل ذو عقل تجاري "بيزنس" وليس شيئاً آخر ، لا يجد صاحبه ما يكفي لمعيشته ! قالت !

ـ لا ! لا تنسي انني يهودي ، وكل بني قومي لديهم قدرة عالية على التخطيط المستقبلي ، وهذا هو سر نجاحنا وتفوقنا ! قال وهو يهز رأسه جذلاً و طرباً !

الحقيقة ان فكرة المطعم هذه من الاساس لم تدخل عقلي ولم اقتنع بها قط ، اذ ان عقليتي غير تجارية ! أنا لا افكر إلا بالأدب والفن والسياسة ، رجل أفكار وليس رجل أعمال ! أحب التحدث عن الجماليات وليس الماديات ، أغرق نفسي بالمتعة الروحية وليست اللذة الجسدية ! كما انني اعرف جيدا ان فكرة الزوجين هذه وحماسهما ، جاءت لإغرائي للارتباط بابنتهما كريستينا ، ولكي اظل معها وللأبد ! هذا ما أعتقده وان كنت لم أُعلم الزوجين بمعتقدي هذا !

ـ والآن اسمح لي يا بني بأن اقول لك بان كريستينا حضرت إليّ هنا قبل اسبوع ، وكانت تبكي بكاء مرّاً وموجعاً ؛ وكانت بحالة هلع وحزن شديدين ! لقد اخبرتني بانك اعلمتها ، بعد نقاش طويل ، بعدم امكانية الزواج منها ، لانك تريد ان تكون ام اولادك امرأة عربية وليست غيرها ، مما اغضبها و أهانها ، فتركت شقتك حتى دون وداعك ! قالت الزوجة وهي تجفف دموعها بمنديل قماشي موضوع أمامها !

لم اعلق على ما قالت الأم ، وانما هززت رأسي عدة مرات علامة التأكيد، لما قالت ؛ فاضافت :

ـ زوجي وانا عادة لا نتدخل بحياة أبنائنا الخاصة ، ولا حتى نبدي آراءنا لهم ، الا اذا هم أنفسهم طلبوا منا ذلك ؛ من يصادقون ومن يحبون ومن يتزوجون ! نريدهم ان يختاروا وأن يقرروا هم بأنفسهم ، حتى يتحملوا نتيجة قراراتهم ؛ وان كنا نتمنى دائما لهم بان تكون اختياراتهم موفقة وصائبة ؛ كما نتمنى لهم دوما الخير والسعادة ! قالت الأم هذا ثم بللت شفتيها بلسانها واضافت :

ـ ولكن عندما سألتني كريستينا رأيي فيما اذا كان تصرفها معك مصيباً ، اعلمتها بانها ارتكبت خطأً فادحاً وان عليها العودة والاعتذار لك ، لان الزواج يأتي عن قناعة تامة من قبل الطرفين وليس من قبل طرف واحد ؛ كما أنه لا يجوز ان يضع احدهما الآخر امام تهديد ووعيد ! قالت المرأة بتمهل وهي تصر على مقاطع الكلمات !

ـ ولمَ لم تعلميني يا مونيكا بهذه القصة ؟! ألست أنا والدها وتهمني سعادتها ومستقبلها كما تهمك ؟! سأل الزوج بانفعال و غضب ولكنه وقبل ان يسمع جوابها التفت اليّ واضاف :

ـ لقد رأيت كريستينا بحالة صحية سيئة جدًا ، فظننت انها مريضة ! لقد نصحتها بالذهاب الى الطبيب . لم اكن اعرف ، يا بني ، انه كان بسبب خصامها معك !

ـ لم نكن نريد ان نزعجك يا عزيزي بالمسائل العاطفية ! يكفيك ما تحمل من مسؤوليات إدارة المطاعم و المهام الأخرى الملقاة على عاتقك ! قالت الزوجة تطيب خاطر زوجها ، ثم اضافت موجهة الكلام لي :

ـ العادة يابني ، هي أنه ، عندما يحدث سوء فهم بين الفتاة وبين من تحب ، فانها تلجأ الى امها وتنشد نصيحتها وليس أبيها ؛ فهل توافقني الرأي يا بني ؟!

اقتنعت بما قالت المرأة وكبرت في عيني بل وازددت لها احتراماً ومحبة و تقديراً ، فهززت رأسي عدة مرات علامة الموافقة على ما قالت ، ولكنني لم اعلق على كلامها ! عندما لم تسمع جواباً مني أضافت بصدق وحرارة اكثر من السابق :

ـ لقد اعلمتني من بين دموعها ونهنهاتها ، بأنها حزينة ونادمة ، و لكنني أعلمتها بخطأ تصرفها ، وطلبت إليها أن تذهب وتعتذر لك ! ولكنها قالت بأن كبريائها وكرامتها تمنعانها من ان تعود وتعتذر لك ، كما انها تخجل من نفسها بسبب تصرفها هذا ! لقد أعلمتها بان الكبرياء والكرامة وعزة النفس تقوى وتتعملق اذا كانت بين الحبيب وحبيبه وليس العكس ، وأصررت عليها ان تعود وتعتذر منك وبحرارة ! لقد رجتني والحت عليّ بالرجاء ، ان اقوم أنا بالوساطة بينكما لأنها جدُّ خجلى منك وتشعر بانها تصرفت تصرفاً لا يليق بمحب نحو حبيبه ! فهل تقبل وساطتي يا بني ؛ وآمل منك ان لا تفشلني ! قالت ذلك ثم رأيت دمعتين تنفران من عينيها حاولت اخفائهما عنّا ، زوجها وأنا !

ـ طبعا ! طبعا ! اقبلها يا اماه ، وبكل سرور وطيبة خاطر ؛ فمحبتك واحترامك وتقديري لكِ انت تعرفين قدره ! قلت بثقة وحماس و أنا أكاد أطير فرحاً !

ـ شكرا لك يا بني ؛ ألف شكر ! انت شاب نبيل واصيل ؛ ودائما شهم وكريم ! سأذهب الآن وادعوها . انها جالسة في المكتب . قالت ذلك ونهضت .

كنت اتمنى لو انني ارافقها ، لأن بي شوق محرق وحنين طاغ لرؤية كريستينا ؛ كما ان كلام الأم قد اجّج مشاعر الشوق في قلبي من جديد ؛ ولكنني كبحت عواطفي وبقيت جالساً في مكاني .

غابت الأم لدقائق قليلة ، شعرت أنها كانت لياعات ؛ ثم عادت وبرفقتها كريستينا !

يا إله السماء ؛ عفوك وغفرانك ! ويا خالق الاكوان ؛ رضاك ورحمتك ! ماذا ارى ؟! صرخت بصوت مخنوق لم يستطع الوصول حتى الى شفتي حينما رأيت كريستينا قادمة !

أهذه هي كريستينا التي أعرف ؟! أين ذهب الجمال والتألق والحيوية ؟! أين اختفت الأبتسامة وإشراقه الوجه وتوهج العينين ؟! ولأكن صادقاً مع نفسي ، فقد تمنيت في تلك اللحظة ، لو استطيع ان اتقدم منها معتذرًا لها وطالباً منها ان تقبل مسامحتي ! ان رجولتي وكبريائي لا يسمحان لي بأن أفعل ذلك ؛ فأنا يعربي ، لقد رضعت من ثدي الجهالة حتى إرتويت ، وعشت حياة الجهل والتجهيل حتى غرقت وأغرقت كل من حولي !

ان كل ذرة في جسدي تصرخ وتحترق حزناً وندماً على تصرفي معها والذي ادى بها الى ان تصل لهذا الحد من الحزن والألم ! ما كان عليّ ان اصدها بغلظة ووقاحة ؛ لقد كان عليّ ان اكون اكثر أدباً وان اوضح لها رأيي بطريقة أكثر حضارية لا تجرح مشاعرها ولا تمسُّ كرامتها ! أما كان باستطاعتي ان اقول لها بانه علينا ان نتريث قليلاً قبل ان نرتبط برباط الزواج المقدس ، وخاصة ونحن حديثي المعرفة ببعض ، ثم ولنعطي أنفسنا فرصة للتأكد من حقيقة مشاعرنا ؛ او خلق اي عذر آخر؟! "اعذريني يا حبية القلب وسلوة الروح ! اعذريني على قسوتي ولئمي معكِ ! كم انا انسان اناني لا استحقك ! " كلمات رددتها بيني وبين نفسي ، لم يسمعها سواي إلا صوت ضميري الذى انفجر في داخلي موبخًا إيّاي ... وبحركة لاشعورية وجدت نفسي انهض واقفا مفردا ابتسامة كبيرة اضاءت وجهي وتوهجت لها عيناي فاتحاً لها ذراعي لتلقي بنفسها على صدري مجهشة بالبكاء وهي تردد: :

ـ انا اسفة جداً جداً يا حبيبي ! ارجوك سامحني ! لقد تصرفت معك بحماقة ! ارجوك أن تقبّل اعتذاري ! قالت بتوسّل و هي تكفكف دموعها !

وجمت ولم اعرف ماذا اقول ولا ماذا افعل ! لقد خجلت من نفسي ومن انانيتي ! ماذا فعلت بحبية قلبي وصنوة روحي ؟! لم اجد كلمات تعبر عما يجول في خاطري من حزن وقهر ! لقد كرهت واحتقرت ذاتي ؛ فضممتها بقوة اكثر على صدري مقبلا وجهها وشعرها ؛ احاول ان أكبح دموعي واكبتها لكي لا تنزل ، و لكنها كانت تتسارع وتنهمر كالشلال ، رغما عنّي ، مما اربكني و أحرجني !

لقد اتيت من مجتمع محافظ ، فلنقل مجتمع متأخر متزمت ، فالناس يكبتون مشاعرهم ، يخجلون بل وحتى لا يسمحون لها ان تنفجر امام الأهل وامام الغرباء ! اما

كريستينا فقد كانت تتفجع امام والديها وامام الغرباء الذين كانوا يتناولون طعامهم على الطاولات المجاورة ، والذين كان بعضهم يتهامسون ويتغامزون ، غير آبهة بهم ، مما زاد في ارباكي وجعل جسمي كله يتصبب عرقاً وانا احتضنها !

ـ يكفي بكاءً يا حبيبتي ! ان سهيل صاحب قلب كبير ! لا شك انه سينسى ما قلت وما فعلت ! قالت الأم وهي تحاول تهدئة ابنتها .

ـ صدّقيني ، لقد نسيت ما حدث ! ارجوكِ ؛ كفّي عن البكاء ! إن منظرك يحرق دمي ويمزق قلبي ويفقدني عقلي ! حرام على هاتين العينين الجميلتين ان تذرفا الدمع ! اذهبي واغسلي وجهك ودعينا ننسى ما حدث ، ثم نستمتع برفقة والديك المسعدة والشيقة ! قلت وأنا أكفكف دموعها بمنديلي القماشي الذي أخرجته من جيب جاكيتي !

ـ حقاً يابني يا سهيل ؛ انك شهم وذو قلب كبير ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة ! قال الأب بصدق أحسسته بنغمة صوته .

ـ نعم يا حبيبتي ! اذهبي واغسلي وجهك وسرّحي شعرك واصلحي من زينتك ! قالت الأم بلهجة تفيض رقة وحناناً زادت في الهاب كوامن نفسي .

هنا انسلّت البنية من بين ذراعي برقة وادب زائدين ، وهي ما زالت ملقية برأسها الى الارض ، وتوجهت الى دورة المياه . عدت بعدها انا الى مكاني ملقياً بعيني الى الارض خجلاً من نفسي ومن والدي كريستينا !

ـ مسكينة كريستينا ! انها عاطفية جداً ، قلبها كبير وروحها صافية ! قال الأب وقد غطت وجهه مسحة من الحزن والكآبة !

ـ ولهذا ، فإنني اشكر الله ان اوقعها بحب انسان عظيم مثل سهيل ، يقدر مشاعرها ويحترم عواطفها ، ويفعل كل ما بوسعه ليجعلها سعيدة و آمنه ! قالت الأم بحرارة شعرت بها الصدق والأمانة ، كما أنها زادت من ثقتي بنفسي و بصدق تصرفاتي أيضاً !

ـ شكراً للثقة التي منحتماني اياها يا والديّ ، واشكر الله ان يسر لي عائلة كريمة كعائلتكم ! قلت هذا بحماس ومن صميم قلبي ، ووقفت ثم أحنيت رأسي لهما احتراماً وإجلالاً !

ـ صدقني يا بني ، انني اشكر الله دائماً وابدًا ، أن الرجل الذي أحبته كرستينا هو أنت ، وإلا لكانت ابنتي تعيسة وباستمرار ! قالت الأم بلهجة ألم وتذلل ، وهي تمسح دموعها بضهر يدها .

ـ اعلميها يا مونيكا ، ان تترك فكرة الزواج هذه ، وان تستمع بحياتها وان تترك كل شيء لوقته ! قال الأب شبه مستاء وشبه غاضب .

ـ ان همَّ الواحدة منا ، نحن النساء ، ان تتزوج من الرجل الذى تعتقد انه المناسب لها والذى سيسعدها ؛ وكريستينا لطالما رددت على مسامعي ، انها لا تتصور نفسها

بأحضان رجل غير سهيل ، ولا تتخيل بانها ستكون زوجة لغيره ! قالت ذلك واحمرت وجنتيها خجلاً !

ـ إذن ، فلتنتظر حتى تتكون لدية نفس قناعتها وقوة مشاعرها ! قال الزوج غاضبًا ومطوحاً بيده في الهواء !

ـ اطمئن يا عزيزي ! لقد وعدتني بأنها لن تعيد ذكر هذا الموضوع مرة أخرى اطلاقاً ! قالت الزوجة مطمئنة زوجها وقد هزت رأسها الى اعلى والى الأسفل عدة مرات ثم اضافت :

ـ كانت كلما تعرفت على شاب تعلمني عنه قبل حتى ان توافق على الخروج معه ؛ وعندما تعود من خروجها معه كانت تعلمني انطباعها وحقيقة مشاعرها . لم اذكر ولا لمرة واحدة انها مدحت احدهم ! قالت الزوجة وهي تستعمل يديها لتؤكد مقولتها ثم تمهلت قليلا واضافت مرّةً أخرى :

ـ كانت تجد في كل واحد منهم عيباً ؛ اما بخيلاً او غير مؤدب واما لا يعاملها كما تتوقع من الشاب ان يعامل فتاته ، او غير مثقف او لا "إيتيكيت" عنده ... ولكن عندما تعرفت على سهيل ، أعلمتني بحرارة وصدق بانه الشاب الذى امضت ايامها تحلم بان تقابله ! قالت المرأة وقد اضاء وجهها وفردت ابتسامة جذلى فوق شفتيها ، ثم بعدها نظرت الي فشعرت بعدها كأنما ادخلتني الى داخلهما واغلقت عليّ جفنيها فشعرت بالأمان والسلام والاطمئنان ؛ فقلت بصدقٍ وحرارة :

ـ ارجوكِ يا اماه أن لا تقولي ذلك ! لقد اغرقتموني ، ثلاثتكم ، بفيض محبتكم وكرم اخلاقكم ، وكذلك بتفهمكم ! قلت صادقاً ومن صميم وجداني !

ـ انها الحقيقة يا بني ، صدقني ، انها الحقيقة ! اضافت الزوجة وهي تهز رأسها .

ـ لقد اعلمتني كريستينا بهذه الحقيقة في حينها ، ولفرط سعادتي ، فكرت بمشروع المطعم هذا حتى يتوفر لديكما النقود التي تحتاجانها ! قال الزوج بحماس ويداه تهتزان تأثراً !

ـ صدّقاني ، ان ما تتمتع به الآنسة كريستينا ، من مكارم الأخلاق وطيب القلب وصدق النوايا ، قلّما يتوفر بكثير من الفتيات ! إنني دائما اشكر الله ومن اعماق قلبي ان تكرم علي وهداني اياها ، اذ انني اعتبرها هدية غالية منه سبحانه وتعالى ! انني لا أذكر ولا مرة واحدة انها قالت او تصرفت ما من شأنهِ ان يغضبني او حتى يزعجني ؛ بل على العكس من ذلك تماماً ، فقد كانت تعمل وتقول ما يجلب لي السعادة دوماً ! قلت صادقا وبحماس يفوق حماس الأب .

ـ انها صاحبة قلب كبير ؛ اما أنتَ ، فصاحب قلب وعقل كبيرين ! قالت الزوجة وهي تبتسم ، فشت وكأنما هي أم حنون تضمني الى صدرها وتسبّل لي شعر رأسي بأصابعها الجميلة !

فتح الزوج فمه ليقول شئيا ، ولكنه توقف عندما رأى ابنته مقبلة علينا .

نهضتُ احترامًا لها مرحبًا بها ، ثم نظرت لوجهها ؛ لا إله الاّ هو مغيّر الأحياء ؛ ان هذه ليست كريستينا التي كانت هنا قبل عشر دقائق ! لقد كان وجهها مشرقا وعيناها تشعان فرحاً ! إنها الآن كريستينا التي كنت عرفتها ، قد عادت من جديد وكانت في حالة سعادة لا استطيع وصفها !

سحبت لها الكرسي لتجلس عليه بعد ان وقفت احتراماً لها ؛ فقالت بلهجة خجلى منكسرة :

ـ شكرًا ؛ أشعر بضيق شديد وأنني اكاد اختنق ! إنني أحب ان نذهب الآن إلى شقتك ، ان لم يكن هناك ما يمنع ! قالتها بكل صراحة وبلهجة لا خجل بها ولا حياء .

ـ طبعاً ! طبعاً ، وبكل سرور ! ولكن يجب ان نستأذن والديك ! قلت ذلك وقد أمسكت بيديها الاثنتين وانا انظر في عينيها وأتأمل وجهها .

ـ اذهبا بعد ان تتعشّيا ! لاشك ان سهيلاً يتضوّر جوعا ! قال الأب بلهجة استنكار !

ـ نعم ياحبيبتي ؛ ليس من العدل ان يغادر الرجل قبل ان يتناول طعام العشاء ! قالت الأم بحنان ولهجة عتاب !

ـ لقد تناولت بعض المقبلات وهذا يكفي ؛ سآكل شيئاً فيما بعد . إن حبيبة القلب متضايقة وترغب بالخروج ويسعدني جدًا أن ألبّي رغبتها ! قلت بلهجة صدق وحماس وقد فردت ابتسامة كبيرة اضاءت جميع اركان وجهي !

ـ شكرا يا حبيبي ! قالت ذلك ثم تقدمت مني وطبعت قبلة خاطفة على شفتيّ مما اربكني واخجلني .

ـ ليس من العدل ان يعود الشاب الى بيته دون ان يتناول طعام العشاء ! قال الأب محتجًا مرة أخرى .

ـ إنني من اجل عيون كريستينا وحبها الكبير لي ، سأصوم العمر كله ياعمي ! قلت ذلك بحماس وحرارة !

إنني واقسم برب الأكوان أنّ الذي كان يتكلم هو لساني ولستُ انا ! لقد استغربت جداً كيف خرج هذا الكلام مني ، أنا الانسان المكبل بقيود العيب وفلسفة الأحتشام المزيف ! وهنا جدّت كل اطرافي موجة من العرق الساخن !

إبتسمت كريستينا واضاء وجها من جديد وشكرتني بحرارة ثم طبعت قبلة اخرى على وجنتي ؛ اما والديها فقد انفجرا يضحكان بسعادة وحبور .

ـ أنا لم أقابل بعد من يملك مثل أخلاقك السامية ! هنيئاً لكريستينا بك ! قال الأب .

ـ انت دائمًا شهم ونبيل وذو اخلاق عالية ! قال الزوجان يقاطعان بعضهما البعض ، وقد علت وجنتيهما سحابة من الوقار والاحترام .

ـ لا تقلقا ! سنجد ما ناكله . ان ثلاجة سهيل دائما مليئة بالطعام ، وخصوصاً الطعام العربي الذى احبه ! قالت كريستينا ذلك وامسكت بيدي وسحبتني خلفها .

ـ اذن ؛ تعالا غدًا مساءً . سننتظركما ، وسنتناول طعام العشاء سوياً ! قالت الزوجة بحماس !

ـ نعم ، سننتظركما وسأكون انا هنا ايضاً ، لنكمل حديثنا عن المطعم . قال الزوج .

ـ سنفعل ان وافقت كريستينا ! قلت.

ـ أعدكما أننا سنأتي ! قالت الصبية ثم أ مسكت بيدي وغادرنا .

* * * * *

حالما خرجنا ، كريستينا وانا من باب المطعم الى حيث تقف سياراتنا ، لم أرَ إلاّ وهي تهجم علي وتعانقني وتقبلني بنهم وشوق شديدين ، على شفتي وخديّ وعلى كل مكان تطاله شفتيها ؛ وانا احاول ايقافها لإبعادها عني، محتجاً بأن الداخلين الى المطعم والخارجين منه ، يضحكون ويتغامزون علينا !

ـ انا لا اهتم ؛ فاليضحكوا وليتغامزوا ما يشاؤون ! انا احبك ؛ اموت بك عشقاً ! لقد اشتقت لك كثيراً ! لا تتصور كم قاسيت وتعذبت طيلة أيام بعدك عني ! لقد كنت حمقاء وغبية لأتصرف مثلما تصرفت ! سامحني ! لن اعيدها مرة اخرى ؛ اعدك ! كانت تتكلم وكأنما كانت تهذي !

ـ صدّقيني يا حبيبتي ! انا لست غاضبًا منكِ ! لقد تصرفت تصرفاً طبيعيا ! هكذا يتصرف المحبون ! قلت وانا احاول إبعادها عني .

ـ هل صحيح انك لست غاضباً مني وانك سامحتني ؟! أرجوك قل لي الحقيقة ! سألت وهي تحدق بي وكانما تريد أن تخرق جدار جمجمتي لتتأكد من صدق ما أقول !

ـ انا لم اغضب منكِ حتى أسامحكِ ! دعينا نذهب ونتحدث على الطريق أو في الشقة ! ارجوكِ إنني أذوب خجلا امام مرتادي المطعم ! توقفي عن تقبيلي ! قلت ذلك ودفعتها بعيداً عني ، وكان جسمها ما زال ملاصقا لجسمي !

ـ فتحتْ حقيبة يدها وأخرجت مفتاح سيارتها ، وذلك من أجل أن أفتحها وأشغلها لها ؛ كما كنت أفعل دائماً ! لقد اعتقدتُ أنني سأفعل ذلك الآن ثم ننطلق وألحق انا بها في سيارتي ، ولكنها قالت وهي تمد إليّ يدها بالمفتاح :

ـ اذا كنت حقاً سامحتني فحقق لي ما أطلبه منك ! قالت بانكسار وخجل شديدين !

ـ أعدكِ انني سأفعل وبكل سرور ! قلت بحماس .

ـ أريدكَ ان تتركَ سيارتك الليلة هنا وان تقود سيارتي ، اذ انني وبكل صدق وامانه ، منهكة و لا استطيع القيادة ! سأوصلك غدًا بسيارتي الى الجامعة وفي المساء سنأتي الى هنا لنلبّي دعوة والديَّ الى العشاء ! كما انني اريد ان نشتري في طريقنا قارورة شامبانيا ونذهب لشقتي فان ثلاجتي مملوءة بشتى انواع المأكولات ! اريد ان اقضي الليلة بين ذراعيك لأعوض الاسبوع الذي غبتَه بعيدًا عني !

ـ سأفعل ذلك وبكل سرور ، اذا كان هذا ما تريدين ويسعدك ! قلت ذلك وفتحت لها الباب ثم درت خلف السيارة فسبقتني هي وفتحت لي الباب من الداخل ؛ ثم ادرت المحرك وانطلقنا .

بعد ان قطعنا مسافة عدة اميال صامتين ، التفتت نحوي بعدما كانت تنظر امامها وقالت بتردد وتلعثم !

ـ اريد ان اطلب منك طلباً آخر ، وكلي أمل ان تحققه لي أيضا !

التفت نحوها وابتسمت ثم هززت رأسي علامة الموافقة ، فقالت :

ـ ليس عندك غدًا محاضرات من الثانية عشر حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، أريدك ان تأتي وتأخذني للغذاء ، لان زميلاتي في العمل صرن يتهامسن فيما بينهن ويقلن بأن سبب مرضي هو لان حبيبي العربي ، " قد بال علي والقى بي في حاوية القمامة " ! قالت ذلك وانفجرت تبكي بحرقة وحرا ة ، حيث كانت دموعها تنزل كحبات المطر المنهمر ، مما احزنني وآلمني ، بل وأحرق دمي !

ـ سأفعل ذلك وبكل سرور ! إنني سآتي غداً في تمام الساعة الثانية عشر وادعو معك جميع زميلاتك في المكتب ، واعلمهن بانني احبك جداً جداً ولا استطيع أن أستغني عنك أبداً أبداً ! قلت ذلك بحماس مبالغ به !

ـ صحيح يا حبيبي ! هل حقًا ستفعل ذلك ؟! ما أسعدني ! قالت ذلك وطوقتني من جديد وصارت تقبلني بشوق ونهم شديدين

ـ شكرًا ! شكراً ! احبك ! احبك ! احبك ! أعبدك ! أعبدك ! أعبدك ! أنت مثال الرجولة والشهامة ! قالت وعادت تبكي من جديد !

ـ اذا كنتِ تحبينني حقاً وصدقاً ، فأريني ابتسامتك الفرحة لا دموعك الحزينة ! قلت ذلك وانا ابتسم .

ـ ما أحنّك وأطيب قلبك ! قالت ذلك وقد فردت ابتسامة جذلى أضاء لها وجهها !

طلبت منّي في الطريق أن أتوقف امام احدى البقّالات ، ولما سألتها السبب ، لم تجب بل اكتفت بابتسامة منيرة وغمزة بعينها اليسرى وخرجت من السيارة ... ولما عادت بعد قليل ، كانت تحمل أكياساً من الورق معبأة بشتى انواع المأكولات ؛ وقبل ان اسألها ماذا اشترت قالت :

ـ لقد اضعت عليك عشاءك ، واريد ان اعوضك عنه ! لقد ابتعت قارورة من الشمبانيا وبعضاً من اللحم البقري "ستيك" وكذلك قريدس " شرِمْ " وعدة انواع من المأكولات التي تحبها ! قالت ذلك وهي تتغنج وتتدلل !

ـ انتِ تعرفين انني لا افكر هكذا ! اي شيء متوفر في ثلاجتك يكفي ؛ ثم ان والدتك قد دعتنا غداً الى العشاء ! قلت شبه محتد!

ـ أرجوك ان لا تغضب ! اقسم لك بانني واثقة من ذلك ؛ ولكن لأنني أعرف بانني حرمتك من امسية جميلة ووجبة عشاء لذيذة ، فقد تألمت وقلت لا بد من أن أعوضك بعض الشيء عن ذلك !

ـ ما اغباكِ ياكريستينا يا حبية القلب ! وهل هناك من امسية اجمل من ان اقضيها معك انهل من شفتيك وارضع من نهديك ، ثم اسمع صوتك ؟! قلت ذلك وصرت اقبلها على عنقها وصدرها .

ـ ارجوك ان تتوقف فقد بلغت قمة التهيج ! قالت وهي تبعدني عنها بلطف ودلال !

حالما دخلنا شقتها ألقت بحقيبة يدها وما تحمله فوق طاولة المطبخ ثم دخلت الحمام على عجل وسرعان ما سمعت صوت تدفق المياه وهي تضرب أرضية " البانيو" !

إن هي إلاّ لحظات حتى خرجت البنية عارية كما ولدتها أمها وصارت تنزع عني الجاكيت وتحلُّ ربطة عنقي وتفك أزرار قميصي وهي تتضاحك .

ـ اسرع واخلع ملابسك ؛ فقد افتقدت كثيرا تحميمي لك وافتقدت اكثر تحمميك لي خصوصا وانت ترافق فركك لجسمي بقبلاتك الملتهبة ؛ وكذلك افتقدت المساج الذى كنت تعمله لجسمي مما يجعلني التهب شوقا واحترق رغبة ! قالت ذلك وهي تنظر الي وعيناها تتقدان شوقاً ورغبة !

ـ ولكن لا يوجد هنا ملابس داخلية ارتديها بعد الاستحمام ! قلت محتجاً !

ـ سأعطيك سروالاً من سراويلي واحدى فانيلاتي الحريرية ! قالت ذلك وانفجرت تضحك فوجدت نفسي ارافقها الضحك !

يبدو ان النكتة قد اعجبتها ، اذ بقيت لفترة طويلة وهي تضحك حتى دمعت عيناها وعندما توقفت قالت :

ـ لقد نسيت انك تركت عندي مجموعة من الغيارات والملابس ، اخذتها لأغسلها وما زلت احتفظ بها لك هنا ! قالت !

ـ آه ! هذا صحيح ؛ لقد نسيت ! قلت وقد تشجعت لنزع آخر ما تبقى على جسدي من ملابس .

كنت قبل ان اتعرف على اصدقائي عائلة الهاملتون ، اغسل ملابسي في إحدى أماكن غسل الملابس العمومية و المتواجدة قرب شقتي ، وكنت اقضي ساعات طويلة ومملة وانا اغسلها واجففها ثم اطويها ! بعد تعرفي عليهم طلبوا الي وبشدة واصرار ان تقوم الزوجة بهذه المهمة فرفضت حتى لا أزعجها ، ولكن بعد نقاش طويل واقناع صارت هي من تقوم بالغسيل ، باستثناء البدلات الرسمية التي كنت اخذها الى الكوّى ! بعد ان تعرفت على كريستينا ، اصبحت هي من تقوم بهذه المهمة ، لأنها كما قالت واصرت ، بان هذا هو واجبها اولاً ، ثم إن غسلها وكيها يمنحها سعادة لا توصف ، ثانياً !

بعد ان انتهينا من الحمام واستعد كل منا الى ارتداء ملابسه طلبت مني كريستينا ان احملها الى الفراش لان جسدها يشتعل نارًا ، ولكنني عندما ذكرتها بأن لها اسبوعاً تعيش على السوائل وان معدتها خالية من الطعام تماما ، أجابت :

ـ إنّ جسمي لم يفتقد الطعام قط ولكنه افتقد عناقك وضماتك وقبلاتك !

الحقيقة ان رغبتها الجنسية لي ، لم تكن اقل شوقا من رغبتي انا لها ، ولكنني كنت أصبّر نفسي حتى تتناول بعضا من الطعام الذى عاشت فترة من دونه ، غير أنني ما ان سمعت ما قالت حتى حملتها الى الفراش وهناك انهلت عليها بنهم وشوق اغرق كياني بكيانها ، حتى اذا خمد الجسدان واستراحا قليلا بدأنا المعركة من جديد ! لم نتوقف حتى نفذ كل ما بجسمينا من طاقات لم نستطع بعدها الحركة !

لقد كانت كريستينا تصر دائما على ان نكون عاريين كما ولدتنا امهاتنا عندما نأوي الى فراشنا حتى ولو لم يكن في نيتنا ان نمارس الجنس ! لقد كانت تطلب مني دائماً ان ادفن راسي في صدرها فأداعب نهديها بيدي تارة ، وارضعهما بشفتي تارات ، بينما هي تعمل مساج لشعري بعض الوقت وتمشطه احيانا وتلعب به بعض الآحايين !

لقد اكدت لي بان الكرى لا يزور جفنيها ابدا ، الا اذا مارست طقوس العشق هذه معها ؛ كما اكدت لي ايضا بان النوم لم يزر جفنيها ، ايام ابتعادنا عن بعض، الا في ساعات الليل المتأخرة ، وانها كانت تظل تتقلب في فراشها حتى الفجر !

نمنا بعدها ، وبقينا نائمين ولم نستيقظ الا على صوت المنبه بتمام الساعة السابعة صباحا ، وقت استيقاظ كريستينا عادة للاستعداد والذهاب الى عملها .

نهضتْ لتستعد للذهاب إلى عملها ، وبينما هي أمام المرآة في الصباح تسرح شعرها و تصلح من زينتها ، انفجرت تضحك بصوت عالٍ ؛ لقد سمعتها تقول :

ـ يا إلهي ! لقد نسينا الشمبانيا والقريدس بزحمة عواطفنا ولم ناكل شئيا منه ؛ ولكن لابأس سنتناوله غداً اثناء وجبة العشاء !~

ذهبت هي إلى عملها ، وبقيت انا نائما حتى موعد ذهابي الى أول محاضرة عندي ، فحضرتْ وأخذتني هي بسيارتها إلى الجامعة . بعد أن انتهيت من محاضرتيّ الاثنتين ، الأولى من التاسعة و حتى العاشرة صباحاً ، و الثانية من الحادية عشر وحتى الثانية عشر ظهراً ؛ توجّهتُ بعدها إلى المكتبة وفي تمام الساعة الثانية عشر ظهرا ، كنت ادخل مكتب كريستينا في مكتبة الجامعة لاخذها هي وزميلاتها للغذاء

كما اتفقنا ! لقد اسعدها لدرجة انها لم تستطع السيطرة على زمام عواطفها ، فهجمت عليّ تعانقني وتقبلني امامهن ! لقد لاحظت انهن كن يبتسمن ويتغامزن ! التفتُ اليهن وقلت بصوت واضح وبنبرة تأكيد :

ـ ان ما حدث بين كريستينا وبيني من سوء تفاهم ، يحدث عادة بين المحبين كل يوم ! انها فقاعات صابون وغمامة صيف سرعان ما تنقشع ! توقفت لأرى وقع كلامي عليهنَّ ؛ ثم اضفت :

ـ ان حبي الشديد لها يفوق الوصف ولا استطيع ان استغني عنها ابدًا ! انها كل حياتي بل هي روحي وبدونها لا استطيع العيش !

لقد كن محدقات بي يتغامزن ويبتسمن ، ثم بعدها هجمت عليّ البنية من جديد لتعانقني وتقبلني بشوق وولهة وهي تقول :

ـ انا لا احبك فقط يا سهيل ؛ انا اعشقك ... اعبدك ... اموت بك عشقاً ... انت امل حياتي ... بلسم جراحي وتوأم روحي ! إنني انا التي لا استطيع العيش بعيدة عنك ! إنك الأوكسجين الذي أتنفّس !

ـ اذن ؛ ومتى ستتوجان حبكما بالزواج ؟! سالت جوليانا اكبرهن سناً !

الحقيقة ان سؤالها فاجأني بل اربكني ولم اعرف ماذا اقول ! لقد فتحت فمي لأقول شئياً ، ولكنني لا ادري ما هو ؛ وهنا سمعت صوت كريستينا ، يقول لينقذني ويخرجني من هذا الموقف المحرج ، وكأنما كان جوابها معداً وجاهزاً للإجابة مسبقاً ، قائلة :

ـ لم ينقضي على تعارفنا الا مدة قصيرة ، ولم نتأكد بعد من حقيقة مشاعرنا ، وان كنا نريد ان نقضي حياتنا معا ! إننا نعتقد انه من المبكر جداً ان نتخذ مثل هذا القرار المصيري في الوقت الحالي !

ـ هذا صحيح ؛ انكما على حق ! قالت الفتاتان الأخريان ، تقاطعان بعضهما بعضاً !

لقد شكرنني على الدعوة واعتذرن عن قبولها واعلمنني بانهن في غاية السعادة والسرور لعودتنا لبعض ، كما اخبرنني بانهن تألمن كثيرًا عندما علمن بالقطيعة !

عدت و ألححت عليهن بقبول الدعوة ولكنهن اعتذرن ثانية وتمنين لنا حظاً سعيداً ووقتاً ممتعاً !

قلت لكريستينا بعد أن خرجنا من مكتب زميلاتها :

ـ لقد كبرتِ ، بل لقد تعملقت في عينيّ يا حبيبتي ؛ للجواب الرائع والمقنع الذى اجبت به زميلاتك ! أنت دائماً عملاقة ومتألقة في إجاباتك ! قلت بحماس وصدق .

*****

الفصل الثامن عشر

بعد عودتنا ، محبطين مخذولين ، أخي وأنا ، منزل والد الفتاة التي تحمل شهادة "توجيهي"راسب ، وراتب العشرين ديناراً شهرياً ، يقتطعون منه قرشين ونصف بدل طوابع ... ذات الحسب والنسب ... شعرت فجأة بتأنيب ضمير موجع ، ممزقٍ ومحرقٍ ! لقد أحسست بأنني أكاد أختنق من شدة الحزن والندم ! لقد شعرت بأنني ارتكبت جريمة نكراء لاتغتفر بحق كرستينا وكذلك بحق نفسي !

لقد شعرت وكأنما إنساناً يمزق أحشائى بسكين ذات أشفارٍنارية ، وأن حمماً من نار جهنم وقذائف من صقر تشتعل بداخلي وتحرق دمي وكل كياني ! لقد راودتني فكرة العودة الى امريكا ، والسجود عند قدمي كرستينا ، وأن أعلمها بأنني خدعتها وغدرت بها ، وأنني نادم اشد الندم ، وأشعر بخستي ونذالتي وزيفي أيضاً !لقد أتيت لأطلب مسامحتها وغفرانها ، لعلها ، تسامحني وتغفر لي ، لأريح ضميري ! ولكن رجولتي وكبريائي وكذلك كرامتي المصنوعة جميعها من بيت العنكبوت ، رفضت عليّ ذلك !

إنني وتحت هذه الأرهاصات النفسية الممزِقة والتوهان المدمر ، خطر على بالي فجأة ، أبونا الخوري أيوب ! لقدشعرت بأنني افتقدته حتى النخاع ، وأنني بحاجة ماسة الى نصائحه وحكمه ومواعظه ، وكذلك بحاجة الى جرأته وحزمه وشجاعته !

إنتهت آخر محاضرة عندي هذا اليوم ، الساعة الثانية ظهراً ، فركبت أحد الأتوبيسات العمومية ، التي تنقل طلبة الجامعة بين السلط والجامعة !لقد رأيت الفرحة على وجوه الطلاب الذين ادرّسهم ، حتى ان اكثر من واحد منهم رجاني أن أقبل دعوته على الغداء ، ولكنني اعتذرت بحجة أنني ذاهب لكي البّي دعوة الغداء !

منذ ان فكرت بزيارة ابونا الخوري أيوب يوم أمس ، لم يخطر على بالي أن أسأل نفسي ، ان كان الرجل مازال حيّاً يرزق ، بعد كل هذه السنوات الطويلة من الفراق أم أنه تحت الثرى !لقد خطرت الفكرة على بالي فقط ، بعد ان نزلت من الأتوبيس وتوجهت الى حيث منزله !

لقد كنت وأنا أسيرنحوالمنزل ، أشعر بإحباطٍ شديد ممزق !لقد افتقدت كرستينا حتى النخاع ، وشعرت بأنني أكاد أختنق من شدة اشتياقي لها ! لقد افتقدت ضماتها وعناقهاوتدليلها لي ، وكذلك افتقدت كرمها وسخائها ! إن أكثر ماافتقدته هو وفائها وإخلاصها وصدقها وتفانيها ! كم أنا نادم وحزين على فراقها وتركي لها !إنني أشعر بنارٍتلتهم أحشائي !

لم يخيب الله رجائي ، إذ حلما وقفت امام باب صورالبيت الكبير والغير مغلق ، ونظرت مكان الجلوس الواقع الى جانب باب البيت ، والمسطفة عليه مجموعة من الكراسي الخشبية المهترء ة ، حتى رأيته جالساً ! أبونا الخوري أيوب بدمه ولحمه ! انني أكاد أقسم بأنه نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه عند زيارتي له قبل سنواتٍ

عديدة ! لقد لاحظت بأن حجمه قد صغر كثيراً حتى أصبح بحجم طفلٍ ضعير ، وان الشعر الأبيض قد غطى رأسه وكل وجهه !

لقد كانت نظارات بيضاء مدورة مصنوعة من الحديد الرخيص فوق عينيه ، ذات شكل غريب وعجيب ، مما جعله يبدو لي وكأنما هو ثعلب يتأملك ، قبل ان يطلق ساقيه للريح ويولي الأدبار ! سرت حتى وصلت أمام درجات المكان الذي يجلس عليه ، فوقفت وقلت بصوتٍ عالٍ حرّقه الشوق ومزّقه الألم !

ـ السلام عليكم يا أبونا الخوري ! كيف حالك ياوالدي ؟ ! ان شاء الله انك بعافية وخيروسعادة من الله تعالى !

ـ وعليكم السلام وررحمة الله وبركاته ! تفضل ياولدي ! قالها بصوت منخفض وكانما يأتي من أعماق القبور ، مما أدمى قلبي واحرق وجداني !

صعدت الدرجات الأسمنتية الثلاثة ، وسرت حتى وقفت أمامه فأحنيت قامتي ، باحترام وهيبة ، ونظرت الى وجهه ثم مددت له يدي . لم ينهض الرجل من جلسته وانما مد يده اليمنى وهو يقول :

ـ أرجوك ان لا تؤاخذني يابني ، إذ أنني عاجز عن الوقوف !

ـ لاتزعج نفسك ياأبتاه ، فأنا مدرك ذلك . قلت بعد أن أحنيت قامتي لتصل الى جسمه الصغير! قلت وقد عانقت يدي اليمنى يده ، وبيدي اليسرى عانقت ظهره ، ثم ضممته الى صدري بشوق ولهفة ، ثم قبلته بعد ذلك على رأسه ، وقلت بعد أن لاحظت انه كان يحدق بي بجهد شديد !! لاشك انه كان يحاول جاهداً أن يتذكر من أكون !

ـ ما اسعدني أن أراك ثانية يا ابتاه ! لقد تغيرت كثيراً وهزل جسمك ! لقدزرتك هنا قبل عدة سنوات ؛ أنا ابن أخيك ، عبد الله أبو جوهر ، فهل تتذكرني؟!

إنفجر الرجل يبكي بحرقة ولوعة احرقتا دمي وفتتا كبدي ، ولم أجد نفسي إلا وأنا اشاركه البكاء والتفجع ، ولكن بصوت أعلى من صوته وبحرقة اشد من ألمه !

ـ أين كنت كل هذه السنين الطويلة ؟! لقد ظننت انك عندما زرتني ، انني سأظل اشاهدك وباستمرا لأعوض رؤيتك عن غياب أخي المرحوم والدك ! لقدافتقدك كثيراً ، حتى كنت اشعر احياناً بالاختناق ! لقد أعلمني يوسف بأنه عرف من أحد اصدقاءكما بأنك سافرت الى امريكا لأكمال دراستك ! قال الرجل من بين دموعه ونشيجه ، وهو يقبلني عل خدّي ورأسي ، ويستنشق أرومة جسمي ، وكانما أنا حقاً ابنه الذي انحدر من صلبه !

ـ وأين يوسف الآن ، يا ابتاه ؟!

ـ انه ضابط كبير في الجيش ، باحدى الكتائب المرابطة في عجلون . انه يسكن غير بعيد من هنا ؛ هو وزوجته وابنه وابنتيه .

ـ ما شاء الله ! لقد اسعدتني والله ، حقاً ! قلت .

ـ لقد كان هنا قبل ليلتين . إنه كلما يأتي الى السلط يمر علينا ليطمئن علي وعلى و1لدته . الله يرضى عليه ويسعده . انه ابن بار وودود ! لو كان يعرف بقدومك لكان حضر الليلة . لاشك ان رؤيتك ساتسعده كثيراً ! قال وهو يكفكف دموعه بظهر يده !

ـ سآتي مرة اخرى ان شاء الله لزيارتك ثم لرؤيته ، اذ انني مشتاق جداً لرؤيته والتحدث اليه . قلت .

بعد ان توقفنا عن التقبيل والعناق وجفف كل منا دموعه بظهر يديه ، أشارعلي ان اجلس على الكرسي الملاصق للكرسي الذي يجلس عليه والذي يقع على شماله وقال :

ـ إجلس وخبرني عما فعلت ، منذ ليلة كنت عندي هنا ، وبالتفصيل . إنني مشتاق جداً لأسمع أخبار إبن أخي الحبيب رحمه الله ، والدك ! لقد كان رجلاً كريماً وشهماً ، لم يحضر لزيارتنا إلا وهو محمل باللحوم والخضروات والفواكه ، وكذلك الجميد والسمن ومما تزرعون ! قالها بتلذذ واستمتاع وكأنما كان يشرب كأس عصير برتقالٍ مثلوج في يوم قائظ !

ـ لقد سافرت الى القاهرة للدراسة ، بعد زيارتي لك بمدة قصيرة ، لأكمال دراستي العليا بها وتخرجت من جامعتها . سافرت بعدها الى امريكا لأكمال دراستي العليا فيها ؛ وفي نفس الجامعة التي درست بها وتخرجت منها ، عينت فيها استاذ علوم سياسية .

ـ ماشاء الله ! لقد افرحت قلبي يابني حقاً ! لا شك أن والدك سعيد في قبره وهو يرى انجازاتك العظيمه .

ـ لقد تعرفت على فتاة يهودية تعمل في مكتبة الجامعة فأحببنا بعضاً ! انها تتمتع بأخلاق عالية جداً ، ذات جمال باهر وثقافية متميزة ، تكاد تذوب رقة ونعومة ، تصغرني بعامين !! لم اذكر أنها طلبت مني ان اقوم لها بأية خدمة ! كانت دائماً هي التي تقوم على خدمتي ، وتؤكد لي سعادتها عندما تنفذ لي رغبة أوتقوم بأية خدمة ! قلت .

ـ لقد سمعت بأن المرأة الغربية اذا أحبت حقاً ، فأنها تتفانى في حب رجلها ! قال .

ـ هذا صحيح يا أبتاه !لقدكان جلى همها هو راحتي وإسعادي ! كانت تعاملني وتتودد الي كما تفعل الأم مع صغيرها ! لقد اشترى لنا والدها منزلاً فخماً وسيارتين فارهتين وكذلك مطعماً ، وكنا نعيش حية بذخ وترف ، كالحياة التي يعيشها اغنياء أمريكا ومترفيها ! كنا نعيش شهر عسلٍ متواصل ! لقد قبلت أن تعتنق الدين الأسلامي اذا وافقت على الزواج منها ، وأن ننشيء اولادنا حسب الشريعة الأسلامية ! قلت والألم يبدد كبدي !

ـ بارك الله بها ؛ هذا هو الحب الحقيقي ! قال وهو يحدق بي بعينيه الكليلتين !

ـ لقد أعلمتها كاذباً ومخادعاً ، بأنني سأسافر الى الأردن لقضاء شهر أزور به عائلتي ، ثم أعود فنتزوج ! ولما سألتني لم لا اسطحبها معي حتى تتعرف على عائلتي وكذلك هم يتعرفون عليها ، أعلمتها بأن ذلك سيسبب لي إحراجاً شديدا بسبب العداوة بين العرب واليهود ، فأقتنعت .

ـ هذا صحيح ، معك كل الحق ! قال وهو يهز رأسه الى أعلى وأسفل .

ـ ارسلت لها برقية بعد وصولي الى الأردن باسبوعين باسم أخي ، أعلمتها بها بأنني قد توفيت بحادث سيارة ! لقد حزنتْ حزنًا شديداً ، و إنها تلبس الآن ملابس الحداد ، كما أعلمني بعض الأصدقاء الذين اعلمتهم مسبقاً عما كنت أنوي فعله ! قلت .

ـ ولم فعلت ذلك ؟! سأل باشمئزاز ممزوج بالغضب ، وقد عبس وجهه وضيّق مأبين حاجبيه !

ـ لقد فعلته إخلاصاً وحباً في العروبة والإسلام ! قلت ذلك وكنت أتوقع من أبينا الخوري ان يثني علي ويأخذني بالأحضان ، وأن يعلمني بأن تصرفي كان بطولياً ، اذ ان شباب العرب والمسلمين في هذه الأيام قليلون بل نادرون !

ليتني لم أخبر قصتي لأبينا الخوري ! لقد ندمت ندماً شديداً ، حتى احترق العظم مني ! لقد انتفخت أوداجه وإحمرت عيناه وصار جسمه يرتجف ! لقد صار الرجل يبكي وينوح ، فلم اجد نفسي إلا وانا اشاركه البكاء !

لقد خفت ان تفارق الرجل روحه وان يموت بين يدي ، لحرارة ندبه ولشدة توجعه وكذلك لغزارة دموعه وارتفاع صوته !لقد خشيت ان يفزع علينا الجيران او احداً من داخل البيت !

لقد كنت طيلة الوقت إشارك أبونا الخوري البكاء والنواح ، وبعد مدة ليست بالقصيرة توقف فتوقفت انا أيضاً ؛ وبعد ان مسح دموعه بظهر يده ، قال :

ـ ليتك لم تخبرني يابن أخي ، بقصة تلك الفتاة العظيمة والنادرة ، والتي تخلت عن أهلها وديانتها حباً لك وتضحية من اجلك ! لقد حطمت قلبها ووأدت أحلامها ودمرت حياتها ! وبعد ان شرب رشفة من كأس الماء الذي كان موضوعاً امامه ، اضاف :

ـ إنك لم تسيء الى نفسك فقط ، ولم تسيء الى الدين الأسلامي وحده ، و كذلك لم تسيء الى العروبة ، وانما اسأت الى الذات الألهية نفسها ! لقد احتقرتها وسخرت منها ! قال بغضب لاهب !

لقد اقشعربدني وتجمد الدم في عروقي ووقف شعر رأسي ثم نزلت دموعي مدراراً !

وسألته شبه محتداً !

ـ ولم تقول هذا يا أبانا الخوري ؟ ! أنا ضحيت بسعادتي من أجل معتقدي الديني والعربي ! قلت بحدة وشبه عاتب !

ـ صدقني يابني ان مافعلته هو ضد معتقدك العربي والديني ! قال وهو يبصق الكلمات بصقاً ! وبعد ان استراح قليلاً اضاف :

ـ إن الخالق سبحانه وتعالى ، لم ينتظر حتى وفاتك ليدخلك جنة خلده ، وانما ادخلك اياها في هذه الدنيا ! لقد زوجك بواحدة من الحور العين كأمثال الؤلؤ المكنون ؛ وأعطاك كل ماتحب ان تأكل وتشتهي ، فرفضته ، لأنك تريد أن تتزوج من بنات وطنك !

ـ صدقت يا ابانا الخوري ؛ هذا هو السبب ! قلت وقد شعرت ان بعضاً من الهموم قد انقشعت عن صدري ! قلت فرحاً ، ثم تابعت :

ـ إن حب مدينة السلط معشعش في أحشائي وفي ضميري ووجداني ! أن لي فيها ذكريات عزيزة وغالية ! إنها ، وأقسم لك ، لم تفارق وجداني طيلة وجودي في بلاد الغربة ؛ انها جزء مني ! اريد ان اتزوج من احدى غزالاتها وماجداتها ! قلت بصدق وحماس شديدين؛ ثم أضفت :

ـ لقد خطبت فتاة من هنا ، من مدينة السلط الحبيبة ! لقد اعلمنا والدها بأنها انهت الدراسة الثانوية العامة ، ولكنها رسبت بالتوجيهي ! انها تشتغل في الحكومة وراتبها الشهري عشرون ديناراً ، يحسمون منه بدل طوابع قرشين ونصف ! لقد طلب لها جهازاً احتاج لسنوات طويلة طويلة حتى أستطيع ان اقوم بسداده ! قلت .

ـ يبدو لي، ياابن أخي، انك عاشق فقرٍ ومسغبة ، ومدمن تعاسة ومعاناة ، وإلا لما كنت فكرت بالزواج من الجهل والفقر، وفضلتهما على الغنى والترف ! أفق ياابن أخي من سباتك ، وإنعم بما تكرم به الخالق عليك ! قال بحدة وغضب !وبعد ان عدّل عمامته واستراح قليلاً أضاف :

ـ لاشك انك اشتقت الى روث الحميروشخاخ البغال ولطع البقر ؛ وافتقدت صنة مزابل مدينة السلط ! صدقني ان حاملة التوجيهي راسب ، تستحم مرة بالشهر ، وان رائحتها بالصيف اشد من رائحة الضربان ! قال بغضب !

كنت طيلة الوقت الذي يتكلم به ابونا الخوري ايوب اتمزق حزناً والماً لما يقول ، وكانت عيناي تذرفان الدمع الغزير ، ندماً وتوجعاً لما اسمع ! إنه عندما ذكر رائحة الضربان ، لم اجد نفسي إلا وانا أنفجر في ضحك شديد ! ان ماقاله ابونا الخوري كان صحيحاً ! لقد تذكرت الآن ، انه عندما دخلت الصبية لتسلم علينا ، كانت ترتدي فستاناً فضفاضاً ، تنبعث منه رائحة تكتم الأنفاس ! لقد استغربت ذلك جداً ، خصوصاً ونحن في فصل الصيف شديد الحرارة !

ابتسم هو لضحكتي ؛ وعندما توقف عن الضحك سألته :

ـ وماذا تنصحني ان أفعل ، ياأبتاه ؟ !

ـ لا يوجد في رأيي الا حل واحد فقط ؛ وهو بعد ان تطلب السماح والمغفرة من رب العباد ، لأنك كفرت بنعمته وأنكرت فضائله ؛ هو أن تركب أول طائرة مسافرة الى أمريكا ، ثم تذهب ال تلك الفتاة وتطلب مسامحتها ! انني اعتقد جازماً بأنها ستسامحك ! ان

فتاة بتلك المواصفات المتميزة ذات قلب حنون وعقل كبير ! قال ذلك وضرب قبضة يده بالهواء ليؤكد مقولته !

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك ياابتاه ! انني سأفجع والدتي وأخي وأخواتي ، وقد اتسبب بوفاة والدتي حزناً ! قلت بألم بالغ وقلب دامي !

لا إلاه إلاالله ! حقاً ، انه رب يعبد ! إنني ما كدت انتهي من جملتي حتى رأيت سيار عسكرية " لاند روفر" تدخل من باب البوابة الكبيرة ، وكأنما كانت تنتظرحتى أكمل جملتي !

توقفت السيارة غير بعيدة منا ، ونزل منها ضابط يرتدي الملابس العسكرية الصيفية ، يزين كتفيه تاج فضي ، ترقد الى جانبه نجمتان ، وعلى صدره بعض الأوسمة والنياشين !

ـ كيف حالك ياوالدي ؟ ! أرجو أن تكون بخير! ارى عندك ضيفاً ، فهل قدمت له شيئاً ؟ !

ـ لا يا ولدي ! لقد انساني الحديث ذلك ، ثم لا احد اتى من داخل البيت ! قال بصوت راجف خجل !

هنا التقت عيوننا ، فميّز كل واحد منا الآخر ، فتعانقنا عناقاً حاراً ؛ وبعد تبادل العديد من الأسئلة عن الصحة والأحوال تقدم الرجل وقبّل يد والده اليمنى ثلاث مرات وبحرارة ووضعها على جبينه ، بعد كل قبلة ، ثم سأل :

ـ لِم لمْ تضّيف سهيلاً شيئاً ، يا أبي ؟ !

ـ لقد فاجأني ابن أخي بزيارته قبل حوالي ساعة ، وانشغلنا بالحديث ، كما ان امك لم تأت من الداخل لتحضر لن شيئاً نأكله او نشربه !

ـ صدقاً ، أنا لست جائعاً ، فرؤية الوالد الحبيب ، تشبع المعدة وتروي ضمأ الروح !! قلت غير صادق !

الحقيقة إنني ومنذ أن حضرت أشعربأن معدتي تأكل بعضها بعضاً ! انني لم آكل شيئاً منذ ان تناولت طعام الأفطار ، صباح هذا اليوم !

إستأذن يوسف منا وركب سيارته وانصرف ، فلم يغب طويلاً ، عاد بعدها يحمل كيساً مملوء بساندويشات الفلافل ! لقد كانت هي الساندويشات الوحيدة المعروفه في ذلك الوقت ! قال بأن هذه وجبة خفيفة لسد الرمق !

لقد حدثته عن حياتي وماذا فعلت بعد ان افترقنا قبل اكثرمن عشر سنوات ، ولكنني لم اذكرله شيئا عن كرستينا ! كذلك حدثني هوعن حياته ، فأعلمني بأنه الآن هو قائد كتيبة في الجيش ، ويطمع ان يترقى قريباً ليكون قائد فرقة !

سألني ان كنت قد تزوجت وكونت عائلة في امريكا ، ولما اعلمته بأنني اريد أن اتزوج من احدى غزالات السلط، لأن حب المدينة معشعش في احشائي ! وقصصت

عليه قصتي مع صاحبة الراتب العشرين ديناراً ، والذي يحسم منه فقط قرشين ونصف بدل طوابع ! وبعد ان ضحك طويلاً قال :

ـ سا محك الله ياصديقي ! لقد كنت أظنك أكثرنضوجاً ! لقد تركت بنات امريكا الجميلات الناعمات ، واللواتي الزواج بواحدة منهن لا يكلفك دوراً ، وعدت الى السلط لتتزوج من بناتها ، ولتقضي عمرك وانت تسدد ماعليك من ديون ؟! !لقد ظننتك اذكى من ذلك وأبعد نظراً !

إكتفيت بابتسامة باهتة ولم أعلق على ماقال !

بعد حوالي الساعتين قضيناهما بالحديث في شتى المواضيع ، ودعنا يوسف وأنا ، ابانا الخوري ، وركبنا سيارة "اللاند روفر" وتوجهنا الى عمان !

دخلنا مطعمًا في عمان متخصص في تقديم المشاوي ، فاكلنا اللحوم اللذيذة والسلطات الفاخرة ، وختمنا وجبتنا ، بصحنٍ ضخم ولذيذ من الكنافة النابلسية !

بعد العشاء اوصلني يوسف الى منزلنا ، بعد ان اعلمني بانه سيأتي الى بيتنا ، ظهريوم الجمعة ، لياخذني الى بيهم ، حيث انه يريد أن يعمل وليمة كبيرة على شرفي ، يدعو اليها بعض الأصدقاء والمعارف ، وكذلك ليعرفني على زوجته واولاده !

*****

الفصل السابع عشر

قابلت في مكتبة الجامعة طالبة ترتدي ملابس حداد سوداء غالية الثمن متميّزة الصنع ، زادتها جمالاً وهيبة زيادة على ما كانت تتمتع به من رقة وانوثة !

كانت تبحث عن كتاب في مكتبة الجامعة ، لكتابة بحث تقوم به ، فساعدتها بالحصول عليه !

تفرّع الحديث بنا بعدها فعلمت بأن لها ست شقيقات غيرها ، تدرس كبراهنّ طباً في ايطاليا ، وأن لها أخاً واحداً فقط ، وعمره ثلاث سنوات ، كما علمت أنها فقدت والدها قبل أقل من عام !

تحدثت إليها عدة مرات في مكتبة الجامعة ، بمواضيع مختلفة ، ثم سألتها ان كانت تقبل بي زوجاً ، فاعلمتني بحزم بأن هذا يعود إلى والدتها الأرملة ! فسألتها كيف أستطيع التواصل مع والدتها ؛ فطلبت مني أن أعطيها ورقة ، لتكتب لي رقم هاتف والدتها !

هاتفتُ والدتها فرحبت بي ترحيباً حاراً ، وأعلمتها بأن تتكرم بتحديد موعدٍ لمقابلتها ، أخبرتني بأنها ستسرُّ بمقابلتي في الأسبوع القادم ! عندما ذهبت لمقابلتها في بيتهم ، اعلمتني بأنها لا تعرف عائلتي ولكنّ لهم صديق حميم مسيحي ، وصيٌّ على

أولادها ! انه يعرف أخي معرفة جيدة وعدداً كبيراً من أفراد عائلتنا ! لقد أثنوا جميعهم علي ، وأنه يسعدها أن أكون زوجاً لأبنتها .

عندما سألتها عن طلباتاها ، ابتسمت وقالت:

ـ نحن نطلب من الذي يتقدم لخطبة إبنتنا ، ان يكون ذو سيرة عطرة واخلاق حميدة وابن عائلة كريمة ، وكذلك عنده مؤهل علمي ! إننا عندما سألنا عنك أخبرونا بأنك تتمتع بجميع هذه المزايا الحميدة ! أما مهرُها ، فهو أن تحبها و تحترمها وان لا تغضبها ! لقد ترك لها والدها نقوداً تكفي لاستئجار بيت و تأثيثه و شراء جهاز كامل لها !

أقولها أمام الله وللحقيقة والتاريخ ، إنه عندما شعرتْ أم محمد أنني لا أملك نقوداً لشراء ملابس لي و للخطيبة ، قامت هي بكل شهامة وصدق وأريحية ، بشراء كل ما نحتاجه من ملابس صيفية وشتوية أيضاً ، لكل منّا ، نحن الاثنين !

صدقت يا حبيب الله عندما قلت بأن "خير الزوجات أقلهن مهراً " !

انني ومنذ أن تزوجت ام فراس ، لم يمر علينا يوما واحداً أغضبتها أو أغضبتني به ! فشكراً لله مثنى وثلاث ورباع !

*****

الفصـــــــــل الثامن عشر

بقلب مؤمن صاذق ، وبروح صافية راضية ، وبضمير مترف منعم ، وبوجدان مفعم بالمحبة والعطاء ؛ استحممت وتوضأت ثم توجهت الى القبلة ، وصليت لله ، خاق السموات والأرضين !لقد صليت له ركعتين شكراًعلى نعمه التي لا تعد ولا تحصي ، التي غمرني بها منذ ان تعرفت على كرستينا ووالديها !

انني ومنذ أول ليلة تعرفت بها عليهم وأنا أعيش في بحبوحة من النعم والخيرات ، فآكل شرائح الحم البقري المتميز والذي لاتأكله الا علية القوم ومترفيها ، وكذلك سمك القريدس الفاخر الذي لايتواجد الا بمحلات متميزة وقليلة ، آكلها مع الخضار المشكلة عالية الجودة ! بالأضافية الى شتى أنواع السلطات والمقبلات ، وكذلك اجود انواع الشوربات واالذها طعماً !

اما الأنبذة النادرة والآعصرة الفاخرة ، فأنني لا أعرف معظم اسمائها ، ولا يهمني حتى ان اعرف ! إن كل مايهمني هو ان اغرق نفسي بهذه المتع التي تكرم بها علي الخالق ، سبحانه وتعالى ، بعد حرمان طويل طويل ، في الوطن الحبيب !

إنني ولله الحمد والشكر ، أكلت بتلذذ ومتعة كل ماتشتهي الأنفس ، فالشكرلله مثنى وثلاث ورباع ، فالق النوى ، الرحمن على العرش استوى ! لقدسعدت بقضاء أمتع الأوقات في منتجعات كاليفورنيا وفلوريدا والمكسيك وسبحت في مياهها ، واستمتعت بالسير على شواطئها ، ونمت في ارقى فنادقها ، ونعمت بشمسها واريج عطرها ! كما زرت أندر الأماكن السياحية ، وسهرت في ارقى النوادي الليلية ، وكذلك نمت في ارقى الفنادق وركبت أفخر السيارات !

هاتفتني كرستينا من مكان عملها بالجامعة وهي تكاد تطير فرحاً ، وأعتمتني بأن والدها قد تحدّث معها قبل قليل وطلب اليها أن نأتي نحن الأثنين ، ونقابله في مكتب العم" أندرو روبشتاين " ؛ ولما سألتها من هذا الأينشتاين ، ضحكت من جديد وبصوتٍ عالٍ وقالت :

ـ روبنشتاين، وليس آنششتاين ، ياحبيب القلب ! إنه صاحب وكالة سيارات " الجاقوار!" حيث وصلت سيارتينا !

ـ سيارة من ؟! سألتها باستعراب وحيرة !

ـ سيارتك أنت وسيارتي أنا ! أنسيت ؟! لقد تحدثنا عنها أربعتنا يوم عيد ميلاد مطعمنا العتيد ! قالتها شبه مغتاضة وكأنما أهنتها !

ـ لقد ظننت ان والدك كان يمزح وغير جاد عندما أعلمني بأنه يريد ان يبتاع لي سيارة "جاقوار" كسيارتك ! قلت وأنا كالمنوم !

ـ عندما يقول والدي شيئاً ينفذه ! انه لايمزح ! لاتنسى أنه يهودي ! قالت بلهجة مباهاتٍ وتفاخر وهي تقهقه !

ـ وكيف أنسى ذلك ياحبيبتي وقومك قد القوا بنا في صحراء التيه والربع الخالي ، وأمتنا الماجدة ، تحتفل كل عام بانتصارات "دونكوشيتية"، على بني قومك ؟! قلتها بقهر وغضب شديدين وأنا أكاد أختنق من شدة القهر والأحباط !

ـ إنك تتكلم الغازاً ياحبيبي ! على كل حالٍ سأمرعليك بعد حوالي ساعة ف ، فكن جاهزاً ! مع السلامة ! قالت ذلك وأغلقت السماعة !

للحقيقة والتاريخ ، ولأكن صادقاً مع نفسي ، فأن عرض والدا كرستينا علي بأن يشتريان لي سيارة "جاقوار " قد اسعدني ودغدغ مشاعري ؛ إلا ان التزاماتها الظاهرة والمخفية قد اقلقتني !

لقد قلت لكرستينا ووالديها يوم عرضوا عليّ انهم يريدون أن يشتروا لي سيارة "جاقوار" بأنني سعيد بسيارتي ، فأعلموني ثلاثتهم بأنهم لايقبلون لصديق أبنتهم ، برفيسور الجامعة المتميز ، أن يركب سيارة غير متميزة ! ولما سألتهم عن سرّ سيارة شراء لكرستينا مع أن عمر سيارتها عام فقط ، أجابت الأم .

ـ إننا نريد لولدينا ان يكونا متساويين في كل مايملكان !

وبما أنني أتيت من بلاد الجهل والتجهيل ، فأنني لم أستوعب فكرة ، أن تكون البنت مساوية للولد تماماً ، إن لم يكن أكثر !

لقد اعلمتهابأن سيارتي "الفوكس فاجن" بحالة جيدة ونادراً ماتحتاج الى تصليح ومصروفها قليل ، ولكنهم أعلموني بأنها صغيرة وأنا حجمي كبير ، كما انها لا ثليق باستاذ جامعة متميز يدرّس في جامعة متميزة !

عندما سألت كرستينا وأنا راكب الى جانبها في طريقنا الى شركة السيارات عن سبب إصرارها على أن يكون لي سيارة مثل سيارتها ، أجهشت بالبكاء وقالت :

ـ لأنني أحبك أكثر من نفسي ، ثم أن سؤالك هذا هو عدم وعيك لعمق مشاعري وعدم ادراكك لمقدار حبي لك ! انه إهانة لي واحتقاراً لتفكيري !

ـ ولم تعتبرينه هكذا ؟ !

ـ لأن الذي يحب حباً حقيقياً صادقاً ، يمنح روحه وقلبه وعواطفه وكل أحاسيسه لمن يحب ! قالت ذلك وازداد بكاؤها !

ـ أرجوكِ لا تبكي ياكرستينا ، فأن قلبي يتقطع عليك حزناً وأنا أرى هذا السيل العرم من الوفاء والأخلاس !

بقيت تبكي وتنهنه حتى دخلنا موقف سيارات الوكاله ، ولم تكف عن االبكاء إلا بعد أن أطفأت ماتور السيارة ودخلنا عمارة الوكالة !

قرعتْ باب مكتب مدير الشركة ودخلت فدخلت خلفها ، وحالما رأنا الأب والمدير وقفا ورحبا بنا ترحيباً حاراً ، ثم قدمني الأب الى السيد روبنشتاين قائلاً :

ـ هل لي أن اقدم لك البرفسور سهيل دهشان ، انه عربي من الأردن ، زميل كرستينا في الجامعة ! إنه ذو أخلاق عالية جداً وثقافة متميزة ، أحبه كأبني تماماً ! قالها الرجل بصدقٍ وحماسٍ أحسستهما بحرارة وصدق كلماته وإحمرار وجهه ! بعدها قدم لي الرجل على انه بالأضافة الى أنه صاحب الشركة إلا انه أيضاً صديق العائلة !

إرتفع والد كرستينا في نظري حتى وصل عنان السماء ، حباً واحتراماً وتقديراً ! إنه لم يقدمني كخطيب لأبنته ، ولا حتى حبيب او صديق ، بل زميل ! لاشك أنه قال ذلك احتراماً لشعوري وعدم احراجي ، وحتى لايلزمني ! انه مدرك تماماً شدة حساسيتي لهذا الموضوع !

ـ ألم تعلمه ياداوود ، بأننا من جماعة " السلام الآن " ؟! ، ولسنا من جماعة بيجن وشارون ونتنياهو ، وجميع المتطرفين والمتعصبين ، وأننا ضد سياستهم العنصرية المتطرفه والقمعية ؟! إننا نحب العرب ونريد أن نعيش معاً بسلام ! قال الرجل بحماس وقد شعرت انه يدافع عن يهوديته !

ـ أنا أعرف ذلك جيداً ! لقد أعلمني العم داوود وكذلك السيدة مونيكا والآنسة كرستينا . اننا نحن العرب نتمنى لو ان نعيش ، انتم ونحن ، في سلام ووئام ، ولكن المتطرفين يزدادون ، في كل يومٍ ، تطرفاً وعدداً ! قلت .

لم يعلق احد من الرجلين وإنما هزا رأسيهما وكأنما ليقولا لي ؛ معك كل الحق !

عندما وصلنا ، كرستينا وأنا ، الى معرض السيارات كان كل شيء منتهياً ، فمعاملة السيارتين كانت جاهزة ، وثمنهما كان مدفوعاً ، وشهادتي التملك كانتا مكتوبتين ! ان كل مافعلناه بعد أن شربنا المرطبات ، ان تسلمنا المفاتيح وشهادتي التملك !

نزلنا اربعتنا الى الدور الأرضي حيث تتواجد السيارتين ، و شرح لنا السيد روبشتاين بعض الأيضاحات عن السيارتين والميزات التي تمتازان بهما عن غيرهما من السيارات الأخرى ، وكذلك المحسنات التي ادخلت على الموديل الجديد ! بعدها سلمنا المفاتيح متمنياً لنا السعادة والتوفيق ؛ ثم إنطلقنا بعدها !

كانت سيارة كرستينا حمراء اللون اما سيارتي فكانت سوداء اللون ، اذ ان هذه كانت رغبة كل واحد منا !

عرض علينا والد كرستينا أن نذهب ثلاثتنا الى مطعمه لنحتفل ، ولكن كرستينا اصرت علينا ان نذهب ثلاثتنا ونحتفل في مطعم والدتها ! رحّب الرجل بالفكرة وأثنى عليها ! لقد اعلمنا الرجل ان نقابله هناك حيث عليه أن يمر على مطعمه ليطمئن على سير الأمور !

ياله من شعور لذيذ لذيذ ، أن يضع الأنسان نفسه في سيارة جديدة ، فاخرة ورافهة ، يجلس بها خلف المقود ويقودها هو بنفسه ، ويعرف انه هو لاغيره ، المالكها والمتصرف بأقدارها ! حقا انه إحساس رائع وسعادة مطلقة ! انهم شعور بالتملك لذيذ لذيذ !

الآن فقط أدركت كيف ان اصحاب المباديء والمثل العليا ، يتخلون عن قيمهم ومعتقداتهم ، مقابل فيلا فاخرة او سيارة فارهة يركبونها ، أو حتى امرأة مغناجاة يغرقون أنفسهم بأحضانها ! لقد سألت نفسي ، هل أنا يعربي حقاً وصدقاً ؛ أم أنني من مدعي الوطنية واليعربية ؟ ! الأيام هي التي ستخبر وهي التي ستحكم !!

قادت كرستينا سيارتها وتوجهت الى مطعم امها ، وركبت انا سيارتي ولحقت بها .

يبدو لي ان البنية قد هاتفت امها قبل ان نغادر الشركة ، واعلمتها بأننا قد استلمنا سيارتينا والوقت الذي تتوقع به وصولنا الى المطعم ! إننا وحلما اوقفنا سيارتينا امام المطعم ، وحتى قبل ان نخرج منهما ، كانت الأم تقف أمام باب المطعم مرحبة ومباركة لنا ومثنية على جمال السيارتين وشفافية ذوقينا وحسن اختيارنا !

احاط بنا موظفو المطعم وكان عددهم بحدود العشرة ، رجالاً ونساءً ، تعلو وجوههم ابتسامات جذلى ، يهنؤن ويباركون لنا ، وكأنما عدنا من شهر العسل !

لقد ازدادت فرحتهم واتسعت ابتسامتهم عندما سمعوا كرستينا تطلب من امها ان تمنح كل واحد منهم اكرامية جزلة !

لم تكن كرستينا وامها قد توقفتا عن التحدث عن جمال السيارتين ومزاياهما بعد ، ولم يكن قد مضى سوى بضع دقائق على جلوسنا ، إلا واقبل الزوج وعلى وجهه ابتسامة كبيرة وقال حالما وضع نفسه على الكرسي :

ـ قبل مغادرتي المطعم بقليل اتصل بي السمسار بروس اوبري ، واعلمني بأن السيد جيمس ماكدونلد ، قد وافق علي بيعنا المنزل وبالسعر الذي عرضته عليه وليس بالسعر الذي طلبه هو !

ـ رائع ! مبروك ياسهيل وياكرستينا ! صاحت المرأة وقد هجمت عليّ وعلى كرستينا تعانقنا وتقبلنا على الوجه والخدين ؛ بعدها خاطبت زوجها قائلة :

ـ أنت عبقري يازوجي الحبيب ! لم أكن اصدق ان الرجل كان سيقبل بالمبلغ الذي عرضته عليه ! لقد كان الفرق كبيراً بين الثمن الذي طلبه والثمن الذي عرضته عليه !

ـ صدقيني يامونيكا ان السعر الذي طلبه كان مبالغ به ، وما عرضته عليه كان السعر الحقيقي للبيت ، وإلا لما كان قبل العرض ! و بعد ان رطّب شفتيه بلسانه أضاف :

ـ لقد اعلمني السمسار بأن صاحب البيت سيسلمه لنا خلال اسبوعين ، لأنه قد اشترى الشقة التي احبتها زوجته ! انه يقوم الآن بشراء ما تحتاجه من عفش !

ـ ومتى تعتقد أن ولدينا الحبيبين ، سهيل وكرستينا ، سيرحلان الى بيتهم الجديد ؟

ـ حوالي الشهر من تاريخ الأستلام ! إنني اريد ان ادخل عليه بعض التعديلات المهمة !

ـ إعذروني يا أحبائي على جهلي وغبائي ! إنني والله لا اعرف عم تتحدثون ! قلت وقد اغمضت عيني نصف إغماضة ، وانا انقل طرفي بين الثلاثة !

ـ السيد ماكدونالد هو صاحب البيت الذي يريد ان يبيعه والذي عرض عليه داوود ان يشتريه لكما ، انت وكرستينا ! فهل نسيت يابني ؟! سألت الأم باستغراب ودهشة فاقتا حيرتي وتعجبي !

ـ وكيف أنسى ذلك ياأم حبيبتي ، ويوم ذبحي قد اقترب ؟! قلتها وقد مررت بأصابع يدي اليمنى على رقبتي من الشمال الى اليمين ، علامة الذبح !

صدقاً ؛ لقد خرجت الكلمات من فمي دون إرادة مني ، وان كنت قد تظاهرت بأنني قلتها متعمداً ، كنكتة !

ـ لم أكن أعرف ان سهيلاً صاحب نكتة لوذعية ! قالت الأم وهي تقهقه ضاحكة !

ـ حبيبي سهيل متفوق في كل شيء عظيم ومحبب ! قالت كرستينا وهي تنظر اليّ إعجاب وتقدير ؛ وقد اغرقتني بابتسامة أحسست صدقها ودفئها !

ـ وأنتِ ياحبيبتي كرستينا ، ملكة في كل مفخرة من مفاخر الحياة ؛ جمالاً ، ذكاءً ، انوثةً ، رقةً ، نعومةً ، ثقافةً ، أخلاقاً ، أدباً ، تفانياً ، وفاءً ! إنه لاتوجد ميزة رائعة في هذا الكون الواسع إلا ولكِ نصيب منها ! قلت بحماس وصدق وأنا أستعمل يدي الأثنتين لتؤكدا مقولتي !

وهنا هجمت البنية عليّ وصارت تعانقني وتقبلني بحرارة ونهم وهي تردد :

ـ احبك ! اعبدك ! اقدسك ! اموت فيك حباً ! انت ملاك ! انت قديس ! انت اخلص حبيب على وجه الأرض !

كنت اذوب خجلاً وانا احاول ايقافها وابعادها عني ! لم تتوقف إلا بعد ان قال والدها ؛

ـ انني حلما نستلمه سأحضر شركة لتقوم بتغيير كل ما يحتاجه من تغيير، ثم بعده اشتري له العفش الذي يليق بولدي الحبيبين ، سهيل وكرستينا ! قال الأب بحماس وصوتٍ ملتهب وكأنما يخطب !

وهنا هجمت كرستينا على والدها تعانقه بشوق وحرارة وهي تردد كلمات المحبة والشكر والثناء !

لقد شعرت بأنني يجب ان ابدي اهتماماً وحماسا ايضاً ، فتقدمت منه وعانقته وقبلته على خديه وانا اقول :

ـ ماأسعدنا بك ياعمي ، كرستينا وانا ! حقاً انك والد عظيم ! امثالك قليلون في هذه الأيام !

ـ لاتنسى يابني ، انكما الآن اهتمامي الوحيد ! لقد حققت في حياتي كل ما ارغب في تحقيقه ، وبقيت عليّ مهمة واحدة ، وهي ان اراكما ، انت وكرستينا في بيتكما سعيدين !

ـ لاحرمنا الله منك ياعمي ، وامدّ الخالق في عمرك ! قلت صادقاً وبحرارة ومن اعماق قلبي !

بعدها تقدمت من الأم وعانقتها وقلت بحماس صادق ، بعد ان قبلتها على الخدين ! ـ ـ ان وراء كل رجل عظيم ، إمرأة عظيمة ومتميزة ؛ ولا شك انه لولا حبك الكبير لعمي ووقوفك الى جانبه ومعاضدته ، لما وصل الى ماوصل اليه من السمو والرفعة !

ـ أنتِ يا أم حبيبتي ويا زوجة عمي ، تستحقين التقديس ! صدقيني ، ان أمثالك قليلات في هذا العالم ، هذه الأيام ! فقالت وهي تضمني الى صدرها وتقبلني على الخدين ؛

ـ وأنت ياابني ياسهيل ، هدية نادرة ارسلها الخالق الينا لتكتمل سعادتنا ! والآن اعذروني يا أحبائي ، اريد ان اذهب واعلم الطباخة ان تجهز ماسأقدمه لكم ! قالت ذلك وانصرفت .

حقاً ، لقد كان احتفالاً مهيباً وحفلة باذخة ؛ فشرائح اللحم البقري الفاخر والمتميز ، والدجاج المحمر ، والقريدس " الشرم " المقلي ، وشتى انواع المشهيات والمقبلات ، وكذلك السلطات والشوربات والخضار ! بالأضافة الى أفخر انواع الأنبذة المعتقة والمتنوعة ! وكذلك ارقى الحلويات الفاخرة ! ان خيرات الله هذه تكفي لأربعات الأشخاص ، وليس لأربع آدميين فقط !

ضحى اليوم التالي وكان يوم سبت ، وكنا كرستينا وانا مازلنا في الفراش نتمازح ونتضاحك عندما قالت كرستينا فجأة :

ـ اريدك ان تبقى في الفراش ولا تغادره حتى أهيء لنا الأفطار ، اذ أشعر برغبة شديدة ان اجهزه لوحدي واطعمك بيدي هاتين ! قالت وهي تزداد بي التصاقاً !

ـ ولم هذا التغيير المفاجيء ، ونحن عادة نقوم معاً بتجهيز جميع الوجبات التي نأكلها في شقتنا !

ـ حقاً ، لاادري لماذا ! لقد شعرت فجأة انني لم اقم نحوك بعمل يسعدك دون ان تقوم انت بمثله ، ان لم يكن اكثر ! نحن دائماً نجهز مانأكله سوية ! احممك فتحممني ؛ اعمل لك مساجاً فتعمل لي مثله ؛ نضع الملابس في الغسالة وفي

الجفافة معاً ، كل شيء نعمل معاً ونستمتع به سوية ؛ حتى عملية الجنس تسعدني واسعدك !

ـ لابأس ؛ جهزي الأفطار لوحدك ، وبعدها سأنهض واشاركك الطعام ، مازالت هذه رغبتك !

ـ حقاً ! لقد شعرت بسعادة ولذة عظيمتين وانا اتناول طعاماً لم اساهم في اعداده ، وكرستينا تضع في صحني ماعملته ، وتصب لي عصير البرتقال وفناجين القهوة ! لقد احسست بأنني اعيش مع امرأة عربية تعتبر ان الرجل سيدها ، وليست هي ندية له !

ـ شكراً ياحبيبتي ، لقد ذكرتني بنساءنا في الوطن ، انهن يطبخن ويغسلن ويكوين الملابس ويربين الأولاد دون أن يشاركهن الرجل ! يحدث هذا بالنسبة لنساء المدينة ، اما الفلاحات فأنهن يشاركن الرجل في حرث الأرض وجني المحصول ! قلت .

ـ وهل تقدرون تضحياتهن بأن تحبوهن وتدللوهن وتشترون لهن الأشياء التي يحببنها ؟ !

ـ نحن لانقوم بشيء من هذا ؛ نحن نتذكرهن فقط عندما نريد أن نأخذهن الى الفراش ، لنضاجعهن !

يبدو ان النكتة قد اعجبتها فانفجرت تضحك بتلذذ وفرحة ، وعندما توقفت عن الضحك ومسحت دموعها بالفوطة التي كانت تضعها على صدرها ، قالت :

ـ صدقني ياحبيبي ان اغلى هدية عنددي هي عندما تحملني الى الفراش وتضمني الى صدرك وتقبلني وتقول لي أحبك ! انها عندي تساوي كل ملابس وحلي العالم ! قالت بسعادة وتلذذ !

ـ تقولين هذا لأنك تملكين كل ماتشتهي المرأة امتلاكه ، من ملابس وحلي وعطور وسيارات ، أما هن ، فمعظمهن فيملكن القليل القليل !

ـ اشكر الله انني املك كل هذه الخيرات ! قالت وقد نظرت الى اعلى نظرت خضوع وامتنان وورع !

حقاً ! لقد تحركت كل خلجة في كياني ، احتراماً وتقديراً لتلك البنية التي تثمن نعم الخالق التي يجود بها عليها !

*****

الفصل التاسع عشر

استلم والد كرستينا البيت في الوقت المحدد ، وذهبنا نحن الأربعة لنقررالتغيرات التى يحناج اليها قبل أن نرحل اليه ، كرستينا وأنا !

لقد كان منزلاً رائعاً حقاً ! انه يقع في أجمل بقعة من مدينة سانتا مونيكا ، محاطاً ببيوتٍ لا تقل عنه جمالاً وروعة ، ان لم يكن اكثر! لقد كان مبنياً على نصف " أيكر " من الأرض مزروع نصفها بشتى انواع الأشجار المفرحة للقلب المنعشة للروح ، المثمرة وغير المثمرة ؛ اما النصف الآخر فقد كان مزروعاً بشتى أنواع الأزهار واندرها !

كان المنزل مبنياً طبقاً لأحدث المواصفات واجملها ! كان يتكون من طابقين اثنين ، الطابق العلوي به ثلاث غرف نوم بينهم صالة متوسطة الحجم للجلوس ، ولكل غرفة نوم حمامها ومرحا ضها وخزائنها ومريها ورفوفها ؛ اما الطابق الأرضي ففيه المطبخ وصالة كبيرة وحمام كبير ، كما ان الجدران الأمامي والمطل على الحديقة ، فجداره مصنوع من الزجاج المقوى !

ـ لقد قيل لنا ان جميع ما تخلصنا منه كان عمره حوالي العامين ، وأن لاحاجة اطلاقاً لاستبدال اية قطعة منه ، ولكن الأب والأم والأبنة ، جميعهم ، أصرواعلي الأستبدال بجديد مما احزنني وأنا ارى جميع هذه القطع الجميلة تكسّر ويلقى بها في حاوية القمامة !

لقد قامت شركة تعهدات بتغيير جميع الأدوات الصحية ، ودهن الجدران والأبواب والشبابيك ، وفرشت الأرض بالسجاد الفاخر ! إستغرقت عملية التغيرات هذه حوالي

الشهر ، جرى بعدها تجهيز البيت بأغلى الأثاث وأفخره ، وكنت انا ارافقهم بالشراء وابداء المشورة ! لقد اشترينا جميع حاجيات البيت حتى أكياس القمامة !

لقد ابتسموا ثلاثتهم عندما أعلمتهمابأنني احب الأحتفاظ بالطاولة والكرسي الموجودين في شقتي ، اذ ان لي معهما ذكريات عزيزة ومؤثرة على قلبي ورحي ! لقد كنت أجلس عليهما واكتب رسائل الشوق والوله الى الأهل والأحبة في الوطن ، ابثهم اشواقي وعواطفي ، واشكو لهم همومي واحزاني ، ثم وأنا ادبّج مقالاتي في غشقي للوطن وهيامي به ! لقد سامحتهم وهم يتبادلون نظرات الرثاء والشفقة !

يتواجد غير بعيد من المدخل الرئيسي باباً كبيراً لمرءآب سيارات يتسع لسيارتين وغسالة وجفافة ملابس ! كان المنزل خالياً من الأثاث تماماً ، وكان كذلك منزوع الستائر ! وطبقاً لثقافتي العربية في علم الصحة ، فأن البيت لايحتاج لأية اصلاحات اوتغييرأبداً ابداً ؛ اذ يبدو لي وكأن عمال التبليط والطراشة قد انتهوا لتوهم من دهن وطراشة كل ما يحتاجه المنزل ! أما البانيوهات وحجارة المراحيض جميعها ، فقد بدت لي وكأنها اخرجت من كراتينها للتو واللحضة ! أما سجاد الأرض فقد بدا لي وكأنه وضع حديثاً !

*****

الفصل العشرون I

إن لمطعم والد كرستينا مدير كفوء ومتميز ، يديره منذ تاسيسه ، قبل اكثر من عشرة

أعوام ، كما قيل لي . لقد اختاره الأب من بين مجموعة كبيرة من اليهود المهرة في ادارة المطاعم ، والذين يعرفهم معرفة جيدة وعن قرب !

وكما لاحضت ، فأن الأب يعتمد عليه إعتماداً كلياً في ادارة جمييع شوؤن المطعم ، وأنه يثق به ثقة مطلقة ! انه وبسبب كفاءة الرجل وثقته المطلقة به ، فأن الأب قلما يتواجد في المطعم ، اذ ان عنده استثمارات كثيرة ومتنوعة ! اما الأم فقد كانت هي التي تدير مطعمها ، ويساعدها مجموعة متميزة من الطهات والنادلين ! لقد بدأته قبل ثماني سنوات ، كما أعلمتني ، وهي تديره بجدارة ، ولا تقبل ان يحل احد مكانها ، لأنها تعتقد اعتقاداً جازماً ان ليس هناك من يستطيع ان يديره بجدارة وربحية عالية كما تفعل هي !

انه وبسبب عدم استطاعة الأم ترك المطعم الابعد اغلاقه ليلاً ، فقد كانت جميع اجتماعاتنا وعشواتنا في مطعم الأم ! لقد كان الأب يحضر ليلاً الى مطعم الزوجه ونبحث ما نريد بحثه ، اثناء تناولنا وجبة العشاء !

بعد مضي حوالي الشهر على بدء الشركة المتعهدة لأجراء التغيرات اللازمة في المنزل الذي اشتراه لنا ، اعلمتني كرستينابأن والدها يحب ان يجتمع بنا ، هي انا ، في مطعم والدتها ، لتناول وجبة العشاء سوية !

ـ جاءك الموت ياتارك الصلاة ! قلت هذا بالعربي ، ثم ترجمتها لها ، وانفجرت اضحك ؛ وعندما توقفت عن الضحك أضفت :

ـ لاشك الآن بان الذي سيطلب مني أن اتزوجك بعقد زواج رسمي ، هو والدك نفسه ، وإلا فان عليّ أن أتركك وارحل !

ـ اطمئن ، انه لن يفعل ، لاهو ولاغيره ! اننا لانؤمن بالتهديد والأرغام ! هذه قناعات ! قالت بتمهل وتعقل ! .

ـ شكراً لكِ لتنويري ! يسعدني أنكم استوعبتم الدرس !

تجاهلت تعليقي وأضافت :

ـ سامر عليك حال انصرافي من عملي ؛ من فضلك كن مستعداً ! قالت ، وقد شعرت الأنكسار بصوتها ! فقلت بصوت رقيق حنون لأطيب خاطرها ولأرفع من معنوياتها !

ـ سأنتظر حبيبة القلب كرستينا بالشارع أمام العمارة ، بشوق ولهفة ، حتى لاتكلف نفسها مشقة الأنتظار لأنزل اليها !

ـ ماأرق مشاعرك وازخم عواطفك ياحبيبي عندماتريد أن تسعد مخاطبك ؛ وما أحدّ لسانك واقسى كلماتك عندما تريد ان تهين محدثك !

ـ صدقيني ياحبيبتي أنني مدرك ذلك تماماً ، واشكر الخالق ان منحني هذه الموهبة التي اعتبرها نعمة منه تعالى ! قلت.

ـ وصدقني انني انا ايضاً سعيدة أنه منحك كذلك رجاحة العقل وقوة الشخصية ! قالت بحماس ، وهي تبتسم !.

ـ والآن أصدقيني القول ياحبيبتي ، لم هذا الأجتماع ؟ ! سألتها بعد ان ركبت الى جانبها وانطلقنا.

ـ صدقني ياأغلى من في الوجود ؛ انه لم يقل لي ؛ ولكنني أعتقد أنه بخصوص بيتنا ، اذ عرفت انه استلم مفاتيحه ! قالت .

وكالعادة ، فقد كان عشاءً فاخراً ، قُدمت به جميع انواع اللحوم والأسماك والقريدس ، وكذلك الشوربة والسلطات ، بلأضافة الى جميع انواع الأنبذة وأفخرها !

بعدالعشاء قال الأب ، وقد نظر الينا ، كرستينا وأنا ، وفرحة كبيرة تضيء وجهه ، وابتسامة جذلى تؤجج شفتيه !

ـ المناسبة التي نحتفل بها الليلة تحتاج الى خطبة طويلة ، إذ أنها انجاز عظيم آخر لولدينا ، سهيل وكرستينا ؛ انني احب الأفعال وليس الأقوال ! لقد استلمت اليوم مفاتيح بيت ولدينا سهيل وكرستينا ، واريد ان اسلمها لهما ، وارجو ان يبداءا بالرحيل ويأخدا معهما فقط ملابسهما الشخصية فقط ، وشكراً ! قال هذا وناول كل منا نسخة من جميع مفاتيح ألأبواب .

نهضت كرستينا وعانقته بشوق وحرارة وهي تردد كلمات الشكر والثناءعليه والدعاء له بالصحة وطول العمر ، وكذلك فعلت مثلها ، ثم أضفت !

ـ صدقني ياعمي ، انه لايوجد كلمات في قواميس اللغة تعبر عن شكرنا وامتناننا وكذلك تقديرنا لما فعلته وتفعله من اجلنا ! وبعد ان رطّبت شفتي بلساني أضفت :

ـ لقد اشتريت لنا مطعماً وسيارتين ومنزلاًواثاثه ، وهذاقلما يفعله والد لولديه ! شكراً لك ولأمنا الحنونة ؛ أنتما نبع حنان ومحبة ! بعدها عانقت الأم ثم عانقت كرستينا .

ـ انتما ولدينا العزيزين ، ولا هم لنا في هذه الدنيا الا سعادتكما قالت بسعادة وحبور!! !

ـ ادامكما الله لنا سنداً وامد في عمريكما ، ومنحكما سعادة دائمة ! قلت بصدق وحرارة .

ـ ما أجمل كلماتك يابني وما أرقّ عاطفك ! حقاً ، انك ابن نادر الوجود ! ما اسعدنا ان تكون لنا ابناً ! قالت الأم وهي تمسح دموعها بظهر يدها .

!ـ سهيل دائما متميز في اقواله وافعاله ! قال الأب وهو يضمني برموش عينيه !

ـ وأنتم ثلاثتكم متميزون في حبكم وعطائكم ! قلت بحرارة وصدق !

وهنا هجمت كرستينا علي وصارت تقبلني بنهم وحرارة ، مما أخجلني ؛ حيث صرت ادفعها عني بلطف لتتوقف ، بينما كان الوالدان يرقباننا وعلائم السعادة تطفح بها وجهيهما !

******

الفصل الواحد والعشرون

تخلينا كرستينا وأنا عن شقتينا وسكنا في منزلنا الجديد ! لقد اخذنا معنا ملابسنا وحاجياتنا الشخصية فقط ، اما الأثاث فلم نأخذ منه ولا قطعة واحدة مع ان بعضه كان شبه جديد ! انه وللزيادة في إسعادنا ، فقد تعاقد الأب مع شركة خدمات منزلية ، تقوم بالأعتناء بمنازل الأغنياء والمترفين ، بكل ما يحتاج الى تنظيف وكذلك تعقيم الحمامات وترتيب غرفة النوم ، وكل ما يحتاجه البيت ، بعد مغدرتنا صباحاً الى عملنا ؛ هذا بالأضافة الى كوي ملابسنا !

لقد شعرت حقاً ، ان الأب وبكل محبة وتقدير وكذلك بكل صدق واخلاص ، يريد ان يوفرلنا ، كرستينا وأنا ، منزلاً مريحاً جداً ، ليكون عش غرام لحبيبين لاشاغل لهما بعد عودتهما من عمليهما إلا اسعاد احدهما الآخر والأستمتاع بملذات الحياة ومسراتها !

لقد شجعنا هذا على ان نأكل في المنزل وليس في الخارج كما كنا نفعل ، الا اذا كنا في ضيافة مطعم الأب اوالأم !

لقد كان الأب كثيراً مايأتي الى منزلنا ويطلب الى كرستينا ان تطبخ لنا أكلة هو يحبها ويعرف انها تجيد طبخها ، ويتناول العشاء معنا ، فيحدثنا عن اعماله وانجازاته وطموحاته ، ويحثنا على ان نكون ناجحين في حياتنا !

لقد كان للأب استثمارات كثيرة غير المطعم ، فقد كان عنده اسهم كثيرة في شركة تشتري وتبيع العقارات ، وشركة تؤمن على الحياة ، وشركة تأمين العقارات ؛ كما كان عند اسهم في شركة تصنع معدات طبية تبيعها داخل امريكا وخارجها !

*****

الفصـــــــــــل

ـ يالك من مخطط بارع ياعم داوود ؛ انك رجل اعمال عملاق ! حقاً ؛ انك عبقري ملهم ! انك عندما تتحدث عن المستقبل وكأنما أنت تقرأ في كتاب جرت وقائعه وانتهت ! إن ثقتك بنفسك مطلقة ، وحديثك عن الأرباح والخسائر منظور امامك ومؤكد لك ، وغير قابل للشك والنقاش ! ما شاء الله وتبارك الخالق ! لقد خططت ان ندفع ثمن المطعم خلال اربع سنوات فهاهو قفحصل ، وخططت ان يُذكر بالعقد آجار بقصد الشراء ، فها نحن قد اشتريناه ! إنني احني رأسي احتراماً لشخصك وبُعد نظرك وسداد رأيك ! إننا ، كرستينا وانا ، نملك الآن مطعماً من افخر المطاعم وارقاها ؛ في قلب مدينة هولوود الساحرة والمجنونة ، وسيكون لنا ريعه بعد اليوم ، نعم ؛ لنا نحن الأثنين فقط ! إننا تستطيع الآن ، كرستينا وانا ، على الرغم من صغر سنينا ، ان نتقاعد ان احببنا ، وان كان في نيتنا ان لا نفعل ! اننا نحب كثيراً عملينا ، وراتبينا يكفياننا لشراء حاجيتنا المعيشية ! قلت وأنا أشدّ على يده !

يوم العيد الرابع لأفتتاح مطعمنا العتيد ، وقف والد كرستينا امامنا كالطود الشامخ ، في غرفة الأجتماعات بالمطعم ، كرستينا ووالدتها والعم هنري وانا ، والقى بحماس وفخر خطبة عصماء ! لقد شرّق بها وغرّب ، تحدث بها عن انجازاته الأستثمارية التي حققها والتي ينوي تحقيقها !

لقد اعلمنا بأن مشروعه القادم لولديه ، سهيل وكرستينا ، هو استئجار مطعم جديد بقصد الشراء في قلب مدينة "بفرلي هيلز " العملاقة ، بمستوى مطعمنا الحالي ان لم يكن افخم ؛ حيث ان جلى إهتمامه الآن مركز على تأمين مستقبل ولديه ، سهيل وكرستينا !

كما و أعلمنا بأنه قد أسند هذه المهمة ، قبل اسبوع ، الى رجل من رجاله الأكفاء بهذا الحقل ، الذي يثق به ثقة مطلقة ؛ انه السيد شارون هبنكلي !

هلل ثلاثتهم فرحاً واستبشاراً واثنوا على حسن اختياره وحصافته ، لأن الرجل معروف لديهم معرفة جيدة ، فهو يهودي مثلهم ، ومتفوق مثلهم في إدارة المطاعم

وجني الأرباح ! وأضاف الأب ، بأن شارون اتصل به عصر هذا اليوم واعلمه بأنه وجد المطعم المطلوب ، ولكن صاحبه يطلب به سعراً مرتفعاً جداً ، ربما ضعفين ما قيمته ، ولكنه طمئنني بأن لا اقلق لأنه سيحصل عليه ، بسعر اقل مما يطلب !

عانقت كرستينا والدها بحرارة وهي تردد كلمات الشكر والدعاء الى الله العلي القدير ان يحفظه من كل سوء ، وان يمد بعمره ويسعده ؛ وكانت تمسح د موعها بظهر يديها الأثنتين !

وعانقته أنا ايضاً وبحرارة ، ثم عانق كل منا الوالده وقبلها على الخدين !

*****

الفصـــــــــــــــل

كنا في الأسبوع الأخير من شهر نيسان ، وبعد شهرين نأخذ عطلة صيفية مدتها ثلاثة شهور للذين لايرغبون الدراسة ولا التدريس في عطلة الصيف الطويلة ! لقد

اعتذرت انا عن التدريس لرئيسة القسم ، الدكتورة كنياتا ، بأنني عازم ان اذهب الى الأردن الحبيب لزيارة الأهل !

لقد رجوت الدكتورة كنياتا ان يبقى الخبر بيننا سراً ، حيث انني لااريد ان تبدأ كرستينا الحزن من الآن ؛ ولما سألتني عن سبب عدم اصطحابها معي ، اعلمتها انه وبسبب نشاطي السياسي والأجتماعي ، داخل الحرم الجامعي وخارجه ، فأن جميع الطلبة العرب فى الجامعة يعرفونني جيداً ، وكذلك يعرفون ان لي صديقة يهودية . انه وبسبب العداوة بين العرب واليهود ، فلا شك انهم غاضبون مني وناقمون عليّ ! لقد علمت حتى ان بعضهم يتهمني بالنذالة والعمالة !

ـ وما علاقة هذا بعدم اصطحابك لها ! سألت بحيرة !

ـ المخبرون الصادقون في الوطن العربي الكبير كثيرون ، اذ حالما يعرف الطلبة هنا بأنني اصطحبت معي الى الأردن فتاة يهودية ، فانهم سيكتبون الرسائل ويطيّرون البرقيات الى اهاليهم يعلمونهم الأخبار المثيرة والمشينة ! إن جميع سكان الأردن يعيشون كعائلة واحدة يعرف كل واحد منهما الآخر ، وبما ان عائلتي معروفة جيداً ، فأن الأخبار ستصل الى هناك ، أسرع من البرق ، بأنني قد دنست شرف العائلة وخنت العروبة والأسلام ، وانني جاسوس يهودي ، الخ الخ الخ ! وهكذا اضع نفسي وعائلتي في موقف محرج ! قلت .

ـ الآن فقط عرفت سبب ترددك بالزواج من كرستينا ! قالت وعلائم الحزن تغطي وجهها !

ـ نعم ، هذا ، هو السبب الحقيقي ! قلت

*****

الفصـــــــــــــــل

كنا مدعوان للعشاء ، كرستينا وانا ، في مطعم والدتها ؛ وكانت دعوتنا عادة ماتكون في عطلة نهاية الأسبوع ، حيث نستطيع ان نسهر ثلاثتنا ا

لى ساعة متأخرة الليل ، وكذلك نستطيع ان نبقى في الفراش الى ساعة متأخرة من النهار !

كان الأب ينظم الينا في بعض الأحايين ، عندما لايكون عنده التزام عمل ، حيث ان معظم اجتماعاته تكون اما اثناء وجبة طعام الغداء او العشاء ، كما أعلمنا !

أننا نادراً ما نذهب خلال ليالي الأسبوع الى مطعم والدتها ، حيث ان هذه الأمسيات نقضيها في مطعمنا ، نتحدث مع العم هنري ، حيث يطلعنا على سير العمل والمستجدات التي حدثت في المطعم !

كانت طاولتنا هذه الليلةكالعادة تغص بأطايب الطعام واشهاها ، وكان عليها قارورة نبيذ معتق من الذي تحبه والدة معشوقتي ! كانت كرستينا ، دائماً وابداً ، وزيادة في التودد واظهار اخلاصها وتفانيها في محبتي ، تصرّ على ان تسقيني النبيذ بنفسها ، مما يحرجني ويخجلني امام والديها ! كانا دائما يبتسمان واحياناً يتغامزان بطرفي عينيهما ، وكثيراً ماكانا يشجعانها ويثنيا على فعلتها هذه " نأمل ان يدوم هذا الحب المتأجج الى آخر يوم من عمريكما ! " فيبتسم الأب ويضيف ؛ "ان حبكما هذا يذكرني يوم كانت مونيكا تدللني ، كما تفعلين انتِ الآن ياحبيبتي !قال الأب .
كنت اعيد دائماً على مسامع السيدة مونيكا ، كم أكلها لذيذ ومتميز ، وكم نبيذها فاخر ونادر !

ـ انا اعرف انك تحبنا ياابني ياسهيل ، داوود وانا ، ولكن مامقدار هذا الحب ، حسب مفهومك للحب ؟ !

وعلى الطريقة العربية التجاملية ، والتي عادة ماتكون غير الواقع ، والتي هي عبارة عن ععواطف هوجاء زائفة !

ـ اكثر من حبي لعيوني ! قلت بحماس وصوتٍ عالٍ !

ـ إذن ، لم لا تتزوج كرستينا ، بعقد زواج رسمي ، وتنجب منها اطفالاً، يسعدونكما ، انت وهي ، ويملأون علينا ، نحن جميعاً ؛ حياتنا ؟ ! سألت وهي مازالت محدقة بوجهي وكأنما لتتبين صدق ما أقول !

سؤلها فاجأني ... اربكني ... حيّرني ... صدمني ... أذهلني ... جمّد الكلمات فوق شفتي ... أبكاني ... ادمى قلبي ... ايقضني من سباتي العميق ... من غيبوبتي ... من تهويماتي ... من احلامي الوردية ... من تسبيحاتي الهلامية !

بقيت احدق بها مسطولاً كالأبله ، لاادري ماذا أقول ، عندما أضافت :

ـ نحن نحبك ياابني يا سهيل كحبنا لكرستينا ؛ فقد اشترينا لكما ، انتما الأثنين ، مطعماً وسيارتين ومنزلاً ، وسنشتري لكما مطعماً ثانياً ، وربما أشياء كثيرة اخرى ! قالت بتأن وهي تحدق بي وتصرّ على مقاطع الكلمات !

هنا ؛ استيقضت من ذهولي ؛ من صدمتي ؛ من سرحاني ؛ على صوت كرستينا وهي واقفة كالبؤة التي هاجم احد اشبالها ، وهي تخاطب امها ،ابغضب لاهب ، وجسمها يهتز كغصنٍ لينٍ في مهب ريحٍ عاتية ؛ وعيناها تقدحان شرراً وهي تقول :

ـ لقد حذرتكما ، أنتِ ووالدي ، بأن لا تذكرا هذا الموضوع لسهيل ابداً ابداً لا تلميحاً ولا تصريحاً ، وأكدت لكما بأنني سعيدة جداً بوضعي الحالي ، وانني لا اريد له بديلاً ، إلا اذا اراد سهيل ذلك !

ـ لاأدري لم غضبتِ ياحبيبتي ؟ ! لااظن ان سهيلاً قد غضب ! ان الناس العقلاء يتحاورون لساعات ولا يغضب احدهم من الآخر ! قالت الأم بهدوءٍ وتأنٍ !

ـ لقد غضبت لأنني حذرتكما ، أنتِ ووالدي ، بأن لا تذكرا هذا الموضوع لسهيل ، حيث ان عنده حساسه شديده ضده ؛ و حيث انه يؤذي مشاعره ! قالت وهي ترتجف غضباً !

كنت طيلة الوقت صامتاً ، انقل طرفي بين المرأتين ، اذ لم يفتح الله علي بأن اقول كلمة واحدة ، الى ان سمعت الأم تقول لأبنتها بلهجة حزينة وذليلة ، مزّقت قلبي وجعلتني اكاد ابكي !

ـ ستبلغين بعد عدة شهور السادسة والعشرين من عمرك ، وستتأخرين بالأنجاب ! انني عندما كنت في الرابعة والثلاثين من عمري ، كنت قد انجبت العدد الذي اريد انجابه !

ـ أرجوكِ ياامي ؛ انا سعيدة مع سهيل جداً جداً ، بعقد زواج او بغير عقد زواج ؛ بأولاد ؛ او بغير اولاد ؛ فاذا احب يوماً ان نكتب عقد زواج وان يكون لنا اطفالاً، فسأكون مستعدة وسعيدة ايضاً !

وهنا شعرت انه من الواجب عليّ ان اتدخّل واقول رأيي ، فقلت بصوت متأنٍ وهدوء اعصاب !

ـ شكراً يارق واجمل ماما على اهتمامك الشديد بنا ! ان غيرتك الشديدة على سعادتنا هي التي تجعلك قلقة على مستقبلنا ! اعدكِ بأننا ، كرستينا وانا ، سنبحث الأمر جديّاً ، وستسمعين منا ، انتِ والوالد الحبيب ، اخباراً مفرحة ، وفي القريب العاجل ، ان شاء الله ! دعونا الآن نكمل عشاءنا ! قلت هذا واستأنفت تناول الطعام وكذلك فعلت المرأتان !

أنا لم ادخن في حياتي قط ، ولا اطيق حتى ان اكون قريباً من المدخنين ، وكذلك تفعل كرستينا ؛ انا احتسي علبة واحدة من البيرة ، لأقتل اللهيب في جوفي ايام الحر اللاهب ، وكذلك تفعل كرستينا ! كل منا نتناول كأساً من النبيذ مع وجبة العشاء ، كما يفعل الحضاريون في العالم بقصد فتح الشهية ، وليس بقصد السكر والعربدة !

لقد لاحظت ان والدي كرستينا يشربان اكثرمن ذلك ، ولكنني لم ارهما سكارى ، واعتقد ان السبب هو ممارستهم الشرب منذ سنوات طويلة ! ان الذي نال احترامي واعجابي الشديدين ، هو ان الواحد منهما لم يحتسي قطرة واحدة من الخمر ويقود السيارة ، اذ لابد ان يكون هناك من يوصله الى حيث يشاء !

لقد كانت كرستينا هي التي تصرّ دائماً وابداً علي ان اكون انا الذي يتناول الكحول ، على الرغم من ان ما اتناوله يكون عادة قليل جداً ، وهي التي تقوم بقيادة السيارة ! لقد كانت تقول بأن ذلك يمنحها شعور هائل بالسعادة والرضى !

كانت الساعة بعد منتصف الليل بقليل عندما قررنا ثلاثتنا مغادرة المطعم ، فاقترحت الأم ان تطلب سيارة اجرة لتوصلها الى بيتها ، فأعلمتها بأن طلبها هذا هو

اهانة لرجولتي ، إذ لايمكن ان اترك ام حبيبتي مع انسان غريب خصوصاً في هذ الوقت المتأخر من الليل !

لقد سعدت المرأتان كثيراً واثنيتا على شهامتي ورجولتي وسمو اخقلاقي وحسن تربيتي !

كان حديث السيدة هارشفيلد طيلة الطريق عن ذكراياتها قبل الزواج ، عندما كانت هي وصديقاتها واصدقاؤها يأتون الى مدن الشاطيء في كل عطلة نهاية الأسبوع ، يسبحون ويلهون طيلة النهار وفي المساْ يدخلون احد المطاعم يتعشون ويسهرون ويرقصون حتى الصباح !

لقد زاد في سرورنا مداعبة نسائم المحيط العليلة والمنعشة تداعب شعرنا وتدغدغ وجوهنا ورقابنا ! حقاً ، ان للمحيط سحره وجماله ، ولليل هيبته وعنفوانه ، وللنسيم عذوبته ورقة اعطافه ، لايشعربها إلا من انعم عليه الخالق ،جلّ جلاله وتبارك اسمه ، برقة المشاعر وصفاء الروح !

*****

حا لما انزلنا كرستينا وانا والدتها امام منزلها وانطلقنا متوجهين الي بيتنا ، قلت لكرستينا بحماس وصوتٍ عالٍ ، وانا أتصنع الصدق والجد !

ـ ان امكِ على حقٍ وصدق ياحبيبتي ! لماذا لا نكتب عقد زواجنا وننجب اطفالاً ؟ ! ولم التأخير ؟ ! اننا لاينقصنا شيئا حتى ننتظر تحقيقه ! اننا نملك منزلاً مجهزاً بكل ماتحتاجه عائلة كبيرة ، وعندنا دخل يزيد عن حاجياتنا بكثير ؛ والأهم من ذلك عندنا حبنا العظيم !

ـ وهل انت جاد بما تقول ياحبيبي ؟ ! سألت وهي تكاد تطير فرحاً ، وعيناها تتراقصان جذلاً وحبوراً !

ـ طبعاً ياحبيبة قلبي ! وهل كنت معكِ يوماً غير جاد ؟ ! قلت وقد تصنعت الغضب !

وهنا ، انفجرت تبكي بصوتٍ عال ، خلته كقصف الرعد ؛ ثم اوقفتْ السيارة بعدها ، وانهالت عليّ ، عناقاً وتقبيلاً ، وبللت دموعها وجهي وعنقي ، فقد تخيلت لغزارتها وحرارتها وكأنما ماسورة ماء ساخن قد انفجرت !

لقد آلمني بل احرق دمي منظرها ، فلم أعي الا وأنا اشاركها البكاء والنحيب وسفك الدموع ! لقد كان الفرق بين دموعنا كبير كبير ، كانت هي تبكي دموع الفرح والأبتهاج ، اما انا فكنت ابكي دموع الحسرة والفراق !

لقد صممت على ان اترك كرستينا وارحل ، والى الأبد ! لقد اقتربت الساعة وانشق القمر ؛ لقد طلبت البلاد أهلها ! لقد آن اوان الرحيل !

" ودّعتها وبودي لو يودعني ، صفو الحياة وأني لا اودعها !

وكم تشفّعت بي أن لا افارقها ، وللضرورات حال لا تشفّعني ! "

لقد زرع والدا كرستينا في عقلها فكرة الزواج ، وحتى ان كانت هي تنكرها علانية ، فلا شك انها تحبذها سراً ، ولا شك انها ستطالب بها قريباً وعلانية ! حقاً ، لقد زرعا والدا كرستيتا في عقلها فكرة الزواج ، وحتى وان كانت هي تنكرها علانية ، فلا شك انها تحبذها سّراً ، ولا شك انها ستطالب بها قريبًا وعلانية !

حقاً ! ما اقسى حكم القدر احياناً وما اغرب تصرفاته ! لقد قُدّر لي ان الد من ابوين عربيين مسلمين ، وزرع في دمي وكل كياني ووجودي ، حب العروبة والأسلام ، الى درجة التعصب الأعمى ! لقد خلق كرستينا يهودية ،ولكنه ازال من قلبها تعصبها ليهوديتها ، وزرع به حب الناس جميعاً ؛ اما انا فقد زرع في قلبي العصبية الجاهلية البغيضة !

حالما نزعت كرستينا ملابسها وساعدتني في نزع ملابسي لندخل بعدها الحمام ونستحم قبل ان نضع نفسينا في افراش لننام ، كما هي العادة منذ ان تعارفنا ؛ اذ انها لاتقبل اطلاقاً ان ندخل الفراش الا بعد ان نستحم نحن الأثنين وتتعطر هي ، تدخل بعدها الفراش عارية !

اقول ، حالما وضعت نفسها بالفراش وسحبت رأسي والصقته بصدرها ووضعته بين نهديها ، لأقبلهما واداعبهما كالعادة ، انفجرتُ ابكي بحرقة ولوعة مزلزلتين ، استغربتهما انا نفسي ! لقد ادركت الآن ، بل لقد تأكد لي ، بانني وقريباً جداً ، سأعانق الضياع والوحدة والتمزق ، وساضع رأسي بين فكي صقيع الحسرة وزمهرير الفراق ! اللعنة اللعنة ، ماأقسى حكم القدر ، أحياناً !

ـ ارجوك ياحبيبي ؛ توقف عن البكاء ! أن دوعك تحرق قلبي ! قالت بوجع وتوسل وهي تلحس دموعي بشفتيها وتشاركني البكاء ؛ ولما لم اتوقف سألت :

ـ وهل انت سعيد كل هذه السعادة بزواجنا وانجاب اطفال ياحبيبي ، حتى لا تستطيع ان تضبط نفسك من البكاء ؟ ! ما اسعدني بك وبحبك ووفائك !

ومن جديد ثارت كوامن احزاني ؛ ومن جديد اصطخبت عواطفي ؛ فصرت ابكي بحرقة ولوعة وقهر ، اشد من السابق !

ـ أنا أبكي ياكرستينا علي طيبة قلبك ، نقاوة سريرتك ، طهارة ضميرك ، صدق حبك ، إخلاصك ، تضحياتك ، نكرانك ذاتك ! أنا أبكي ياكرستينا علي الأندلس ، على فلسطين ؛ أبكي على غرناطة واشبيله وطليطلة ؛ أبكي على مسرى الرسول ؛ أبكي على يافا وحيفا وعكا والناصرة ؛ أبكي على طفلة الحجارة ، خاوية المعدة حافية القدمين ، وهي تقارع قوى الشر والعدوان ، دفاعاً عن شرف الأمتين ، العربية والأسلامية ! أبكي على أمتي المهزومة ؛ أبكي على خيانة قادتنا الذين تخلوا عن مقدساتهم ، ليحتفضوا بكراسيهم !!

ـ حبيبي سهيل ! أنت تتكلم الغازاً ؛ أنا لا افهمك !

ـ صدقيني ياحبيبتي ، إن عدم الفهم وكذلك البله والغباء في بعض الأحيان ، نعمة من الخالق ، سبحانه وتعالى ، يمنّ بها على عبده الصالح !

ومن جديد ثارت كوامن أحزاني ؛ ومن جديد إصطخبت عواطفي ؛ فصرت أبكي بحرقة ولوعة وقهر ، أشد من السابق !

ـ أكل هذا الحب تحبني ، ياحبيبي ؟ ! ما أسعدني بك وبحبك ! كم أنا محظوظة ! إن دموعك ، والله تفقدني عقلي ! قالت وهي تجفف دموعي بأصابع يديها الأثنتين !

ـ أرجوك ياحبيبي ان تتوقف عن البكاء ! انني والله لم أر ولم اسمع وحتى لم أقرأ عن انسان عنده كل هذا الزخم الهائل من العواطف والوفاء ! قالت وهي مازالت تجفف دموعي بظهر يديها تارة وبشفتيها تارة أخرى !

نعم ياكرستينا ؛ انك لم تسمعي ولم تقرائي عن انسان عنده كل هذا الزخم الهائل من عدم الوفاء ونكران الجميل ! لن اطلب منك ياكرستينا ان تسامحيني وتغفري لي ، وانما اطلبها من رب العباد الذي زرع بقلبي هذا الذي يسمونه حب الوطن وحب العروبة والأسلام ! لقد عبأ وجداني وكل كياني بكراهية اليهود الذين اغتصبوا اوطاني وشردوا اهلي في شتى اصقاع المعمورة ، ويقتلون الكثيرين منهم في كل يوم !

ـ دعنا ننام ياحبيبي ، فالساعة الآن تقترب من الرابعة صباحاً ! قالت ذلك وسحبت رأسي ودسّت وجهي بين نهديها ، ولفّت ذراعها اليمنى حول رقبتي !

هل توقفت عن سفح الدموع ؟ ! لا، لا ! لقد استعدت ذكرياتي من اول يوم تعرفت به على كرستينا ، حتى هذه الليلة ! لقد عشت معها أسعد واجمل وادفأ ايام حياتي كلها ! لقد شعرت بين احضانها ، ولأول مرة في حياتي ، بالأمن والأمان ؛ بالسعادة المطلقة ؛ بالهدوء والصفاء ؛ بالسلام وبراحة البال ! وبسبب ان قلبها طاهر ونقي ، ولأن سريرتها صافية وناصعة ؛ ولأنها لا تشاطرني تعصبي وحقدي وانانيتي ، فها انا عازم على تركها ! حقاً ، يالي من نذ ل ، ويالي من جبان !

!

******

إستيقضنا ، كرستينا وانا عند العصروكان نموت جوعاً ! اقترحت كرستينا ان ابقى انا في الفراش وان تنهض هي وتجهز لنا ما نأكله ، ثم انهض انا بعدها ونأكل ماعدته ، ولكنني اصررت عليها ان نقوم باعداده سوية ! رجتني والحت بالرجاء ان ابقى في الفراش وان انهض بعد ان تنتهي هي من اعداه ، ولكنني اصررت علىمشاركتها ! لقد شعرت بأنني اذوب الماً واحترق حزناً !

لم يذكر احد منا ماحدث الليلة الماضية ، لااثناء الطبخ ولاوقت تناول الطعام ، وانما اعلمتها بأن لاحاجة لأن نذهب هذاالمساء لزيارة العم مدير المطعم لأن نطمئن على سير العمل .

بعد الأنتهاء من تناول الطعام شعرت بأنني مازلت متعباً وانني بحاجة الى مزيد من الراحة والنوم ؛ وعندما ذكرت لكرستينا ذلك ، ابتسمت وقالت بأنها تشعر نفس الشعور ، وقادتني بعدها كطفل صغير ودخلنا الفراش سوية !

استيقضنا ضحى يوم الأحد ، اقترحتُ على كرستينا ان نذهب الى المطعم القريب من بيتنا لنتناول وجبة الأفطار فحبذت الفكرة ، وخلال نصف ساعة كنا نتناول شرائح " البان كيك " ونحتسي فناجين القهوة ! لقد كانت كرستينا عادة هي التي تقود السيارة ، لأعتقادها بأن ذلك هو نوع من المحبة والأحترام والتقدير لي !

لقد طلبت اليها بعد ان انتهينا من تناول وجبة الأفطار بأن نذهب الى مدينة " لقونا بيش " ، حيث ان لتلك المدينة سحرعجيب ، وكذلك فأن لي بها ذكريات عزيزة على قلبي !

تمشينا بعض الوقت على الشاطيء ، ثم صعدنا بعدها الى احدى التلال المطلة علي المحيط والمزروعة بشتى أنواع الشجيرات المنسقة تنسيقاً فنياً مذهلاً ، تأسر القلب والوجدان ! وكذلك يوجد مساحات كبيرة من مختلف الأزهار والورود ، نادرة المثيل والوجود ! انها لروعتها تسكر المتيّم الولهان ، العابد للطبيعة والجمال ! جلسنا نرقب السابحين والمتنزهين ، ونشاهد البواخر التي نراها تعبر من امامنا من بعيد !

امضينا اكثر من ساعة صامتين ، فقط نتأمل ما امامنا ، ثم بعدها قطعت الصمت بقولي :

ـ أن عندي خطة اريد ان آخذ رأيكِ بها ، وارجو ان لاتقاطعيني حتى افرغ من قولها ، اذ ان مقاطعتي تشتت أفكاري !

ـ أعرف عادتك هذه منذ الشهر الأول لتعارفنا ! إطمئن ؛ لن افتح فمي حتى تنتهي مما تريد قوله !قالت وهي تبتسم .

ـ نحن الآن في اواخر شهر نيسان ، وبعد حوالي شهرين سينتهي الفصل الدراسي وتبدأ العطلة الصيفية . لقد اخبرت الدكتورة كنياتا ، بأنني انوي زيارة الأهل في الوطن وقضاء شهراً هناك ، حيث ان لي اربع سنوات لم ازرهم ، واعتذرت لها بعدم استطاعتي التدريس في العطلة الصيفية . لقد اعلمتها أيضاً ، بأنني لا أستطيع اصطحابك معي ، رغم رغبتي الشديدة بأن افعل ، وشرحت لها الأسباب فاقتنعت ! إنني سأقضي هناك شهراً واحداً فقط ، وعندما نعود سنكتب عقد زواجنا حسب الديانة التى تريدينها وتسعدك ! انكِ تستطيعين ان تنجبي العدد الذي تريدينه من الأطفال !

حالما توقفتُ عن الكلام ، وتأكدت بأن ليس عندي المزيد من القول ، هجمت عليّ تعانقني بشوق وحرارة ، وقد انفجرت تبكي بصوتٍ عالٍ جلب انتباه المارين امامنا ، وقد بللت دموعها شعر رأسي ووجهي وقميصي !

ـ الآن قولي لي ؛ هل عندك إعتراض ؛ اقتراح ؛ تعديل ؟ ! قلت وانا ابعدها عني بلطف والألم يمزقني !

ـ إعتراض ؟ ! حاشا لله ! لن يأتي اليوم الذي اعترض به عليك ! ان كل ماريد ان اقوله هو أنني أحب ان أعتنق الدين الأسلامي ، وان اتزوج حسب الشريعة الأسلامية ؛ وان أنشيء اولادي مسلمين ! انني ومنذ ان تعرفت عليك ، وقلما يمر يوم

دون ان اقرأ شيئاً عن الدين الأسلامي ، وان كان احياناً لبضع دقائٌق ! قالت بحماس وهي تبتسم !

وهنا نفرت من عيني دمعتين بحجم حبتي الحمص المتاعفيتين ، اخفيتهما عنها بأن حولت وجهي الى الجهة المعاكسة !

ـ إنني ومنذ الغد سأحاول ان اقرأ لمدة اطول ؛ اما بعد سفرك ، فأنني سأقضي كل وقت فراغي أقرأ عنه ! وبعد ان صمتت قليلاً أضافت :

ـ صدقني ياحبيبي ، ان كل ماقرأته عنه حتى الآن ، رائع جداً ، وأنني لو كنت بلا دين وابحث عن دينٍ اعتنقه ، لأخترته من بين جميع الأديان !

ـ يسعدني جداً أن اعرف ذلك ياحبيبتي ! وهل تظنين ان حبكِ لي هو الذي عظّمه وجمله في تفكيرك ؟

ـ ربما يكون ذلك ! قالت وهي تتضاحك !

*****

الفصــل

عدنا كرستينا وأنا من مدينة " لقونا بيش " بحدود الساعة السادسة مساءً ؛ اقترحت ان نذهب ونتناول طعام العشاء في مطعم والدتها ، ولنز ف اليها الأخبار السعيدة ! اعتذرت منها بأنني مرهق جداً ، جسمياً وعاطفياً ، وأنني سأرافقها في الليلة القادمة !

ـ إنني احترق شوقاً لأن اخبر والدتي ، وجهاً لوجه ، وليس على الهاتف ، عما قلته لي ، كما وانني اريد ان اتحدث معها عن ترتيبات المستقبل ! قالت ووجهها يطفح سروراً وبهجة ، ثم أضاف :

ـ إذن ، تذهب أنت وتتعشى مع عائلة الهاملتزن ، اذ لاقلب لي ان أتركك لوحدك ، وتعلمهم عن خطتك لزواجنا ! لاشك انهم سيفرحون كثيراً لزواجننا !

ـ لاتتأخري عليّ ياحبيبتي ، إنكِ عندما تكونين بعيدة عني اشعر بالغربة والضياع والأختناق ! قلت صادقاً ومن صميم وجداني ؛ وانفجرت أبكي بحرقةٍ وألم موجعين !

وهنا هجمت عليّ تعانقني وتقبلني وتمسح دموعها وهي تردد ؛

ـ لن أذهب واتركك لوحدك ! قالت .

قلت وان ابعدها عني بلطف وحنية :

ـ سيزداد المي وحزني ان لم تذهبي وتري والدتك ! أرجوكي ! فقط ، لاتتأخري عليّ كثيراً !

قلت صادقاً ومن اعماق وجداني !

حاولتْ ان تقنعني بعدم الذهاب الى مطعم والدتها ، ولكنني اصررت عليها !

لقد كنت حزمة مشتعلة من الألم والأحباط ، وكانت دموعي تنزل بغزارة مذهلة مما اضطرني لأن اوقف السيارة مرات عديدة حتى اجفف دموعي التي لغزارتها وتدفقها تحجب رؤيتي للطريق !

حالما فتحت السيدة هاملتون باب سكنهم ، حتى القيت بذراعي حول عنقها ، واجهشت في بكاء وبصوتٍ عالٍ ومن جديد ! لم تسألني المرأة سبب بكائي وانما قادتني الى غرفة وأجلستني وجلست الى جانبي وصارت تكفكف دموعي بمنديل ورقي سحبته من كرتونة أمامها وهي تتمتم ببعض الكلمات التي لم استوعبها ، اذ لا شك أنها بعض الأدعية الدينية !

ياالله ؛ سبحانك وتعالى ؛ ما أشبه الليلة بالماضية ؛ وما اشبه الحادثة بين الأمس واليوم ! لقد كنت في الوطن عندما أصاب بأحباط عاطفي من عدم رؤيتي لسميحة ، بعد ان اكون قد امضيت ساعات طوال ارقب رؤيتها ولم اتمكن ، اعود الى البيت ممزق القلب دامع العينين ، فتقابلني اختي الحنونة آمنة ، فتمسح دموعي وتسري عني !

بقيت على هذه الحالة لأكثر من دقيقتين ، ولما توقفت سألتني بصوت رزين هاديء ، ان كان حدث سوء تفاهم بين كرستينا وبيني ، فقصصت عليها القصة ! لقد اعلمتها ماقالت الأم ؛ وعن غضب كرستينا ألشديد من امها وتأنيبها القاسي لها ، وكذلك تصميمي على مغادرتي امريكا نهائيا !

لم يكن الزوج ولا الأبنة موجدين عند حضوري ، فلقد كان الأب قد أخذ ابنته في مشوار ترويحي !

أعلمت الزوجة زوجها بحالتي عندما اتيت ، وأعادت عليه ماقلت ، وهي تمسح دموعها المتدفقة بظهر يديها !

ـ إ ن ما أسمعه لم يفاجأني اطلاقاً ، لقد كنت اتوقعه منذ فترة طويلة ! ان ا لذي يفاجأني بل يحيرني هو عزم سهيل على ترك اميركا نهائياً ! لماذا لم تعد عليها لماسبق وقلته لها ، يوم ذكرت لك الزواج فرفضت انت وغضبت هي ، وهي انك لا تتزوج إلا إمرأة عربية ومسلمة ، فأن بقيت معك كصديقة فهو كذلك ، وإلا فاليذهب كل منكما في حال سبيله ! قال الزوج بهدوء وصوت منخفض ! ـ هذا هو رأيي ايضاً ؛ ولا اعتقد انها ستعارض ؛ ان الذين يطلبان ذلك منها ، هما والديها ! قالت الزوجة !

ـ لاشك انها راضية بوصعها الحالي ، والدليل على ذلك غضبها الشديد عندما ذكرت امها عقد الزواج لسهيل ! قال الزوج !

ـ أن جميع الآباء والأمهات يحبون ان يروا اولادهم وبناتهم متزوجون وعندهم أطفال ! انها سنة الحياة ! قال الزوج .

كانت الصغيرة لوشنتا طيلة هذا الوقت صامتةتنقل طرفها بيننا نحن الثلاثة ، تتابع تنقلات اجسامنا وتحركات شفاهنا ، وفجأة انفجرت تبكي بصوت عال نهضنا ثلاثتنا نعانقها ونواسيها !لم تتوقف الصغيرة عن البكاء ، إلا بعد ان انهكت قواها ، فنامت بين ايدينا ، عندئذ حملتها انا ودخلنا أمها وانا ووضعناها في الفراش !

ـ سيكون تأثير رحيلك عليها اشد بكثير من تأثيره علينا نحن الكبار ، كرستينا وبيتر وانا ! قالت الزوجة وهي تمسح دموعها بظهر يديها ! ثم اضافت :

ـ لقد كانت سعيدة عندما وجدتك ، وهاهي قريباً ستفقدك !

أما انا فبقيت صامتاً أتمزق في داخلي الماً وحزناً !

ـ سنظل نتذكرك ونتحسر على الأيام الحلوة والسعيدة التي قضيناها معاً ! قالت الأم بألم وحسرة ، وهي تكفكف دموعها !

ـ, اطمئنا ، لا تقلقا ؛ لقد رتبت كل شيء من الآن . إعملا مخططكما من الآن بأن تقضوا عطلتكم صيف العام القادم ، ان شاء الله ، في الأردن الحبيب . ساتكلف أنا بكل دولار من مصاريف رحلتكم . سأشتري تذاكر الطائرة ذهاباًوعودة . اننا نملك في عمان بيتاً كبيراً جداً ، مكون من طابقين ضخمين ، يتسع لعدد كبير جدا ًمن الضيوف ويقع في اجمل بقعة وارقاها في عمان ! وكذلك نملك سيارة ! ان الأردن بلد الآثار المتميزة

، يأتي اليه السائحون والزائرون من جميع انحاء المعمورة . سأستأجرلكم سائقاً يكون تحت تصرفكم ليل نهار عندما لا يكون باستطاعتي اصطحابكم ، وسآخذكم لزيارة ابونا الخوري أيوب !

إبتسما ولم يعلقا ، ثم تابعت :

ـ سنزور سوريا ولبنان ، وهما اجمل كثيراً من الأردن ، وبهما آثاراً نادرة المثيل ، وكذلك يأتيهما السائحون من جميع بقاع العالم !

ـ أنا اريدك ان تكون معنا هنا ياأخي ! أنت استاذ جامعة متميز تدرّس في جامعة متميزة ، ولم لا تنتقل الى جامعة اخرى ، وتكون بعيداًعن كرستينا ؟ ! سألت الزوجة .

ـ إعذراني لما ما سأقول ؛ إنه من الصعب عليكما ادراك ماسأقوله ! إنني لايمكن ان اكون في أية بقعة من أمريكا دون ان تكون كرستينا معي ؛ اما اذا كنت خارج امريكا وخلف المحييطات ، فالقضية تختلف ! قلت باصرار وعناد !

ـ والآن تصبحون على خير ! قلت ذلك ونهضت ، ثم أغلقت الباب خلفي وخرجت !

*****

الفصـــــــــــــــــل

إنه وبسبب نشاطاتي الأجتماعية الواسعة ، المتواصلة والمتعددة ، داخل الحرم الجامعي وفي الجامعات والكليات المحيطة ، وكذلك بسبب محاضراتي السياسية الجريئة والمثيرة للنقاش والجدل ، فقد كنت معروفاً جداً لكثير من اساتذة الجامعات وطلبتها ! كما كنت ايضاً معروفاً من عدد كبير من المهتمين بالسياسة وقضايا الشرق الأوسط !

لقد كانوا جميعاً يعرفوا أنني عربي متعصب لعروبتي ، ويعرفون أيضاً أنني مسلم متمسك بتعاليم ديني الحنيف ، ويعرفون جيداً ان صديقتي الحميمة يهودية !إنهم يستغربون هذه الصداقة التي تربطني بها ، اذ ان مابين شعبينا عداوة متأصلة وعميقة !

لقد عرف الجميع انني اعتذرت عن التدريس في الفصل الصيفي ، لأنني عازم ان اقضي فصل الصيف في الأردن ! لقد ظن البعض انني سأصطحب كرستينا معي ، وظن البعض الآخرانني لن اجرؤ على فعل ذلك ، ولكنني سأعود الى امريكا وبصحبتي زوجة عربية ، ولكن ولا واحد منهم قد راودته فكرة عدم عودتي وان اتخلى عن هذا المنصب المتميز وتلك الشهرة الواسعة !

إنني محبوب هنا وسعيد جداً ، ومعروف في كل الجامعات ، بسبب شجاعتي وجرءتي السياسية ؛ اذ لايمكن ان احصل على مثل هذه الأمتيازات في اية بلدٍ من بلاد العالم ولا حتى في وطني الحبيب ، الأردن !

لقد حجزت لي كرستينا ، تذكرة ذهاب وعودة على الخطوط الجوية البريطانية ، من لوس انجلوس الى لندن ، ثم الى بيروت ، ومنها الى عمان ، حيث ان الأردن الحبيب لم يكن قد سيّر رحلات بعد ، الى بلدانٍ خارج بلدان الوطن العربي الكبير !

كان يوم المغادرة الثامن والعشرون من شهر مايو ، والعودة يوم التاسع والعشرون من شهر يوليو ! كانت كرستينا ووالداها يكادوا يطيرون فرحاً ، لأنه بعد عودتي مباشرة سيكون الزواج بعقد رسمي ، وستقام الأفراح والليالي ، وكذلك ستتحقق أمانيهم !

اما العم هنري وبقية موظفي المطعم فهم سعداء أيضاً ، اذلاشك ان الهدايا والمكافآت العظيمة والمجزية ستنهال عليهم ، من معلمهم ومعلمتهم ! إن الذين كانوا يتمزقون حزناً ولا تجف دموعهم ، هم عائلة الهاملتون الثلاثة ، اذ انهم سيفقدون انساناً حبيباً على قلوبهم ومؤنس وحدتهم ، والذي انتظروا طويلاً حتى وجدوه !

وحلّ يوم الرحيل ، فأخذتني كرستينا الى المطار بسيارتها ، وكان بوداعي عدد كبير من الأصدقاء والمحبين ! وكذلك كان والدا كرستينا والعم هنري واختي

لوشنتا وزوجها وابنتهما ، وكذلك مديرة دائرة الشرق الأوسط وزجها والناشطة السياسية الطالبة حنان الرمحي ، وأساتذة القسم وبعض االطلبة العرب والأصدقاء !

*****

الفصل

لم يكن عدد المستقبلين لي في مطار " ماركا " كبيرًا ، فقد إقتصر على والدتي وأخي وزوجته وأولاده ، وعلى الشقيقات وازواجهن وأولادهن ! لم يكن أحد من الأقارب موجوداً ، والسبب أن أخي قد كتم عنهم يوم وصولي !

حالما انتهينا من تناول وجبة العشاء ، في بيتنا في عمان ، وانصرف جميع الضيوف وبقينا فقط نحن ، رجالاً ونساءً و أطفالاً ، والدتي ، و أخي و زوجته و اولاده و شقيقاتي الأربعة و أزواجهن و اولادهن ؛ قالت أختى الحبيبة آمنة :

ـ و الآن ، وقد بيضّت وجوهنا و رفعت رؤوسنا ، بأن عدت إلينا تحمل شهادة جامعية عالية ، فأنك ستحصل بلا شك على وظيفة ممتازة ! إنّنا نريدك أن تكمل نصف دينك بأن تتزوج حتى تكتمل فرحتنا !

ضحكتُ لمقولتها ، التي شملتها كل هذه الصفات والمحسّنات البلاغية ! فقلت :

ـ الزواج ، في الوطن العربي الكبير والعتيد ، على عكس أمريكا ، يا حبيباتي ويا أحبائي ، يحتاج الى مبلغ كبير من المال ! لقد عدت من أمريكا خاليَ الوفاض ، وانتم بالكاد تجدون ما يكفي لسدّ حاجياتكم المعيشية ! المهم يجب أن أحصل على عمل أولاً !

ـ لا تنسَ يا بني ما قاله نبيّنا وسيدنا محمد ، صلوات الله عليه وسلّم ؛'ثلاث حاجيات ييسرها الله لعبده المؤمن ؛ اذا كان مخلصاً حقاً في تحقيقها ؛ أولها : اذا اراد الحج الى بيت الله الحرام ، وثانيها : اذا اراد ان يبني بيتاً ليسكن به ، وثالثها : اذا أراد أن يكمل نصف دينه ويتزوج ! قالت امي .

ـ على الله الاتكال ، سأفعل ان شاء الله ! إن غداً الجمعة وبعد غدٍ السبت فسأحمل شهاداتي الاكاديمية وخبراتي التدريسية ، واذهب الى رئاسة الجامعة الأردنية ، لأقدمها لهم من أجل الحصول على وظيفة استاذ فيها . قلت.

ـ علمت بأن الحكومة تفكر ببناء جامعة اخرى في مدينة اربد لتزايد عدد الدارسين ! قال أخي .

ـ ليس هذا فقط ياخالي، وإنما الحكومة تفكر بإنشاء جامعة في كل مدينة كبيرة ، لكثرة عدد الدارسين ! قال عماد ، ابن أختي رفقة .

ـ بلادنا ستصير مثل أمريكا بالجامعات ، لكثرة الدارسين ! قالت أختي الكبرى أميرة .

ابتسمت لسذاجتها وطيبة قلبها ، حيث أن ذلك يتطلب جهداً كبيراً ومالاً كثيرا !

ـ هل تعتقد، يا أبا عبد الله ، أن هناك صعوبة بتعيينه في الجامعة ؟ سألت والدتي أخي عبد الكريم .

ـ لا أظن ذلك . ان المسؤولين في بلادنا يحترمون بل يقدسون كل ما يأتي من أمريكا ! قال أخي مطمئناً والدتي .

قدمني صديق أخي وابن مدينتي ، السلط العتيدة ، الاستاذ خالد الساكت ، مدير مكتبة الجامعة الأردنية ، إلى مدير الجامعة ، الدكتور ناصر الدين الأسد . لقد رحّب بي ترحيبًا حاراً ، وقبل نهاية الاسبوع كنت عضواً في هيئة التدريس في الجامعة الأردنية العظيمة !

بما أنني أعتبر نفسي ، وبكل فخر واعتزاز ، ابن السلط البار ، ولدت وترعرعت بها ، ودرست في كتاتيبها وابتدائيّتها وثانويتها ، وأكلتْ كفتا يداي وقاعا قدماي ، وكذلك أليتيَّ ، من مطارق رمان أستاذي ، الشيخ عفيف زيد الكيلانى ، والاستاذ عبد الحافظ العزب ... وبكت عيناي حتى أغرق دمعهما مزابل وادي الريح وكروم الخارجة ، سوادا ؛ توجُّداً على عشق زيْنة وسميحة ... أحاول أن أكتب جزءً من تاريخها القبلي والأجتماعي ، باللغتين العربية والانجليزية ، فقد صممت على أن لا أعود الى أمريكا ، وان اتزوج من احدى غزالات معشوقتي ، السلط الخالدة ، لأحقق رغباتي النفسية وطموحاتي القبليّة !

لقد رشّحت لي اختي أميرة ، احدى بنات معارفها ؛ فقالت بأنها جميلة وذات أخلاق عالية ، كما أنها متعلمة وموظفة أيضاً ! وقالت أن راتبينا هي وأنا ، سيوفران لنا حياة كريمة ومريحة ، فوافقت ! عندما تكلمت أختي مع ام الفتاة التي رشحتها لي ، استشارت الأم زوجها فرحّبا بي ترحيبا حاراً !

لقد أوصت أختي صاحبتها بأن تطلب الى زوجها أن يكون كريماً معي ، وأن لا يرهقني بمطالب كثيرة ، ما زلت سأصبح زوجاً لابنته وابنًا له ، بأن يخفف طلباته وان يتساهل بشروطه ، لأنني ما زلت في بداية الطريق ولا أملك نقوداً؛ فوعدتها صاحبتها خيراً!

لم أكن وقتها أملك سيارة فذهبنا ، أخي وأنا بسيارته " فوكس فاجن " ابنة العشر سنوات ، لمقابلة والد العروس ولنتقدم لخطبة ابنته ، ذات الحسب والنسب ؛ ولنقوم باجراء اللازم !

رحب الرجل بنا ترحيباًً حارً ، وقال له أخي بأنه يتقدم لخطبة كريمته ذات الحسب والنسب ، فردَّ الرجل بأنه يسعده ويشرفه أن يزوّج كريمته الى شاب مثلي ، ابن عائلة كريمة من أجود واشهر عائلات السلط ، واكثرها أراضٍ وكروم ومواشي !

إن الذي أحزنني هو ثناءه على ما نملك من عقارات وليس على ما أحمل من شهادات علمية وخبرات أكاديمية !

ضحكت بمرارة لأننا لم نكن نملك حتى ولا حماراً ، إذ أن الذين يملكون كل ما ذكره ، هم أعمامي ، سامحهم الله !

بعد الانتهاء من الخطب الرنانة والكلام المنمق من كلا الطرفين ، سأله اخي عمّا يريد مهراً لإبنته ، وما هي متطلباته فقال " لا فظّ فوه ! " وكأنما كان يخطب :

ـ أحبكم أن تعرفوا بأن ابنتي بالاضافة إلى جمالها وأخلاقها ، وأصالة حسبها ونسبها ، وكذلك شهرة عائلتها ؛ فإنها تحمل شهادة توجيهي راسب ، ومعاشها عشرون ديناراً شهريًا ، يحسمون منها فقط ، قرشين ونصف طوابع !

لقد بكيت ! نعم بكيت ! أقسم أنني بكيت ! ورب مكة والقدس الشريف ،أنني بكيت وبحرقة شديدة ! لقد تذكرت كيف أن هذه العشرين ديناراً ، والذين يحسمون منها قرشين ونصف بدل طوابع ، كناندفعها ، كرستينا وأنا ، ثمن وجبة عشاء واحده ، في احدى المطاعم !

أنا لم أشاهد في حياتي كلها ، لارجلاً ولا إمرأة ، من هو أكثر كرماً وأعف نفْساً من كرستينا ! إنه من المتعارف عليه في أمريكا ، ان يدفع الزبائن بدل خدمة للذين يخدمونهم عشرة بالمئة من قيمة فاتورة طعامهم ،أما هي ، فكانت تدفع أحياناً إكرامية للذين يقومون على خدمتنا نصف قيمة ماأكلناه !

هنا تذكرت كريستينا ، ومئات الآلاف من الدولارات ، ومطعمهاوعمارتها والحياة الرافهة الراغدة الباذخة ، التي كنت سأحصل عليها ، لو قبلت الزواج منها ، فابتسمت بمرارة أحرقت وجداني وهزت كياني ودمعت عيناي دماً !

ـ رائع ! وما هي طلباتكم يا عماه ؟! سأل أخي .

ـ طلباتنا بسيطة جداً ومتواضعة ! عمل وليمة ودعوة رجال عشيرتنا ونسائها ، وكذلك وجهاء مدينة السلط ... ذهباً تحلّي به عنقها ، وأساور وخواتم وحلق ، وفستان زواج وكنادر وملابس داخلية وخارجية لها ، ثم "مدرقة" لجدتها و"خلقة" لأمها ومثلها واحدة لعمتها ، وفستان لأختها وكندرة لأختها الثانية ، ومشّاية لخالتها ، أما أخوها فهو بحاجة إلى "حطّة وعقال" ، بينما يكتفي هو "بقمباز و "دامر" جاكيت " وعباءة لنفسه ! قال لافضّ فوه !

كانت هذه هي طلباته البسيطة والمتواضعة بالنسبة "للمِتقدم" من مهر العروس ! أمّا "متأخرها"، فمقداره خمسمائة دينار !

وهنا تذكرت قول سيد الأنبياء ، نبينا العظيم " أكرم النساء أقلهن مهراً ، وان لم تجدوا ماتقدموه فخاتما من حديد ! "

جمعت ، طرحت ، ضربت وقسّمت ، فوجدت أنني سأحتاج الى عشر سنوات لأسدِّدَ ما سأستدين لهذه الزيجة المباركة ، فعزمت أن أبقى عازبا وأن لا أكمل نصف ديني من بنات وطني ، العالم العربي الكبير !

تذكرت كريستينا وطلبات والديها منّي لأكون زوجا لابنتهما ، فتساءلت "هل نحن المسلمون حقاً أم هم أهل الديانات الأخرى ، الذين يطبقون تعاليم سيدنا محمد" ، والذي قال: "من أعطى في صداق امرأة ملء كفيه سويقاً أو تمراً فقد استحل ! " نعم ، لقد تساءلت وفكرت !

بعد مضي ثلاثة أسابيع على عودتي الى الأردن ، طيّرت برقية بأسم أخي الى جامعتي في كاليفورنيا ، يعلمهم بها ، انه ببالغ الحزن والأسى ، بأنني قد توفيت بحادث سيارة . وكذلك وبنفس الليلة ، كتبت رسالة الى عائلة الهاملتون !

*****

الفصل

بعد عودتنا ، محبطين مخذولين ، أخي وأنا ، منزل والد الفتاة التي تحمل شهادة "توجيهي"راسب ، وراتب العشرين ديناراً شهرياً ، يقتطعون منه قرشين ونصف بدل طوابع ... ذات الحسب والنسب ... شعرت فجأة بتأنيب ضمير موجع ، ممزقٍ ومحرقٍ ! لقد أحسست بأنني أكاد أختنق من شدة الحزن والندم ! لقد شعرت بأنني ارتكبت جريمة نكراء لاتغتفر بحق كرستينا وكذلك بحق نفسي !

لقد شعرت وكأنما إنساناً يمزق أحشائى بسكين ذات أشفارٍنارية ، وأن حمماً من نار جهنم وقذائف من صقر تشتعل بداخلي وتحرق دمي وكل كياني ! لقد راودتني فكرة العودة الى امريكا ، والسجود عند قدمي كرستينا ، وأن أعلمها بأنني خدعتها وغدرت بها ، وأنني نادم اشد الندم ، وأشعر بخستي ونذالتي وزيفي أيضاً !لقد أتيت لأطلب مسامحتها وغفرانها ، لعلها ، تسامحني وتغفر لي ، لأريح ضميري ! ولكن رجولتي وكبريائي وكذلك كرامتي المصنوعة جميعها من بيت العنكبوت ، رفضت عليّ ذلك !

إنني وتحت هذه الأرهاصات النفسية الممزِقة والتوهان المدمر ، خطر على بالي فجأة ، أبونا الخوري أيوب ! لقدشعرت بأنني افتقدته حتى النخاع ، وأنني بحاجة ماسة الى نصائحه وحكمه ومواعظه ، وكذلك بحاجة الى جرأته وحزمه وشجاعته !

إنتهت آخر محاضرة عندي هذا اليوم ، الساعة الثانية ظهراً ، فركبت أحد الأتوبيسات العمومية ، التي تنقل طلبة الجامعة بين السلط والجامعة !لقد رأيت الفرحة على وجوه الطلاب الذين ادرّسهم ، حتى ان اكثر من واحد منهم رجاني أن أقبل دعوته على الغداء ، ولكنني اعتذرت بحجة أنني ذاهب لكي البّي دعوة الغداء !

منذ ان فكرت بزيارة ابونا الخوري أيوب يوم أمس ، لم يخطر على بالي أن أسأل نفسي ، ان كان الرجل مازال حيّاً يرزق ، بعد كل هذه السنوات الطويلة من الفراق أم أنه تحت الثرى !لقد خطرت الفكرة على بالي فقط ، بعد ان نزلت من الأتوبيس وتوجهت الى حيث منزله !

لقد كنت وأنا أسيرنحوالمنزل ، أشعر بإحباطٍ شديد ممزق !لقد افتقدت كرستينا حتى النخاع ، وشعرت بأنني أكاد أختنق من شدة اشتياقي لها ! لقد افتقدت ضماتها وعناقهاوتدليلها لي ، وكذلك افتقدت كرمها وسخائها ! إن أكثر ماافتقدته هو وفائها وإخلاصها وصدقها وتفانيها ! كم أنا نادم وحزين على فراقها وتركي لها !إنني أشعر بنارٍتلتهم أحشائي !

لم يخيب الله رجائي ، إذ حلما وقفت امام باب صورالبيت الكبير والغير مغلق ، ونظرت مكان الجلوس الواقع الى جانب باب البيت ، والمسطفة عليه مجموعة من الكراسي الخشبية المهترء ة ، حتى رأيته جالساً ! أبونا الخوري أيوب بدمه ولحمه ! انني أكاد أقسم بأنه نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه عند زيارتي له قبل سنواتٍ عديدة ! لقد لاحظت بأن حجمه قد صغر كثيراً حتى أصبح بحجم طفلٍ ضعير ، وان الشعر الأبيض قد غطى رأسه وكل وجهه !

لقد كانت نظارات بيضاء مدورة مصنوعة من الحديد الرخيص فوق عينيه ، ذات شكل غريب وعجيب ، مما جعله يبدو لي وكأنما هو ثعلب يتأملك ، قبل ان يطلق ساقيه للريح ويولي الأدبار ! سرت حتى وصلت أمام درجات المكان الذي يجلس عليه ، فوقفت وقلت بصوتٍ عالٍ حرّقه الشوق ومزّقه الألم !

ـ السلام عليكم يا أبونا الخوري ! كيف حالك ياوالدي ؟ ! ان شاء الله انك بعافية وخيروسعادة من الله تعالى !

ـ وعليكم السلام وررحمة الله وبركاته ! تفضل ياولدي ! قالها بصوت منخفض وكانما يأتي من أعماق القبور ، مما أدمى قلبي واحرق وجداني !

صعدت الدرجات الأسمنتية الثلاثة ، وسرت حتى وقفت أمامه فأحنيت قامتي ، باحترام وهيبة ، ونظرت الى وجهه ثم مددت له يدي . لم ينهض الرجل من جلسته وانما مد يده اليمنى وهو يقول :

ـ أرجوك ان لا تؤاخذني يابني ، إذ أنني عاجز عن الوقوف !

ـ لاتزعج نفسك ياأبتاه ، فأنا مدرك ذلك . قلت بعد أن أحنيت قامتي لتصل الى جسمه الصغير! قلت وقد عانقت يدي اليمنى يده ، وبيدي اليسرى عانقت ظهره ، ثم ضممته الى صدري بشوق ولهفة ، ثم قبلته بعد ذلك على رأسه ، وقلت بعد أن لاحظت انه كان يحدق بي بجهد شديد !! لاشك انه كان يحاول جاهداً أن يتذكر من أكون !

ـ ما اسعدني أن أراك ثانية يا ابتاه ! لقد تغيرت كثيراً وهزل جسمك ! لقدزرتك هنا قبل عدة سنوات ؛ أنا ابن أخيك ، عبد الله أبو جوهر ، فهل تتذكرني؟!

إنفجر الرجل يبكي بحرقة ولوعة احرقتا دمي وفتتا كبدي ، ولم أجد نفسي إلا وأنا اشاركه البكاء والتفجع ، ولكن بصوت أعلى من صوته وبحرقة اشد من ألمه !

ـ أين كنت كل هذه السنين الطويلة ؟! لقد ظننت انك عندما زرتني ، انني سأظل اشاهدك وباستمرا لأعوض رؤيتك عن غياب أخي المرحوم والدك ! لقدافتقدك كثيراً ، حتى كنت اشعر احياناً بالاختناق ! لقد أعلمني يوسف بأنه عرف من أحد اصدقاءكما بأنك سافرت الى امريكا لأكمال دراستك ! قال الرجل من بين دموعه ونشيجه ، وهو يقبلني عل خدّي ورأسي ، ويستنشق أرومة جسمي ، وكانما أنا حقاً ابنه الذي انحدر من صلبه !

ـ وأين يوسف الآن ، يا ابتاه ؟!

ـ انه ضابط كبير في الجيش ، باحدى الكتائب المرابطة في عجلون . انه يسكن غير بعيد من هنا ؛ هو وزوجته وابنه وابنتيه .

ـ ما شاء الله ! لقد اسعدتني والله ، حقاً ! قلت .

ـ لقد كان هنا قبل ليلتين . إنه كلما يأتي الى السلط يمر علينا ليطمئن علي وعلى و1لدته . الله يرضى عليه ويسعده . انه ابن بار وودود ! لو كان يعرف بقدومك لكان حضر الليلة . لاشك ان رؤيتك ساتسعده كثيراً ! قال وهو يكفكف دموعه بظهر يده !

ـ سآتي مرة اخرى ان شاء الله لزيارتك ثم لرؤيته ، اذ انني مشتاق جداً لرؤيته والتحدث اليه . قلت .

بعد ان توقفنا عن التقبيل والعناق وجفف كل منا دموعه بظهر يديه ، أشارعلي ان اجلس على الكرسي الملاصق للكرسي الذي يجلس عليه والذي يقع على شماله وقال :

ـ إجلس وخبرني عما فعلت ، منذ ليلة كنت عندي هنا ، وبالتفصيل . إنني مشتاق جداً لأسمع أخبار إبن أخي الحبيب رحمه الله ، والدك ! لقد كان رجلاً كريماً وشهماً ، لم يحضر لزيارتنا إلا وهو محمل باللحوم والخضروات والفواكه ، وكذلك الجميد والسمن ومما تزرعون ! قالها بتلذذ واستمتاع وكأنما كان يشرب كأس عصير برتقالٍ مثلوج في يوم قائظ !

ـ لقد سافرت الى القاهرة للدراسة ، بعد زيارتي لك بمدة قصيرة ، لأكمال دراستي العليا بها وتخرجت من جامعتها . سافرت بعدها الى امريكا لأكمال دراستي العليا فيها ؛ وفي نفس الجامعة التي درست بها وتخرجت منها ، عينت فيها استاذ علوم سياسية .

ـ ماشاء الله ! لقد افرحت قلبي يابني حقاً ! لا شك أن والدك سعيد في قبره وهو يرى انجازاتك العظيمه .

ـ لقد تعرفت على فتاة يهودية تعمل في مكتبة الجامعة فأحببنا بعضاً ! انها تتمتع بأخلاق عالية جداً ، ذات جمال باهر وثقافية متميزة ، تكاد تذوب رقة ونعومة ، تصغرني بعامين !! لم اذكر أنها طلبت مني ان اقوم لها بأية خدمة ! كانت دائماً هي التي تقوم على خدمتي ، وتؤكد لي سعادتها عندما تنفذ لي رغبة أوتقوم بأية خدمة ! قلت .

ـ لقد سمعت بأن المرأة الغربية اذا أحبت حقاً ، فأنها تتفانى في حب رجلها ! قال .

ـ هذا صحيح يا أبتاه !لقدكان جلى همها هو راحتي وإسعادي ! كانت تعاملني وتتودد الي كما تفعل الأم مع صغيرها ! لقد اشترى لنا والدها منزلاً فخماً وسيارتين فارهتين وكذلك مطعماً ، وكنا نعيش حية بذخ وترف ، كالحياة التي يعيشها اغنياء أمريكا ومترفيها ! كنا نعيش شهر عسلٍ متواصل ! لقد قبلت أن تعتنق الدين الأسلامي اذا وافقت على الزواج منها ، وأن ننشيء اولادنا حسب الشريعة الأسلامية ! قلت والألم يبدد كبدي !

ـ بارك الله بها ؛ هذا هو الحب الحقيقي ! قال وهو يحدق بي بعينيه الكليلتين !

ـ لقد أعلمتها كاذباً ومخادعاً ، بأنني سأسافر الى الأردن لقضاء شهر أزور به عائلتي ، ثم أعود فنتزوج ! ولما سألتني لم لا اسطحبها معي حتى تتعرف على عائلتي وكذلك هم يتعرفون عليها ، أعلمتها بأن ذلك سيسبب لي إحراجاً شديدا بسبب العداوة بين العرب واليهود ، فأقتنعت .

ـ هذا صحيح ، معك كل الحق ! قال وهو يهز رأسه الى أعلى وأسفل .

ـ ارسلت لها برقية بعد وصولي الى الأردن باسبوعين باسم أخي ، أعلمتها بها بأنني قد توفيت بحادث سيارة ! لقد حزنتْ حزنًا شديداً ، و إنها تلبس الآن ملابس الحداد ، كما أعلمني بعض الأصدقاء الذين اعلمتهم مسبقاً عما كنت أنوي فعله ! قلت .

ـ ولم فعلت ذلك ؟! سأل باشمئزاز ممزوج بالغضب ، وقد عبس وجهه وضيّق مأبين حاجبيه !

ـ لقد فعلته إخلاصاً وحباً في العروبة والإسلام ! قلت ذلك وكنت أتوقع من أبينا الخوري ان يثني علي ويأخذني بالأحضان ، وأن يعلمني بأن تصرفي كان بطولياً ، اذ ان شباب العرب والمسلمين في هذه الأيام قليلون بل نادرون !

ليتني لم أخبر قصتي لأبينا الخوري ! لقد ندمت ندماً شديداً ، حتى احترق العظم مني ! لقد انتفخت أوداجه وإحمرت عيناه وصار جسمه يرتجف ! لقد صار الرجل يبكي وينوح ، فلم اجد نفسي إلا وانا اشاركه البكاء !

لقد خفت ان تفارق الرجل روحه وان يموت بين يدي ، لحرارة ندبه ولشدة توجعه وكذلك لغزارة دموعه وارتفاع صوته !لقد خشيت ان يفزع علينا الجيران او احداً من داخل البيت !

لقد كنت طيلة الوقت إشارك أبونا الخوري البكاء والنواح ، وبعد مدة ليست بالقصيرة توقف فتوقفت انا أيضاً ؛ وبعد ان مسح دموعه بظهر يده ، قال :

ـ ليتك لم تخبرني يابن أخي ، بقصة تلك الفتاة العظيمة والنادرة ، والتي تخلت عن أهلها وديانتها حباً لك وتضحية من اجلك ! لقد حطمت قلبها ووأدت أحلامها ودمرت حياتها ! وبعد ان شرب رشفة من كأس الماء الذي كان موضوعاً امامه ، اضاف :

ـ إنك لم تسيء الى نفسك فقط ، ولم تسيء الى الدين الأسلامي وحده ، و كذلك لم تسيء الى العروبة ، وانما اسأت الى الذات الألهية نفسها ! لقد احتقرتها وسخرت منها ! قال بغضب لاهب !

لقد اقشعربدني وتجمد الدم في عروقي ووقف شعر رأسي ثم نزلت دموعي مدراراً !

وسألته شبه محتداً !

ـ ولم تقول هذا يا أبانا الخوري ؟ ! أنا ضحيت بسعادتي من أجل معتقدي الديني والعربي ! قلت بحدة وشبه عاتب !

ـ صدقني يابني ان مافعلته هو ضد معتقدك العربي والديني ! قال وهو يبصق الكلمات بصقاً ! وبعد ان استراح قليلاً اضاف :

ـ إن الخالق سبحانه وتعالى ، لم ينتظر حتى وفاتك ليدخلك جنة خلده ، وانما ادخلك اياها في هذه الدنيا ! لقد زوجك بواحدة من الحور العين كأمثال الؤلؤ المكنون ؛ وأعطاك كل ماتحب ان تأكل وتشتهي ، فرفضته ، لأنك تريد أن تتزوج من بنات وطنك !

ـ صدقت يا ابانا الخوري ؛ هذا هو السبب ! قلت وقد شعرت ان بعضاً من الهموم قد انقشعت عن صدري ! قلت فرحاً ، ثم تابعت :

ـ إن حب مدينة السلط معشعش في أحشائي وفي ضميري ووجداني ! أن لي فيها ذكريات عزيزة وغالية ! إنها ، وأقسم لك ، لم تفارق وجداني طيلة وجودي في بلاد الغربة ؛ انها جزء مني ! اريد ان اتزوج من احدى غزالاتها وماجداتها ! قلت بصدق وحماس شديدين؛ ثم أضفت :

ـ لقد خطبت فتاة من هنا ، من مدينة السلط الحبيبة ! لقد اعلمنا والدها بأنها انهت الدراسة الثانوية العامة ، ولكنها رسبت بالتوجيهي ! انها تشتغل في الحكومة وراتبها الشهري عشرون ديناراً ، يحسمون منه بدل طوابع قرشين ونصف ! لقد طلب لها جهازاً احتاج لسنوات طويلة طويلة حتى أستطيع ان اقوم بسداده ! قلت .

ـ يبدو لي، ياابن أخي، انك عاشق فقر ومسغبة ، ومدمن تعاسة ومعاناة ، وإلا لما كنت فكرت بالزواج من الجهل والفقر، وفضلتهما على الغنى والترف ! أفق ياابن أخي من سباتك ، وإنعم بما تكرم به الخالق عليك ! قال بحدة وغضب !وبعد ان عدّل عمامته واستراح قليلاً أضاف :

ـ لاشك انك اشتقت الى روث الحميروشخاخ البغال ولطع البقر ؛ وافتقدت صنة مزابل مدينة السلط ! صدقني ان حاملة التوجيهي راسب ، تستحم مرة بالشهر ، وان رائحتها بالصيف اشد من رائحة الضربان ! قال بغضب !

كنت طيلة الوقت الذي يتكلم به ابونا الخوري ايوب اتمزق حزناً والماً لما يقول ، وكانت عيناي تذرفان الدمع الغزير ، ندماً وتوجعاً لما اسمع ! إنه عندما ذكر رائحة الضربان ، لم اجد نفسي إلا وانا أنفجر في ضحك شديد ! ان ماقاله ابونا الخوري كان صحيحاً ! لقد تذكرت الآن ، انه عندما دخلت الصبية لتسلم علينا ، كانت ترتدي فستاناً فضفاضاً ، تنبعث منه رائحة تكتم الأنفاس ! لقد استغربت ذلك جداً ، خصوصاً ونحن في فصل الصيف شديد الحرارة !

ابتسم هو لضحكتي ؛ وعندما توقف عن الضحك سألته :

ـ وماذا تنصحني ان أفعل ، ياأبتاه ؟ !

ـ لا يوجد في رأيي الا حل واحد فقط ؛ وهو بعد ان تطلب السماح والمغفرة من رب العباد ، لأنك كفرت بنعمته وأنكرت فضائله ؛ هو أن تركب أول طائرة مسافرة الى أمريكا ، ثم تذهب ال تلك الفتاة وتطلب مسامحتها ! انني اعتقد جازماً بأنها ستسامحك ! ان فتاة بتلك المواصفات المتميزة ذات قلب حنون وعقل كبير ! قال ذلك وضرب قبضة يده بالهواء ليؤكد مقولته !

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك ياابتاه ! انني سأفجع والدتي وأخي وأخواتي ، وقد اتسبب بوفاة والدتي حزناً ! قلت بألم بالغ وقلب دامي !

لا إلاه إلاالله ! حقاً ، انه رب يعبد ! إنني ما كدت انتهي من جملتي حتى رأيت سيار عسكرية " لاند روفر" تدخل من باب البوابة الكبيرة ، وكأنما كانت تنتظرحتى أكمل جملتي !

توقفت السيارة غير بعيدة منا ، ونزل منها ضابط يرتدي الملابس العسكرية الصيفية ، يزين كتفيه تاج فضي ، ترقد الى جانبه نجمتان ، وعلى صدره بعض الأوسمة والنياشين !

ـ كيف حالك ياوالدي ؟ ! أرجو أن تكون بخير! ارى عندك ضيفاً ، فهل قدمت له شيئاً ؟ !

ـ لا يا ولدي ! لقد انساني الحديث ذلك ، ثم لا احد اتى من داخل البيت ! قال بصوت راجف خجل !

هنا التقت عيوننا ، فميّز كل واحد منا الآخر ، فتعانقنا عناقاً حاراً ؛ وبعد تبادل العديد من الأسئلة عن الصحة والأحوال تقدم الرجل وقبّل يد والده اليمنى ثلاث مرات وبحرارة ووضعها على جبينه ، بعد كل قبلة ، ثم سأل :

ـ لِم لمْ تضّيف سهيلاً شيئاً ، يا أبي ؟ !

ـ لقد فاجأني ابن أخي بزيارته قبل حوالي ساعة ، وانشغلنا بالحديث ، كما ان امك لم تأت من الداخل لتحضر لن شيئاً نأكله او نشربه !

ـ صدقاً ، أنا لست جائعاً ، فرؤية الوالد الحبيب ، تشبع المعدة وتروي ضمأ الروح !! قلت غير صادق !

الحقيقة إنني ومنذ أن حضرت أشعربأن معدتي تأكل بعضها بعضاً ! انني لم آكل شيئاً منذ ان تناولت طعام الأفطار ، صباح هذا اليوم !

استأذن يوسف منا وركب سيارته وانصرف ، فلم يغب طويلاً ، عاد بعدها يحمل كيساً مملوء بساندويشات الفلافل ! لقد كانت هي الساندويشات الوحيدة المعروفه في ذلك الوقت ! قال بأن هذه وجبة خفيفة لسد الرمق !

لقد حدثته عن حياتي وماذا فعلت بعد ان افترقنا قبل اكثرمن عشر سنوات ، ولكنني لم اذكرله شيئا عن كرستينا ! كذلك حدثني هوعن حياته ، فأعلمني بأنه الآن هو قائد كتيبة في الجيش ، ويطمع ان يترقى قريباً ليكون قائد فرقة !

سألني ان كنت قد تزوجت وكونت عائلة في امريكا ، ولما اعلمته بأنني اريد أن اتزوج من احدى غزالات السلط، لأن حب المدينة معشعش في احشائي ! وقصصت عليه قصتي مع صاحبة الراتب العشرين ديناراً ، والذي يحسم منه فقط قرشين ونصف بدل طوابع ! وبعد ان ضحك طويلاً قال :

ـ سا محك الله ياصديقي ! لقد كنت أظنك أكثرنضوجاً ! لقد تركت بنات امريكا الجميلات الناعمات ، واللواتي الزواج بواحدة منهن لا يكلفك دوراً ، وعدت الى السلط

لتتزوج من بناتها ، ولتقضي عمرك وانت تسدد ماعليك من ديون ؟! !لقد ظننتك اذكى من ذلك وأبعد نظراً !

إكتفيت بابتسامة باهتة ولم أعلق على ماقال !

بعد حوالي الساعتين قضيناهما بالحديث في شتى المواضيع ، ودعنا يوسف وأنا ، ابانا الخوري ، وركبنا سيارة "اللاند روفر" وتوجهنا الى عمان !

دخلنا مطعمًا في عمان متخصص في تقديم المشاوي ، فاكلنا اللحوم اللذيذة والسلطات الفاخرة ، وختمنا وجبتنا ، بصحنٍ ضخم ولذيذ من الكنافة النابلسية !

بعد العشاء اوصلني يوسف الى منزلنا ، بعد ان اعلمني بانه سيأتي الى بيتنا ، ظهريوم الجمعة ، لياخذني الى بيهم ، حيث انه يريد أن يعمل وليمة كبيرة على شرفي ، يدعو اليها بعض الأصدقاء والمعارف ، وكذلك ليعرفني على زوجته واولاده !

*****

الفصـــــــــــل

حضرت عائلة الهاملتون الى الأردن صيف العام التالي ، وقضت شهراً كاملاً استمتعت بما تحويه الأردن وسوريا ولبنان من متع جسديه وعقلية وجمالية !

لقد شاهدوا كل مافي الأردن من آثار ، واستمتعوا بمناظرها الخلابة واطايب طعامها ، وسعدوا بكرم ومحبة وكذلك بدفىء اهلها ! كما امضينا ، هم وانا ، اسبوعين كاملين متنقلين بين ربوع سورياولبنان الحبيبتين ، وشاهدنا كل مافي هذين البلدين الرائعين والمتميزين بما فيهما من آثار وجمال وطعام !

لقد ذكّرتني لوشنتا ، بأنني وعدتهم بأننا سنزور أبونا الخوري ، عندما يأتون الى الأردن ، فأعلمتها ، والحزن يمزقني ، بأنه انتقل الى رحمة الله تعالى ، قبل حضورهم الي الأردن بحوالي شهر !

لقد رجتني اختي لوشنتا وكذلك فعل زوجها وفعلت ابنتهما ، ان نأتي الى امريكا صيف العام القادم ، زوجتي وانا ، ونكون في ضيافتهم ، حيث انهم سيتكفلون بجميع مصاريف اقامتنا !

لقد وعدتهم خيراً ، وان كنت عازماً ان لا افعل ! انني اريد ان اتجنب ، وبكل طاقاتي ، زيارة امريكا ، هرباً من الذكريات السعيدة والمحزنة ايضاً !

انقضى الصيف القادم وتبعه الثاني والثالث والرابع وكذلك تبعه الخامس ، وانا اعدهم دون ان البيّ الدعوة ، بأن عندنا طفلة وان زوجتي حامل ، وان كانت الرسائل بيننا لم تنقطع ! لقد اقنعتهم صيف العام السادس ان يقوموا هم بزيارتنا ففعلوا ، اذ انهم سعدوا هذه المرة اكثر من السابق ، لأنهم اختاروا زيارة الأماكن التي نالت اعجابهم اكثر ، خصوصاً وهم الآن يعرفونها !

صيف العام الثامن على عودتي من امريكا الى الأردن فقط ، شعرت بأن عندي القوة والمناعة بأن اتحكم بعواطفي وان اقاوم زخم الذكريات التي تجتاحني ،

فقد قررت زيارة امريكا ! لقد شعرت وقتها بأنني استطيع ان اتغلب على ضعفي وان اهزم ترددي ، وكذلك اتجاهل ذكرياتي !

وبما أنني من حملة البطاقة الخضراء ، فقد كانّ من السهل علي ان احصل على تأشيرة دخول الى امريكا لزوجتي نعمت ولأبنتي هزار وابني فراس ! لقد فرحت زوجتي فرحاً عظيماً ، حيث انها تستطيع ان ترى الجامعة التي تخرّج منها زوجها ودرّس بها ، وكذلك تتعرف على اصدقاءه ومريديه ، كما تستطيع ان ترى العالم الجديد ، وتتسوق من متاجره الفخمة والمتميزة !

لقد اعلمتها بعض صديقاتها اللواتي زرن امريكا عن فخامة وروعة وكذلك ابهة المحلات التجارية عن متعة التسوق ووجود الماركات المتميزة بها ، وكذلك غرابة وتفوق محلات الأكل ولذة طعامها ! وكذلك حدثنها عن اشياء كثيرة اخرى !!

اما الأبناء ، فقد كانوا في غاية السرور والسعادة ، فقد اعلما اترابهما بأنهما سيقضيان العطلة الصيفية بين عجائب وغرائب " دزني لاند " وجنائن الحيوانات وكذلك مطاعم " ماكدونلد "و"بيرقر كنق " التي طالما سمعوا عنها وحلموا بها !

كانت زوجتي والأولاد في قمة سعادتهم عندما وضعنا انفسنا في سيارة صديقي الشهم فهمي عبد الحميد ، الذي اصرّ مشكوراً على ان لانأخذ سيارة اجرة ، بل يوصلنا هو بنفسه وبسيارته الى مطار " ماركا " في عمان !

لقد ركبنا الخطوط الجوية الأردنية وتوجهنا الى بيروت لننام بها ليلة واحدة فقط ، ثم صباح اليوم التالي نركب الخطوط الجوية البريطانية الى لندن ، ننام بها ليلة ثانية ثم نقلع بعدها الى نيويورك ، ثم الى لوس انجلوس !

غادرنا مطار بيروت الدولي الى الفندق بحدود الساعة العاشرة صباحاً ، واثناء الحديث الشيق والممتع مع سائق سيارة الأجرة التي اقلتنا من المطار الى الفندق ، رجانا السائق ان نكون ضيوفه وان نقضي طيلة النهار سوية ، ليرينا الأماكن الممتعة في بيروت ومدن الجبل ، تلك الأماكن التي يأتي اليها زوار لبنان ومحبيه ، من عرب واجانب ، للأستماع بجمالها ، ولقضاء اوقاتاً سعيدة في ربوعها واحضانها ! حقاً ، يالها من ضيافة شيقة وممتعة ! لقد شاهدنا شواطيء بيروت الرائعة ، وصعد بنا الرجل الشهم الى الجبل ، حيث شاهدنا جميع الأماكن والمناظر الخلابة الساحرة ؛ حمدون وعاليه ، وتغدينا بضهور الشوير ، ثم تعشينا على شاطيء البحر في بيروت ، حيث اكلنا السمك اللذيذ ! اما في المساء فقد تمشينا في ساحة البرج ، حيث استعدت ذكرياتي قبل ان اسافر الى امريكا عندما كنت آتي الى لبنان حاجاً ومتعبداً كلما سنحت لي الظروف !

لقد تمنى الرجل وتمنينا نحن أيضاً ، لو كان هناك يوم آخر ، لأخذنا مضيفنا الى الشمال حيث أرانا مدينة طرابلس وبعض المدن الأخرى ، فوعدناه بأننا سنفعل ان شاء الله ، عند عودتنا من امريكا ! لقد كتب لنا الرجل الشهم عنوان بيته ورقم هاتفهم !

حقاً ؛ لقد كان الرجل كريماً وشهماً الى ابعد الحدود ، فقد تعامل معنا وكأنما نحن أصدقاء اعزاء ، ومنذ زمن بعيد ! ان المبلغ الذي طلبه كان بالكاد يغطي ثمن وقود

السيارة ، ولكنني اصررت على مضاعفته ، رغم تمنع الرجل عن القبول ! لقد غمرنا مضيفنا ، السيد اديب كرم ، بسيل زاخر من المحبة والأحترام ، حتى شعرنا وكأنما نحن اصدقاء حميمين منذ زمن طويل ، بل وأهل مقربين ! لاعجب ان يصدر هذا التصرف الرائع عن انسان لبناني شعبه مشهور بالكرم والمحبة والشهامة ايضاً !

بعد ان وضعت أم فراس الطفلين في الفراش ، جلسنا نحن الأثنين في شرفة الغرفة نستنشق هواء الليل المنعش ، يداعب شعرنا ويدغدغ وجوهنا نسائمه الرطبة ، كما وكنا نمتع انظارنا بالأنوار الممتدة أمامنا على طول ساحل مدينة بيروت الذي يعانق البحر الأبيض المتوسط ! كان امامنا بعض قوارير المرطبات الفارغة والمملوءة أيضاً ؛ اذ انني ومنذ ان عدت الى الوطن ، فأنني لم اذق للخمر طعماً ، حتى ولا كأساً من البيرة اطفيء بها حر الصيف اللافح ، فعائلتنا كلها متعصبة ضد تناول الكحول بجميع انواعها ، دينياً واحتماعيا ! أن مركزي الأكاديمي والأجتماعي ، كأستاذ جامعي محترم ومتميز ، لايسمح لي بتعاطي الكحول ! أما التدخين فرأيي به كرأي سيدنا مالك بالخمر !

يبدو ان جمال الطبيعة الخلاب الساحر الذي شاهدناه طيلة هذا اليوم ، وكذلك سحر الليل وروعة المكان وشاعرية الجلسة ، قد اجّجت عواطف زوجتي واطلقت لسانها ، اذ صارت تتكلم دون ضابط ولا رابط ! لقد صارت تشرق تفلسف تارة وتغرب تارات ! وقالت بحماس واريحية :

ـ لقد سمعت الكثير عن جمال وكرم اهل لبنان وطيبة قلوبهم وكذلك عن دماثة اخلاقهم ، ولكنني لم اكن اتصور ان يكونوا بهذا الشكل الرائع والمميز ! حقاً ، الوصف غير الرؤيا ، اذ عندما يتكلم الرجل معك او المرأة ، تشعر وكأنما هو صديق حميم لك تعرفه منذ الطفولة ؛ اما عندما يقدم لك خدمة ، فتشعر وكأنما يرجوك بل ويلح عليك بالرجاء ان يقدم اليك خدمة اخرى !

قلت وأنا اكثرمنها حماساً واريحية ؛

ـ إن للبنان إسماً آخر ياحبيبتي ؛ هو " سويسرا العرب !" وذلك لأن سويسرا تعتبر أجمل بلد في اوروبا ، واهلها ارقى من جميع سكان اوروبا ؛ وبما ان لبنان يتمتع بهاتين الصفتين المتميزتين الرائعتين ، فأنهم يطلقون عليه بلد الأشعاع الفكري ، لعظمة مفكريه وعظمة ابداعاتهم الأدبية ! "ـ لاعجب ! أن كل المناطر التي شاهدناها ، وجميع الناس الذين تحدثنا اليهم ، او قاموا على خدمتنا ، كانوا متمييزين جداً ولم اقابل من هو مثلهم من قبل ! قالت زوجتي بحماس والبهجة تغمر وجهها ! ـ إنني وبعد تخرجي من مدرسة السلط الثانوية ، تمنيت لو انني استطيع ان اكمل دراستي الجامعية هنا ، في الجامعة الأمريكية ؛ ولكن امكانياتي المادية المتواضعة حالت دون ذلك ، فذهبت الى مصر حيث حصلت على منحة دراسية ؛ كما ان الحياة في مصر رخيصة جداً ! وبعد ان تمهلت قليلاً أضفت :

ـ إنني ، وحالما صممت العودة الى الأردن من امريكا ، تمنيت لو انني أستطيع الحصول على وظيفة استاذ في الجامعة الأمريكية ، ولكنني اعرف ان ذلك صعب جداً ، وذلك بسبب المنافسة الشديدة ! قلت.

ـ ليتنا نستطيع ان نعيش هنا ، ان كل بقعة في منتهى الروعة والجمال ! قالت .

ـ سأعمل كل ما بوسعي ان نقضي عطلة الصيف القادم هنا ! قلت .

ـ ياليت ! قالت ذلك وحملت قارورتي العصير الفارغتين ودخلت الى الغرفة لتحضر منها اثنتين مملوءتين ، بدلاً منهما ؛ وعندما عادت وضعت امام كل منا قارورته ، فقلت انا بشوق وحماس ملتهبين ؛

ـ دعيني اخبرك شيئاً مهماً جداً عن وطنية وشهامة وكرم وكذلك سمو اخقلاق اهل لبنان ؛ عندما كان بعض حكّام العرب الطغاة ، في المشرق العربي ومغربه أيضاً ، يقمعون الأحرار من مواطنيهم ويلقون بهم في غياهب السجون ، كان الذي يفلت من زبانية الحاكم ، لا يجد من بلد يلجأ اليه من بطش الحاكم الا لبنان ! لقد كان يعطيه مسكناً وطعاماً ، هو وافراد عائلته ! انه بلد الحرية واليمقراطية ؛ بلد الرجولة والبطولة والشهامة والكرم ! انه عرين الحرية والديمقراطية ! بلد الشهامة والرجولة والفداء ! انه مركز الأشعاع العلمي والفكري ! بلد الأصالة والعظمة والجمال ! قلت بحماس متوقد !

ـ حقاً ، انه بلد متميز ! قالت زوجتي .

ـ كنت كلما سمحت لي الظروف ، وحتى وأنا طالب في جامعة القاهرة ، لا اترك مناسبة تمضي الاوآتي بها لزيارة لبنان ، حتى ولو كانت عطلة نهاية الأسبوع ! أشعر بالسعادة وانا اتمشى في ساحة البرج وشارع الحمراء ! احب ان اجلس في مقاهي ، عاليه وبحمدون وبرمانا ، واسبح على شواطيء البحر وآكل السمك المشوي والمقلي هناك ! لقد قرأت كل ماكتبه جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومي زيادة وغيرهم الكثيرين ، من جهابذة الفكر اللبناني ، قبل حتى ان ابلغ الرابعة عشر من عمري ! إنه وبسبب اصطخاب عواطفي وتأجج مشاعري أضفت وبحماس ؛

ـ انني والله ياحبيبتي ، حالما تطأ قدماي ارض لبنان الحبيب ، حتى واشعر وكأنما انتهيت لتوي من احتساء قارورة نبيذ معتق كاملة ، فأحس بسعادة روحية تغرق كل كياني بل ووجودي ! إن امتع الأوقات عندي هي عندما ارى الحسناوات اللبنانيات وهن يرتدين ملابسهن الشفافة الناعمة ، يسبقهن اريج عطورهن المثير الفاغم ، يتمخطرن برشاقة وانوثة متأججة ، او وهن يقدمن لك خدماتهن في المطاعم او في المقاهي ، او في المحلات التجارية ، فتشعر وكأنما يرجونك بل ويلححن عليك ان تأخذهن الى الفراش ! ان هذا البذخ العاطفي والزخم الجمالي لايتواجد لافي الأردن ولا في مصر ، ولا في ايّ بلد من بلدان العربي الكبير ؛ وذلك بسبب التأخر الأجتماعي والتعصب الديني !

عندما نطقت آخر كلمة ؛ نعم آخر كلمة ؛ شعرت ويالهول ماشعرت ! لقد شعرت بأنني لست احمقاً فقط ، ولا ابلهاً وغبياً فقط ، وانما متخلفاً ومعتوهاً ايضاً ! لقد ارتكبت خطأً فادحاً ، بل وجريمة نكراء لن تعفرها الا رحمة السماء ! يالي من مأفون حقاً !

ـ ولماذا تزوجتني إذن ؟ ! ولمَ لمْ تتزوج واحدة منهن ؟ ! قالت زوجتي بحدة قاسية وغضب متقد ، وقد اشتعل وجهها وامرّت اذناها ، نهضت بعدها وتركتني مبهوتاً مخذولاً ، ثم دخلت غرفة النوم على عجل !

لاادري كم بقيت مصلوباً فوق الكرسي ، اعضّ بنان الندم ، يتمزق وجداني قهراً واحباطاً ، على تصرفي الصبياني الأرعن ، غير المبرر وغير الملتزم !

بعد انقضاء حوالي الساعة على القاء خطبتي العصماء ، القيتها على نفسي تقريعاً وتأنيباً ، نهضت ولحقت بزوجتي الى غرفة النوم ، فوجدت انها كانت نائمة ومعطية اياي ظهرها ، فنمت الى جانبها واعطيتها انا كذلك ظهري !

الفصـــــــــــل

منذ ان ابتعنا تذاكر الطائر ، بل ومنذ ان صممنا على السفر الى امريكا ، وانا اشعر بانقباض شديد في صدري وبخوف مزلز في قلبي وكل كياني ! كنت هيّاب ؛ مرعوب ؛ مقموع ؛ تماماً كالجندي الغر الجبان الذي يدخل المعركة لأول مرة ليقاتل خصمه وبالسلاح الأبيض ، وجهاً لوجه ! كنت دائماً اسأل نفسي واتساءل ؛ لم انا خائف ، وممن انا مرعوب ؟ ! واخيراً وجدتها ؛ نعم وجدتها " يوريكا " ! انا خائف ان اسافر الى امريكا واقابل كرستينا ! نعم ، كرستينا ! كرستينا التي التي لا اخت لها في هذا العالم بالوفاء والتضحية ونكران الذات ! كرستينا التي سيظل عشقها مزروع في كل ذرة من كياني !

آه ياكرستيا ! يادمعة على خد الزمن ! يا إعجوبة القرن العشرين ! يانبع العطاء والمحبة والطهر والوفاء ! يا إحدى عجائب العالم السبع ! يا لا أخت لها في عالمنا هذا ! يانبع الطهر والتضحية والكبرياء ! " والله والله ، لو ذهبت الى كل بقعة في هذ العالم ،لما وجدت به من تضاهيكِ كرماً وطيبة قلب !

زينون ! قل للشمس لاتغرب وللأرض اسجدي ! زينون ! زينوووون ... ! "

عندما وصلنا اجواء لوس انجلوس وبدأت الطائرة بالهبوط التدريجي نحو المطار ، اصابتني سخونة محرقة ممزوجة ببردية مجمدة ، صار جسمي يرتجف على اثرها ، وصارت اسناني تضربربعضها البعض ! كانت وكانما هي مطحنة تجرش الحجارة ، مما جعل ابني الجالس على يميني يسألني مابي ! لقد اعلمته ان شدة وكثافة برودة التكييف بالطائرة ، وكذلك ارتدائي للملا الصيفية الخفيفة جعلاني ارتجف هكذا ! لقد شعرت بعدها بحالة إعياء شديد شديد ، ليس عندي الطاقة حتى للوقوف !

لقد تمنيت ونحن نخرج من باب الطائرة حيث يصطف الموكلون بنقل الركاب العجزة والمقعدين وتوصيلهم الى ذويهم الذين ينتظرونهم عند بوابة المطار ، تمنيت من كل قلبي لو ان واحداً منهم يحملني على احدى العربات ويوصلني الى بوابة الخروج !

هبطت الطائرة بنا في مطار لوس انجلوس الدولي بحدود الساعة الواحدة ظهراً ، ولم نغادرق قاعة المسافرين إلا بعد الساعة الثالثة عصراً بقليل ، وذلك لضخامة عدد القادمين !

كانت عائلة الهاملتون ثلاثتهم باستقبالنا ؛ وبعد تبادل التقبيل والعناق والسؤال عن الصحة والحال والأحوال وكيف كانت الرحلة ؛ ركبنا سيارة كبيرة قادها الزوج . لقد عرفنا فيما بعد ، ان هذه السيارة الكبيرة والفاخرة قد اشتراها الزوجان قبل حضورنا بأيام قليلة حتى تتسع لعائلتينا اثناء تواجدنا في امريكا ، حيث ان كلا سيارتي الزوجين صغيرتين !

ان الذي جلب انتباهنا ، زوجتي وأنا ، هو ان الأبنة لوشنتا قد كبرت في الخمس سنوات الماضية لرؤيتنا لها بشكل اثار استغرابنا ، كما اسعدنا انها اظهرت اهتماما شديداً وكذلك مسؤلية متميزة بولدينا ، هزار وفراس !

كان الفندق الذي حجزت به لنا عائلة الهاملتون ، يبعد اقل من مسافة ميل من بيتهم ، ولم اذكر ان رأيته ايام كنت ازورهم قبل عودتي الى الوطن الحبيب ، اذ لاشك انه بني بغد عودتي . لقد كان حقاً مريحاً جداً والخدمة به رائعة ، كما ان آجاره كان معقولاً بسبب اننا كنا نستأجره اسبوعياً ! غاب عنا مضيفيا حوالي الساعتين استطعنا خلالهما ان نستحم ونبدل ملابسنا ونرتب حاجياتنا في اماكنها ؛ وعندما عادوا ركبنا بعدها بسيارتهم وانطلقنا . لقد المحنا ، زوجتي وانا ، الى مضيفينا اننا نحب ان تكون جولتنا الليلة قصيرة بسبب ارهاقنا من السفر الطويل والشاق ، وأننا بدءً من الغد سنكون مستعدون لجولاتٍ وصولاتٍ طويلة وبعيدة ، ان شاء الله !

لقد أرونا ونحن بالسيارة أماكن كثيرة وممتعة في مدينة سانتا مونيكا وخصوصاً المحلات التجارية المتميزة وذات الشهرة العظيمة كمحلات " بولكس ، روبنسون ، ميسي ، نورث استورم ، ديلر " وغيرهم الكثيرون ؛ وكذلك مطاعم " ماكدونالد " الشهيرة ، حيث اصرّ الأولاد الثلاثة ان يتعشوا بها ! أما نحن الأربعة الكبار ، فتعشينا في احدى المطاعم الفاخرة ، والتي تقدم وجبات الطعام المتميزة والمطلة على المحيط وتركب ماءه !

لقد تمنيت وبكل طاقاتي ، لو استطيع ان اطلب قارورة نبيذ فرنسي ، كالذي كنا نشربه ، مونيكا وأنا ، أيام العصر الذهبي ، يوم كان الرجال رجالاً والنساء خيول مطهمات ، وأن أحتسيها كاملة مع العشاء ؛ ولكن هيهات هيهات ! أن الهاملتون لا يشربون الكحول ويؤذي مشاعرهم ان يشربه احدهم امامهم ، وكذلك فأن زوجتي متعصبة ضدة ، وانا ضعت بين المسموح والممنوع ! !

- انتهت -

للمؤلف

1- في بلاد السمن والعسل رواية
2- تيه البروفيسور دهشان رواية
3- فبكت وبكيت رواية
4- كريستينا ... الحب المُحرّم ! رواية

باللغة الإنجليزية:

1 - Beads of Memory Triology

2- August Rain Novel

3- The Sucide of my Taboos (Novel or) Elizabeth!

4- ِِ Novel A Teardrop On The Cheek Of Destiny ...Celest!

*****

للتواصل مع المؤلف على البريد الإلكتروني:

majidabujohar@yahoo.com